أعلام المؤرخين

إعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

tokoboko_5@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعًا وعدله اصطناعًا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهًا تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون. وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيًا على سنته موفيًّا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أستفتح بالذي هو خير: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا } [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١} [الحج: ١].

أما بعد:

فالتاريخ - كما هو معروف - ذاكرة الأمة، ومستودع تجاربها ومعارفها وهو عقلها الظاهر والباطن وخزانة قيمها ومآثرها وأساس شخصيتها الغائرة في القدم والممتدة مع الزمن وللحبيب محمد ﷺ سيرة لمّا تستكشف أعماقها ولخلفائه الراشدين تاريخ حافل عظيم، ولأمته تاريخ يزهو على تاريخ الأمم والشعوب والدول، فعلينا أن نستفيد من هذا التاريخ العريق ونستخرج منه الدروس والعبر والمواعظ والسنن، ونستوعب فقه الحضارات، ونستلهم من القصص القرآني، والهدي النبوي والبعد التاريخي، رؤية شاملة لنهضة أمتنا بما يتلاءم مع حاضرنا كي تقوم بدورها الحضاري المنشود في هداية الناس، ويتأكد للقرون الباقية من عمر الدنيا أن رسالة الإسلام الخالدة التي بعث بها الحبيب محمد ﷺ لم تفن ولن تفنى وأن القرآن الكريم هو كلمة الحق الباقية إلى يوم الدين، وعلينا أن ننظر بعيوننا في أمورنا قبل أن نحتاج إليها لكي نبكي بها طويلاً.

وعندما يقول الناس: فلان فقد ذاكرته، عرفنا أنه على عتبة

الجنون، فما بعد الذهول عما كان إلا العجز عن مواجهة ما يكون. وعندما يقول الناس فلان ليس له مهاد يبنى عليه ولا تقاليد ينبعث منها، ولا تراث يستمد منه، عرفنا أنه زنيم، يرتجل سيرته، ومسلكه دون أساس ولا مقياس، وذاك ما عناه شوقى في قوله:

مثل القوم نسوا تاريخهم ::: كلقيط عَيَّ في الحي انتسابًا

أو كمغلوب على ذاكرة ::: يشتكى من صلة الماضى انقضابًا

ونحن المسلمين أبناء تاريخ طويل عريض، ربما بدأت رسالتنا، مع بعثة إمام الأنبياء النبى العربى محمد! ولكن هذا النبى القمة بين أن الإسلام رسالة الأنبياء كلهم، بيد أن جماهير غفيرة زاغت عنه، وقامت في الأرض دول مرهوبة تعبد أوهام الخرافة والسلطة وتبتذل خصائص الإنسان العليا بين يدى صنم من الحجارة أو صنم حى من أبناء آدم تلقب بفرعون أو بقيصر أو بشتى الألقاب الخادعة.. ومحمد نبى الله ﷺ هو الإنسان الوحيد الذي هتك سدول الباطل، وساق الجماهير إلى معرفة الله الواحد، واستنقذها بقوة من فتك القوى الشريرة.. وله ﷺ سيرة لما تستكشف أعماقها، ولأمته تاريخ حافل غريب لا أدرى لماذا عومل بالطريقة التي عومل بها؟ إنه في نظرى مجهول الحقائق مخبوء الأسرار، ولا أحسب أمة في الأولين والآخرين أفقر إلى معرفة تاريخها من أمتنا الإسلامية!! {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ}[الأعراف: ١٠٠]، قوله:{ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ} [السجدة: ٢٦]، إن ما وقع أمس لا يعنى أصحابه وحدهم! يجب علينا أن نكترث به، ونفيد منه، ونوازن ونحكم، وإلا دفعنا

ثمن جهالتنا من دمائنا واستقرارنا.. وقد أبان القرآن الكريم أن هناك عقلا يتكون من التجربة، ومن السير في الأرض، ومن الرحلة إلى الماضي! وبين أن الإنسان الذي تقوم معرفته على قراءات سريعة، وأحكام نظرية، أضعف حسا من إنسان له معاناة في الدنيا وتجارب مع الناس.. هذا العقل المتولد من المدارسة والمعاناة، هو الذي يشير إليه القرآن الكريم عندما يقول:{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)} [الحج: ٤٦]، وقد تساءل القرآن الكريم مستنكرا حال قوم يمرون بآثار الماضين الهالكين، ثم لا يرعوون:{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)} [الفرقان: ٤٠]. ومن هنا نجد أن دراسة التاريخ فريضة دينية، وهي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية، بل إنني - بعد التأمل في تاريخ المسلمين القريب والبعيد - أشعر بأنها ضرورة بقاء؟ وسياج لحياتنا ورسالتنا، إذا كنا حريصين على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا..

ونهضة الشعوب من عوامل نجاحها الالتفات إلى ماضيها لخدمة حاضرها واستشراف مستقبلها.

فنحن في حاجة إلى من ينشط ذاكرة الأمة العربية والإسلامية وأن يردها في حاضرها إلى ماض حافل بصور المجد والجلال، وأن يهديها، بالموازنة، إلى عوامل الضعف التي أنهكتها.

ويجب أن نعلم أن الذاكرة التاريخية للأمة هي التي تحميها من الانهيار وأمة بدون تاريخ مثل شخص فقد الذاكرة تماماً، ونحن للأسف ذاكرتنا التاريخية مشوّهة، وذلك لأننا لا نحسن استدعاء التاريخ، ولا نحسن الاستفادة منه في حماية الحاضر وتحقيق

الأمل في المستقبل؛ فالتاريخ في حقيقته هو علم الحاضر والمستقبل. ونحن نحاول أن نلجأ إلى التاريخ مع أننا في الواقع نهمل التاريخ. فينبغي أن نعلم أن التاريخ هو صورة للعهود والحقب الماضية، وهذه الصورة تكون صادقة كلما كانت واضحة القسمات بيّنة السّمات.

ولكن كيف ترضى أمةٌ هي خير أمةٍ أخرجت للناس، بمن يمحو ذاكرتها، وذاكرة شعوبها، ويلغي تاريخها ويطمس مجدها؟!

والتاريخ فن مشوق، وقد عرض الله سُبحَانَهُ وَتَعَالى في كتابه قصص السابقين، وتحدث لرسوله وللمؤمنين عن تاريخ الأقوام السالفة، فقال سُبحَانَهُ وتَعَالى:{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ} [يوسف: ٣]، وقال جل ذكره:{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ} [يوسف: ١١١].

وقصَّ رسول الهدى ﷺ التاريخ، وتكلم عن الأقوام الهالكة وعن المؤمنين وعن الكافرين، والتاريخ الإسلامي بديع له جوانب مضيئة.

وفي الحقيقة للتاريخ فوائد عظيمة جدًّا، لو تأملنا فيها لكان ارتباطنا بتاريخنا واتصالنا به واطلاعنا عليه وقراءتنا له واستنباطنا منه أكثر بكثير مما هو حال كثير منا، وعلى وجه الخصوص حال كثير من شباب الأمة، الذين ربما كانت لهم مطالعات واجتهادات في تحصيل بعض العلوم، وبعض تخصصاتها أدنى أهمية من التاريخ، ومن فوائد التاريخ في حياة الأمة الفائدة التربوية من تاريخ الرسل والأنبياء والصحابة والأئمة، ومعرفة وإدراك السنن الإلهية،وهذه السنن هي التي

تحكم حياة الناس وقيام الدول وزوالها، وفلاح الناس وخسرانهم، كل ذلك مضبوط بهذه السنن.

والتاريخ يصدق هذه السنن التي جاءت في النصوص الشرعية، وكما قال جل وعلا: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)} [آل عمران: ١٣٧]، وقال جل وعلا: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

ودراسة التاريخ له من الفوائد العلمية الجديرة بأن يفرد الحديث عنها ويطول؛ لأن كتب التاريخ لا تشتمل على التاريخ وحده، بل تجد كثيراً من كتب التاريخ يضم في ثناياه معلومات ومسائل تتعلق بالحديث والفقه واللغة والاجتماع، ونحو ذلك من أمور يطول ذكرها.

ومن فوائد التاريخ معرفة الأحوال العامة في حياة الناس، وأحوالهم ومعاشاتهم واهتماماتهم، وكل ما يرسم صورة واضحة عن طبيعة المجتمعات في تلك الفترات الزمنية أو التاريخية.

ولا يمكن لقارئ أو دارس التاريخ أن يغفل الاستفادة من التجارب والخبرات في الحياة.

فالتاريخ يقدم عصارة تجارب الأمم، وخلاصة الخبرات الإنسانية في أمور الحياة الدنيوية، مما لا يتعارض مع الأحكام الشرعية، بحيث يمكن للمسلمين إذا قرؤوا تاريخ تلك الأمم كيف أسست بنيانها! كيف أقامت بعض معالم حياتها! كيف كونت أسس حضارتها في بعض الأمور الحياتية! فإن هذا الباب يمكن أن يضيف إلى المسلمين فوائد عظيمة جدًّا.

والتاريخ يظهر لدارسه حقيقة الأمم في ظلال الإسلام، وكيف عاشت في ظلال وارفة من العدل والسلم والرخاء.

ودراسة التاريخ تتيح لنا دحض الشبهات والرد على المفتريات والمقالات الباطلة، وظهر ذلك جليًّا عندما أظهر بعض اليهود كتابًا، وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة، وإن خط علي بن طالب فيه، فعرضه رئيس الرؤساء ابن المسلمة على أبي بكر الخطيب، فقال: هذا مزور، قيل: من أين لك؟ قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وكان قد مات يوم الخندق، فاستحسن ذلك منه واعتمده وأمضاه ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره [١].

ولولا معرفة الخطيب البغدادي بالتاريخ ودراسته له لما استطاع أن يكتشف هذا التزوير والتحريف المتعمد.

ومعرفة الحركة العلمية في كل عصر ومصر تحتاج إلى قراءة متأنية للتاريخ لأن في كل زمان يؤرخ لأعلامه العلماء والمذاهب التي وجدت فيه، والكتب التي صنفت، والمسائل التي بحثت، والمناظرات التي وقعت، وإذا بك تعرف نشأة العلوم والعلماء البارزين في كل علم من العلوم، والإضافات التي وجدت في هذه العلوم.

ومن فوائد دراسة التاريخ نقض البدع والخرافات والمحدثات

---

(١) انظر: المنتظم ٨ / ٢٦٥، والتذكرة ٣ / ١١٤١، وطبقات السبكي ٤ / ٣٥، والإعلان بالتوبيخ ١٠ - ١١، ومعجم الأدباء ٤ / ١٩.

المنحرفة، ونقض البدع والخرافات وكثير من المحدثات التي يريد أن يقررها بعض الناس، وكثير من الخرافات التي يعتقدها بعض الناس، يكون عن طريق البحث عن تاريخها.

ولا بأس أن نروي هذه الطرفة التي تشيع عند الناس: وهي أن رجلين من العاطلين الباطلين، لم يكن عندهما عمل ولا مال، فعمدا إلى كلب فذبحاه ثم دفناه ثم أقاما عليه قبراً وجعلا له بناءً، ثم قالا: هذا قبر فلان الولي، ثم دَعَوَا الناس له، وصارا هما السادنان لهذا القبر المزعوم، فجاءتهما الوفود من الناس يهدون القرابين، ويدفعون الأموال، فلما اختلفا في قسمة الأموال قال أحدهما: وحق الشيخ فلان، يقسم بهذا الولي المزعوم، فقال الآخر: نحن دفناه معاً!

فعندما تبحث في التاريخ تجد مثل هذه الأمور المتعلقة بتعظيم الأضرحة، هل كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام؟ الجواب: لا، ابحث في التاريخ هل كانت في عهد الصحابة؟ متى نشأت؟ في أي مكان؟ فتستطيع بواسطة التاريخ أن تدحض مثل هذه الأمور، وأن تنقضها.

ومعرفة التاريخ تمكن الأمة من إظهار الحقائق وكشف المغالطات لأن التاريخ يسجل كل الوقائع، وكما يقولون في عبارة جميلة وشائعة: قد تخدع كل الناس بعض الوقت، وقد تخدع بعض الناس كل الوقت، لكن أن تخدع كل الناس كل الوقت فغير ممكن.

كما أن قراءة التاريخ تعيد الأمل وبث الحماسة في نفوس المسلمين، وذلك عندما يرتبطون بتاريخهم وأمجادهم وقادتهم وعلمائهم وأمرائهم وملوكهم، عندما يرون هذه الصفحات

المشرقة، وعندما يقفون على هذا التراث العلمي الزاخر، وعندما يجدون هذه المؤلفات التي ربما لا يستطيعون حصر أسمائها فضلاً عن أن يقفوا عليها أو أن يقرؤوها.

هذا كله يجعلهم على أمل وعلى يقين - إن رجعوا إلى دين الله عز وجل - أن يجددوا هذا التاريخ، وأن يعيدوا تلك الأمجاد، وكما يقال في أمثال العرب: ما أشبه الليلة بالبارحة.

وكما يقال عند غيرهم واستخدمه العرب أيضاً في الوقت المعاصر: التاريخ يعيد نفسه.

إذاً يمكن أن يعيد التاريخ نفسه إذا استجلبنا منه هذه الفوائد، وكما قيل: أمة لا تعرف ماضيها لا تستطيع أن تخطط لمستقبلها.

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر ::: ضاع قوم ليس يدرون الخبر

إن المعركة الدينية والسياسية والثقافية والتربوية الحالية مع الغرب تدرك أهمية التاريخ في صنع شخصية الأمة، والمحافظة على ضميرها وذاتها وكينونتها.

لقد صار العلم بالتاريخ - بعد معرفة ما سبق - فرض كفاية على الأمة الإسلامية.

وأصبح فرض عين على المشتغلين بالثقافة وتوجيه الأمة.

وصار الرأي العام الإسلامي مسؤولا أمام الله في أن يكون على أشد ما تكون اليقظة لأهمية هذا التاريخ وقد وقع المنهج التربوي بكامله فريسة في يد المستعمر الغربي كما لم يحدث من قبل.

إن الخطر القادم على الفرد والمجتمع من هذه الثغرة خطر وجود، لأن إسقاط تاريخ الأمة - وهو ما يعمل من أجله المشروع

الغربي يساوي فقدان ذاكرة الفرد، وماذا يساوي الفرد الذي فقد الذاكرة.

إن تاريخنا هو ذاتنا في الماضي، وهو قلعتنا في الحاضر، وهو زادنا نحو المستقبل.

إن من حقنا أن ننظر إلى تاريخنا بعين الفاحص، ونقد المحقق، ووعي المتبصر، ولكن من واجبنا أن تكون عيننا الأخرى على مؤامرات الغزو الثقافي، ومن أهم أهدافه اقتلاعنا من جذورنا الإسلامية عن طريق تشويه تاريخنا الإسلامي.

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي.

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلَّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

ابـن عساكـر

المؤرخ الكبير ابن عساكر وكتابه
" تاريخ مدينة دمشق "

هو علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أبو القاسم الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر، ولد في المحرم في أول الشهر سنة تسع وتسعين وأربعمائة في مدينة دمشق.

أخذ العلم والفقه منذ الحداثة بدمشق حيث عاش في بيت جليل وقد كان أبوه الحسن بن هبة الله شيخًا صالحًا [١] عدلاً محبًّا للعلم مقدرًا للعلماء مهتمًّا بأمور الدين والفقه.

يقول د. صلاح الدين المنجد في مقدمة المجلدة الأولى من تاريخ ابن عساكر [٢]: كان للبيئة التي نشأ فيها الحافظ ابن عساكر أثر كبير في اتجاهه نحو العلم ونبوغه فيه فقد نبت في بيت قضاء وحديث وفقه وكان ألاف هذا البيت من كبار علماء دمشق وقضاتها [٣] فما رأى ابن عساكر منذ نشأته غير العلماء وما وعى غير العلم.

وكان أخوه الأكبر صائن الدين هبة الله [٤] بن الحسن فقيهًا مفتيًا محدثًا قرأ القرآن بالروايات وتفقه وبرع ورحل فسمع وقرأ الأصول والنحو وتقدم وسمع الكثير وأعاد بالأمينية لشيخه أبي الحصن السلمي ودرس وأفتى وكتب الكثير وكان إمامًا ثقة ثبتًا ديِّنًا ورعًا [٥].

سمع أبا القاسم النسيب وأبا طاهر الحنائي وأبا الحسن بن الموازيني

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي: ٧ / ٧٠.
(٢) تاريخ ابن عساكر المجلدة الأولى: ص ١١.
(٣) أبوه الحسن كان قد صحب نصر المقدسي وسمع منه انظر طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٧٠.
(٤) انظر ترجمته في طبقات السبكي ٧ / ٣٢٤ سير الأعلام ٢٠ / ٤٩٦ وفيات الأعيان ٢ / ٤٧٣ فوات الوفيات ٤ / ٢٣٥ النجوم الزاهرة ٥ / ٣٨٠ شذرات الذهب ٤ / ٢١٠.
(٥) طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٣٢٥ وسير الأعلام ٢٠ / ٤٩٦.

وأبا علي بن نبهان وأبا علي بن مهدي وأبا الغنائم المهتدي بالله وأبا طالب الزينبي ولد سنة ٤٨٨ هـ ومات في شعبان سنة ٥٦٣ هـ.

وأما أخوه محمد بن الحسن بن هبة أبو عبد الله كان قاضيًا [١] وقد نشر أولاده الستة العلم والحديث.

وكانت أمه من بيت القرشي أبوها يحيى بن علي بن عبد العزيز القاضي الفقيه الكبير وكان عالمًا بالعربية ثقة حلو المحاضرة فصيحًا.

سمع عبد العزيز الكتاني والحسن بن علي بن البري وحيدرة بن علي وعبد الرزاق بن الفضيل وأبا القاسم بن أبي العلاء وارتحل إلى بغداد فسمع بها وتفقه على أبي بكر الشاشي وبدمشق على القاضي المروزي والفقيه نصر.

وقد سمع منه وروى عنه نافلته أبو القاسم بن عساكر.

وأما خاله أبو المعالي محمد بن يحيى فقد سمع أبا القاسم بن أبي العلاء والحسن بن أبي الحديد والفقيه نصر المقدسي وأبا محمد بن البري والقاضي الخلعي بمصر وعلي بن عبد الملك الدبيقي بعكا وحضر درس الفقيه نصر وثقه به [٢].

ناب عن أبيه في القضاء ثم استقل به وكان نزيهًا عفيفًا صليبًا في الحكم.

قال عنه السمعاني أنه كان محمودًا حسن السيرة شفوقًا وقورًا حسن المنظر مترددًا.

روى عنه ابن أخته أبو القاسم بن عساكر.

وأما خاله الآخر سلطان بن يحيى زين القضاة أبو المكارم القرشي

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٧٠.

(٢) سير الأعلام ٢٠ / ٦٣ - ٦٤، طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٣٣٤ - ٣٣٥.

الدمشقي فقد روى عن أبي القاسم بن أبي العلاء ناب في القضاء عن أبيه ووعظ وأفتى.

بدأ بتلقي علومه ودروسه باكرًا وهو في سن صغيرة فقد سمعه أخوه الصائن سنة خمس وخمسمائة. فقد كان في السادسة من عمره يومذاك فأخذ يسمع باعتناء أبيه وأخيه الصائن فسمع أبا القاسم النسيب وقوام بن زيد وسبيع بن قيراط وأبا طاهر الحنائي وأبا الحسن بن الموازيني.

وراح يتردد إلى مجالسهم ويحضر حلقات تدريسهم.

يقول د. المنجد في مقدمة المجلدة الأولى [1]: فبيئة هذا شأنها.

فقد وجد فيها الحافظ ما ساعده على تفتح ذكائه وإقباله على ما رغب فيه حتى غدا مؤرخ الشام وحافظ العصر.

تفقه في حداثته بدمشق على الفقيه أبي الحسن علي بن المسلم بن محمد بن علي السلمي عمدة أهل الشام ومفتيهم وكان قد لازم الغزالي مدة مقامه بدمشق وقد نقل ابن عساكر عن الغزالي قوله في أبي الحسن السلمي: خلفت بالشام شابًّا إن عاش كان له شأن فكان كما تفرس فيه ودرس بحلقة الغزالي مدة ثم ولي التدريس في المدرسة الأمينية في سنة أربع وخمسمائة وهي أول مدرسة للشافعية بنيت في دمشق.

وكان السلمي ثقة ثبتًا عالمًا بالمذاهب والفرائض وكان ابن عساكر يتردد عليه ويحضر دروسه في المدرسة الأمينية ويستمع عليه.

رحلته الأولى إلى بغداد:

(١) تاريخ ابن عساكر المجلدة الأولى، ص ١٤.

وفي سنة ٥٢٠ هـ وكان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره وكان قد استوفى قسطًا مهمًّا من العلم على شيوخه بدمشق وتنوعت معارفه واتجه نحو رواية الحديث حيث جمع من معرفة المتون والأسانيد وحفظ فأتقن وقرأ فتثبت وتعب في ملاحقة المحدثين والعلماء ولم يعد يقنعه ما حصل عليه في حلقات دمشق ومساجدها ومدارسها وعلمائها [١] عزم على طلب المزيد والوقوف على آراء مشاهير العلماء والفقهاء فقرر أن يرحل عن دمشق رغبة في طلب الحديث

يقول د / المنجد في مقدمة المجلدة الأولى [٢]: وكانت الرحلة في طلب الحديث والاستماع إلى الشيوخ أرا ذا شأن ولم يتخلف محدث كبير عن الرحلة ليتم علمه ويتلقى الأسانيد العالية.

وكانت مراكز العلم منتشرة في طول العالم الإسلامي وعرضه والعلماء والفقهاء منتشرون في كافة الأصقاع ولكن الإشعاع كان ينتشر من مراكز استطاعت أن تستقطب أهل العلم والحديث والرواية واشتهرت فيها حلقات التدريس والنقاش في مراكزها العامة كالمدارس والمساجد وفي مراكزها الخاصة كمقرات إقامة الفقهاء والعلماء والمحدثين

وكانت بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع.

ورغم تدني نفوذها السياسي إلى مستوى كبير فقد حافظت على

---

(١) تاريخ دمشق السيرة النبوية قسم ١ المقدمة ص: ه.

(٢) المجلدة الأولى من تاريخ دمشق: ص ١٦.

دورها الاستقطابي والمحوري حيث بقيت المركز الأساسي الذي يجذب طلبة الحديث والفقه والعلوم ولم تستطع أي من المراكز الأخرى في مصر ومكة والمدينة وخراسان ونيسابور وأصبهان ومرو وهراة وسرخس وطوس أن تنال من أهمية بغداد ودورها.

وقد عرف عن أهل بغداد أنهم أرغب الناس في طلب الحديث وأشدهم حرصًا عليه وأكثرهم كتبًا له.

ويقول الخطيب [١]: وأهل بغداد موصوفون بحسن المعرفة والتثبت في أخذ الحديث وآدابه وشدة الورع في روايته اشتهر ذلك عنهم وعرفوا به.

ورحل أبو القاسم بن عساكر إلى بغداد سنة ٥٢٠ هـ وذهب من بغداد إلى الحج سنة ٥٢١ هـ فسمع بمكة ومنى والمدينة وممن سمع بمكة: عبد الله بن محمد المصري الملقب بالغزال بمكة وعبد الخلاق بن عبد الواسع الهروي بمكة وحدث بمكة ومنها قفل عائدًا إلى بغداد.

ولما دخل بغداد أعجب به العراقيون وقالوا: ما رأينا مثله وقال شيخه أبو الفتح المختار بن عبد الحميد: قدم علينا هذا فلم نر مثله [٢]

وأقام ببغداد خمسة أعوام يحصل العلم فسمع من هبة الله بن الحصين وعلي بن عبد الواحد الدينوري وقراتكين بن أسعد وأبي غالب ابن البناء وهبة الله بن أحمد بن الطبر وأبي الحسن البارع وأحمد بن ملوك الوراق والقاضي أبي بكر [٣].

---

(١) تاريخ بغداد، ١ / ٤٣.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي: ٧ / ٢١٧.

(٣) سير الأعلام ٢٠ / ٥٥٥، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ص ١٨٧.

وسمع بالكوفة الشريف أبا البركات عمر بن إبراهيم الزيدي وطوف وجاب العراق ولقي المشايخ ثم عاد إلى بغداد فأقام بها يسمع الحديث [١] ولزم به التفقه وسماع الدرس بالنظامية وقرأ الخلاف والنحو[٢].

وكان ببغداد يسمى شعلة نار من توقده وذكائه وحسن إدراكه لم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه [٣].

وعلى هذا النحو لازم ابن عساكر بغداد متتبعًا العلماء والفقهاء وكبار المحدثين مستمعًا إليهم قارئًا عليهم مكثرًا في ملازمتهم حتى سنة خمس وعشرين وخمسمائة وقد استنفذ ما عند الشيوخ من أحاديث بالغ في طلبها منهم فأتقن حفظها وتلقى متونها وأسانيدها فقرر العودة إلى دمشق وفعلاً عاد إلى دمشق سنة ٥٢٥ هـ ليسمع على شيوخها.

رحلته الثانية إلى بلاد العجم:

وبقي أبو القاسم بن عساكر في دمشق مدة ملازمًا علمائها وفقهائها وكبار محدثيها مكثفًا الطلب منهم متعشقًا لرواية الحديث عليهم حتى غدا حافظًا فهمًا متقنًا بصيرًا بهذا الشأن لا يلحق شأوه ولا يشق غباره ولا كان له نظير في زمانه وهو بعد شاب في مقتبل العمر وبقي إلى سنة تسع وعشرين وخمسمائة حيث عزم على التوجه إلى مراكز ازدهر فيها علم الحديث وانتشر فيها الفقهاء والعلماء والمحدثون فكانت رحلته نحو الشرق نحو بلاد العجم فارتحل إليها وطاف في مراكزها ومدنها وبالغ في طلب الحديث فيها على كبار

---

(١) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ص ١٨٧.
(٢) مفتاح السعادة لبطاش كبرى زاده ٢ / ٣١٨، وابن الدمياطي: ص ١٨٧، وطبقات الشافعية للسبكي: ٧ / ٢١٧.
(٣) طبقات الشافعية للسبكي: ٧ / ٢١٨.

شيوخها ومحدثيها فسمع بأصبهان ونيسابور ومرو وتبريز وميهنة وبيهق وخسروجرد وبسطام ودامغان والري وزنجان وهمذان وأسداباذ وجي وهراة وبون وبغ وبوشنج وسرخس ونوقان وسمنان وأبهر ومرند وخوي وجرباذقان ومشكان وروذراور وحلوان وأرجيش [١].

وكان توجهه إلى بلاد خراسان عن طريق أذربيجان والتقى بنيسابور بالسمعاني وفيه يقول: أبو القاسم كثير العلم غزير الفضل حافظ متقن دين خير حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد صحيح القراءة متثبت محتاط إلى أن قال: جمع ما لم يجمعه غيره وأربى على أقرانه دخل نيسابور قبلي بشهر سمعت منه وسمع مني.

وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق ثم كانت كتبه تصل إليَّ وأنفذ جوابها [٢].

وسمع بنيسابور أبا عبد الله الفراوي ولازمه فترة وفي ذلك يقول الفراوي: قدم ابن عساكر فقرأ علي ثلاثة فأكثر وأضجرني وآليت على نفسي أن أغلق بابي فلما أصبحنا قدم علي شخص فقال: أنا رسول الله ﷺ قلت: مرحبًا بك فقال: قال لي في النوم: امض إلى الفراوي وقل له: قدم بلدكم رجل شامي أسمر اللون يطلب حديثي فلا تمل منه [٣].

قال القزويني: فوالله ما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ.

ولم تقتصر رحلته وطوافه في بلاد خراسان على الدرس والتلقي

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٢١٦.
(٢) سير الأعلام: ٢٠ / ٥٦٧، تذكرة الحفاظ: ٤ / ١٣٣٠.
(٣) تذكرة الحفاظ: ٤ / ١٣٣٤٠، وتذكرة الحفاظ للسبكي: ٧ / ٢١٩.

والسماع إنما حدث في أصبهان ونيسابور وسمع منه جماعة من الحفاظ ممن هو أسن منه [١].

ودامت رحلته في بلاد العجم أربع سنوات [٢] قضاها في ملازمة العلماء والفقهاء والمحدثين متتبعًا الحديث معتنيًا بطرقه ورواته ورواياته وأسانيده فتعب في جمعه وبالغ في طلبه حتى أنه جمع ما لم يجمعه أحد.

وعاد إلى بغداد ومنها قفل إلى دمشق ويلخص أبو القاسم مشواره مع طلبه الحثيث للحديث بقوله: وأنا الذي سافرت في طلب الهدى سفرين بين فدافد وتنائف وأنا الذي طوفت غير مدينة من أصبهان إلى حدود الطائف والشرق قد عاينت أكثر منه بعد العراق وشامنا المتعارف وجمعت في الأسفار كل نفيسة ولقيت كل مخالف وموالف [٣].

هاتان الرحلتان إلى بلاد العجم وخراسان ومراكزها العلمية الكبيرة وإلى العراق وبلاد الحجاز سمحتا له بلقاء كبار الشيوخ وأعيان العلماء والفقهاء والمحدثين حيث سعى في التحصيل عليهم والإفادة منهم فحفظ وكتب الكثير وقد التقى بأكثر من ألف وثلاثمائة شيخ ومن النساء بضع وثمانين امرأة [٤].

يقول الذهبي في سير الأعلام [٥]: وعدد شيوخه في معجمه ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع وستة وأربعون شيخًا أنشدوه وعن مئتين

---

(١) معجم الأدباء: ١٣ / ٧٦.

(٢) المجلدة الأولى من تاريخ دمشق المقدمة للدكتور المنجد: ص ٢٢.

(٣) الأبيات في كتابه تبيين كذب المفتري: ص ٤٣١.

(٤) معجم الأدباء: ١٣ / ٧٦، وتذكرة الحفاظ: ٤ / ١٣٢٨.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٥٥٦.

وتسعين شيخًا بالإجازة الكل في معجمه وبضع وثمانون امرأة لهن معجم صغير سمعناه.

عودته إلى دمشق مرحلة جديدة:

كان ابن أربع وثلاثين سنة لما عاد إلى دمشق وقرر الاستقرار فيها وذلك بعد أن حقق قدرًا عاليًا من بناء شخصيته العلمية والفقهية وبعد أن ذاع صيته وانتشرت أخباره وتناقل العلماء أخبار فطنته وسعة حفظه وإتقانه وتردد اسمه في مختلف الآفاق.

قال أبو المواهب [(١)]: لم أر مثله ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور قد أسقط ذلك عن نفسه وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عرضت عليه وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال لي: لما عزمت على التحديث والله المطلع أني ما حملني على ذلك حب الرياسة والتقدم بل قلت: متى أروي كل ما سمعت؟ وأي فائدة من كوني أخلفه صحائف؟ فاستخرت الله واستأذنت أعيان شيوخي ورؤساء البلد وطفت عليهم فكلهم قالوا: من أحق بهذا منك؟ فشرعت منذ ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

هذه المرحلة في حياة ابن عساكر هي الأكثر سعة ورحابة وقد امتدت على مدى عمره وفيها انتهت إليه رياسة المذهب وبات - كما يقول عنه ابن النجار: إمام المحدثين في وقته ومن انتهت إليه الرياسة في

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤ / ١٣٣٢.

الحفظ والإتقان والمعرفة التامة بعلم الحديث والثقة والنبل وحسن التصنيف والتجويد وأخذ بعدما ملأته الثقة والاعتزاز بما حمله وحفظه أخذ يملي ويحدث ويصنف حيث كان بارعًا في معرفة الحديث ومعرفة رجاله وهذا ما جعله ينصرف بكليته إلى الالتزام بما قرره من التحديث والرواية فانتهت إليه الرياسة كما أشرنا إلى ذلك قريبًا.

يقول ولده بهاء الدين الحافظ أبو محمد القاسم: قال لي أبي: لما حملت بي أمي رأت في منامها قائلا يقول لها: تلدين غلامًا يكون له شأن فإن الله تعالى يبارك لك والمسلمين فيه.

وصدقت اليقظة منامها ونبهه السعد فأسهره الليالي في طلب العلم وغيره سهرها في الشهوات أو نامها وكان له الشأن العظيم والشأو الذي يجل عن التعظيم.

ثم انصرف إلى الجمع والتصنيف والرواية والتأليف وهذا يتطلب إلى جانب التزامه بالقيام بواجباته العبادية تخليًّا عن العمل لتحصيل الأملاك والمنافع وبناء الدور إلى المواظبة على طاعة الله وعدم التطلع إلى أسباب الدنيا وإعراضه عن المناصب الدينية كالإمامة والخطابة بعد أن عرضتا عليه وانكب على التصنيف فصنف التصانيف المفيدة وخرج التخاريج وكان حسن الكلام على الأحاديث محظوظًا في الجمع والتأليف.

آثاره ومؤلفاته:

١ - إتحاف الزائر.

٢ - الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد وهو أربعون حديثًا.

٣ - أربعون البلدان.

٤ - أربعون حديثا من أربعين شيخًا من أربعين مدينة.

٥ - الأربعون الطوال في ثلاثة أجزاء.

٦ - أربعون المساواة.

٧ - أربعون المصافحات.

٨ - الأحاديث الخماسيات وأخبار ابن أبي الدنيا.

٩ - الأحاديث المتخيرة في فضائل العشرة في جزئين.

١٠ - أخبار أبي عمرو الأوزاعي (وفضائله عن معجم الأدباء).

١١ - الإشراف على معرفة الأطراف في الحديث أربعة مجلدات.

١٢ - أمالي في الحديث.

١٣ - التاريخ الكبير لدمشق مشهور في مجلدات.

١٤ - تاريخ المزة.

١٥ - التالي لحديث مالك العالي (١٩ جزءًا).

١٦ - تبيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط.

١٧ - تبيين الإمتنان بالأمر بالختان.

١٨ - تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري.

١٩ - ثواب الصبر على المصاب بالولد.

٢٠ - جزء حديث الهبوط.

٢١ - جزء كفر سوسية (أحاديث جماعة من كفر سوسية).

٢٢ - الزهادة في بذل الشهادة في مجلد.

٢٣ - سباعيات في الحديث.

٢٤ - عوالي شعبة في مجلد (إجابة السؤال في أحاديث شعبة).

٢٥ - عوالي الثوري في مجلد.

٢٦ - عوالي مالك في الحديث خمسين جزءًا.

٢٧ - غرائب مالك - عشرة أجزاء.

٢٨ - فضل أصحاب الحديث.

٢٩ - فضل الجمرتين.

٣٠ - فضل الربوة.

٣١ - فضل عسقلان.

٣٢ - فضل مقام إبراهيم.

٣٣ - القول في جملة الأسانيد في حديث المؤيد.

٣٤ - كتاب الاعتزاز بالهجرة - إعزاز بالهجرة (إعزاز الهجرة عند إعواز النصرة. سير الأعلام).

٣٥ - كتاب السداسيات.

٣٦ - كتاب طرق حديث عبد الله بن عمر.

٣٧ - كتاب فضل مكة.

٣٨ - كتاب فضل المدينة.

٣٩ - كتاب فضل قريش والأنصار والأشعريين وذم الرافضة.

٤١ - كتاب ذم قرناء السوء.

٤٢ - كتاب ذم من لا يعمل بعلمه.

٤٣ - كتاب أحاديث أهل صنعاء الشام.

٤٤ - كتاب أحاديث أبي الأشعث الصنعاني.

٤٥ - كتاب حنش والمطعم وحفص الصنعانيين.

٤٦ - كتاب يوم المزيد.

٤٧ - كتاب الخضاب.
٤٨ - كتاب المسلسلات.
٤٩ - كتاب المعجم لمن سمع منه وأجاز له.
٥٠ - فضل الكرام على أهل الحرم.
٥١ - كتاب أخبار أبي محمد سعيد بن عبد العزيز وعواليه.
٥٢ - كتاب في الصفات.
٥٣ - كتاب طرق قبض العلم.
٥٤ - كتاب فضائل الصديق.
٥٥ - كتاب ما وقع للأوزاعي في العوالي جزء.
٥٦ - كتاب الأبدال لم يتم.
٥٧ - كتاب العزلة.
٥٨ - كتاب كشف المغطى في فضل الموطأ.
٥٩ - كتاب حديث أهل قرية الحميريين وقبيبات.
٦٠ - كتاب حديث أهل فذايا وبيت أرانس وبيت قوفا.
٦١ - حديث أهل قرية البلاط.
٦٢ - كتاب حديث سلمة بن علي الحسني البلاطي.
٦٣ - كتاب حديث يسرة بن صفوان وابنه وابن ابنه.
٦٤ - كتاب حديث سعد بن عبادة.
٦٥ - كتاب حديث أهل رندين وجبرين.
٦٦ - كتاب حديث أهل بيت سواي.
٦٧ - كتاب حديث رومة ومسرابا والقصر.
٦٨ - كتاب حديث جماعة من أهل حرستا.

٦٩ - كتاب حديث أهل كفربطنا.

٧٠ - كتاب حديث أهل دقانيا وحجراء وعين وتما وجديا وطرميس.

٧١ - كتاب حديث جماعة من أهل جوير.

٧٢ - كتاب حديث يحيى بن حمزة البتلهي وعواليه.

٧٣ - كتاب مجموع حديث محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمي البتلهي.

٧٤ - كتاب حديث أبي بكر بن محمد بن رزق الله المنيني.

٧٥ - كتاب مجموع أحاديث جماعة من أهل بعلبك.

٧٦ - كتاب تكميل الإنصاف والعدل بتعجيل الإسعاف بالعزل.

٧٧ - كتاب الملتمس من عوالي مالك بن أنس ٣١ جزءًا.

٧٨ - كتاب رفع التخليط عن حديث الأطيط.

٧٩ - كتاب ذكر البيان في فضائل كتابة القرآن.

٨٠ - كتاب دفع التثريب على من فسر معنى التثريب.

٨١ - كتاب حلول المحنة بحصول الابنة.

٨٢ - كتاب الجواهر واللآلئ في الأبدال العوالي.

٨٣ - كتاب الجواهر المبسوط لما ذكر حديث الهبوط.

٨٤ - كتاب مسلسل العيدين.

٨٥ - كتاب الإنذار بحدوث الزلازل.

٨٦ - كتاب ترتيب الصحابة في مسند أبي يعلي.

٨٧ - مسند أبي حنيفة.

٨٨ - مسند أهل داريا.

٨٩ - مسند مكحول.

٩٠ - معجم الصحابة.

٩١ - ترتيب الصحابة في مسند أحمد.

٩٢ - معجم النسوان (كتاب من سمع منه من النسوان).

٩٣ - مناقب الشبان - خمسة عشر جزءًا.

٩٤ - من وافقت كنيته كنية زوجته - في مجلد.

٩٥ - الموافقات على الأئمة الثلاثة الثقات في الحديث - في ستة مجلدات (كتاب الموافقات على شيوخ الأئمة الثقات ٧٢ جزء).

٩٦ - تشريف يوم الجمعة - ٧ أجزاء.

٩٧ - تقوية السنة على إنشاء دور السنة.

٩٨ - الاقتداء بالصادق في حفر الخندق.

٩٩ - المستفيد في الأحاديث السباعية الأسانيد.

١٠٠ - مجموع الرغائب مما وقع من حديث مالك من الغرائب - (١٠ أجزاء).

١٠١ - معجم أسماء القرى والأمصار.

١٠٢ - معجم الشيوخ النبلاء (النبل).

١٠٣ - معنى قول عثمان: ما تعنيت ولا تمنيت.

١٠٤ - المقالة الفاضحة للرسالة الواضحة.

١٠٥ - من لا يكون مؤتمنًا لا يكون مؤذنًا.

هذا الجهد أمضى أبو القاسم طيلة حياته في بذله حيث اشتهر اسمه في الأرض ولم يكن له نظير في زمانه من حيث سعة علمه ودأبه على العمل ولم يزل طول عمره مواظبًا على صلاة الجماعة ملازمًا

لقراءة القران مكثرًا من النوافل والأذكار والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار وكان يختم كل جمعة ولم ير إلا في اشتغال يحاسب نفسه على ساعة تذهب في غير طاعة [١].

وبقي منكبًّا على التأليف والتصنيف والتدريس وكان الملك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد بنى له دار الحديث النورية فدرس بها إلى حين وفاته غير ملتفت إلى غيرها ولا متطلع إلى زخرف الدنيا ولا ناظر إلى محاسن دمشق ونزهها بل لم يزل مواظبًا على خدمة السنة والتعبد باختلاف أنواعه: صلاة وصيامًا واعتكافًا وصدقة ونشر علم وتشييع جنائز وصلات رحم إلى حين قبض [٢].

توفي في رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ليلة الاثنين حادي عشر الشهر وصلى عليه القطب النيسابوري وحضره صلاح الدين ودفن عند أبيه بمقبرة باب الصغير [٣]

قال العماد [٤]: وكان الغيث قد احتبس في هذه السنة فدر وسح عند ارتفاع نعشه فكأن السماء بكت عليه بدمع وبله وطشه.

وقال الحسين بن عبد الله بن رواحة يرثي أبا القاسم بن عساكر [٥]:

ذرا السعي في نيل العلى والفضائل ::: مضى من إليه كان شد الرواحل

وقولا لساري البرق إني نعيته ::: بنار أسى أو دمع سحب هواطل

وما كان إلا البحر غار ومن يرد ::: سواحله لم يلق غير جداول

(١) طبقات الشافعية للسبكي: ٧ / ٢١٧، وسير أعلام: ٢٠ / ٥٦٢.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي: ٧ / ٢٣٣.

(٣) سير الأعلام: ٢٠ / ٥٧٠، طبقات السبكي: ٧ / ٢٣٣، وفيات الأعيان ٣ / ٣١١، معجم الأدباء: ١٣ / ٧٥.

(٤) معجم الأدباء: ١٣ / ٧٥.

(٥) القصيدة في معجم الأدباء: ١٠ / ٤٨ - ٥٥ في ترجمة الحسين بن عبد الله بن رواحة وبعضها في سير الأعلام: ٢٠ / ٥٦٨.

وهبكم رويتم علمه عـــن رواتـــه ::: وليس عـــوالي صـــحبه بنـــوازل
فقد فاتكم نـــور الهـــدى بوفاتـــه ::: وعز التقى منه ونجـــح الوســـائل
خلت سنة المختار من ذب ناصـــر ::: فأقرب ما نخشـــاه بدعـــة خـــاذل
نحـــا للإمـــام الشـــافعي مقالـــة ::: فأصبح شافي عـــي كـــل مجـــادل
وسد من التجسيم بـــاب ضـــلالة ::: ورد من التشـــبيه شـــبهة باطـــل

مكانة أبي القاسم بن عساكر وما قيل فيه:

يقول السبكي [(١)]: هو الشيخ الإمام: ناصر السنة وخادمها وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها إمام أهل الحديث في زمانه وختام الجهابذة الحفاظ ولا ينكر أحد منه مكانة مكانه محط رحال الطالبين وموئل ذوي الهمم من الراغبين الواحد الذي أجمعت عليه الأمة والبحر الذي لا ساحل له.

ويقول ابن خلكان [(٢)]: كان محدث الشام في وقته ومن أعيان الفقهاء الشافعية غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره.

قال سعد الخير: ما رأيت في سن ابن عساكر مثله [(٣)].

قال أبو القاسم بن عساكر: سمعت التاج المسعودي يقول: سمعت أبا العلاء الهمذاني يقول لرجل استأذنه في الرحلة قال: إن عرفت أحدًا أفضل مني حينئذ آذن لك أن تسافر إليه إلا أن تسافر إلى ابن عساكر فإنه حافظ كما يجب [(٤)].

وقال شيخه الخطيب أبو الفضل الطوسي: ما نعرف من يستحق هذا

(١) طبقات الشافعية: ٧ / ٢١٦.
(٢) وفيات الأعيان: ٣ / ٣٠٩.
(٣) تذكرة الحفاظ: ٤ / ١٣٣١.
(٤) تذكرة الحفاظ: ٤ / ١٣٣١، طبقات السبكي: ٧ / ٢١٨.

القلب سواه - يعني لفظة الحافظ.

ومن ألقابه: ثقة الدولة وصدر الحفاظ وناصر السنة وجمال السنة والثقة.

وجميعها تؤكد مكانته وعلمه وثقة العلماء والناس بحديثه وروايته

أما لقبه: " ابن عساكر " فيقول السبكي [١]: ولا نعلم أحدًا من جدوده يسمى عساكر وإنما هو اشتهر بذلك يقول الذهبي في السير [٢]: فعساكر لا أدري لقب من هو من أجداده أو لعله اسم لأحدهم.

وأول من أثبت هذا اللقب ابن الجوزي [٣] قال: علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي المعروف بابن عساكر.

وقال فيه الشيخ النووي: هو حافظ الشام بل هو حافظ الدنيا الإمام مطلقًا الثقة الثبت [٤].

وقال ابن الدبيثي [٥]: أحد من اشتهر ذكره وشاع علمه وعرف حفظه وإتقانه.

وقال: أبو القاسم ختم به هذا الشأن ولم يخلف بعده في الحديث مثله ولا أرى مثل نفسه في معرفة الحديث ومعرفة رجاله.

وقال الذهبي في السير [٦]: وبلغنا أن الحافظ عبد الغني المقدسي بعد موت ابن عساكر نفذ من استعار له شيئا من تاريخ دمشق فلما طالعه انبهر لسعة حفظ ابن عساكر ويقال: ندم على تفويت السماع منه فقد كان بين ابن عساكر وبين المقادسة واقع رحم الله الجميع.

---

(١) طبقات السبكي: ٧ / ٢١٥.
(٢) سير الأعلام: ٢٠ / ٥٥٥.
(٣) المنتظم ط بيروت: ١٨ / ٢٢٤.
(٤) طبقات السبكي: ٧ / ٢١٩.
(٥) ذيل تاريخ بغداد: ١٥ / ٣٠١.
(٦) سير الأعلام: ٢٠ / ٥٦٨.

شعره:

وللحافظ أبي القاسم بن عساكر شعر كثير قلما أملى مجلسا إلا ختمه بشيء من شعره.

ومن أبيات بعثها إلى أبي سعد بن السمعاني يعاتبه على كتاب كان أبو سعد قد بعثه إليه:

ما كنت أحسب أن حاجاتي إليك :: ك وإن نأت داري مضاعه
أنسيت ثدي مودتي : بيني وبينك وارتضاعه
ولقد عهدتك في الوفاء ::: أخا تميم لا قضاعة [1]

ومن شعره [2]:

ألا إن الحديث أجل علم :: وأشرفه الأحاديث العوالي
وأنفع كل نوع منه عندي : وأحسنه الفوائد والأمالي
فإنك لن ترى للعلم شيئا ::: تحققه كأفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه ::: وخذه عن الشيوخ بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترمى ::: من التصحيف بالداء العضال

ومن شعر الحافظ أبي القاسم بن عساكر أيضا [3]:

أيا نفس ويحك جاء المشيب :: فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن : وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة ::: وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون ::: وما قدر الله لي بالأزل

---

(١) طبقات السبكي: ٧ / ٢٢٢.
(٢) وفيات الأعيان: ٣ / ٣١٠، وسير الأعلام: ٢٠ / ٥٦٩، شذرات الذهب: ٤ / ٢٣٩.
(٣) سير الأعلام: ٢٠ / ٥٦٩ - ٥٧٠، وفيات الأعيان: ٣ / ٣١٠، ومعجم الأدباء: ١٣ / ٨٦.

:::

قال السمعاني: وأنشدني لنفسه ببغداد [1]:

وصاحب خان ما استودعته وأتـى ::: ما لا يليـق بأربـاب الـديانات
وأظهر السر مختـارًا بـلا سـبب ::: وذاك والله مـن أوفى الجنايـات
أما أتـاه عـن المختـار في خـبر ::: أن المجـالس تغشـى بالأمانـات

قال السمعاني: وأنشدني لنفسه بنيسابور [2]:

لا قدس الله نيسـابور مـن بلـد ::: ما فيه من صاحب يسلي ولا سكن
لولا الجحيم الذي في القلب من حرق ::: لفرقة الأهل والأحباب والـوطن
يا قوم دوموا على عهد الهوى وثقوا ::: أني على العهد لم أغـدر ولم أخـن
ولا تدبرت عيشي بعـد بعـدكم ::: إلا تمثلت بيتًا قيـل مـن زمـن
فـإن أعـش فلعـل الله يجمعنـا ::: وإن أمت فقتيـل الهـم والحـزن

تاريخ مدينة دمشق:

سمى أبو القاسم الحافظ ابن عساكر تاريخه: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها.

يفهم من تسميته أنه أرخ لمدينة دمشق في مرحلة ما أو في عصره والذي يعرض للكتاب يرى أن ابن عساكر لم يخص دمشق أو نواحيها فقط بل تعداها في الكلام فكتب لبلاد الشام كلها ويصبح التخصيص في التسمية قاصرًا عن الإحاطة بمضمون شمولية الكتابة والمواضيع والتراجم التي تطرأ إليها.

يقول د. شكري فيصل [3]: إن المؤلف لا يقدم لنا تاريخًا دمشقيًّا ولا

(١) معجم الأدباء: ١٣ / ٨٦ - ٨٧.
(٢) معجم الأدباء: ١٣ / ٨٧.
(٣) تاريخ دمشق - عاصم - عائذ: ص ٧.

تاريخًا شاميًّا فحسب وإنما يقدم تاريخًا حضاريًّا لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الإسلام وسادت فيها العربية وانساحت فيها مهاجرة العرب المسلمين بين أقصى الشرق فيما وراء النهر وبين أطراف المحيط.

ولقد خص الحافظ المجلدة الأولى بفضائل الشام وفتوح الشام عامة وبعض المجلدة بخطط دمشق وذكر مساجدها وكنائسها وأبوابها ودورها وأنهارها وقنواتها ثم بدأ بالترجمة لكل من دخلها أو اجتاز بنواحيها من أنبيائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضاتها وعلمائها ورواتها وقرائها ونحاتها وشعرائها ورواتها.

ولم يكن تاريخه أول تاريخ لدمشق والشام ولم يكن تاريخ دمشق الأول من نوعه بين كتب تاريخ المدن.

فقبله ألف " تاريخ لدمشق والشام ولم يكن تاريخ دمشق الأول من نوعه بين كتب تاريخ المدن.

فقبله ألف " تاريخ الرقة " للقشيري وتاريخ أصبهان لأبي نعيم وتاريخ نيسابور للحاكم وتاريخ بغداد للخطيب وهو أهم ما أنتج قبله.

ويمتاز تاريخ دمشق عن التواريخ التي سبقته أنه أوسعها مادة وأشملها توجهًا وفي قيمته ومكانته يقول: د المنجد [1]: لم تشهد دمشق في تاريخها محدثًا فاق الحافظ في الحديث ولم تعرف في تاريخها ثمانين مجلدة غيره فيكفيها فخرًا أنها أوتيت أوسع تاريخ كتب عن مدينة إسلامية كتبه مؤلف من أعظم العلماء في صدر الإسلام.

(١) تاريخ دمشق المجلد الأول المقدمة ص ٣١.

وفي قيمته صدر الأستاذ محمد كر علي المجلدة الأولى بقوله [١]: ما حظيت مدينة في الإسلام بتاريخ لها يضاهي تاريخ دمشق هذا.

ويقول: وقد يكون تاريخ دمشق أوسع تواريخ المدن وهو أيضا من أوسع المصادر في تراجم الرجال. حتى ليجرد منه كتب على حدة في موضوعات مختلفة كولاة دمشق مثلا وقضاتها وشعرائها. ومنه يستخرج أحسن تاريخ لبني أمية سكتت معظم التواريخ عنه.

وهو إلى ذلك حوى عدة كتب مستقلة فكل طالب يظفر فيه بطلبته ويجد فيه ما لا يجده في كتاب غيره لأن ابن عساكر يمتاز بالتحري والبسط والاستقصاء وتتبع النوادر في سير المترجم لهم وأخبارهم.

ومن المؤكد أن الحافظ كان قد وضع تصوره العام لموضوع كتابه في وقت مبكر ولعله وضع النهج والمخطط التفصيلي لمضمون الموضوعات التي سيتناولها بالبحث ولعل هذا التصور المبدئي هو الذي دفع به إلى رحلتيه الأولى والثانية إلى بغداد ومنها إلى مكة وبلاد الحجاز ثم توجهه إلى بلاد العجم.

فقد تأكد بشهادة رفيقه وصديقه أبي سعد السمعاني أنه بدأ بكتابه قبل رحلته إلى بلاد العجم يقول السمعاني [٢]: " دخل نيسابور قبلي بشهر سمعت منه وسمع مني وسمعت منه معجمه وحصل لي بدمشق نسخة منه وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق ".

وقد مضى فيما كتبناه أن رحلته إلى بلاد العجم كانت في سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

وذكرنا أن عودته إلى دمشق كانت في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

(١) تاريخ مدينة دمشق - المجلد الاول.
(٢) تذكرة الحفاظ ٤ / سير الأعلام ٢٠ / ٥٦٧.

وأنه استقر فيها منصرفًا إلى التدريس والتصنيف والتأليف وكان نتاج رحلاته تحصيله علمًا كثيرًا وحفظه وإتقانه حديثًا واسعًا ومعرفة طرقه وأسانيده ومتونه وهو ما ظهر في كتاب تاريخ دمشق.

ويتحدث الحافظ في مقدمته عن كتابه وعمله ونهجه فيه فقال: أما بعد فإني كنت بدأت قديمًا بالاعتزام لسؤال من قابلت سؤاله بالامتثال والالتزام على جمع تاريخ لمدينة دمشق أم الشام حمى الله ربوعها من الدثور والانفصام وسلم جرعها من كيد قاصديهم بالاختصام فيه ذكر من حلها من الأماثل والأعلام فبدأت به عازمًا على الإنجاز له والإتمام فعاقت إنجازه وإتمامه عوائق الأيام من شدة الخاطر وكلال الناظر وتعاقب الآلام.

فصدفت عن العمل به برهة من الأعوام حتى كثر عليَّ في إهماله وتركته لوم اللوام وتحشيم من تحشيمه سبب لوجود الاحتشام وظهر ذكر شروعي فيه حتى خرج عن حد الاكتتام وانتشر الحديث فيه بين الخواص والعوام وتطلع إلى مطالعته أولو النهى وذوو الأحكام ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام [١] الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام أدام الله ظل دولته على كافة الأنام وأبقاه مسلمًا من الأسواء منصور الأعلام منتقما من عداة المسلمين الكفرة الطغام معظمًا لحملة الدين بإظهار الإكرام لهم والاحترام منعمًا عليهم بإدرار الإحسان إليهم والأنعام عافيًا عن ذنوب ذوي الإساءات والاجترام بانيًا للمساجد والمدارس والأسوار ومكاتب الأيتام راضيًا بأخذ الحلال رافضًا لاكتساب الحطام آمرًا بالمعروف زاجرًا على

(١) القمقام من الرجال السيد الكثير الخير الواسع الفضل.

ارتكاب الحرام ناصرًا للملهوف وقاهرًا للظالم العسوف بالانتقام قامعًا لأرباب البدع بالإبعاد لهم والإرغام خالعًا لقلوب الكفرة بالجرأة عليهم والإقدام وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز له والاستتمام ليلم بمطالعة ما تيسر منه بعض الإلمام فراجعت العمل فيه راجيًا الظفر بالتمام شاكرًا لما ظهر منه من حسن الاهتمام مبادرًا ما يحول دون المراد من حلول الحمام مع كون الكبر مظنة العجز ومطية الأسقام وضعف البصر حائلا دون الإتقان له والأحكام والله المعين فيه بلطفه على بلوغ المرام.

وانتهى من تصنيفه في مرحلته الأولى سنة ٥٤٩ هـ وبلغ خمسمائة وسبعين جزءًا ثم أخذ يزيد فيه ويضم إليه ما يستجد عنده حتى تمت نسخته الجديدة والمؤلفة من ثمانين مجلدًا سنة ٥٥٩ هـ وقدر المنجد [١] أن الحافظ سلخ في تأليف تاريخه ثلاثين سنة أو أقل قليلا.

ويقول ياقوت الحموي [٢]: وجمع وصنف فمن ذلك: كتاب تاريخ مدينة دمشق وأخبارها وأخبار من حلها أوردها في خمسمائة وسبعين جزءًا من تجزئة الأصل والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء.

ويقول الذهبي [٣]: وصنف وجمع فأحسن فمن ذلك تاريخه في ثمان مائة جزء قلت: الجزء عشرون ورقة فيكون ستة عشر ألف ورقة.

وفي تقديمه د شكري فيصل [٤] تاريخ مدينة دمشق مظهرًا مكانته بين كتب التراث بعامة ومكانته من كتب التاريخ بخاصة ومكانته من التاريخ لبلاد الشام بوجه أخص يقول: إنه يؤرخ لجوانب من الجاهلية

(١) تاريخ دمشق - المجلد الأول المقدمة ص ٣٣.
(٢) معجم الأدباء ١٣ / ٧٦.
(٣) سير الأعلام: ٢٠ / ٥٥٨.
(٤) تاريخ دمشق المطبوعة عاصم - عائذ المقدمة ص ٧ - ٨.

من حيث يترجم لرجال من الجاهليين والمخضرمين عرفوا دمشق وأعمالها أو حلوا بها أو اجتازوا بنواحيها من وارديها وأهلها كما يقول في عنوان كتابه، ثم هو يؤرخ للسيرة النبوية بجوانبها وللذي اتصل بها ونتج عنها وما كان فيها من أحداث وذلك حين يبدأ كتابه بسيرة النبي ﷺ ويخصص لذلك نصف المجلدة الثانية ثم هو يترجم للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ولمن كان حولهم ومعهم تراجم طويلة مستوفاة فتأتي هذه التراجم وكأنها تاريخ للعصر كله بالكثير من دقائقه التي لا نجد بعض مادتها عند غيره والتي لا تمتد في بلاد الشام وحدها بل في أقطار الإسلام كلها حيث انتشر هؤلاء العرب في العصر الأموي من أقطار الدنيا هداة أو دعاة فوادًا أو علماء.

ومن الطبيعي أن يكون كتاب ابن عساكر أغنى المصادر عن تاريخ الأمويين. ولكن تاريخ الأمويين ليس تاريخهم هم فحسب وإنما هو تاريخ العرب والمسلمين في الفترة التي كانت فيها دمشق عاصمة الحياة العربية.

وما أكثر ما تواشجت الصلاة في القرن الأول في مقر الخلافة وهل كانت الجماعات العربية بكبار رجالها أو أرهاط قبائلها في غنى عن زيارة الشام والوفود على الخلفاء والاستجابة لندبهم في هذه البعوث أو تلك أو في الفتوحات البرية أو في الفتوحات البحرية؟ ألم تكن الشام في السلم والحرب في معارك صفين أو في حركات العراق والحجاز في البعوث نحو إفريقيا أو نحو القسطنطينية هي مهاد هذا الملتقى الكبير الذي انصهرت فيه القبائل وامتدت أمة واحدة هنا نحو أقصى الشرق وهناك نحو أقصى الغرب. ألا يؤكد ذلك كله عندنا أن هذا التاريخ هو تاريخ للعالم الإسلامي كله من خلال هذه العدسة الضوئية الصغيرة المكبرة: دمشق وهل كانت الشام بمعزل عن

الحياة والمشاركة فيها في القرون التي تلت قيام الدولة العباسية؟ ألم يدخلها علماء وخلفاء وقواد؟ ألم يرتحل منها فقهاء وشعراء وولاة وقضاة ورواة كان لهم في صياغة تاريخ العرب والمسلمين جميعًا نصيب؟ إن تاريخ دمشق لابن عساكر يقدم للذين يدرسون التاريخ الأندلسي: فتوحاته وسياسته وإمارته وخلافته وإدارته وقيادته وعلومه وثقافته وأدبه وفكره مادة طيبة وخاصة في بداياته الأولى مما هو جدير بالتتبع له والإفادة منه.

وكان تاريخ ابن عساكر: يمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ثم يجاوز ذلك ليكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية.

ويمتد في الزمان ليسجل أطرافا من تاريخ الجاهلية ثم يكون تاريخا للسيرة النبوية والعصر الراشدي والخلافة الأموية ثم ما بعدها من الخلافة العباسية والدويلات حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري " ٥٧١ ".

ويمتد عمقًا في فهم التاريخ فلا تستوقفه الأحداث والوقائع وحدها وإنما يتناول روح التاريخ حين يقدم لنا المادة الأولية الغنية لرصد الحركة الحضارية: دينًا وشريعة وثقافة وفكرًا، كذلك كان وكذلك يجب أن نفهمه وأن ننظر إليه ومع أهمية هذا الكتاب فإن مؤلفه الحافظ أبا القاسم كان محدثا قبل أن يكون مؤرخا وقد غلب عليه الحديث حيث تعمق فيه معرفة متنًا وسندًا وطرقًا حتى غدا إمام أهل الحديث في زمانه[١] لذلك فقد سلك في تاريخه هذا نهج المحدثين فهو

(١) طبقات السبكي: ٧ / ٢١٥.

يبدأ بذكر السند ثم يورد الخبر [1].

وهذا يعني أن بعض القضايا التي تشغل بال المؤرخين ويهتمون بها قد يمر بها عرضًا وقد لا يذكرها مطلقًا لأنها لا تدخل في دائرة اهتمامه، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه يختلف عن غيره من المؤرخين فهو يبحث عن مادة معينة يريد أن يقرها في ذهن قارئه وهناك قضايا أساسية يفتش عنها [2].

وهذا النهج هو الذي تبعه جميع المحدثين الذين سبقوه وألفوا في تاريخ المدن.

وأما التراجم فقد رتبت على حروف الهجاء وبدأ بمن اسمه أحمد قبل من كان اسمه إبراهيم واعتبر الحروف في أسماء آبائهم وأجدادهم وأردف ذلك بمن عرف بكنيته ولم يقف على حقيقة تسمية ثم بمن ذكر بنسبته وبمن لم يسم في روايته وأتبعهم بذكر النسوة والإماء والشواعر.

وابن عساكر حين يترجم لمن يترجم لهم من الشاميين أو غيرهم لا يسوغ الترجمة على أنها نتيجة مطالعاته وقراءاته ولا يصوغها على أنها خلاصة أفكاره واطلاعاته. وإنما يقدم لك مادتها الأولى مسندة في كل جزئية من جزئياتها حتى في الاسم أو الكنية أو يوم الوفاة وتتعدد صور الخبر بتعدد الأسانيد التي انتهت إليه والروايات التي جاء عليها وقد تتكاثر الأسانيد على خبر واحد في صورة واحدة أو صور متقاربة.

إنه يتابع أصحاب الحديث في طريقتهم في الإسناد وكانت تلك هي

(١) تاريخ دمشق المجلد الأول المقدمة ص ٣٣.
(٢) تاريخ دمشق: عثمان بن عفان المقدمة - أوب.

الطريقة السائدة في كل فروع الثقافة الإسلامية: تثبتًا من الخبر وتوخيًا للحق فيه ونشدانًا للصواب حتى إذا تتابعت القرون تحلل أصحاب الأخبار الأدبية من ذلك ثم لحق بهم مؤرخون من المؤرخين وأصحاب التراجم.

وبقي ابن عساكر ومن في طبقته يمثلون ذروة هذا الأسلوب في القرن السادس الهجري، ولهذا فإن كل ما عند ابن عساكر في تاريخه يتشعب في هذين القسمين الكبيرين: الأسانيد والأخبار [١].

وكان ابن عساكر صاحب منهج فما كان من الأحاديث متفقا مع منجه جال فيه وصال وأسهب وأطنب وهذا لا يعني أنه لم يكن موضوعيًّا فلا يظن أنه التزم المنجهية التزامًا دقيقًا إذ لم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك فهو ينقل أخبارًا وأحاديث متعددة الجوانب وكثيرًا ما يكون مضطرًّا إلى روايتها بتمامها حرصًا على سلامة الرواية وتمام الحديث أو الخبر أذياله: ولهذا التاريخ أذيال منها [٢]:

- ذيل ولد المصنف القاسم ولم يكلمه.
- ذيل صدر الدين البكري.
- ذيل عمر بن الحاجب.
- وذيل علم الدين البرزالي.
- ذيل أبي يعلى ابن القلانسي.

مختصراته [٣]: وله مختصرات منها: - ما اختصره الإمام أبو

---

(١) تاريخ دمشق المطبوعة عاصم - عائذ المقدمة: ص ١٦، وانظر مجلة المجمع العلمي بدمشق المجلد: ٤٩.

(٢) انظر كشف الظنون: ١ / ٢٩٤، الوافي بالوفيات: ١ / ٤٨.

(٣) كشف الظنون: ١ / ٢٩٤، والوافي بالوفيات ١ / ٤٨، والمجلد الأول مقدمة الدكتور

شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي المتوفي سنة ٦٦٥ هـ وهو نسختان كبرى في خمسة عشر مجلدًا وصغرى.

- مختصرًا للقاضي جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري صاحب لسان العرب نزله في نحو ربعه.

- مختصر للشيخ بدر الدين محمود بن أحمد العيني.

- انتقى منه جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ وسماه " تحفة المذكر المنتقى من تاريخ ابن عساكر ".

- الذيل على ذيل البرزالي للقاضي تقي الدين أبي بكر بن شهبة.

- منتخب للقاسم بن علي بن عساكر.

- منتخب للصفار.

- انتقى منه أحمد بن عبد الدائم المقدسي كتابا سماه: فاكهة المجالس وفكاهة المجالس.

- تعليق من تاريخ مدينة دمشق لأحمد بن حجر.

- مختصر لإسماعيل بن محمد الجراح اسمه: العقد الفاخر بتاريخ ابن عساكر.

- مختصر لأبي الفتح الخطيب.

- تهذيب ابن عساكر لعبد القادر بدران.

وقد صدر منه خمسة أجزاء ثم تابع العمل فيه الأستاذ أحمد عبيد فطبع منه جزءين: السادس والسابع ينتهي السابع بترجمة عبد الله بن سيار

المنجد: ص ٣٧، ٣٨.

ابن خلدون

أعلام المؤرخين

المؤرخ الكبير الفيلسوف
ابـن خلدون

هـو عبـد الـرحمن بـن محمـد بـن محمـد، ابـن خلـدون أبـو زيـد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المـؤرخ، العـالم الاجتمـاعي البحاثـة. أصـله مـن إشـبيلية، ومولـده ومنشؤه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمـه سلطانها الظـاهر برقوق. وولـي فيهـا قضـاء المالكيـة، ولم يتزَّ بزي القضاة محتفظًا بزي بلاده. وعزل، وأعيد. وتوفي فجأة في القاهرة.

كـان فصـيحًا، جميـل الصـورة، عـاقلا، صـادق اللهجـة، عزوفًـا عـن الضيم، طامحًا للمراتب العالية.

ولمـا رحـل إلـى الأنـدلس اهتـز لـه سلطانها، وأركـب خاصـته لتلقيـه، وأجلسه في مجلسه.

اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تـاريخ العرب والعجم والبربر) فـي سبعة مجلدات، أولهـا (المقدمـة) وهـي تعد من أصـول علم الاجتماع، ترجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنسية وغيرها. وختم (العبر) بفصل عنوانه.

امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه على ما كتبـه الأقدمون وعلـى أحـوال البشـر وقدرتـه علـى استعراض الآراء ونقدها، ودقـة الملاحظـة مـع حرية في التفكير وإنصاف أصحاب الآراء المخالفة لرأيـه. وقد كـان لخبرته في الحياة السياسية والإدارية وفي القضاء، إلى جانب أسفاره الكثيرة في شمالي إفريقية وغربيها إلى مصر والحجاز والشام، أثر

بالغ في موضوعية وعلمية كتاباته عن التاريخ وملاحظاته.

كان ابن خلدون مع شهرته في علم التاريخ عالم اجتماع وهو أول من وضع علم الاجتماع على أسسه الحديثة حيث خرج بنظرياته الاجتماعية حول قوانين العمران ونظرية العصبية وملاحظاته الدقيقة حول قيام وسقوط الدول وأعمارها وأطوارها. وقد ذكر له المؤرخون كتبًا مختلفة في الحساب والمنطق والتاريخ ولكن أهم وأشهر كتبه هو كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ويقع الكتاب في سبعة مجلدات أولها المقدمة التي تشغل ثلث حجم الكتاب وهي التي حققت له الشهرة العريضة وقد شملت الجغرافيا الرياضية والعمران والفلك والأقاليم السبعة وأثر الأقاليم والوسط الجغرافيّ في حياة البشر، والجغرافيا الاقتصادية مثل: أثر الهواء في أخلاق البشر، وفي اختلاف أحوال العمران، وفي الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم.

يعد ابن خلدون المؤسس لعلم الاجتماع وسبقت آراؤه وأفكاره ما توصل إليه أوجست كونت بعد ذلك بعدة قرون.

والفيلسوف المؤرخ (عبد الرحمن بن خلدون) المولود بتونس سنة ٧٣٢ هـ، والمتوفى بمصر سنة ٨٠٨ هـ، جدير بأن يظل موضوعًا متجددًا في دراستنا لإسهامات حضارتنا الإسلامية في التأريخ الحضاري الإنساني.

وقد اشتهر هذا الفيلسوف المسلم (بابن خلدون) نسبة إلى جده خالد بن عثمان، وفقًا للطريقة المتبعة في المغرب في إضافة واو ونون زيادة في التعظيم.

ولقد كانت نشأته مثل نشأة أترابه في عصره، ففي صباه حفظ القرآن على والده الذي كان معلمه الأول، كما درس إلى جانب والده على عدد من علماء العصر، وقد عني ابن خلدون بذكر أسماء هؤلاء العلماء، وذكر أهم الكتب التي درسها عليهم، غير أن ابن خلدون قد انقطع عن الدراسة في وقت مبكر بسبب هجرة العلماء والأدباء من تونس بعد وباء جارف سنة ٧٥٠ هـ.

- وكان ابن خلدون حينئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، فبدأ يشتغل بالوظائف العامة والسياسة، مع متابعة مستمرة للقراءة والاطلاع والكتابة والتعليم.

وأما حياته العملية فقد بدأها ابن خلدون بوظيفة " كتابة العلامة " أي ديوان الرسائل بتونس، ثم تقلب بعد ذلك في البلاد متوليًّا المناصب المختلفة، وقاسى كثيرًا، بل وعانى الأهوال الشديدة من المؤامرات السياسية، بل شارك فيها أحيانًا.

ويرى بعضهم أن ابن خلدون كان ابن عصره، وأننا لا يجوز أن نتصوره تصورًا بطوليًّا منفصلا عن بيئته وظروفها والعصر وتراثه، بل هو - كما يرى هؤلاء - ابن عصره وبيئته، وأنه أفاد من جهود المؤرخين السابقين، وخصوصًا بعد أن تحررت فكرة التأريخ من الاعتماد على المنقول، وتعلقت بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارات الإنسانية، والتعليل العقلي للمادة التاريخية منذ عصر المسعودي [(١)].

ونحن نخالف هذا القول بهذا الإطلاق العام، ونعتقد أن عبد الرحمن ابن خلدون كان ظاهرة تمثل رد فعل لعصره، وومضة متألقة في

---

(١) د. عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص ٣٢٨.

بيئة عصره وظروفه، وكأنها ألق الشمس قبل غروب دورة من دورات الحضارة، ونحن مع العلامة (مالك بن نبي) في أن عصر ابن خلدون لم يكن في مستوى ابن خلدون، ولو أنه كان في مستواه لأمكن أن تكون مقدمة ابن خلدون منعطقًا جديدًا في مسيرة البناء الثقافي الإسلامي.

وقد شهد عصر ابن خلدون سقوط آخر دولة مغربية وأندلسية عظمى، وهي دولة الموحدين التي أسسها المهدي بن تومرت (فكريًّا) وعبد المؤمن بن علي (سياسيًّا) قبيل منتصف القرن السادس الهجري، وقد قسمت هذه الدولة إلى ثلاث دول هي:

الحفصيون في إفريقية (تونس)، وبنو عبد الواد (بنو زيان) في الجزائر، وبنو مرين في المغرب الأقصى.

وقد كان عصره - كعصر ابن حزم الأندلسي في القرن الخامس الهجري - عصر فتن ودسائس وانقسامات، حتى إنه اضطر لأن يغمس يده في هذه الفتن.

على أن هذا لا يجعلنا ننكر تأثر ابن خلدون ببعض المؤرخين المسلمين السابقين الذين كانت تظهر على أيديهم أفكار متكاملة في تفسير التأريخ، وعلى رأس هؤلاء الذين تأثر بهم ابن خلدون، بل نقل عنهم واعتمد عليهم، وإن لم يذكر ذلك صراحة (ابن حزم الأندلسي).

بل إن الأمثلة التاريخية التي قدمها ابن خلدون، ليبين بها: " ما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام، وذكر شيء من أسباب ذلك " قد اقتبس بعضها من موسوعة " الفصل " لابن حزم. وليس هذا فحسب، بل إن ابن خلدون قد اقتبس نقد ابن حزم لهذه الأغلاط والأوهام.

وإن أوفى مقارنة لما كتبه ابن حزم، وهو ينقد التوراة، في كتابه العالمي " الفصل في الملل والأهواء والنحل " ومقدمة ابن خلدون ستوضح لنا مدى اقتباس ابن خلدون عن ابن حزم. حتى في الشواهد والأمثلة.

ولعل ابن خلدون قد أفاد أيضًا من الطرطوشي صاحب سراج الملوك، والحق أن ابن خلدون كان قفزة كبرى، ومنعطفًا جديدًا وخطيرًا في مسيرة المنهج التاريخي.

ابن خلدون رائد عصر جديد في فقه التاريخ:

لقد كانت النظرة التقليدية إلى التأريخ تهتم غاية ما تهتم بجمع الوقائع العسكرية والتحولات السياسية التي تتخذ صور المعاهدات أو التنازلات أو ما إلى ذلك من أمور تتصل بطريق أو بآخر بالخط السياسي والعسكري.

وقلما كان قارئ التاريخ يجد في ثنايا الكتابات الموضوعية أو الحولية البالغة حد المجلدات سطورًا أو صفحات تتناول ناحية فكرية أو اعتقادية، أو تحولاً اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا، أو رؤية نفسية، أو نظرة شبه شاملة - فضلا عن النظرة الشاملة - ترصد سائر العوامل المحركة والمهمة في صنع الحدث التاريخي، وهو أمر بسطنا القول فيه من قبل.

وقد يكون بإمكاننا في هذا البحث أن نقول:

إن ذلك المنهج - بصفة عامة - قد سيطر على حركة التاريخ البشري في سائر كتابات المؤرخين - باستثناء النظرات العارضة التي تناولناها آنفا - حتى ظهر ذلك العملاق العبقري المغربي الأندلسي المسلم عبد الرحمن بن خلدون.

إلا أننا - خضوعًا للموضوعية - نضطر إلى القول بأن مؤرخنا المسلم العظيم قد استطاع أن يضع فعلا رؤية تنظيرية لتفسير التأريخ بعوامل مختلفة، سماها طورًا العصبية الدينية أو القبلية، وسماها طورًا البيئة (أي الأثر الجغرافي) كما ألمع إلى العوامل البيولوجية والاقتصادية..

إلا أن المؤرخ الكبير لم يقدم لنا دراسة تاريخية تطبيقية نستطيع أن نتكئ عليها لكي نقول: إنه قد فتح عصرًا جديدًا في نهج التأليف التاريخي، كما أنه من سوء حظ مؤرخنا الكبير، أن إشعاعاته القوية واجهت أمة نائمة، كانت تعيش فترة اضطراب حضاري، فلم تستطع إيقاعاته بالتالي أن تقوم بدورها في تحريك المجتمع الإسلامي الفوار بالاضطرابات والشرور خلال القرون التي سبقت عصر اليقظة في أوروبا.. أي الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، (الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للميلاد).

ومع صخب الصراعات الصغيرة الطائفية في المجتمع الإسلامي العريض ضاعت إيقاعات ابن خلدون.. فلم تظهر إلا بعد أن اكتشف أصداءها أوروبيون كانوا يصغون بانتباه حضاري كبير لكل الإيقاعات المنبعثة من أركان العالم الإسلامي المتحضر. وهذا حق لا يمكن إنكاره؛ فإن ابن خلدون كان خميرة قوية، وإن لم نستطع نحن المسلمين الإفادة منها، فإن الأوروبيين قد أفادوا منها أي إفادة، ويعتبر ابن خلدون من القلائل الذين ترجمت أعمالهم في وقت مبكر إلى كل لغات العالم الحية تقريبًا، وقد كتب الأوروبيون حول مقدمته الشهيرة (وهي الجزء الأول من كتابه الكبير " العبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر " مئات الدراسات، بحيث لا يجد المؤرخ المسلم أي حرج في أن

يصرح بأن تأثير فكر ابن خلدون (بمقدمته في تفسير التأريخ وعلم العمران البشري) كان تأثيرًا مباشرًا وقويًّا وحاسمًا في يقظة الحضارة الأوروبية.

وقد تيقظ الأوروبيون منذ بداية عصر النهضة، وبرعوا في النظر إلى التاريخ نظرة أقرب إلى الشمول والتكاملية، فلم يعد التاريخ مجرد حروب ومعاهدات، بل أصبح في رأي أكثرهم:

" الأرض التي يجب أن تقف الفلسفة عليها وهي تنسج سائر ألوان المعرفة في نسيج واحد لينير طريق الحياة الإنسانية ".

ويروج الأوروبيون أن " فولتير " هو الذي بدأ هذه النظرة الشاملة للتأريخ، إذ إنه صاحب أول كتاب ذائع الصيت في تطبيق النظرة الجديدة للتأريخ، وهو كتاب: (رسالة في أخلاق الشعوب وروحها ووقائع التاريخ الرئيسية منذ شركمان وحتى لويس الثالث عشر).

لكن الحقيقة أن فولتير مسبوق بكثيرين، لعل من أهمهم " الراهب بوسيه " الذي كان يرى أن التاريخ " دراما إلهية مقدسة، وكل حادثة فيه هي درس من السماء تعلمه للإنسان "، كما سبقه أيضا المؤرخ المشهور " جيوفانو باتستافيكو " الذي كان يعترف بوجود العناية الإلهية، (مثل الراهب بوسيه) ولكنه في الوقت نفسه كان يفسر أحداث التاريخ تفسيرًا أرضيًّا وبشريًّا خاضعًا لقوانين شبه كلية، سواء كانت مسيرة التاريخ في اتجاه صحيح أو اتجاه فاسد.

وقد توصل فيكو إلى تقسيم ثلاثي للتاريخ على أساس أنه ثلاث مراحل (مرحلة الهمجية، ومرحلة البربرية، ومرحلة الحضارة)، وهو تقسيم يذكرنا بتقسيم هيجل، وتقسيم أوجست كونت، وإن كانت ثمة فروق كثيرة بينهم.

وعلى أية حال فإن النظرة الأوروبية تعتبر " فولتير " بداية عصر جديد في النظرة إلى التأريخ ووظيفته وتفسيره، لدرجة أن " أناتول فرانس " يبالغ فيسمي الفترة التي ظهر فيها " فولتير " " عصر فولتير "، ويبالغ أكثر فيقسم تاريخ الفلسفة إلى عصور أربعة هي: عصر سقراط، وعصر هوراس، وعصر رابلين، وعصر فولتير!!

والحق أن ابن خلدون هو المفتاح الكبير الواضح القسمات والمعالم، والمتكامل الرؤية والمنهج في قضية تفسير التأريخ.

بل إننا نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الكتابة التاريخية ينتظمها عصران:

- عصر ما قبل ابن خلدون.

- عصر ما بعد ابن خلدون.

ومهما وجدت نظرات متناثرة في تفسير التأريخ قبل ابن خلدون، أو وجدت كتابات سردية تقليدية بعد ابن خلدون، فإنه من الناحية الرسمية - على الأقل - يعتبر ابن خلدون مفرق طريق بين مرحلتين، وليس ذلك في الفكر التأريخي الإسلامي فحسب، بل في الفكر التأريخي الإنساني كله.

وليست هذه المكانة التي نعطيها لابن خلدون رأيًا عنصريًّا، أو عاطفيًّا، بل هي حقيقة اعترف بها كبار فلاسفة التاريخ الأوروبيين وسجلوها في شهادات صريحة واضحة. فإن أكبر مفسر أوروبي للتأريخ في العصر الحديث، وهو الأستاذ " أرنولد توينبي " يتحدث عن ابن خلدون في مواضع كثيرة من كتابه (دراسة للتأريخ)، ويفرد له في المجلد الثالث سبع صفحات (٣٢١ - ٣٢٧)، وفي المجلد العاشر أربع صفحات (٨٤ - ٨٧). وهو يقرر أن ابن خلدون " قد

تصور في مقدمته، ووضع فلسفة للتاريخ هي بلا مراء أعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان أو زمان " " المجلد الثالث ص ٣٢٢ " وهو يقول عن ابن خلدون في الفقرة نفسها: " إنه لم يستلهم أحداث السابقين، ولا يدانيه أحد من معاصريه، بل لم يثر قبس الإلهام لدى تابعيه، مع أنه في مقدمته للتأريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه ".

وأما المؤرخ العالمي (روبرت فلنت) فيقول عن ابن خلدون في كتابه الضخم (تأريخ فلسفة التأريخ):

" إنه لا العالم الكلاسيكي ولا المسيحي الوسيط قد أنجب مثيلا له في فلسفة التاريخ، هناك من يتفوقون عليه كمؤرخ، حتى بين المؤلفين العرب، أما كباحث نظري في التأريخ فليس له مثيل في أي عصر أو قطر، حتى ظهر فيكو بعده بأكثر من ثلاثة قرون لم يكن " أفلاطون " أو " أرسطو " أو " سان " أو " غسطين " أندادًا له، ولا يستحق غيرهم أن يذكر إلى جانبه.. إنه يثير الإعجاب بأصالته وفطنته، بعمقه وشموله، لقد كان فريدًا ووحيدًا بين معاصريه في فلسفة التأريخ، كما أن دانتي في الشعر، وروجو بيكون في العلم، لقد جمع مؤرخو العرب المادة التاريخية، ولكنه وحده الذي استخدمها " [١].

" لم يكن فحسب أعظم مؤرخي العصور الوسطى شامخًا كعملاق بين قبيلة من الأقزام، بل كان من أوائل فلاسفة التأريخ سابقا: ميكيافيلي، وبودان، وفيكو، وكونت، وكورنو " !! [٢].

---

(١) نقلا عن أرنولد توينبي: مقال بعالم الفكر المجلد الخامس - العدد الأول - الكويت.
(٢) أحمد محمد صبحي، في فلسفة التاريخ، ص ١٣٤، ١٣٥.

وبما أن ابن خلدون أسبقهم زمانًا وأبعدهم مكانة، كلهم كانوا عالة عليه، فإنه في الحق الإمام لمدرسة فلسفة التأريخ، والفيصل بين مرحلتين حاسمتين في منهج البحث التأريخي، إنه بداية عصر جديد في الكتابة التاريخية نستطيع أن نسميه بلا تحفظ (عصر ابن خلدون).

ابن خلدون رائد فلسفة التأريخ

ونحن هنا لن نقف طويلا عند ابن خلدون (مؤرخًا). وإنما سيقتصر حديثنا على مقدمته، التي تمثل الجزء الأول من موسوعته التاريخية " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر ".. ففي هذا الجزء الذي كتبه ابن خلدون مقدمة لكتابه الكبير، استطاع أن يقدم إطارًا متكاملاً لفلسفة نقدية للتاريخ، ويضع في ثنايا ذلك قواعد لعلم الاجتماع البشري " العمران "، لدرجة أن أكثر علماء الاجتماع يعدونه مؤسس علم الاجتماع، أكثر منه مؤسسًا لعلم فلسفة التأريخ [1]. والحقيقة أن فلسفة التاريخ ذات وشيجة قوية بعلم الاجتماع، فلا مجال للوقوف عند هذه القضية.

وقبل أن نستخلص أهم المبادئ التي انتهى إليها ابن خلدون نقدم عرضًا لهذه (المقدمة) أو هذا الجزء من كتاب " العبر " الذي كان له هذا الأثر في التأريخ.

لقد قسم ابن خلدون (مقدمته) [2] إلى الأجزاء التالية:

---

(١) انظر د. علي عبد الواحد وافي: تحقيق المقدمة جـ١، ٢٦٠ وهو الجزء نفسه الذي صدر في سلسلة أعلام العرب باسم: عبد الرحمن بن خلدون.

(٢) انظر ص ٦ - ٧ من مقدمة ابن خلدون - طبع دار إحياء التراث.

(أ) الديباجة: وفيها يذكر ابن خلدون أنه طالع كتب المؤرخين فوجدهم " لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل "، فوضع هذا الكتاب الذي يصف منهجه فيه [1] قائلا: وسلكت في ترتيبه وتبويبه، واخترعته من بين المناحي مذهبًا عجيبًا وطريقة مبتدعة وأسلوبًا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل هذه الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك ".

وهذه الديباجة لا تعدو أن تكون (مقدمة) للمقدمة، بالمعنى المعروف للمقدمات، من شرح المنهج، ومن بيان الجديد الذي يعتقد الكاتب أن يضيفه وأسباب التأليف ومنهجه الجديد.

ومن ثم يدخل الكاتب - بعد (مقدمة المقدمة) التي سماها (ديباجة) إلى موضوعه، فيبدأ الحديث تحت عنوان أطلق عليه " المقدمة " مع أنها من صميم بحثه.

(ب) المقدمة: وفيها يتحدث ابن خلدون في فضل علم التأريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط، وذكر شيء من أسبابها، [2] ذلك أن الأخبار " إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن

(١) د. عفت الشرقاوي: أدب التأريخ عند العرب ص ٣٣٣ وما بعدها.
(٢) المقدمة ص٩.

جادة الصدق، كثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأسبابها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر [1].

(ج) الكتاب الأول: وفيه يتناول ابن خلدون طبيعة العمران والاجتماع البشري، وقد قسمه إلى ستة أبواب:

الباب الأول: في العمران البشري جملة: فيه مقدمات تتصل بالجغرافيا الطبيعية والبشرية، أي أثر البيئة في أبدان البشر وأخلاقهم وأحوالهم.

الباب الثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال، وفيه موازنة بين أهل البدو وأهل الحضر وذكر خصائصهم، وكلام على العصبية والتغلب والملك.

الباب الثالث: وهو في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية، وفيه كلام عن نشأة الدول وتطورها قوة ثم ضعفًا بيان أنه " إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم، وذلك أن للدول أعمارًا طبيعية كما للأشخاص، وعمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال؛ لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العين والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب،

(١) المقدمة ص٩، ١٠.

والناس لهم مغلوبون، والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به كل الباقين عن السعي فيه.. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة، كأن لم يكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ منه الترف غايته.. فيصيرون عيالا على الدولة.. وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة.

الباب الرابع: ويخصه ابن خلدون لظواهر العمران الحضري كنشأة المدن وبناء الهياكل وخرائب الأمصار.

الباب الخامس: وفيه يتناول ابن خلدون المعاش ووجوبه ووجوهه وأصنافه ومذاهبه.

الباب السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، وفيه يصف العلم والتعليم بأنها شيء طبيعي في العمران البشري، وأن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، ويضرب لذلك مثلا حال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها في صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين، وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها واندحر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام " [١].

وهذه المقدمة، وما تلاها من أجزاء كتابه العبر الذي مثل محاولة

(١) عفت الشرقاوي: أدب التاريخ، ص ٣٣٣ وما بعدها.

إعطاء تاريخ عالمي، هي النظرية المتكاملة الأولى في التأريخ الإنساني، لتفسير التأريخ.. وشأن ابن خلدون فيها هو شأن الذين لحقوه واعتمدوا عليه من الأوروبيين وغيرهم، وتعمقت لدى بعضهم مشكلات تفسير التأريخ.

فعمل ابن خلدون يتسم بالشروط الأساسية لتفسير التأريخ، وهي التي لا يقوم (علم تفسير التأريخ) بدونها.

وهذه الشروط هي:

١ - الشمولية العالمية في النظرة إلى التأريخ، أو حسب تعبير بعضهم: " النظرة الكلية "؛ فالتأريخ المحلي أو النظرة الجزئية المحدودة، لا يمكن أن تشكل أساسا لتفسير التأريخ.

ولا ينتظر أن يستقرئ كل مفسر للتأريخ سائر الأمثلة التي تقدمها الوقائع التاريخية في سائر الحضارات، فذلك عمل، وإن كان هدفًا مثاليًّا، إلا أنه تطبيقه من الصعوبة بمكان كبير.

وحسب مفسر التأريخ أن يقدم شرائح من حضارات مختلفة بحيث تكون نتائجها المستخلصة منها صالحة للتكرار والتعميم.

٢ - العلية، فلا تفسير بدون تعليل، ولن تتحقق العبر واستخلاص السنن والقوانين بدون هذه العلية. وأي فلسفة، في أي علم من العلوم، لا بد أن تعتمد التعليل، وهذا من الفروق الأساسية بين المنهج التأريخي التقليدي والمنهج الحضاري أو منهج تفسير التأريخ.

والتعليل - أيضا - لا بد أن يكون قابلا للتكرار، في أطر حضارية أخرى، ولا بد أن يكون (عاما) شأن سائر القوانين. وأما التعليل الجزئي، الذي يشبه " الحكمة " الخاطفة، فلا يرقى إلى التعليل المطلوب لمفسر التأريخ.

والتعليل التاريخي الذي يعتمده مفسر التأريخ، ليس تعليلاً جزئيًّا - كما ذكرنا - وليس تعليلا خارجيا، بل هو تعليل باطني [1]، مستقى من الرؤية الشاملة الفلسفية لما يقبع خلف الوقائع الظاهرة. إنه نظر إلى الواقعة من داخلها، ومن نقطة الإحاطة بكل جوانبها، ومن ربطها بإطارها العام، وهذا ما ألمح إليه ابن خلدون بقوله:

" أما بعد، فإن فن التأريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والأول، والسوابق من القرون والدول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لهذا أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق " [2].

٣ - الفكر، فإذا كان المؤرخ مجرد مسجل للحدث، باحث عن الطرق الصحيحة لإثباته، فإن مفسر التأريخ يحتاج إلى عمليات فكرية معقدة، في محاولة لجمع جزئيات الماضي، ولاستحضاره في حاضره، عن طريق بنائه بناء تركيبيًا، ولاستخلاص أسباب اتجاهه للإيجاب أو السلب. فالجانب المعرفي والفكري أساسي لمفسر التاريخ.

---

(١) أحمد صبحي، في فلسفة التاريخ، ص ١٣٩.

(٢) المقدمة ٣، ٤.

٤ - الحركة أو " الديناميكية " فالمفسر للتاريخ يقدم لنا صورة تبدو وكأنها إعادة حية (متحركة) للوقائع، حتى نحس بطبيعة العوامل التي تقف خلف الأحداث. ولهذا يلجأ فيلسوف التاريخ لرصد كل العوامل النفسية " والبيولوجية " والفكرية والعقدية والاقتصادية، ويربط بينها ويعطي لكل عامل حجمه في مرحلته التاريخية.. أما المؤرخ فهو يقدم لنا التأريخ أقرب إلى السكونية الجامدة التي تعطينا جانبًا معرفيًّا منظورًا، ولا تحرك فينا جوانب الاستحضار والتفاعل، والبصر بالعوامل الباطنية للحدث.

- وفي مقدمة ابن خلدون ومن خلال عرضه، نستطيع أن نتحقق من وجود هذه الشروط التي تجعله مفسرًا رائدًا للتاريخ، وهي الشروط التي انتهى إليه البحث الفلسفي في التاريخ، كما ذكرنا.

قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها:

- يرى ابن خلدون في تفسيره للتاريخ أن التطور سنة من سنن الله في الحياة الاجتماعية، ويقول: " إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول " (١).

وأهم ما يوجه التطور الاجتماعي والعمراني عند ابن خلدون هو نظريته في العصبية، فهي بمثابة المحور الذي تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية والتاريخية عنده، وهو يتخذ من هذه الرابطة موضوعًا لدراسة شاملة وعميقة فيتكلم عن مصدر العصبية، ويردها

(١) المقدمة: ص ٣٨، علي عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلدون، ص ١٦٦.

إلـى الطبيعـة البشـرية " لأن صـلة الـرحم طبيعـة فـي البشـر إلا فـي الأقل، ومن صفتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحـام إن ينـالهم ضيم أو تصيبهم هلكة.

ويدخل في هذه العصبية عنده (عصبة الـولاء)، والعصبية عنده من خصـائص البادية، وهي ما يفسد بحياة الحضر، ولهـا أثرهـا الهـام فـي الحيـاة الاجتماعيـة؛ لأن بهـا يـتم التغلـب، وبالتغلـب يحصـل الملـك، وهكذا تلعب العصبية دورًا هامًّـا في تأسيس الملك وتكوين الدولـة، فاتساع الدولة يكون مناسبًا مع قوة تلك العصبية، ويلاحظ ابن خلدون نوعًا من العلاقة بين قوة العصبية وبين أمور الديانـة والـدعوة الدينيـة أيضًـا، ففـي رأيـه أن الـدعوة الدينيـة مـن غيـر عصـبية لا تـتم، كمـا يلاحظ نوعًا من المشـابهة بين تـأثير الـدين وبين تـأثير العصـبية فـي الحياة الاجتماعية، وهي نظرية موفقة إلى حد كبير فـي إظهـار أوثـق أنواع الروابط الاجتماعية، وتعيين أهم أشكال التكاتف الاجتماعي في مثل تلك البيئـات الجغرافيـة وتلـك العهـود التاريخيـة، وهـي تـدل علـى تفكير فاحص ونـافذ ومحيط ومتعمق في درس الحـوادث الاجتماعيـة وتعليل الوقائع التاريخية، كذلك تكشف نظرية ابن خلـدون فـي الـدول وأعمارها عن نظرية فـي التطـور الاجتمـاعي، ذات أبعـاد بيولوجيـة، فالدولـة عنـده كـائن حـي يتطـور علـى الـدوام وفـق نظـام ثابـت، كمـا تتطور جميع الكائنات الحية [١].

فالحضارة عند ابن خلدون تتعاقب علـى الأمم في ثلاثـة أطـوار: هـي طور البداوة، ثم طـور التحضـر، ثـم طـور التـدهور الـذي يـؤدي إلـى السقوط.

---

(١) عفت الشرقاوي، أدب التاريخ، ص ٣٤٢، ٣٤٣.

- فأمــا طــور البــداوة فيمثــل لــه ابــن خلــدون بمعيشــة البــدو فــي الصحاري، والبربر في الجبال، والتتار في السهول، وهؤلاء عند ابن خلــدون لا يخضــعون لقــوانين مدنيــة ولا تحكمهــم ســوى حاجــاتهم وعاداتهم.

- وأما طور التحضر: فهو طور تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح، ثـم الاسـتقرار فـي المـدن، والـتمكن مـن العلـوم والصـناعات، وهـذا الطور يقوم على الدين والعصبية - وقد عقد ابن خلدون لهذا الفصل فصلا آخر بعنوان " فصل في أن الدولـة العامـة الاستيلاء، العظيمـة الملك، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق ".

- وأمــا طــور التــدهور: فيــأتي فــي نهايــة التحضــر، بعـد مرحلــة الازدهار، ووصول الناس إلى مرحلة الانغماس في الترف، والتحلل في الأخـلاق، وتغير العـادات إلـى المنـاكر، والتواضع عليهـا. ويـرى ابن خلدون أن مراحل تحضر الدولة هي ذاتها عوامل تدهورها، ذلك أن الحضارة، وإن كانت غاية العمران فهي في الوقت نفسه مؤذنة بنهاية عمره، وأول هذه العوامل هو العصبية التـي تتسم بهـا الرياسـة والملك، ولكن صاحب الرياسة يطلب بطبعه الانفراد بالملك والمجد، والطبيعة الحيوانيـة تدفعـه إلـى الكبـر والأنفـة، فيـأنف مـن أن يشـاركه أهـل عصـبيته فيـدفعهم عـن ملكـه، ويأخـذهم بالقتـل والإهانـة وسـلب النعمة، حتى يصبحوا بعض أعدائه، وطبيعة التأله في الملوك تدفعه إلــى الاســتئثار، إذ لا تكــون الرياســة إلا بــالانفراد، فيجــدع أنــوف عشيرته وذوي قرباه لينفرد بالملك والمجد ما استطاع، ويعاني الملك فـي ذلـك بأشـد ممـا عـانى فـي إقامـة الملـك، لأنـه كـان يـدافع الأجانـب وكـان ظهـراؤه علـى ذلـك أهـل العصـبية أجمعهـم، أمـا حـين الانفـراد بالملك فهو يدافع الأقارب مستعينًا بالأباعد، فيركب صعبًا من الأمر.

إنه أمر في طبائع البشر لا بد منه في كل الملوك. على أن العامل الحاسم في ضعف الدولة هو الترف، إنه إذا كان قد زاد من قوة الدولة في أولها، فإنه أشد العوامل أثرًا في ضعفها وانهيارها، ويفسر ابن خلدون ذلك بأسباب اقتصادية وأخلاقية ونفسية.

أما العامل الاقتصادي فإن طبيعة الملك تقتضي الترف حيث النزوع إلى رقة الأحوال في المطعم والملبس والفرش والآنية، وحيث تشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وحيث إجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل مع التوسعة في الأعطيات على الصنائع والموالي، وإدرار الأرزاق على الجند، ويزيد الانغماس في الترف والنعيم لا من جانب السلطان وبطانته فحسب، بل من جانب الرعية أيضا، إذ الناس على دين ملوكهم (١).

أما العامل الأخلاقي النفسي، الذي يجعل الترف معول هدم يؤدي إلى انهيار الدولة، فمبعثه في رأي ابن خلدون ما يلزم عن الترف من فساد الخلق، فإن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وكثير من مذمومات الخلق، فتذهب عن أهل الحضر طباع الحشمة ويقذعون في أقوال الفحشاء، فضلا عن أن الترف يذهب ويضعف العصبية والبسالة، حتى إذا انغمسوا في النعيم أصبحوا عيالا على الدولة، كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم، فالترف مفسد لبأس الفرد وشكيمة الدولة، والترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الفساد والسفه، والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل

(١) أحمد محمد صبحي، في فلسفة التاريخ، ص ١٤٧، ١٤٨.

متعهـا، حتـى يتفشـى الخـلاف والتحاسـد، ويفت ذلـك فـي التعاضـد والتعاون، ويفضـي إلى المنازعة ونهاية الدولة [1].

وقد انتهى ابن خلدون من خلال نظريته في تفسير التـاريخ - باستثناء عشرات النظرات والآراء الجزئية - إلـى عدد من القوانين اعتبرت جوهر نظريته، وهي:

١ - أن تطور التاريخ يخضع للتدافع والصراع والتفاعل.

٢ - أن العصبية الدينية والقبلية لها دور أساسي في بناء الدول.

٣ - أن الحضارة كالكائن الحي في تطوره من البداوة إلى الحضـارة ثم الاضمحلال.

٤ - وأن الـدول كـالأفراد تخضـع لـدورة الحيـاة الفرديـة نفسـها حتـى تموت.

٥ - أن العوامل الجغرافية والبيئية مؤثرة في التاريخ.

٦ - أن للاقتصاد دورًا مهمًّا في العمران البشري.

٧ - أن الدول تسقط بسقوط العصبية والولاء للدين.

٨ - أن العرب (والإنسانية كلها) لا تصلح بغير الدين.

إننـي هنـا لا أحـاول القيـام بعمليـة استقصـائية للنظريـة الخلدونيـة فـي تفسير التأريخ، لكن الذي أردت الوقوف عنده هو المكانة التي تبوأتها الفكرة الخلدونية في تفسير التأريخ، سواء في الحضارة الإسلامية أو في الفكر التأريخي الإنساني.

لقد شكلت مقدمـة ابن خلـدون منعرجًا حاسمًا في كيفيـة فهم الإنسـان

---

(١) أحمد محمد صبحي، في فلسفة التاريخ، ص ١٤٩.

لتأريخه وتقويمه له. وما يرجو منه من كشف، لا عن ماضيه فحسب، بل خاصة عن تطور الجنس الذي ينتمي إليه ومصيره.

لقد كانت الكتابة التاريخية - قبل ابن خلدون - وعلى امتداد التاريخ كله، باستثناء الشذرات التي ألمحنا إليها..

- كانت هذه الكتابات تنظر إلى التأريخ على أنه مجرد رواية صادقة، ووثيقة مؤكدة في نسبتها إلى صاحبها وعصرها وسلامة مضمونها، ومعلومات جزئية غايتها الإلمام بحوادث الماضي والإحصاء العددي لها.. أجل: حاول الإنسان أولاً - أن يؤرخ للحوادث البارزة، أي أن يكون لنفسه، ولعشيرته، ولقومه ذاكرة تحفظ المفاخر خاصة، وتضبط أزمانها حسب السنوات، من دون أن يحاول أن يفهم فهمًا عقليًّا عميقًا ضرورة بروزها في زمن وبيئة خاصة، وسر تداخلها، ومدى تأثيره على جنسه كإنسان يقطع النظر عن النظرة الجزئية المحدودة.

- وعلى الرغم من الومضات الصادرة من حين إلى حين في بعض أحقاب التأريخ، وعلى يد بعض الأفذاذ الذين ألمحنا إليهم، فإن التأريخ بقي محصورا في دائرة الحفظ التسجيلي للوقائع، مع توخي الصدق، والتحري في الرواية.

ولعل مرحلة الصدق والتحري ودراسة الوثائق، بل الاعتماد عليها، هي أفضل ما استطاع المنهج التأريخي أن يصل إليه قبل عصر ابن خلدون.

وما إن جاء مؤرخنا المسلم العظيم حتى بدأ التأريخ - كما يقول (إيف لاكوست) (Lacaste Yves) " يكتسي صبغته العلمية ".

- لقد فهم (ابن خلدون) علاقة التفاعل المتبادلة، التي تربط الإنسان

بتأريخه.. وقد أسماها ابن خلدون " التغلبات للبشر بعضهم على بعض "،وقامت بعد ابن خلدون نظريات عالية الصوت، تتحدث عن الصراع، وعن " الديالكتيك " وعن " الجدلية المادية " و " الجدلية الفكرية ".. كلها قد اتكأت على هذا القائد العظيم، وانحرفت عنه يمينًا أو يسارًا.

إن ابن خلدون قدم المحاولة العلمية الأولى التي تخصصت في تفسير التأريخ، وهي محاولة اعتمدت على المنهج القرآني، ولم تنفصل عنه.. لقد صور ابن خلدون حقيقة التأريخ بكل وضوح في عبارته المشهورة:

" حقيقة التأريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.

ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين على رؤية ابن خلدون للتأريخ - كما صورتها عبارته السابقة - فيقول:

إن هذا التعريف للتأريخ يدهشنا، إذ هو تعريف له كما نفهمه نحن اليوم، بل كما يفهمه أنصار الحركة التجريدية الذين حملوا حملة شعواء في مؤتمر سنة ١٩٥٠ م بباريس، على من بقي من المؤرخين متمسكًا بالطريقة التقليدية في رواية الحوادث واعتبار التأريخ يكفي أن يكون سجلاً لها. فابن خلدون يريد عكس ذلك، فهو يريد أن يجعل من التأريخ أداة كشف عن سر " الاجتماع الإنساني "،

وعن خروج هذا الإنسان من " التوحش " إلى " التأنس " بفضل الله، ثم بفضل الصراع الجدلي الذي يعبد سبيله، عبر عقبات متجددة، نحو إنسية أكمل، عن طريق الرقي المستمر الناشئ حتمًا عما " ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال "، وطبيعة الأحوال هذه التي يشير إليها ابن خلدون، ويعتبرها القانون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي لا يعاند، إنما هي سنة الله التي توجه شراع الخليقة، لينة تارة، عنيفة أخرى، والتي أشار إليها القرآن في أكثر من آية، وهكذا يصبح التأريخ، استكشافًا كليًّا لتطور الإنسان، ومحاولة حل للغز وضعه اليوم في هذا الكون، ولمصيره العاجل أو الآجل.

ولئن كان ابن خلدون لم يطبق كثيرًا من آرائه هذه الطموحة الجريئة في كتاب العبر، فإن ذلك لا يسلب فضل التعبير عنها بغاية الدقة والوضوح. فإنه كان من المستحيل علميًّا - لا سيما في زمانه، تطبيقها من طرف باحث واحد، في موسوعة فتحت صفحاتها لتاريخ العالم الإسلامي بأكمله - ولعل استعصاء تطبيق هذه الآراء في كتاب (العبر) هو الذي جعل ابن خلدون يضمن خلاصة أفكاره وعبره واعتباراته خاصة في (المقدمة).

وهكذا فتح أبوابها للاجتماع والاقتصاد والمؤسسات، وضروب الثقافات والعلوم. لأن كل ذلك إن لم يكن تاريخًا صرفًا بالمعنى الضيق، فلا غنى للمؤرخ عنه، ولا سبيل لفهم الإنسان بدونه.

وهكذا كان ابن خلدون عملاقا، يقف متفردا، كحد فاصل بين مرحلتين متميزتين في المنهج التأريخي، وقد أعطى بهذا المنهج المتفرد سبقًا للحضارة الإسلامية، التي كان لها الفضل الكبير في

الانتقال بالتأريخ من مرحلة الجمع إلى مرحلة التفسير، ومن منهجية التوثيق إلى منهجية التمحيص والتركيب الفلسفي الذي يمثل مرحلة جديدة في الرشد العقلي للإنسانية كلها [١].

* * *

(١) من مقال للدكتور عبد الحليم عويس بعنوان ابن خلدون وريادته لعلم تفسير التأريخ، مجلة البحوث الإسلامية.

ابن الأثيــر

أعــلام المؤرخــين

المــؤرخ الكبيـــر
ابـن الأثـير [١]

يحتل المؤرخ العربي الإسلامي عز الدين أبو الحسن علـي بن محمد المعروف بابن الأثير مكانة متميزة بين المؤرخين فـي تراثنـا العربـي الإسلامي مثلما يحظى كتابه: " الكامل في التـاريخ " و " أسد الغابـة فـي معرفـة الصـحابة " بثقـة مطلقـة إذ يعدّه عمدة المؤرخين القدامى والمحدثين مرجعًا هامًّا لا يستغنى عنه، قال فيه السخاوي في كتابه " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ". " قال شيخنا: أنه أحسن التـواريخ بالنسبة إلى إيراد الوقائع موضحة بينـة حتـى كـأنَّ السـامع فـي الغالـب حاضرها من حسن التصرف وجودة الإيراد ".

ونـوه متـرجم حيـاة ابـن الأثيـر فـي دائـرة المعـارف الإسـلامية بكتـاب

(١) مصادر الترجمة: - عبد القادر أحمد طليمات:
١ - ابن الأثير الجزري المؤرخ - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٩.
٢ - مقدمـة كتـاب التـاريخ البـاهر للدولـة الأتابكيـة، ط دار الكتب الحديثـة، تحقيق عبد القـادر أحمد طليمات، ١٩٦٣ م.
- محمد عبد الله الحمدان، بنو الأثير، الفرسان الثلاثة.
- نهلة أنيس محمد مصطفي، الأيوبيون في كتابات كل من ابن الأثير وأبي شامة.
- شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون - دار العلم للملايين - القاهرة - ١٩٨٧.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بدون تاريخ.
- السـيد البـاز العرينـي: مؤرخـو الحـروب الصـليبية - دار النهضـة العربيـة - بيـروت - ١٩٦٢م.
- نظير حسـان سـعداوي: المؤرخون المعاصـرون لصـلاح الدين الأيـوبي - مكتبـة النهضـة المصرية - القاهرة - ١٩٦٢م.
- د. سليمان الدخيل، نظرة في كتاب (الكامل) لابن الأثير، (مجلة البيان، العدد ١٢).
- محمد العبدة، ابن الأثير وموقفه من الدولـة العبيديـة وبعض الـدول المعاصـرة لهـا، (مجلـة البيان، العدد ٩)<
- دائرة المعارف الإسلامية
- الذهبي، سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ.
- ابن كثير، البداية والنهاية.

الكامل فقال: " وهو - أي ابن الأثير - صاحب الكتاب المشهور: " الكامل في التاريخ " الذي يستشهد به كثيراً في هذه الدائرة ".

وابن الأثير مؤلف " الكامل " و " وأسد الغابة في معرفة الصحابة " هو الابن الأوسط لأثير الدين الجزري وأحد ثلاثة أخوة نسبوا إلى والدهم " أثير الدين " المتحدر من أسرة عربية الأصل تنتمي إلى بني شيبان أحد بطون بكر بن وائل العربية، وهي أسرة غنية كانت تمتلك عقارات وإقطاعات، وشغل أفرادها مناصب حكومية عالية، وقد شغل والد ابن الأثير منصب رئيس ديوان " جزيرة ابن عمر " التابعة للموصل ونائب وزير الموصل فيها، وجاراه في الالتحاق بالوظائف الحكومية ولداه: مجد الدين: وهو الأكبر، وضياء الدين: وهو الأصغر أما مؤلف الكامل الولد الأوسط عز الدين فقد شغله عن الوظيفة انصرافه إلى العلم تدريساً وتأليفاً.

وقد نبغ الأخوة الثلاثة في مجال العلم وكانت لهم مصنفات في مختلف أبوابه، حظي بعضها بالشهرة إلى يومنا هذا، أما مجد الدين [(١)] وهو الأكبر فلم تصرفه خدمته للأيوبيين عن التصنيف في

---

(١) قال الذهبي: " القاضِي، الرَّئِيسُ، العَلاَمَةُ، البَارِعُ، الأوحدُ، البَلِيْغُ، مَجْدُ الدِّيْن، أَبُو السَّعَادَاتِ المُبَارَكُ بنُ مُحَمَّدِ بن مُحَمَّدِ بن عَبْدِ الكريْمِ بن عَبْدِ الوَاحِدِ الشَّيْبَانِيُّ، الجَزَرِيُّ، ثُمَّ المَوْصِلِيُّ، الكاتِبُ، ابْنُ الأثِيْرِ، صَاحِبُ (جَامِعِ الأُصُوْلِ)، وَ(غَرِيْبِ الحَدِيْثِ)، وَغَيْرِ ذَلِكَ. مَوْلِدُهُ: بجَزِيْرَةِ ابْن عُمَرَ، فِي أَحَدِ الرَّبِيْعَيْن، سَنَة أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَخَمْس مائَةٍ، وَنَشَأَ بِهَا، ثُمَّ تحَوَّلَ إِلَى المَوْصِلِ، وَسَمِعَ مِنْ: يَحْيَى بْن سعدُوْنَ القُرْطُبِيِّ، وَخَطِيْبِ المَوْصِلِ، وَطَائِفَةٍ. وَرَوَى: الكُتُبَ نَازلاً، فَأَسنَدَ (صَحِيْحَ البُخَارِيِّ)، عَن ابْن سرَايَا، عَنْ أَبِي الوَقْتِ، وَ(صَحِيْحَ مُسْلِمٍ)، عَنْ أَبِي يَاسِرِ بن أَبِي حَبَّةَ، عَنْ إِسْمَاعِيْلَ بْن السَّمَرْقَنْدِيِّ، عَن التُّنْكُتِيِّ، عَنْ أَبِي الحُسَيْن عَبْدِ الغَافِرِ، ثُمَّ عَن ابْن سُكَيْنَةَ إِجَازَةً، عَن الفُرَاوِيِّ، وَ(المُوَطَّأ)، عَن ابْن سَعدُوْنَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَتَّابٍ، عَن ابْن مُغِيْثٍ، فَوَهِمَ، وَ(سُنَنَ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيَّ) بِسَمَاعِهِ مِن ابْن سُكَيْنَةَ، وَ(سُنَنَ النَّسَائِيِّ)، أَخْبَرَنَا يَعِيْشُ بنُ صَدَقَةَ، عَن ابْن مَحْمُوَيْه. ثُمَّ اتَّصَلَ بِالأَمِيْرِ مُجَاهِدِ الدِّيْن قَيْمَاز الخَادِمِ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ مَخْدُومُهُ، فَكَتَبَ الإِنْشَاءَ لِصَاحِبِ المَوْصِلِ عِزِّ الدِّيْن مَسْعُوْدٍ الأَتَابكِيِّ، وَوَلِيَ دِيْوَانَ الإِنْشَاءِ، وَعَظُمَ

الحديث والتفسير واللغة، درس النحو على ابن الدهان في الموصل والحديث في بغداد، وتولى خدمة الأمير " قيماز " الذي حكم البلاد قبل سيف الدين غازي ثم تولى ديوان الرسائل لمسعود بن مودود ونور الدين أرسلان شاه، ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه،

قدرهُ، وَلهُ اليَدُ البيضاءُ فِي التَّرَسُّل، وَصنَّفَ فِيْهِ، ثُمَّ عَرَضَ لهُ فالِجٌ فِي أطرافِهِ، وَعجزَ عَن الكِتابَةِ، وَلزِمَ دَارَهُ، وَأنشأ رِبَاطاً فِي قرْيَةٍ وَقفَ عَلَيْهِ أملاكهُ، وَلهُ نظمٌ يَسيرٌ. قالَ الإِمَامُ أَبُو شَامَةَ: قرأَ الحَدِيْثَ وَالعِلمَ وَالأدبَ، وَكانَ رَئِيْساً مُشَاوَراً، صَنَّفَ (جَامِعَ الأُصُوْل)، وَ(النِّهَايَة)، وَ(شرحاً لمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ)، وَكانَ بِهِ نقرسٌ، فكانَ يُحْمَلُ فِي مَحَفَّةٍ، قرأَ النَّحْوَ عَلى أبي مُحَمَّدٍ سَعِيْدِ ابْن الدَّهَّان، وَأبي الحرَمِ مَكِّيٍّ الضَّرير..، إِلى أنْ قالَ:

وَلمَّا حَجَّ سَمِعَ بِبَغْدَادَ مِن ابْن كُلَيْبٍ، وَحَدَّثَ وَانتفعَ بِهِ النَّاسُ، وَكانَ وَرِعاً، عَاقِلاً، بَهِيًّا، ذا بِرٍّ وَإِحسَانٍ، وَأَخُوْهُ عِزُّ الدِّيْن عليٌّ، صَاحِبُ (التَّاريْخ)، وَأَخُوْهُمَا الصَّاحبُ ضِيَاءُ الدِّيْن، مُصَنِّفُ كِتاب (المَثَلِ السَّائِر).

وَقالَ ابْنُ خَلِّكانَ: لمَجْدِ الدِّيْن كِتابُ (الإِنصَافِ فِي الجمع بَيْنَ الكشْفِ وَالكشَّافِ) تفسيرَي الثَّعْلبيِّ وَالزَّمَخْشَريِّ، وَلهُ كِتابُ (المُصْطَفَى المُخْتَار فِي الأدعيَةِ وَالأذكار)، وَكِتابٌ لطيفٌ فِي صِنَاعَةِ الكِتابَةِ، وَكِتابُ (البَدِيْع فِي شرح مقدِّمَةِ ابْن الدَّهَّان)، وَلهُ (دِيْوَانُ رَسَائِلَ).

قُلْتُ: رَوَى عَنْهُ: وَلدُهُ؛ وَالشِّهَابُ القُوْصِيُّ، وَالإِمَامُ تاجُ الدِّيْن عَبْدُ المُحْسِن بنُ مُحَمَّدِ بن الحَامض شَيْخُ البَاجربقِيّ، وَطَائِفةٌ. وَآخِرُ مَنْ رَوَى عَنْهُ بالإِجَازَةِ: الشَّيْخُ فخْرُ الدِّيْن ابْنُ البُخَارِيِّ.

قالَ ابْنُ الشَّعَّار: كانَ كاتِبُ الإِنشاءِ لدولةِ صَاحِبِ المَوْصِلِ نُوْر الدِّيْن أرْسَلان شَاه بن مَسْعُوْدِ بن مَوْدُوْدٍ، وَكانَ حَاسِباً، كاتِباً، ذكيًّا..، إِلى أنْ قالَ: وَمِنْ تصَانِيْفِهِ كِتابُ (الفرُوْق فِي الأبنِيَةِ)، وَكِتابُ (الأذواءِ وَالذَّوَاتِ)، وَكِتابُ (المُخْتَار فِي مَنَاقِبِ الأخيَار)، وَ(شرحُ غَرِيْبِ الطِّوَال) قالَ: وَكانَ مِنْ أشدِّ النَّاس بُخلاً.

قُلْتُ: مَنْ وَقفَ عقارَهُ للهِ فليْسَ ببخيلٍ، فمَا هُوَ ببخيلٍ، وَلا بجَوَادٍ، بَلْ صَاحِبُ حزمٍ وَاقتصَادٍ - رَحِمَهُ الله.

عَاشَ ثلاثاً وَسِتِّيْنَ سَنَة. تُوُفِّيَ: فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِّمائَةٍ بِالمَوْصِلِ.

حكى أَخُوْهُ العِزُّ، قالَ: جَاءَ مَغْرِبِيٌّ عَالجَ أخِي بدُهْنٍ صَنَعَهُ، فبَانَتْ ثمَرَتهُ، وَتمَكَّنَ مِنْ مَدِّ رِجْليْهِ، فقالَ لِي: أعْطِهِ مَا يُرْضِيهِ وَاصرفهُ. قُلْتُ: لِمَاذا، وَقدْ ظهَرَ النُّجْحُ؟

قالَ: هُوَ كمَا تقوْلُ، وَلكِنِّي فِي رَاحَةٍ مِنْ تركِ هَؤُلاءِ الدَّوْلةِ، وَقدْ سَكَنَتْ نفْسِي إِلى الانقطاع وَالدَّعَةِ، وَبالأمس كُنْتُ أذِلُّ بالسَّعِي إِليْهم، وَهنا فمَا يَجيئونِي، إِلاَّ فِي مشُوْرَةٍ مُهِمَّةٍ، وَلمْ يَبْقَ مِنَ العمر إِلاَّ القلِيْلُ. سير أعلام النبلاء، (٢١/٤٩٢).

ويقول ابن خلكان: " إنه صنف معظم كتبه إن لم يكن كلها وهو على هذه الحال "، وله مصنفات منها: " كتاب الإنصاف في تفسير القرآن "، و " كتاب غريب الحديث "، و " كتاب جامع الأصول في حديث الرسول "، وغيرها..

وأما الأخ الأصغر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ - ٦٣٧هـ)،[١] فقد ولد في جزيرة ابن عمر وتوفي ببغداد، وترجع شهرته إلى أنه كان من أصحاب الأساليب، ويعد كتابه المشهور في البلاغة: " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر "، الذي طبع ببولاق ١٢٨٢هـ، من أهم المراجع في بابه، ومن مصنفاته أيضاً: " الوشي المرقوم في حلّ المظلوم "، و " المعاني المخترعة في

(١) قال الذهبي: " الصَّاحِبُ، العَلاَّمَةُ، الوَزِيْرُ، ضِيَاءُ الدِّيْنِ، أَبُو الفَتْحِ نَصْرُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الكَرِيْمِ بنِ عَبْدِ الوَاحِدِ الشَّيْبَانِيُّ، الجَزَرِيُّ، المُنْشِئُ، صَاحِبُ كِتَابِ (المَثَلِ السَّائِرِ فِي أَدَبِ الكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ).
مَوْلِدُهُ: بِجَزِيْرَةِ ابْنِ عُمَرَ، فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ وَخَمْسِمائَةٍ، وَتَحَوَّلَ مِنْهَا مَعَ أَبِيْهِ وَإِخْوَتِهِ، فَنَشَأَ بِالمَوْصِلِ، وَحَفِظَ القُرْآنَ، وَأَقْبَلَ عَلَى النَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالشِّعْرِ وَالأَخْبَارِ.
وَقَالَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ (الوَشْيِ) لَهُ: حَفِظْتُ مِنَ الأَشْعَارِ مَا لاَ أُحْصِيْهِ، ثُمَّ اقْتَصَرْتُ عَلَى الدَّوَاوِيْنِ لأَبِي تَمَّامٍ وَالبُحْتُرِيِّ وَالمُتَنَبِّي فَحَفِظْتُهَا.
قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ: قَصَدَ السُّلْطَانَ صَلاَحَ الدِّيْنِ فَقَدَّمَهُ، وَوَصَلَه القَاضِي الفَاضِلِ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ أَشْهُراً، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى وَلَدِهِ المَلِكِ الأَفْضَلِ فَاسْتَوْزَرَهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ صَلاَحُ الدِّيْنِ، تَمَلَّكَ الأَفْضَلُ دِمَشْقَ، وَفَوَّضَ الأُمُوْرَ إِلَى الضِّيَاءِ، فَأَسَاءَ العِشْرَةَ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، فَأُخْرِجَ فِي صُنْدُوْقٍ، وَسَارَ مَعَ الأَفْضَلِ إِلَى مِصْرَ، فَرَاحَ المُلْكُ مِنَ الأَفْضَلِ، وَاخْتَفَى الضِّيَاءُ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الأَفْضَلُ بِسُمَيْسَاطَ، ذَهَبَ إِلَيْهِ الضِّيَاءُ، ثُمَّ فَارَقَهُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّمائَةٍ، فَاتَّصَلَ بِصَاحِبِ حَلَبَ، فَلَمْ يَنْفُقْ، فَتَأَلَّمَ، وَذَهَبَ إِلَى المَوْصِلِ، فَكَتَبَ لِصَاحِبِهَا.
وَلَهُ يَدٌ طُوْلَى فِي التَّرَسُّلِ، كَانَ يُجَارِي القَاضِيَ الفَاضِلَ، وَيُعَارِضُهُ، وَبَيْنَهُمَا مُكَاتَبَاتٌ وَمُحَارَبَاتٌ.
وَقَالَ ابْنُ النَّجَّارِ: قَدِمَ بَغْدَادَ رَسُوْلاً غَيْرَ مَرَّةٍ، وَحَدَّثَ بِهَا بِكِتَابِهِ، وَمَرِضَ، فَتُوُفِّيَ فِي رَبِيْعٍ الآخِرِ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلاَثِيْنَ وَسِتِّمائَةٍ، وَقِيْلَ: كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيْهِ عِزِّ الدِّيْنِ مُقَاطَعَةٌ وَمُجَانَبَةٌ شَدِيْدَةٌ.
الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٢٣/٧٤).

صناعة الإنشاء ".

ويعد الأخ الأوسط أكثرهم شهرة، ولد في الرابع من جمادى سنة ٥٥٥ هـ في جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، وانتقل إلى الموصل مع أسرته حيث عمل فيها والده، وهيأ له أبوه ولأخويه سبل التعليم، فألحقه في طفولته بأحد الكتاتيب في جزيرة ابن عمر فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وفي الموصل اتصل بأسرها العلمية وتردد على مجالس العلم فيها فسمع من خطيبها أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطورسي، وأبي الفرج يحيى الثقفي، ومسلم بن علي السيّجي، وتردد على الشام أكثر من مرة زمن الأيوبيين فعقد صداقات مع علماء الشام ونال شهرة في الوسط العلمي فيها محدثاً ومؤرخاً، تتلمذ على عدة أشياخ فسمع الحديث من أ بي القاسم بن حصري، وزين الأمناء، وابن سويدة التكريتي، وابن رواحة وابن كليب الحراني، وكان يتردد على بغداد منتهزاً فرصة الحج، فسمع فيها من عبد المؤمن بن كليب ويعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن سكينة، وأبي أحمد عبد الوهاب ابن علي الصوفي، ودرس على أشياخه الحساب واللغة والفقه وغيرها من العلوم.

برز ابن الأثير بنوعين من العلوم هما الحديث والتاريخ وتخصص فيهما، لكنه اشتهر مؤرخاً أكثر من شهرته محدثاً، يقول ابن خلكان عنه كان " حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم، عارفاً بالرجال وأنسابهم ولا سيما الصحابة ".

ولا تمدنا المصادر بالكثير عن حياته الخاصة، وكل ما يعرف عنه أنه عاش منقطعاً إلى العلم تحصيلاً وتدريساً وتصنيفاً وربما اعتمد

عليه صاحب الموصل في بعض الشؤون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد، وقد حج أكثر من مرة، وسمح له غناه أن يعيش حياة أرستقراطية مما ساعده على التفرغ الكامل للعلم، فهو يذكر أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمة إحدى قرى جزيرة ابن عمر، وقرية أخرى جنوب الموصل يقال لها " قصر حرب "، وأنه جمع أكثر مادة كتابه " الكامل في التاريخ "، في دار لهم بهذه القرية.

ويجمع من ترجم لابن الأثير على تحليه بالأخلاق الفاضلة، اجتمع به ابن خلكان في حلب فوجده على حد تعبيره: " رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع. ". وكان بيته مأوى لطلاب العلم لا يتوانى عن مساعدتهم والعطف عليهم. وتذكر المصادر أسماء بعض طلابه ومنهم ابن عساكر والزينبي والمجد بن أبي جرادة. وقد أهّله علمه وأخلاقه الرفيعة إلى عقد صلات مع مشاهير عصره ومنهم طفرين مدبر أمور حلب، وصلاح الدين الأيوبي وقد صحبه في معسكره في بعض غزواته. توفي ابن الأثير في شهر شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠هـ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين.

ولابن الأثير عز الدين مؤلفات أخرى لا يتسع المقال لاستيفاء موضوعها وأسلوبها بالتفصيل وهي تدخل في باب الحديث أو التاريخ أو كلاهما معاً منها:

١ - الكامل في التاريخ:

وهو تاريخ عام في ١٢ مجلدًا، منذ بدء الخليقة وابتداء أول الزمان حتى عصره، حيث انتهى عند آخر سنة (٦٢٨هـ) أي إنه يعالج تاريخ العالم القديم حتى ظهور الإسلام، وتاريخ العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى عصره، والتزم في كتابه بالمنهج الحولي في

تسجيل الأحداث، فهو يسجل أحداث كل سنة على حدة، وأقام توازنًا بين أخبار المشرق والمغرب وما بينهما على مدى سبعة قرون وربع قرن، وهو ما أعطى كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام لغيره، وفي الوقت نفسه لم يهمل الحوادث المحلية في كل إقليم، وأخبار الظواهر الجوية والأرضية من غلاء ورخص، وقحط وأوبئة وزلازل.

وفي الحقيقة أن ابن الأثير اشتهر كمؤرخ، ويرجع ميله للتاريخ إلى تحصيله الواسع في علم الحديث، وقد دفعه الاهتمام بالحديث إلى تتبع سيرة النبي وأخبار الصحابة وجره ذلك إلى قراءة كتب التاريخ حتى ألمَّ بتاريخ المشرق الإسلامي وتاريخ المغرب الإسلامي، يدفعه إلى ذلك ميل قوي إلى مطالعة الكتب التاريخية، يقول في مقدمة كتابه الكامل في التاريخ:

" أما بعد فإني لم أزل محبًّا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها مؤثراً الاطلاع على الجليّ من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها.. ". ويتضح من أسلوبه في الكتابة كثرة مطالعاته الأدبية التي طبعت بعض كتاباته بطابع أدبي أما كتاباته التاريخية ومصنفاته في الحديث فلا تتجلى فيها نزعته إلى استخدام السجع والبيان إلا في مقدمتها، فهو يؤثر الأسلوب المرسل الواضح.

ينظر ابن الأثير إلى علم التاريخ من زاوية فوائده الجليلة التي يشير إليها في مقدمة الكامل فيرى أن التاريخ باب من أبواب الثقافة يتيح للإنسان أن يعيش مع الماضي فمن يقرأ عن الماضي فكأنه عاش فيه، وهو عظة للناس والحكام، وسبيل إلى الترويح عن النفس،

وقراءة التاريخ فوق هذا تزهد الإنسان بالدنيا وترغبه بالآخرة والعبادة وتمثل عظمة الخالق، وفيه أيضاً من التأسي ما يهون به كل مصاب وتزول أمام ما يعرض من محن كل كربة.

وقد اعتمد في كتابه الكامل أكثر ما اعتمد في أجزائه السبعة الأولى منه على الطبري، فاختصر تاريخه حاذفاً الأسانيد متجاوزاً الإسهاب، مكتفياً بالرواية الواحدة، على أن ذلك لم يمنعه أن يستمدّ من مصادر أخرى كابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي مكملاً ما ترك الطبري عن قصد أو عن غير قصد كأيام العرب قبل الإسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزو العرب السند.

أما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع في تأليفها بكل المصادر العربية التي وصلت إلى يده ولذلك عدَّ كتابه بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة ٦٢٨هـ أي قبيل وفاة المؤرخ بسنتين. وقد امتاز ابن الأثير بانفراده من بين معاصريه في تأريخ الحروب الصليبية وغزو التتر، وقد استعان في تدوين الفترة التي لم يعاصر منها الحروب الصليبية بالعماد الأصفهاني والمؤرخين الذين عاصروها ممن سبقوه كابن القلانسي والأتاري وابن أبي جرادة وابن شداد، وقد تضمن تاريخه تقسيماً للحملات الصليبية الخمس على الشرق العربي الإسلامي والحملة الرابعة التي استهدفت في الأساس الشرق العربي الإسلامي لكنها تحولت إلى القسطنطينية.

أما الغزو التتري فقد عاصره ابن الأثير منذ بدايته سنة ٦١٦هـ حتى وفاته قبل سقوط بغداد. وأظهر أساه لما شهد وسمع من فتك المغول

وقسوتهم يقول في ذلك: " وقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه.. يسرّ الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفعوا من العدو إلى عظيم ". واقتصر في تدوين أخبار هذا الغزو على المعاصرين من شهود العيان أو الرسائل التي تصل إلى الموصل من البلاد المهاجمة وبعض التجار. وأما منهجه في تأليف الكتاب فقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الإسلامي على السنين فهو يجمع الحادثة التي تقطعت على أكثر من سنة ويذكرها في موضع واحد، ويذكر من ملك أو تبع في قطر من البلاد ولم يطل حكمه في السنة التي كان فيها أول أمره، ويضبط بعض الأسماء المشتبهة بالخط.

وللكامل في التاريخ ميزات منها بروز شخصية مؤلفه في الكتابة، فقد برزت انفعالاته الذاتية مع الأحداث في مواقف الرضا أو السخط من خلال تعليقاته على بعض الأخبار، من ذلك تعليقه على الصليبيين بعد عجزهم عن احتلال دمياط وانسحابهم إلى الشام بعدما استباح نور الدين بلادهم فقال: " وهذا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين! ". وتعليقه على استعادة المسلمين دمياط عام ٦١٨ بقوله: " فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو، وكفاهم شر التتر ".

كان ابن الأثير يطمح أن يؤلف كتاباً كاملاً في التاريخ ينطبق مضمونه على تسميته، يتحاشى فيه عيوب كتب التاريخ التي سبقته فقد لاحظ أن منها " المطول والممل والمختصر المخل "، ومنها الحافل بالأحداث والتفصيلات الصغيرة، دون إبراز الأحداث الهامة، وأن المؤرخ الشرقي اقتصر على التأريخ للمشرق والغربي اقتصر

على التأريخ للمغرب فإن تجاوزا ذلك أخلَّ كلاهما بذكر أخبار الآخر.. فجاء كتابه مقتصراً على المفيد، كتبه ببصيرة نافذة وتنظيم مريح للقارئ، وإن لم يتحرر كليًّا من عيوب من سبقه من المؤرخين كاهتمامه بالسند دون مناقشة ما يروى من أساطير ولا سيما في تاريخ الفرس وبدا اهتمامه في بعض المناطق والأقاليم أكثر من المناطق أو الأقاليم الأخرى، بحسب غزارة الأخبار أو قلتها عنها، لكنه كما قال روزنتال: " بذل جهده على الأقل لمراعاة توازن معقول بين الأحداث في كافة أنحاء العالم الإسلامي رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام ".

وقد تحدث الدكتور عبد القادر أحمد طليمات عن ابن الأثير الجزري في كتابه: " ابن الأثير الجزري المؤرخ " فلخص أبرز سمات عمله التاريخي ومن هذه السمات أنه نقد التاريخ نقداً واعياً فردّ بعض تعليلات الطبري لحرب الفجار ودافع عن الخليفة عثمان في موقفه من أبي ذر الغفاري حين نفاه إلى الربذة بقوله: " فإن للإمام أن يؤدب رعيته "، ومن سمات تاريخه ملاحظته وتعليله لبعض ظواهر تاريخية استقرأها من الأحداث كملاحظته تحول الملك من مؤسس الدولة في التاريخ الإسلامي إلى أهل بيته دون أولاده، وذكر عدة وقائع تؤيد هذه الظاهرة من التاريخ الإسلامي وعلل هذه الظاهرة: " بأن الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فيحرمه الله أعقابه، ومن يفعل ذلك، من أجلهم عقوبة له "، ومن سمات عمله التاريخي الحياد، فقد أرخ للزنكيين والأيوبيين بحياد تام، وإن كان بعض المؤرخين قد اتهموه بالخروج عن الحياد حين حمّل صلاح الدين مسؤولية تساهله مع الفرنجة والسماح لهم في التجمع بمدينة صور فاستعصى عليه فتحها بعد ذلك، واعتبروا نقده

هذا نقداً مغرضاً بهدف التجريح.

وفي الحقيقة أن ابن الأثير كان شديد التحامل على صلاح الدين في آرائه وكتاباته، وقد اتهم فيما كتبه عن صلاح الدين، فقد كان يتلمس المناسبات أحيانًا لنقد صلاح الدين وتجريحه، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين محمود، وكلها كتابات قد كتبت بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي (١).

كما أخذ عليه أنه لم يكن منصفًا في نظرته إلى بعض الشخصيات المعاصرة له، فقد بالغ في تمجيد الزنكيين وأسرف في الإشادة بهم وإضفاء هالة براقة على أعمالهم وذلك اعترافا منه بفضلهم عليه وعلى بيته وأسرته، وربما دفعه الولاء إلى التغاضي عن بعض أخطائهم وعيوبهم مكتفيًا بذكر محاسنهم ومآثرهم.

ومن المآخذ التي تؤخذ على ابن الأثير تعاطفه مع الشيعة فيظهر للمتأمل في كتابه الكامل تعاطفه مع الشيعة، أو من لهم ميول (علوية) على الأقل، فتراه كثيراً يترجم للشيعة وخاصة (الإمامية) وربما ذكر بعض معتقداتهم الفاسدة ولا يعلق عليها، وفي أحداث الفتنة الواقعة بين الصحابة يلحظ القارئ لكتابات ابن الأثير تغليب الروايات التي تصف خصوم (علي) - رضي الله عنه - بصفات يبعد قبولها، بل يبعد أن يقول بها علي نفسه، وسار على هذا المنهاج في تناوله للشيعة والعلويين على مدار كتابه الكامل،،فهو يظهر لهم ميلا وتعاطفا غير مبرر. ومن خلال قراءة أحداث القرنين الرابع والخامس في (الكامل) يتبين لنا أن ابن الأثير متعاطف مع هذه الدول الشيعية وغير السنية بشكل عام، فهو يمدح ملوكهم ويبرز محاسنهم

---

(١) وقد استقصينا - بفضل الله - كل هذه المواقف في كتابنا تاريخ الدولة الأيوبية، فليراجع.

ولا يذكر عيوبهم، ويؤكد في كل مرة يترجم لأحدهم بقوله: (الخليفة العلوي)، كأنه يريد أن يرسخ هذا في ذهن القارئ، ثم تبين لنا أنه يغرق في مدح بعض ملوك الدولة البويهية وأمراء الدولة الأسدية والحمدانية، وهذه الدول والإمارات كلها غير سنية.

وهذا ليس اتهامًا لابن الأثير - عليه رحمة الله - بالتشيع وحاشاه عن ذلك ونحن لا نملك عليه دليلاً، بل نجد في ترجمته ثناء العلماء والحفاظ من مشاهير أهل السنة؛ بقدر ما هي وقفة أو قراءة متفحصة نقدية في كتابه (الكامل في التاريخ) أظهرت شيئًا من الميل للشيعة، وربما كان ميل ابن الأثير للشيعة وتعاطفه معهم ناتجًا عن الجهل بعقائد الشيعة، وربما هي لظروف العصر وملابسات البيئة التي عاش فيها ابن الأثير؟ وهي بيئة كان للشيعة فيها وجود ليس على مستوى الأفراد فحسب وإنما على مستوى الولاة والحكام. ومن أمثلة ذلك: الملك الرحيم (ت ٦٥٧) الذي ملك (الموصل) نحواً من خمسين سنة وهو الذي أزال الدولة الأتابكية (وهم أسياده قبل)،ومن الممكن أن يكون ابن الأثير قد تأثر به سياسيًّا واقتصاديًّا فمال نحو الشيعة عن طريق التأثر والإعجاب فقد كان هذا الملك يبعث في كل سنة إلى مشهد علي قنديلاً ذهبيًّا زنته ألف دينار، وهذا - كما قال الحافظ ابن كثير - دليل على تشيعه، بل على قلة عقله [(١)]. وربما يكون ابن الأثير قد تأثر بآراء ابن طيء المؤرخ الشيعي الذي كثيرًا ما أساء للعلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود مصورًا إياها بالوحشة والخلاف، وحاول كثيرًا تلطيخ العلاقة بين كلا الرجلين السنيين بأكاذيبه الملفقة، حتي اتهمه المؤرخ أبو شامة بالدس والكذب والطعن في العلاقة بين كلا الرجلين.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٠٣.

وهذا لا يقلل من قدر الكتاب وقيمته بقدر ما تلفت النظر إلى ملاحظة يحسن التنبه لها.

ومن سمات عمله تخيره للمصادر الموثوقة التي استمد منها الأخبار وتصويبه بعض ما ورد فيها، وتعليقاته التي تعكس حرصه على الدقة والصحة التاريخية، غير أن ابن الأثير لم يستطع أن يتحرر من مشاعره الإنسانية في كثير من المواقف فكان يبرز فرحه لانتصارات قومه في مواجهة التتر والصليبيين ويبدي رضاه أو استنكاره في تقويمه للأشخاص والأحداث بأسلوب لاذع مفصحاً عن أحاسيسه الذاتية.

٢ - اللباب في تهذيب الأنساب: وهو كتاب اعتمد في تأليفه على كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي، فهذبه واختصر تراجمه المطولة وصحح معلوماته، وربط البطون بالقبائل التي ينتسب إليها أصحاب الأنساب معتمداً على مصادر أخرى منها: كتب ابن خياط والقاسم بن سلام، وابن ماكولا، والدارقطني.

٣ - أسد الغابة في معرفة أسماء الصحابة: وموضوع هذا الكتاب هو الترجمة لصحابة الرسول ﷺ الذين حملوا مشعل الدعوة، وساحوا في البلاد، وفتحوا بسلوكهم الدول والممالك قبل أن يفتحوها بالطعن والضرب وقد اشتمل الكتاب على ترجمة (٧٥٥٤) صحابيًّا وصحابية تقريبًا، يتصدره توطئة لتحديد مفهوم الصحابي؛ حتى يكون القارئ على بينه من أمره. والتزم في إيراد أصحابه الترتيب الألف بائي، ويبتدئ ترجمته للصحابي بذكر المصادر التي اعتمد عليها، ثم يشرع في ذكر اسمه ونسبه وهجرته إن كان من

المهاجرين، والمشاهد التي شهدها مع الرسول ﷺ إن وجدت، ويذكر تاريخ وفاته وموضعها إن كان ذلك معلومًا، وقد طبع الكتاب أكثر من مرة.

وقد عرّف ابن الأثير الصحابي بقوله: " إن الصحابي هو الذي " أقام مع رسول الله " سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين "، واعتمد فيه على المصادر التي سبقته، فصوّب بعض الأسماء والأماكن، وحذف بعض الأحاديث، وعلّق على بعضها، وأضاف معلومات لم ترد في كتب تراجم الصحابة الأساسية السابقة ككتاب: " معرفة الصحابة "، لابن منده وكتاب معرفة الصحابة: لأبي نعيم الأصفهاني وكتاب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي، وكتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين لأبي علي الغساني. وقد رتب التراجم فيه على حروف الهجاء وضبط الأسماء المتشابهة وشرح بعض الألفاظ الصعبة في الأحاديث.

٤ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: وهي الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل وعاش ابن الأثير وأسرته في ظلها فهو تاريخ للأسرة الزنكية والدولة التي أسستها فصل فيه أخبار هذه الدولة تفصيلاً تجاوز ما ورد عنها في كتابه الكامل، ودفعه إلى تأليفه وفاؤه للأسرة الزنكية التي برّت أسرته ولا سيما نور الدين أرسلان شاه، وقد ألف الكتاب بمناسبة وفاته لتوطيد صلته ببدر الدين لؤلؤ الذي خلفه سنة ٦٠٧. وقد خرج في بعض حوادثه عن الحياد التاريخي فبدا ممالئاً للأسرة الزنكية متستراً على بعض عيوب أعلامها، وقد اعتمد على والده في جمع بعض أخباره.

هذه لمحة موجزة عن حياة هذا العالم الكبير الذي خدم الثقافة العربية ودفع بكتابه التاريخ العربي الإسلامي خطوة إلى الأمام.

* * *

الخطيب البغدادي

المؤرخ الكبير الخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ

الخطيب البغدادي

أعـــلام المؤرخــين

المؤرخ الكبير

الخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ

هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي يكنى أبا بكر واشتهر بالخطيب البغدادي.

وذكر الخطيب في ترجمة والده: أن أصله من العرب، كان مسكن عشيرته بالحصاصة من نواحي الفرات، كان والده خطيبًا للجمعة والعيدين بقرية (درزيجان) بالقرب من بغداد. وله إلمام بالعلم وكان أحد الحفاظ لكتاب الله، تولى الخطابة والإمامة نحوًا من عشرين سنة.

ولد أبو بكر الخطيب يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة ثنتين وتسعين وثلاثمائة وقيل: سنة إحدى وتسعين.

نشأ أبو بكر في كنف والده فبث فيه روح العلم والتقى، وحبب إليه القرآن ومجالس العلماء فتعلم القراءة والكتابة وقراءة القرآن ووجوه القراءات عندما صار في سن التمييز. وتأدب عند هلال بن عبد الله الطيبي.

ولما بلغ أبو بكر إحدى عشرة سنة أرسله أبوه إلى جامع بغداد ليحضر حلقة ابن رزقويه وكتب عنه إملاءً مجلسًا واحدًا ثم انقطع عنه مدة ثلاث سنوات انشغل فيها بالفقه ثم عاد إلى ابن رزقويه ولازمه إلى آخر حياته، وحضر مجلس كبار الفقهاء كأبي حامد الإسفراييني الذي انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي ببغداد. ثم أحمد بن محمد المحاملي شيخ الشافعية ببغداد بعد الإسفراييني وهو أول من علق الفقه عنه [1] وكذلك أمثال: الفقيه الكبير طاهر بن عبد الله

(١) تاريخ بغداد، ٤ / ٣٧٢.

الطبري وأبي الطيب الطبري وأبي نصر بن الصباغ. فبرع في الفقه الشافعي والخلاف حتى صار فقيها ثم غلب عليه الحديث. لم يترك محدثًا من محدثي بغداد إلا أخذ عنه ثم عزم على الرحلة إلى الأقطار الإسلامية ليأخذ عن محدثيها.

رحلاته في طلب الحديث

لقد بدأ رحلاته سنة اثنتي عشرة وأربعمائة فسافر إلى البصرة والكوفة - وعمره إذ ذاك عشرون سنة. ثم سافر إلى نيسابور وأصبهان والري وهمذان والدينور والجبال. ثم سافر إلى مكة المكرمة ودمشق والمدينة المنورة والقدس وصور وطرابلس. كانت رحلته الأولى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة التي توفي فيها أبوه في شهر شوال ثم قام برحلته الثانية إلى جهة المشرق بعد استشارته لشيخه البرقاني وتزويده برسالة إلى أبي نعيم محدث أصبهان. وكانت هذه الرحلة سنة خمس عشرة وأربعمائة والتقى فيها بمحدثين كثيرين وأخذ عنهم واستفاد من هذه الرحلة كثيرًا. وإما رحلته الثالثة فهي إلى الحج وكانت سنة أربع وأربعين وأربعمائة لكنه زار فيها دمشق والمدينة ثم زار بيت المقدس في عودته، ثم صور في سنة ست وأربعين.

نيته عند شربه ماء زمزم:

لقد ذكر الخطيب - رحمه الله - أنه لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله ثلاث حاجات آخذًا بالحديث:﴿**ماء زمزم لما شرب له**﴾ [1].

الحاجة الأولى: أن يحدث بتاريخ بغداد بها.

(١) سنن ابن ماجه المناسك (٣٠٦٢)، مسند أحمد بن حنبل (٣/٣٥٧).

الحاجة الثانية: أن يملي الحديث بجامع المنصور.

الحاجة الثالثة: أن يدفن عند بشر الحافي " رحمه الله " فقضى الله له ذلك [(١)].

إبطاله لكتاب مزور كتبه اليهود:

إن هذه الحادثة جرت سنة سبع وأربعين وأربعمائة وكان لها أكبر الأثر في رفع مقام الخطيب وانتشار سمعته ورفعة منزلته. وهي تدل على سعة علمه واطلاعه ونباهته واستحضاره للوقائع والتاريخ. وأصل الحادثة: أن كان قد أظهر بعض اليهود كتابًا، وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة، وإن خط علي بن أبي طالب فيه، فعرضه رئيس الرؤساء ابن المسلمة على أبي بكر الخطيب، فقال: هذا مزور، قيل: من أين لك؟ قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وكان قد مات يوم الخندق، فاستحسن ذلك منه واعتمده وأمضاه ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره. وصنف رئيس الرؤساء في إبطاله جزءا وكتب عليه الأئمة أبو الطيب وأبو نصر بن الصباغ والدامغاني والبيضاوي وغيرهم [(٢)]. وقد أذن للخطيب بعدها أن يملي الحديث في جامع المنصور ببغداد بعد هذه الحادثة.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١: ٣٩٩، معجم الأدباء ٤: ١٦، التذكرة ٣: ١١٣٩، طبقات السبكي ٤: ٣٥ والحديث: أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه والبيهقي عن جابر وكذلك البيهقي في الشعب عن ابن عمرو وكذلك الحاكم والدارقطني عن ابن عباس.

(٢) انظر: المنتظم ٨ / ٢٦٥، والتذكرة ٣ / ١١٤١، وطبقات السبكي ٤ / ٣٥، والإعلان بالتوبيخ ١٠، ١١، ومعجم الأدباء ٤ / ١٩.

خروج الخطيب إلى دمشق وهجره بغداد:

لقد استولى " البساسيري " مقدم الأتراك ببغداد على البلاد في سنة خمسين وأربعمائة، وكان البساسيري [1] سيئ العقيدة على مذهب الفاطميين فدعا لصاحب مصر في الخطبة وزيد في الأذان " حي على خير العمل "، ونفى الخليفة إلى " حديثة عانة " وصلب ابن المسلمة صاحب الخطيب ورئيس الرؤساء. وكان عوام من الحنابلة قد آذوا الخطيب [2]، فخشي أن تدبر له مؤامرة ويوشى به لدى البساسيري لذا قرر الهجرة إلى دمشق فخرج منتصف شهر صفر سنة إحدى وخمسين وأربعمائة مستترًا وأخذ معه كتبه وتصانيفه وسماعاته لعزمه على المقام بها. وسكن في المئذنة الشرقية من الجامع الأموي وبدأ تدريس الحديث وغيره في المسجد، لكنه لم يدم له المقام بدمشق إذ ثار عليه الروافض عند سماعهم منه فضائل العباس - رضي الله عنه - وكانت دمشق تحت حكم الفاطميين - فخرج إلى صور [3] وذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة وقيل: سنة تسع وخمسين ومكث بين صور وبيت المقدس حتى شعبان من سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

رجوعه إلى بغداد:

لما بلغ أبو بكر من العمر سبعين عامًا وشعر بقرب أجله واشتاق إلى بلده بغداد عزم على السفر إليها، فسافر بصحبة تلميذه وصاحبه عبد المحسن بن محمد بن علي الشيحي في شعبان سنة اثنتين وستين وأربعمائة، فسلكا طريق الساحل فمرا بطرابلس ثم حلب وأقام بها

(١) انظر القصة في تاريخ بغداد ٩ / ٣٩٩ - ٤٠٤.
(٢) انظر المنتظم ٨ / ٢٦٧ وتأنيب الخطيب: ١٢.
(٣) انظر البداية ١٢ / ١٠٢ وطبقات الشافعية للحسيني ١٦٤، ١٦٥.

أيامًا ثم توجه إلى بغداد فوصلها في ذي الحجة من السنة نفسها وكان في طريقه يختم في كل يوم وليلة ختمة كاملة.

ولما وصل بغداد استأنف تحديثه ودرسه في جامع المنصور ببغداد واجتمع إليه طلابه بلهف وشوق فحدث بسنن أبي داود من روايته وأملى فصولاً من التاريخ والزيادات.

مرضه ووصيته ووفاته:

مرض الخطيب - رحمه الله تعالى - في منتصف رمضان من سنة ثلاث وستين في حجرته بباب المراتب بدرب السلسلة قرب المدرسة النظامية. ولم يكن له عقب ولا وارث فأراد أن يختم حياته بعمل من أعمال البر فكتب إلى القائم بأمر الله يستأذنه أن يفرق ماله - وكان مائتي دينار - [1] على أصحاب الحديث فأذن له ووكل أمر توزيعه إلى أبي الفضل بن خيرون. وأوصى بأن يتصدق بجميع ثيابه وما يملكه من أشياء بعد موته ووقف جميع كتبه ومصنفاته على المسلمين وسلمها إلى ابن خيرون.

واشتد مرضه في ذي الحجة وتوفي ضحى يوم الاثنين سابع ذي الحجة من سنة ثلاث وستين وأربعمائة رحمه الله.

ولما مات دفن عند قبر بشر الحافي - رحمهما الله تعالى - [2] يوم الثلاثاء، وكان قد صلى عليه في جامع المنصور وصلى عليه القاضي أبو الحسين محمد بن علي بن المهتدي بالله وتبعه الفقهاء والخلق العظيم - وكان بين يدي الجنازة جماعة ينادون: هذا الذي

---

(١) انظر المنتظم ٨ / ٢٦٩، والتذكرة ٣ / ١١٤٣، ومعجم الأدباء ٤ / ٤٥.

(٢) انظر قصة دفنه في التذكرة ٣ / ١١٤٤، والمنتظم ٨ / ٢٦٩، ومعجم الأدباء ٤ / ١٧، والشذرات ٣ / ٣١٢، وغيرها.

كان يذب عن رسول الله ﷺ. هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله ﷺ، وكان أبو إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية ممن حمل جنازته. وكان قد حضرها جميع الفقهاء وأهل العلم ونقيب النقباء في بغداد [١]. وانتشر خبر وفاته في البلاد الإسلامية وأرسلت الكتب من بغداد بنعيه، ورثاه كثير من أهل العلم والشعراء ورآه كثير من الصلحاء في المنام على أحسن حال[٢].

علومه:

لقد أخذ الخطيب من كل علم بنصيب جيد وحظ وافر، فقد قرأ القرآن وتعلم وجوه القراءات ثم درس الفقه وأصوله حتى صار من كبار فقهاء الشافعية، ودرس علوم الآلة والأدب حتى اعتبر نحويًّا أديبًا وسمع الحديث ورحل فيه واشتغل بالتاريخ خصوصًا تاريخ رجال الحديث وغلب عليه الحديث والتاريخ. وصنف وهذب ورتب ونقد.

تفقه بالمحاملي وأبي الطيب الطبري وأبي نصر بن الصباغ وهم من كبار فقهاء الشافعية ببغداد، وكان في العقيدة على مذهب أبي الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى.

بعض مناقبه وأخلاقه:

لقد كان الخطيب - رحمه الله - على جانب كبير من الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة والمناقب النبيلة. كان مخلصا في عمله وتصنيفه، ورعًا متحفظًا غير متقرب لسلطان ولا لذي جاه، عفيف النفس، غير حريص على الدنيا [٣]، زاهدًا فيها، متحملاً للأذى، كان متواضعًا

(١) انظر التبيين ٢٦٩ - ٢٧٠، والتذكرة ٣ / ١١٤٤.
(٢) انظر الطبقات للسبكي ٤ / ٣٧.
(٣) انظر معجم الأدباء ٤ / ٣١، والتذكرة ٣ / ١١٣٨، والطبقات للسبكي ٤ / ٣٤.

حتى إنه ما كانت تروق له الأسماء والألقاب كالحافظ والمحدث، كان كريمًا معطاء، كان حريصًا على تطبيق العلم كحرصه على جمعه وضبطه وفهمه كان يقول: " الواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبًا، وأشد الخلق تواضعًا وأعظمهم نزاهة وتدينًا وأقلهم طيشًا وغضبًا لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها ويصدفوا عن أرذلها وأدونها " [١].

بعض صفاته

لقد كان الخطيب - رحمه الله - جيد الخط، وجودة الخط قليلة لدى كبار المحدثين، وقد عقد في كتابه (الجامع) بابًا خاصًّا سماه باب تحسين الخط وتجويده، كان فصيحًا في نطقه ولهجة كلامه حسن القراءة جهوري الصوت يسمع صوته عند قراءته الحديث كل من في المسجد، كان حريصًا على المطالعة كان يمشي في الطريق وفي يده جزء من الحديث يطالعه كان سريعًا في القراءة ضرب به المثل في تفرده في زمانه بذلك. قرأ صحيح البخاري في ثلاثة مجالس على شيخه الحيري.

كما كانت عليه - رحمه الله - هيبة ووقار. كان نبيلاً خطيرًا. ثقة صدوقًا متحريًّا حجة فيما يصنفه وينقله ويجمعه حسن النقل، كثير الشكل والضبط وكان في درجة الكمال والرتبة العليا خُلُقًا وخَلْقًا وهيئة ومنظرًا - كذا قال ابن السمعاني[٢]. كان هادئ الشخصية بعيدًا عن التدخل في الأمور السياسية.

---

(١) مقدمة الجامع لأخلاق الراوي.

(٢) معجم الأدباء ٤ / ٣٠.

شيوخه:

إن الرحلات التي قام بها الخطيب والبلدان التي زارها أو أقام بها جعلته يلتقي بعدد كبير وكبير جدًّا من الشيوخ الذين سمع منهم أو قرأ عليهم أو روى عنهم، وهذا ما جعل بعض الذين ترجموا للخطيب يقولون بأن عدد شيوخه يزيدون على الألف شيخ، بينهم عدد من أئمة الحديث وحفاظه وكبار الفقهاء المشهورين في عصره في بلاد الشرق والجزيرة والعراق والشام والحجاز وغيرها. أمثال أبي نعيم - صاحب الحلية - والبرقاني، وأبي الحسن البزاز، وأبي عبد الله الصوري وغيرهم (١).

تلاميذه:

إن الخطيب - رحمه الله تعالى - بعد أن لمع نجمه وارتفعت مكانته - وكيف لا وهو العالم الكبير والحافظ الإمام والمصنف الشهير والرحالة الصبور، الذي جمع من المصنفات والكتب ما لا سمعه شيوخه وأقرانه - كثر تلاميذه في مختلف البلاد التي أقام بها ورحل الناس إليه يسمعون مصنفاته ويقرأون عليه مروياته، حتى أخذ عنه بعض شيوخه الكبار بعد عودته إلى بغداد، كالبرقاني وغيره من شيوخه، وابن ماكولا، وابن الأكفاني، والإسفراييني، ويحيى بن علي الخطيب التبريزي، وابن خيرون وأبي المعالي الشريف المرتضى وغيرهم كثير.

مصنفاته:

كان الخطيب البغدادي - رحمه الله - أحد الأئمة المكثرين من التصنيف، المجيدين البارعين وقد اشتهرت تصانيفه وعرف بها،

---

(١) محمود الطحان، الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث.

وكان أهل الحديث من بعده عالة عليه. وقد ذكر السمعاني أنه صنف قريبًا من مائة مصنف صارت عمدة لأصحاب الحديث. إذ ما من باب من أبواب علوم الحديث إلا وألف فيها رسالة أو جزءًا. لكن لم يصل إلينا كل ما كتبه الخطيب - رحمه الله -، بل وصلنا ربع ما قيل: إنه قد كتبه تقريبا. وقد ذكر أصحاب الفهارس والأستاذان الدكتور العش والأخ الدكتور محمود طحان ما يقرب من ثمانين كتابًا من كتب الخطيب. والمصنفات التي ذكروها هي:

١ - الأمالي.

٢ - كتاب فيه حديث " الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن ".

٣ - حديث عبد الرحمن بن سمرة، وطرقه: في جزئين.

٤ - حديث النزول.

٥ - كتاب فيه حديث " نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا ".

٦ - طريق حديث " قبض العلم " في ثلاثة أجزاء.

٧ - حديث " طلب العلم فريضة على كل مسلم ".

٨ - مجموع حديث أبي إسحاق الشيباني في ثلاثة أجزاء.

٩ - مجموع حديث محمد بن حجارة، وبيان بن بشر، وصفوان بن سليم، ومطر الوراق، ومسعر بن كدام.

١٠ - مجموع حديث محمد بن سوقه في ثلاثة أجزاء.

١١ - مختصر السنن من أصل الخطيب.

١٢ - مسند أبي بكر الصديق ﷺ على شرط الشيخين في جزء.

١٣ - مسند صفوان بن عسال.

١٤ - مسند نعيم بن هماز العصفاني في جزء.

١٥ - جزء فيه أحاديث مالك بن أنس عوالي تخريج الخطيب.

١٦ - أمالي الجوهري تخريج الخطيب.

١٧ - فوائد أبي القاسم النرسي تخريج الخطيب في عشرين جزءًا.

١٨ - فوائد عبد الله بن علي بن عياض الصوري تخريج الخطيب في أربعة أجزاء.

١٩ - الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب انتقاء الخطيب من حديث الشريف أبي القاسم الحسني في عشرين جزءًا.

٢٠ - الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب تخريج الخطيب لأبي القاسم المهرواني.

٢١ - الفوائد المنتخبة الصحاح والعوالي تخريج الخطيب لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري.

٢٢ - مجلس من إملاء أبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة تخريج الخطيب.

٢٣ - بيان حكم المزيد في متصل الأسانيد.

٢٤ - الرباعيات في ثلاثة أجزاء.

٢٥ - الفصل للوصل المدرج في النقل، تسعة أجزاء.

٢٦ - الكفاية في معرفة أصول الرواية ثلاثة عشر جزءًا.

٢٧ - كتاب فيه الكلام في الإجازة للمجهول والمعدوم والمعلقة بشرط، جزء واحد.

٢٨ - المسلسلات ثلاثة أجزاء.

٢٩ - المكمل في بيان المهمل ثمانية أجزاء.

٣٠ - اقتضاء العلم العمل جزء واحد.

٣١ - تقييد العلم جزءان.

٣٢ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع خمسة عشر جزءًا.

٣٣ - الرحلة في طلب الحديث جزء واحد.

٣٤ - شرف أصحاب الحديث ثلاثة أجزاء.

٣٥ - الفقيه والمتفقه اثنا عشر جزءًا.

٣٦ - جزء فيه النصيحة لأهل الحديث.

٣٧ - القول في علم النجوم جزء واحد.

٣٨ - نهج الصواب في أن التسمية آية من فاتحة الكتاب جزءان.

٣٩ - إبطال النكاح بغير ولي جزء واحد.

٤٠ - إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة.

٤١ - الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة جزءان.

٤٢ - الحيل أربعة أجزاء.

٤٣ - الدلائل والشواهد على صحة العمل بخبر الواحد.

٤٤ - صلاة التسبيح والاختلاف فيها جزء واحد.

٤٥ - الغسل للجمعة جزءان.

٤٦ - القضاء باليمين مع الشاهد جزءان.

٤٧ - القنوت والآثار المروية فيه على اختلافها وترتيبها على مذهب الشافعي ثلاثة أجزاء.

٤٨ - مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه، والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه جزء واحد.

٤٩ - النهي عن صوم يوم الشك.

٥٠ - الوضوء من مس الذكر.

٥١ - كتاب فيه خطبة عائشة في الثناء على أبيها، من تخريج الخطيب من رواياته عن شيوخه.

٥٢ - المنتخب من الزهد والرقائق.

٥٣ - البخلاء ثلاثة أجزاء.

٥٤ - التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف.

٥٥ - التطفيل، وحكايات الطفيليين وأخبارهم أربعة أجزاء.

٥٦ - الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة.

٥٧ - الأسماء المتواطئة والأنساب المتكافئة.

٥٨ - بيان أهل الدرجات العلى.

٥٩ - تلخيص المتشابه في الرسم، وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم في ستة عشر جزءًا.

٦٠ - تالي التلخيص أربعة أجزاء.

٦١ - التبيين لأسماء المدلسين جزءان.

٦٢ - التفصيل لمبهم المراسيل جزء واحد.

٦٣ - تمييز المزيد في متصل الأسانيد ثمانية أجزاء.

٦٤ - رافع الارتياب في المقلوب من الأسماء والأنساب في مجلد.

٦٥ - الرواة عن شعبة ثمانية أجزاء.

٦٦ - الرواة عن مالك تسعة أجزاء.

٦٧ - روايات الستة التابعين بعضهم عن بعض جزء واحد.

٦٨ - روايات الصحابة عن التابعين جزء واحد.

٦٩ - روايات الآباء عن الأبناء جزء واحد.

٧٠ - السابق واللاحق تسعة أجزاء.

٧١ - غنية المقتبس في تمييز الملتبس في مجلد.

٧٢ - المتفق والمفترق ستة عشر جزءًا.

٧٣ - من حدث ونسي جزء واحد.

٧٤ - من وافقت كنيته اسم أبيه مما لا يؤمن من وقوع الخطأ فيه ثلاثة أجزاء.

٧٥ - المؤتنف في تكملة المؤتلف والمختلف في أربعة وعشرين جزءًا.

٧٦ - موضح أوهام الجمع والتفريق.

٧٧ - تاريخ بغداد مائة وستة أجزاء.

٧٨ - مناقب أحمد بن حنبل.

٧٩ - مناقب الشافعي.

٨٠ - كتاب الوفيات [1].

هذا ويمكن أن تقسم كتب الخطيب إلى ثمانية أقسام.

١ - أسماء رجال الحديث.

٢ - المصطلح.

٣ - الأحاديث المخرجة.

٤ - آداب المحدث والفقيه.

٥ - الأحاديث والمسانيد.

٦ - الفقه والأدلة له من الحديث.

٧ - الأدب.

---

(١) انظر الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها، فهرست ابن خليفة الإشبيلي. وكشف الظنون، الرسالة المستطرفة، معجم الأدباء، والتذكرة وغيرها.

٨ - التاريخ.

ثناء العلماء عليه:

لا يخلو إنسان من صديق وعدو ومادح وقادح، ويقاس بالغالبية من الطرفين إذا خلا من حسد أو بغض أو عداوة. والخطيب البغدادي - رحمه الله تعالى - أثنى عليه عامة العلماء ما خلا بعض الحنابلة وبعض الحنفية. أما الذين أثنوا عليه فهم كثيرون ومن مختلف المذاهب. وفيهم الحفاظ والمحدثون والعلماء والفقهاء الكبار. ويمكن القول بأن عامة العلماء قد اتفقت كلمتهم على مدحه والثناء عليه عدا خصومه.

قال ابن ماكولا عنه: (كان آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وإتقانًا وحفظًا وضبطًا لحديث رسول الله ﷺ، وتفننًا في علله وأسانيده، وخبرة برواته وناقليه وعلمًا بصحيحه وغريبه، وفرده ومنكره، وسقيمه ومطروحه - ولم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن الدارقطني من يجري مجراه، ولا قام بهذا الشأن سواه..) [(١)].

وقال ابن نقطة الحنبلي: كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه.

وقال السمعاني: إمام عصره بلا مدافعة، وحافظ وقته بلا منازعة. صنف قريبًا من مائة مصنف صارت عمدة لأصحاب الحديث. وقال عنه أيضا: إنه في درجة القدماء من الحفاظ والأئمة الكبار كيحيى بن معين وعلي بن المديني وأحمد بن أبي خيثمة وطبقتهم. وقال أيضا: انتهى إليه معرفة علم الحديث وحفظه، وختم به الحفاظ [(٢)].

---

(١) التذكرة: / ١١٣٧.

(٢) معجم الأدباء ٤ / ٣٠، والشذرات ٣ / ٣١٢، والتذكرة للذهبي ٣ / ١١٣٨.

وقال ابن عساكر: الفقيه الحافظ أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين والحفاظ المبرزين، ومن ختم به ديوان المحدثين [(١)].

وقال ابن خلكان: كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين. وفضله أشهر من أن يوصف [(٢)].

وقال السبكي: ما طاف سور بغداد على نظيره، يروي عن أفصح من نطق بالضاد ولا أحاطت جوانبها بمثله، وإن طفح ماء دجلتها عن كل صاد [(٣)].

وقال الذهلي: إمام مصنف حافظ لم تدرك مثله [(٤)] - قاله للسلفي.

وقال ابن الأثير: كان إمام الدنيا في زمانه [(٥)].

وقال الذهبي: ختم به إتقان هذا الشأن [(٦)] ويقول في دول الإسلام: وفيها مات حافظ الدنيا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب صاحب التصانيف [(٧)].

ومن هذا يظهر اتفاق العلماء على مختلف القرون على تجلته وتوثيقه وأنه الحافظ الإمام حتى إن خصومه قد اعترفوا له بذلك. رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته [(٨)].

---

(١) تاريخ دمشق ٢ /٨.
(٢) الوفيات ١ / ٧٦.
(٣) الطبقات للسبكي ٤ / ٣٤.
(٤) تاريخ القاضي ابن أبي شهبة.
(٥) الكامل ٨ / ١١٠.
(٦) انظر التذكرة، ١١٣٩.
(٧) دول الإسلام، ١ / ١٩٩.
(٨) الدكتور محمود الطحان، الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، دار القرآن، بيروت، وانظر أيضا: الخطيب البغدادي، مجلة البحوث الإسلامية، ٢ /٣٤٧ - ٣٥٦.

ابـن الجوزي

الإمام ابـن الجوزي ـ رحمه الله ـ

ابـن الجــوزي

أعــلام المؤرخــين

الإمام ابـن الجوزي ـ رحمه الله ـ

حظي " ابن الجوزي " بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون، وبلغت مؤلفاته أوج الشهرة والذيوع في عصره، وفي العصور التالية له، ونسج على منوالها العديد من المصنفين على مر العصور.

فهو: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمّد بن عليّ ابن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمّد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمّد بن عبد الله بن القاسم ابن محمّد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه القرشي التميمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الحافظ المفسر الواعظ المؤرخ الأديب المعروف بابن الجوزي رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته. وقد عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها، وقيل: نسبة إلى " فرضة الجوز " وهي مرفأ نهر البصرة.

مولده:

ولد العلامة ابن الجوزي " بدرب حبيب " الواقعة في بغداد، واختلف في تأريخ ولادته:

قيل: سنة ٥٠٨، وقيل: سنة ٥٠٩، وقيل: سنة ٥١٠ هجرية. والأرجح أنه ولد بعد العشرة كما يظهر ذلك في بعض مؤلَّفاته في الوعظ، حيث يقول: إنه بدأ التصنيف سنة: ٥٢٨هـ، وله من العمر ١٧ سنة. ولما قيل عنه أيضًا في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار " أنه كان يقول: " لا أتحقق مولدي غير أنه مات والدي في سنة: ٥١٤هـ، وقالت الوالدة: كان لك من العمر ثلاث سنين ". وعلى هذا

تكون ولادته سنة: ٥١١هـ، ١١١٧م. وكان أهله تجارًا في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: عبد الرحمن بن عليّ الجوزي الصفار.

نشأته:

توفي والده عليّ بن محمّد وله من العمر ثلاث سنين، ولكن ذلك لم يؤثر في نشأته نشأة صالحة، حيث أبدله الله عمته مربية مخلصة تعطيه كلّ عطفها وعنايتها وتسهر على خدمته وتعليمه، فهي حملته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر، فتلقى منه الرعاية التامة والتربية الحسنة حتى أسمعه الحديث.

وعلى الرغم من فراق والده في طفولته فقد ساعده في توجهه إلى طلب العلم وتفرغه لذلك ثروة أبيه الموسر، فقد ترك من الأموال الشيء الكثير، ولهذا نراه - رحمه الله - يكثر الكلام عن نفسه في أكثر من كتاب، فيبين أنه نشأ في النعيم، ويقول في صيد الخاطر:

" فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه، وقد عرفت هذا من نفسي، فإني ربيت في ترف، فلما ابتدأت في التقلل وهجر المشتهى أثر معي مرضًا قطعني عن كثير من التعبد، حتى إني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت يومًا ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها، فقلت: إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات، إن تناوله لطاعة عظيمة، وإن مطعمًا يؤذي البدن فيفوّته فعل خير ينبغي أن يهجر، فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه " (١).

فلما بلغ ابن الجوزي رشده شعر بنفسه وبال الترف في طلب العلم،

---

(١) انظر: صيد الخاطر في فصل الرفق بالبدن ص: ٤٤٦.

فقنع باليسير واستسهل الصعاب متحملاً كلّ الشدائد والمحن فهمته في طلب العلم أنسته كل الترف فانكب على طلب العلم - وهو ألذ من كلّ لذيذ - فيقول عن نفسه: " ولقد كنت في مرحلة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها شربة، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم " [١].

قد عاش ابن الجوزي منذ طفولته ورعًا تقيًّا زاهدًا، لا يحب مخالطة الناس خوفًا من ضياع الوقت، ووقوع الهفوات، فصان بذلك نفسه وروحه ووقته: يقول الإمام ابن كثير عند ترجمته له: " وكان - وهو صبي - ديّنًا منجمعاً على نفسه لا يخالط أحدًا ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلاّ للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان " [٢].

حبه للعزلة:

وكان يحب العزلة تقديرًا لقيمة الوقت وابتعادًا عن الوقوع في اللهو. يقول في صيد الخاطر: " فليس في الدنيا أطيب عيشًا من منفرد عن العالم بالعلم، فهو أنيسه وجليسه، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة، لا عن تكلف ولا تضييع دين، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف القناعة باليسير، إذا لم يقدر على الكثير بهذا الاستعفاف يسلم دينه ودنياه، واشتغاله بالعلم يدلّه على

(١) انظر: صيد الخاطر (١٥٣).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ /٥٩٧.

الفضائل ويفرجه عن البساتين، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة، ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتحبط " (١).

ردّه على المتزهدين والمتصوفين:

في موضع آخر من صيد الخاطر عين فصولاً للرد على العزلة العمياء والمتزهدين فيقول: " فكم فوتت العزلة علمًا يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب " (٢).

ويقول في ذم المتزهدين والصوفية العمياء: " وإني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم، فيقال: قال أبو طالب المكي: كان من السلف من يزن قوته بكربة فينقص كل يوم. وهذا شيء ما عرفه رسول الله ﷺ، ولا أصحابه وإنما كانوا يأكلون دون الشبع. وما كانت سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم.

فقد كان ﷺ يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ويسابق عائشة رضي الله عنها، وكان يأكل اللحم ويحب الحلوى ويستعذب الماء وعلى هذا كانت طريقة أصحابه، فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة، وكلها على غير الجادة " (٣).

(١) صيد الخاطر، ص ٣٧٣).
(٢) صيد الخاطر، ص١٣٢.
(٣) صيد الخاطر، ص٤٧١، ٤٧٢. انظر أيضاً في فصل حماقة الصوفية في كراهية الدنيا، ص ٢٥ - ٣٥، في صيد الخاطر.

مكانته وثناء العلماء عليه:

لقد أعجب بشخصيته وجهده الجبار علماء أجلاء من بعده فمدحوه وأثنوا عليه. يقول ابن خلكان: " إنه كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وفي صناعة الوعظ صنف في فنون كثيرة " فعد بعض مؤلّفاته، ثم قال: " وبالجملة فكتبه تكاد لا تعد، وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا: إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره، وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خصّ كل يوم تسع كراريس " [(١)].

وكان ابن الجوزي كثير الاطلاع ومشغوفًا بالقراءة فقد حكى عن نفسه أنه طالع عشرين ألف مجلد أو أكثر، وهو ما يزال طالبًا [(٢)].

يقول في صيد الخاطر: " سبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي تخلفت من المصنفات فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلوّ هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا ترى فيهم ذا همة عالية فيقتدي به المقتدي ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، والاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم " [(٣)].

فقد استطاع بهذا الاطلاع الواسع أن يتفوق على كثير من معاصريه في المشاركة في عديد من العلوم والفنون، فألف في التفسير والحديث والطب والوعظ وغيرها الشيء الكثير ويبدو أن ابن

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٣٢١/٢ رقم: ٣٤٣.
(٢) صيد الخاطر، ص٤٤١.
(٣) صيد الخاطر، ص٤٤١.

الجوزي كان ماهرًا في التفسير وفي التأريخ والوعظ ومتوسطًا في الفقه، وأما بالنسبة إلى متون الحديث فهو واسع الاطلاع فيها لكنه غير مصيب في الحكم على الصحيح والسقيم.

يقول الذهبي عند ترجمة ابن الجوزي: " كان مبرزًا في التفسير والوعظ والتأريخ ومتوسطًا في المذهب وله في الحديث اطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين " [1]. وقال الذهبي في التأريخ الكبير: " لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه " [2].

مدرسة ابن الجوزي:

كان له دور كبير ومشاركة فعالة في الخدمات الاجتماعية، وقد بنى مدرسة بدرب دينار وأسس فيها مكتبة كبيرة ووقف عليها كتبه وكان يدرس أيضًا بعدة مدارس ببغداد.

قال الحافظ ابن الدبيثي عن ابن الجوزي: " كان من أحسن الناس كلامًا وأتمهم نظامًا وأعذبهم لسانًا، وأجودهم دينًا، وبورك في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة وحدث بمصنفاته مرارًا ".

منزلته في الوعظ:

لم يكن جهاده محصورًا في القلم والتأليف إنما كان له شأن عظيم وشهرة كبيرة في الوعظ والخطب والدعوة والإرشاد بين الخواص والعوام.

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ رقم الترجمة: (١٠٦٧).
(٢) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٤٧٨.

يقول ابن كثير رحمه الله: " تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه في المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة " [١].

شجاعته في إظهار الحقّ:

كان لا يخاف في الله لومة لائم، وكان يحضر في وعظه الرؤساء والخلفاء، وقد التفت مرة إلى ناحية الخليفة المستضيء العبّاسي، وهو يخطب، فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت، خفت منك وإن سكتّ خفت عليك، وإن قول القائل لك: اتق الله، خير لك من قوله: لكم أنتم أهل البيت مغفور لكم.. وأضاف قائلاً: لقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني من عامل ظلم فلم أغيره فأنا الظالم[٢].

وهكذا دافع ابن الجوزي عن الحقّ بدون خوف لومة لائم وحارب البدع والمنكرات والتعصب في المذاهب والتقليد الأعمى، وقد كان يعترف بنجاحه في هذا المجال فيقول: " وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب، فأعانني الله عزوجل عليهم وكانت كلمتنا هي العليا " [٣].

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣، / ٥٩٧.
(٢) الذيل لابن رجب ١/٤٠٩، وتذكرة الحفاظ للذهبي، رقم الترجمة: (١٠٩٧).
(٣) الذيل لابن رجب ١/٤٠٣.

محنته في سبيل الحقّ:

وقد امتحن ابن الجوزي رحمه الله، في آخر عمره، وذلك أن الوزير ابن يونس الحنبلي كان في ولايته قد عقد مجلسًا للركن عبد السلام ابن عبد الوهّاب بن عبد القادر الجيلي، وأحرقت كتبه. وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير منه مدرسة جدّه وسلمها إلى ابن الجوزي.

فلما ولى الوزارة ابن القصاب - وكان رافضيًّا خبيثًا - سعى في القبض على ابن يونس وتتبع أصحابه، فقال الركن: أين أنت من ابن الجوزي، فإنه ناصبي، ومن أولاد أبي بكر، فهو أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبه في مشورته؟ فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر - وكان الناصر له ميل إلى الشيعة - وكان يقصد إيذاء ابن الجوزي فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه وأهانه وختم على داره وشتت عياله، ثم أخذه في سفينة إلى واسط فحبس بها في بيت وبقي يغسل ثوبه ويطبخ، ودام على ذلك خمس سنين وما دخل فيها حمامًا[١].

فالمحنة بشتى أنواعها والصبر عليها والاستمرار على الوقوف في وجه الباطل والظلم والطاغوت من دأب العلماء العاملين والمجاهدين المخلصين. وقد رسم لنا العلامة ابن الجوزي من خلال حياته سلسلة متصلة من الكفاح والجهل الطويل والربط بين العلم والعمل ربطًا وثيقًا.

وقد عقد فصلاً مستقلاً في كتابه صيد الخاطر تحت عنوان: (العلماء

---

(١) الذيل لابن رجب ٤٢٥/١ - ٤٢٦، وتذكرة الحفاظ، رقم الترجمة: (١٠٩٨).

العاملون) فمدح فيه من يستحق المدح من أقرانه، وذمّ من يستحق ذلك ثم قال: " فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلسًا مع قوّة الحجة عليه " [١].

شعره:

كان " ابن الجوزي " شاعرًا مجيدًا إلى جانب كونه أديبًا بارعًا وخطيبًا مفوهًا، وله أشعار حسنة كثيرة، منها قوله في الفخر:

ما زلت أدرك ما غلا بل ما علا ::: وأكابد النهج العسير الأطولا
تجري بي الآمال في حلباته ::: جري السعيد إلى مدى ما أمّلا
لو كان هذا العلم شخصًا ناطقًا ::: وسألته: هل زار مثلي؟ قال: لا

ومنها قوله في الزهد والقناعة:

إذا قنعت بميسور من القوت ::: بقيت في الناس حرًّا غير ممقوت
يا قوت يومي إذا ما در خلفك لي ::: فلست آسى على درٍّ وياقوت

وأوصى أن يُكتب على قبره:

يا كثير العفو عمن ::: كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو ::: الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء ::: الضيف إحسان لديه

ما أخذ عليه: رغم وصوله إلى قمة العلم والمعرفة فقد أخذ العلماء عليه مآخذ هامة:

أوّلاً: كان يميل إلى التأويل في بعض كلامه. يقول ابن رجب في الذيل: " اشتد إنكار العلماء عليه في ذلك، وكان مضطربًا في قضية التأويل رغم سعة اطلاعه على الأحاديث في هذا الباب فلم يكن

(١) صيد الخاطر ص: ١٤٣ - ١٤٤.

خبيرًا بحل شبه المتكلمين، ويقول: كان أبو الفرج تابعًا لشيخه أبي الوفاء ابن عقيل في ذلك، وكان ابن عقيل بارعًا في علم الكلام ولكنه قليل الخبرة في الأحاديث والآثار لذا نراه مضطربًا في هذا الباب " [١].

نعم، قد نجد ما يثبت ميله إلى التأويل من ثنايا كتبه حيث ألّف كتابًا مستقلاً يناقش هذا الموضوع باسم (دفع شبه التشبيه) وهو مطبوع أورد فيه بعض آيات قرآنية، وستين حديثًا ورد فيها الكلام عن ذات الله وصفاته ﷻ، كالوجه، واليد، والنفس، والساق، والاستواء، فيؤوّلها بما يحتمل التأويل بخلاف ما ذهب إليه السلف من إمرارها كما وردت بدون تأويل ولا تشبيه، ولا تعطيل[٢].

ونجده أيضًا في صيد الخاطر، ينقد نهج السلف فيقول: ".. ولا أقوامًا قصرت علومهم فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعليل، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا " [٣].

وقد قام بالردّ على ما كتبه ابن الجوزي مائلاً إلى التأويل عالم معاصر له، وهو الشيخ إسحاق بن أحمد بن غانم العلثي[٤] حيث كتب رسالة يردّ فيها على ابن الجوزي ردًّا عنيفًا طالبًا فيها العودة إلى الحقّ وإلى العقيدة السلفية وعلى ما كان عليه إمامه أحمد بن

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٤١٤/١، أما ابن عقيل فليس هو شيخه المباشر إنما كان يتبعه بوساطة مؤلفاته، وكانت ولادة ابن الجوزي قبل وفاة ابن عقيل بسنة، وسوف تأتي ترجمته عند أول ذكر له في الكتاب إن شاء الله.

(٢) طبع هذا الكتاب بمصر، ولم يؤرخ، بتحقيق محمد زاهد الكوثري وهو في (٩٦) صفحة.

(٣) انظر: كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة ص: ١٤، للشيخ عدي بن مسافر الأموي الشامي المتوفى سنة: ٥٥٧هـ.

(٤) صيد الخاطر، ص ٨٣، ٨٤.

حنبل رحمه الله، حيث يقول فيها: " وإذا تأولت الصفات على اللغة وسوغته لنفسك وأبيت النصيحة، فليس هو مذهب الإمام الكبير أحمد بن حنبل قدس الله روحه، فلا يمكنك الانتساب بهذا، فاختر لنفسك مذهبًا حتى قال: فلقد استراح من خاف مقام ربّه وأحجم عن الخوض فيما لا يعلم، لئلا يندم. فانتبه قبل الممات، وحسن القول العمل، فقد قرب الأجل لله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ".

ثانيًا: كثرة أغلاطه في تصانيفه، وعذره في هذا واضح وهو أنه كان مكثرًا من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره، بل يشتغل بغيره وربما كتب في الوقت الواحد تصانيف عديدة ولولا ذلك لم تجتمع له هذه المصنفات الكثيرة.

ثالثًا: ما يوجد في كلامه من الثناء على نفسه والترفع والتعاظم، وكثرة الدعاوى، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، والله يسامحه، كقوله في صيد الخاطر: ".. ونظرت إلى علوّ همتي فرأيتها عجبًا " ويقول في موضع آخر: " خلقت لي همة عالية تطلب الغايات " وأمثال ذلك كثير.

والحقيقة في علم ابن الجوزي، فلا يخفى كثرة مآثره ومؤلفاته. ولكن من كان لديه بالعلم والتحقيق العلمي دراية، يعلم أن ابن الجوزي لم يكن من أئمة الفقه ولا الحديث، وإن ألف فيهما ما ألّف. وإنما حصل له ذلك بكثرة اطلاعه وبحثه. قال السيوطي في طبقات الحفاظ (٤٨٠/١): قال الذهبي في التاريخ الكبير: «لا يُوصَفُ ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه». ورغم كثرة تآليفه في شتى العلوم، فقد ضَعُفَ من ناحية التحقيق في أكثر العلوم التي ألّف فيها، ولا سيما في الحديث. فتجد كلامه مخالفاً

كثيراً لكلام حُفّاظِ الحديث. فالمفترض أن تكون كتبه مراجع يستعملها طالب العلم المتمكن الذي يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، فلا تُنشر على العامة وصغار المتفقهة.

قال الإمام موفق الدين عن ابن الجوزي: «كان حافظاً للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها». وقال عنه الموفق عبد اللطيف: «وكان كثير الغلط فيما يصنفه. فإنه كان يخلو من الكتاب ولا يعتبره». ذكر ذلك الحافظ ابن عبد الهادي في طبقات علماء الحديث (١٢٢/٤). فقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٧٨/٢١): «هكذا هو: له أوهامٌ وألوانٌ من ترْك المراجعة، وأخذ العِلم من صُحُف». قال الحافظ سيف الدين بن المجد: «هو كثير الوهم جدًّا، فإن في مشيخته - مع صِغرها - أوهاماً». وقيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزي؟ قال: «إنما يُتتبع على من قل غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة». قال السيف: «ما رأيت أحداً يُعتمد عليه في دينه وعلمه وعقله، راضياً عنه». وقد عابه الكثير من أهل السنة فأصر على بدعته. وعاتبه أبو الفتح بن المني في أشياء. وقال ابن حجر لسان الميزان (٨٣/٢) بترجمة ثمامة بن الأشرس البصري بعد قصة: «دلّت هذه القصة على أن ابن الجوزي حاطب ليلٍ لا ينتقد ما يحدّث به». قلت: فمثل هذا الرجل لا يوثق بنقله ولا بكلامه.

ولعل ما قدم للأمة من القدوة الصالحة والخدمة الخالصة التي لا مثيل لها، تغطي مساوئه، وترفع درجاته. لأن الحسنات يذهبن السيئات. والله واسع المغفرة والكرم وهو عليم بذات الصدور.

وفاته:

بعد أن عاش رحمه الله داعيًا مرشدًا كاتبًا بارعًا زاهدًا مخلصًا، قرابة تسعين عامًا، انتقل إلى جوار ربّه ببغداد. وكانت وفاته ليلة الجمعة (١٢ رمضان ٥٩٧هـ) بين العشاءين، فغسل وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيرًا جدًّا، وما وصل إلى حفرته إلا وقت صلاة الجمعة، والمؤذن يقول: " الله أكبر"، ودفن بباب حرب، بالقرب من مدفن الإمام أحمد بن حنبل وكان ينشد حال احتضاره يخاطب ربّه:

يا كثير العفو عمن ::: كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو ::: الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء ::: الضيف إحسان إليه

فرحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته ونفعنا بعلومه آمين.

شيوخه:

وقد ألّف في مشيخته كتابًا خاصًّا، ذكر فيه حوالي تسعة وثمانين شيخًا ونرى فيه حسن اختياره للمشايخ حيث تتلمذ على طائفة من خيرة أعلام عصره، ويذكر اهتمامه في اختيار أبرع وأفهم المشايخ في بداية كتابه المذكور، حيث قال: " حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصغر وأسمعني العوالي، وأثبت سماعاتي كلّها بخطّه، وأخذ لي إجازات منهم، فلما فهمت الطلب كنت ألازم من الشيوخ أعلمهم وأوثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد المدد لا تكثير العدد ". فمن مشايخه:

١ - أبو بكر محمّد بن عبد الباقي بن محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الربيع بن ثابت، وتنتهي نسبته إلى كعب بن مالك

الأنصاري أحد الثلاثة الذين خلفوا. يقول المؤلّف: قرأ عليه، وكان ثقة فهمًا حجّة متفننًا في علوم كثيرة، منفردًا في علم الفرائض، وقع في أيدي الروم أسيرًا فأجبروه على أن ينطق كلمة الكفر فلم يفعل. توفي رحمه الله سنة: (٥٣٥هـ).

٢ - أبو بكر محمّد بن الحسن بن عليّ بن إبراهيم المعروف بالمزرعي، قال ابن الجوزي إنه سمع منه وكان ثقة ثبتًا، عالمًا، حسن العقيدة، وسمع الحديث الكثير من ابن المهتدي، والصيريفيني وغيرهما. توفي رحمه الله سنة: (٥٢٧هـ).

٣ - أبو الحسن عليّ بن عبد الواحد الدينوري، يقول المؤلّف: إنه سمع منه الفقه والحديث، والجدل، والخلاف، والأصول، وهو من أقدم شيوخه وكان يسكن باب البصرة من غربي بغداد. وتوفي في جمادى الآخرة سنة: (٥٢١هـ).

٤ - أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، قال ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة شيخه الأوّل أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان عبد الملك صالحًا صدوقًا، سمع جماعة كثيرة وخرج إلى مكة فجاورها. وتوفي في ذي الحجّة بعد رحيل الحجّ بثلاثة أيام سنة: (٥٤٨هـ)، (٦٣/١).

٥ - أبو سعد أحمد بن محمّد بن الحسن بن عليّ البغدادي، يقول ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان خيراً ثقة وأملى بمكة والمدينة وكان على طريقة السلف صحيح العقيدة حلو الشمائل مطرح التكلف. ولد بأصبهان ونشأ بها وتوفي بنهاوند سنة: (٥٤٠هـ).

تلاميذه:

كما اختار ابن الجوزي ثلة من خيرة أساطين علماء عصره، كذلك اختاره هو شيخًا، وأخذ العلم والحكمة على يده نخبة من الأفذاذ فورثوا بعده مقتدين بخطواته في التأليف والنصح والإخلاص، فمنهم:

١ ـ الحافظ عبد الغني عبد الواحد بن عليّ بن سرور. ولد في أرض نابلس سنة: (٥٤١هـ) سمع الحديث والعلوم من دمشق والموصل وهمدان، والإسكندرية، وكان حافظًا تقيًّا ورعًا، وسمع من ابن الجوزي ببغداد، وألف كتبًا عديدة، قال يوسف بن خليل: كان ثقة ثبتًا ديّنًا مأمونًا حسن التصنيف دائم الصيام. توفي بمصر سنة: (٦٠٠هـ).

٢ ـ يوسف بن فرغلي بن عبد الله، أبو المظفر الواعظ، سبط الإمام ابن الجوزي، روى عن جدّه ببغداد، وسمع أبا الفرج بن كليب وغيره، وسمع بالموصل ودمشق، وحدّث بها وبمصر وأعطى القبول، وصنف الكتب العديدة منها: كتاب مرآة الزمان في التأريخ، وشرح الجامع الكبير، واللوامع في أحاديث المختصر، وغيرها. أخذ العلم من ابن الجوزي في بغداد. وتوفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من ذي الحجّة سنة: (٦٥٤هـ).

٣ ـ أحمد بن عبد الدائم بن نعمة الكاتب المحدّث. ولد سنة: (٥٧٥هـ) في نابلس، ودخل بغداد، وسمع بها ابن الجوزي وغيره، وسمع بدمشق وحران، وكان حسن الخُلق والخَلق، ديّنًا متواضعًا، وحدّث بالكثير بضعًا وخمسين سنة، وكتب ما لا يوصف كثرة من الكتب الكبار، متأثرًا بشيخه ابن الجوزي حتى صار هو شيخًا

للأئمة الكبار، والحفاظ والمحدّثين، والفقهاء كالشيخ محيي الدين النووي، والشيخ شمس الدين بن عمر، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وأمثالهم، رحمهم الله جميعًا. توفي أحمد بن عبد الدائم سنة: (٦٦٨هـ).

مؤلَّفاته:

لقد فارقنا جسمًا وروحًا ولكن ذكراه وثمرات جهده الجبار المرسومة على صفحات التاريخ لم تزل ولا تزال تحيا حياة طيبة، كما قال الشاعر:

الجاهلون فماتوا قبل موهم ::: والعاملون وإن ماتوا فأحياء

وقد أورد المؤرخون من بعده بكل غرابة وإعجاب مؤلفاته الضخمة في كتبهم فيقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في (أجوبته المصرية): " كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره ".

ويقول الحافظ الذهبي: " ما علمت أن أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل ".

ويصفه صاحب البداية والنهاية بأنه: " أحد أفراد العلماء برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، ومجموع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف وكتب بيده نحوًا من مائتي مجلد. وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في جميع أنواعها؛ من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه. وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك كله ما يضيق هذا المكان عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها: كتابه في

التفسير المشهور بـ (زاد المسير) وله تفسير أبسط منه - أي أوسع - لكنه ليس بمشهور. وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي، وله كتاب (المنتظم في تاريخ الأمم من العرب والعجم) في عشرين مجلدًا، (ويقول ابن كثير): ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخًا:

ما زلت تدأب في التاريخ مجتهـدًا ::: حتى رأيتك في التـاريخ مكتوبًـا

وقد أورد ابن رجب عن القطيعي في تأريخه، ثبت التصانيف التي كتبها ابن الجوزي بخطّه فذكر فيه حوالي ١٩٩ كتابًا. منها:

ثبت تصانيفه المتعلقة بالقرآن وعلومه:

كتاب المغنى في التفسير واحد وثمانون جزءًا.

كتاب زاد المسير في علم التفسير أربع مجلدات.

كتاب تيسير البيان في تفسير القرآن مجلد واحد.

كتاب تذكرة الأريب في تفسير الغريب مجلد واحد.

كتاب غريب الغريب جزء واحد.

كتاب نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر مجلد واحد.

كتاب الوجوه النواضر في الوجه والنظائر في مجلد واحد قال ابن الجوزى: إنه اختصره من الكتاب السابق.

كتاب الإشارة إلى القراءة المختارة أربعة أجزاء.

كتاب تذكرة المنتبه في عيون المشتبه جزء واحد.

كتاب فنون الأفنان في عيون علوم القرآن مجلد واحد.

كتاب ورد الأغصان في فنون الأفنان جزء واحد.

كتاب عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ في خمسة أجزاء.

كتاب المصفى بأكف أهل الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ جزء واحد.

ثبت تصانيفه في أصول الدين:

كتاب منتقد المعتقد جزء واحد.

كتاب منهاج الوصول إلى علوم الأصول خمسة أجزاء.

كتاب بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد جزء واحد.

كتاب غوامض الإلهيات جزء واحد.

كتاب مسلك العقل جزء واحد كتاب منهاج أهل الإصابة.

كتاب السر المصون مجلد واحد.

كتاب دفع شبه التشبيه أربعة أجزاء.

كتاب الرد على المتعصب العنيد في منع ذم يزيد (والمتعصب العنيد عند ابن الجوزي هو عبد المغيث الحربي الحنبلي الذي له مؤلف في منع لعن وذم يزيد بن أبي معاوية بن أبي سفيان الأموي).

ثبت تصانيفه في علم الحديث والزهديات:

كتاب جامع المسانيد والألقاب بألخص الأسانيد وهو كتاب كبير رتبه الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بالمحب الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ.

كتاب الحدائق أربعة وثلاثون جزءا.

كتاب نفي النقل في خمسة أجزاء.

كتاب المجتبى في مجلد واحد.

كتاب النزهة جزآن.

كتاب عيون الحكايات مجلد واحد.

ملتقط الحكايات ثلاثة عشر جزءًا.

كتاب إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين مجلد واحد.

كتاب روضة الناقل جزء واحد.

كتاب غرر الأثر ثلاثون جزءًا.

كتاب التحقيق في أحاديث التعليق مجلدان.

كتاب المديح سبعة أجزاء.

كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات مجلدان.

كتاب العلل المتناهية في الأحاديث الواهية مجلدان.

كتاب الضعفاء والمتروكين مجلد واحد.

كتاب الكشف لمشكل الصحيحين أربع مجلدات.

كتاب إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه مجلد واحد.

كتاب أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث جزء واحد.

كتاب السهم المصيب جزآن.

كتاب أخيار الذخائر ثلاثة أجزاء.

كتاب الفوائد عن الشيوخ ستون جزءًا.

كتاب مناقب أصحاب الحديث مجلد واحد.

كتاب موت الخضر مجلد واحد.

كتاب مختصر موت الخضر جزء واحد.

كتاب المشيخة جزء واحد.

كتاب المسلسلات جزء واحد.

كتاب المحتسب في النسب مجلد واحد.

كتاب تحفة الطلاب ثلاثة أجزاء.

كتاب تنوير مدلهم الشرف جزء واحد.

كتاب الألقاب جزء واحد.

ويضيف ابن القطيعي المؤرخ المشهور ما يلي على مؤلفات ابن الجوزي:

كتاب فضائل عمر بن الخطاب مجلد واحد.

كتاب فضائل عمر بن العزيز (مجلد واحد).

كتاب فضائل سعيد بن المسيب (مجلد واحد).

كتاب فضائل الحسن البصري مجلد واحد.

كتاب مناقب الفضيل بن عياض أربعة أجزاء.

كتاب مناقب بشر الحافي سبعة أجزاء.

كتاب مناقب إبراهيم بن أدهم ستة أجزاء.

كتاب مناقب سفيان الثوري مجلد واحد.

كتاب مناقب أحمد بن حنبل مجلد واحد.

كتاب مناقب معروف الكرخي جزآن.

كتاب مناقب رابعة العدوية جزء واحد.

كتاب مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن مجلد واحد.

كتاب صفة الصفوة خمس مجلدات.

كتاب منهاج القاصدين أربع مجلدات.

كتاب المختار من أخبار الأخيار مجلد واحد.

كتاب القاطع لمحال اللجاج القاطع بمحال الحلاج (جزء واحد).

كتاب عجالة المنتظر لشرح حال الخضر جزء واحد.

كتاب النساء وما يتعلق بآدابهن مجلد واحد.

كتاب علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أَمَّ الرسول جزء واحد (في هذا الجزء حاول نفي ذلك وقد حاول عبد المغيث الحربي بن زهير بن علوي المحدث الزاهد أبو العز بن أبي حرب أن يثبت ذلك في كتاب له بعنوان في إثبات صلاة النبي ﷺ خلف أبي بكر).

كتاب الجوهر.

كتاب المغلق.

ثبت تصانيفه في التواريخ وما يتعلق بها:

كتاب تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير عبارة عن مجلد واحد.

كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم عشر مجلدات.

كتاب شذور العقود في تاريخ المعهود مجلد واحد.

كتاب طارف الطرائف في تاريخ السوالف جزء واحد.

كتاب مناقب بغداد مجلد واحد.

ثبت مصنفاته في الفقه :

كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف.

كتاب جنة النظر وجنة المنتظر وهي التعليقة الوسطى.

كتاب مقتصر المختصر في مسائل النظر وهي دون تلك.

كتاب عمد الدلائل في مشتهر المسائل وهي التعليقة الصغرى.

كتاب المذهب في المذهب.

كتاب مسبوك الذهب في المذهب مجلد واحد في الفروع.

كتاب النبذة جزء واحد.

كتاب العبادات الخمس جزء واحد.

كتاب أسباب الهداية لأرباب البداية مجلد واحد.

كتاب أسباب كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوى.

كتاب رد اللوم والضيم في صوم يوم الغيم جزء واحد.

مصنفاته في الوعظ :

قال ابن القادسي له أكثر من مائة مجلدة نذكر منها:

كتاب اليواقيت في الخطب مجلد واحد.

كتاب المنتخب في الثوب مجلد واحد.

كتاب منتخب المنتخب مجلد واحد.

كتاب نسيم الرياض مجلد واحد.

كتاب اللؤلؤ مجلد واحد.

كتاب المذكر مجلد واحد.

كتاب الأزج مجلد واحد.

كتاب اللطائف مجلد واحد.

كتاب كنوز الرموز مجلد واحد.

كتاب المقتبس مجلد واحد.

كتاب زين القصص مجلد واحد.

كتاب مواقف المرافق مجلد واحد.

كتاب شاهد ومشهود مجلد واحد.

كتاب واسطات العقود من شاهد ومشهود مجلد واحد.

كتاب اللهب جزآن.

كتاب المدهش مجلدان.

كتاب صبا نجد جزء واحد.

كتاب محادثة العقل جزء واحد.

كتاب لقط الجمان جزء واحد.

كتاب معاني المعاني جزء واحد.

كتاب فتوح الفتوح مجلد واحد.

كتاب التعازي الملوكية جزء واحد.

كتاب العقد المقيم جزء واحد.

كتاب إيقاظ الوسنان من الرقدات بأحوال الحيوان والنبات جزءان.

كتاب نكت المجالس البدرية جزآن.

كتاب نزهة الأديب جزآن.

كتاب منتهى المنتهى مجلد.

كتاب تبصرة المبتدئ عشرون جزءا.

كتاب الياقوتة جزآن.

كتاب تحفة الوعاظ مجلد.

تصانيفه في فنون ذم الهوى:

كتاب ذم الهوي مجلدان.

كتاب صيد الخاطر خمسة وستون جزءًا.

كتاب أحكام الإشعار بأحكام الأشعار عشرون جزءًا.

كتاب القصاص والمذكرين.

كتاب تقويم اللسان مجلد واحد.

كتاب الأذكياء مجلد واحد.

كتاب الحمقى مجلد واحد.

كتاب تلبيس إبليس مجلدان.

كتاب لقط المنافع في الطب مجلدان.

كتاب الشيب والخضاب مجلد واحد.

كتاب أعمار الأعيان جزء واحد.

كتاب الثبات عند الممات جزآن.

كتاب تنوير الغبش في فضل السود والحبش مجلد واحد.

كتاب الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ جزء واحد.

كتاب إشراف الموالى جزآن.

كتاب إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء.

كتاب تحريم المحل المكروه جزء واحد.

كتاب المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء مجلد واحد.

كتاب عطف العلماء على الأمراء والأمراء على العلماء جزء واحد.

كتاب النصر على مصر جزء واحد.

كتاب المجد العضدي مجلد واحد.

كتاب الفجر النوري مجلد واحد.

كتاب مناقب الستر الرفيع جزء واحد.

كتاب ما قلته من الأشعار جزء واحد.

كتاب المقامات مجلد واحد.

كتاب من رسائلي رسائل ابن الجوزي في جزء واحد.

كتاب الطب الروماني جزء واحد.

هذا ما نقله ابن القطيعي من خطه وقرأ عليه وزاد فيه ومع هذا فلأبي الفرج تصانيف أخرى كثيرة غير ما ذكر في هذا الفهرست وقدر علمي أنه صنفها بعد ذلك منها.

كتاب بيان الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب يقع في ستة عشر جزءًا.

كتاب الباز الأشهب المنقض على من خالف المذهب وهو عبارة عن تعليقة في الفقه مجلد كبير.

كتاب الوفاء بفضائل المصطفى مجلدان.

كتاب النور في فضائل الأيام والشهور مجلد واحد.

كتاب تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد.

كتاب مناقب الإمام الشافعي.

كتاب العزلة.

كتاب الرياضة.

كتاب منهاج الإصابة في محبة الصحابة.

كتاب فنون الألباب.

كتاب الظرفاء والمتحابين.

كتاب مناقب أبي بكر مجلد واحد.

كتاب مناقب علي مجلد واحد.

كتاب فضائل العرب مجلد واحد.

كتاب درة الإكليل في التاريخ أربع مجلدات.

كتاب الأمثال مجلد واحد.

كتاب المنفعة في المذاهب الأربعة مجلدان.

كتاب المختار من الأشعار عشر مجلدات.

كتاب رؤوس القوارير مجلدان.

كتاب المرتجل في الوعظ مجلد كبير.

كتاب ذخيرة الواعظ أجزاء.

كتاب الزجر المخوف.

كتاب الأنس والمحبة.

كتاب المطرب الملهب.

تاب الزند الورى في الوعظ الناصري جزآن.

كتاب الفاخر في أيام الإمام الناصر مجلد.

كتاب المجد الصلاحي مجلد.

كتاب لغة الفقه جزآن.

كتاب عقد الخناصر في ذم الخليفة الناصر.

كتاب في ذم عبد القادر.

كتاب غريب الحديث مجلد واحد.

كتاب ملح الأحاديث جزآن.

كتاب الفصول الوعظية على حروف المعجم.

كتاب سلوة الأحزان عشر مجلدات.

كتاب المعشوق في الوعظ.

كتاب المجالس اليوسيفية وهي في الوعظ كتبها لابنه يوسف.

كتاب الوعظ المقبري جزء واحد.

كتاب قيام الليل ثلاثة أجزاء.

كتاب المحادثة جزء واحد.

كتاب المناجاة جزء واحد.

كتاب زاهر الجواهر في الوعظ ويقع في أربعة أجزاء.

كتاب كنز المذكر.

كتاب النجاة بالخواتيم جزآن.

كتاب المرتقى لمن اتقى.

وله أيضا من المؤلفات ما ذكرته كتب أهل الثقة الأعلام :

كتاب كشف النقاب عن الأسماء والألقاب وهو مخطوط بليدن ١٤٨٧ لم يثبت بعد في الفهرس وله أيضا تصانيف أخرى غير هذه وقد اختصر فنون ابن عقيل في بضعة عشر مجلدا (١).

فهذه هي بعض مؤلفاته وثمرات جهده الجبار. وتلك هي بعض ملامح ذلك الرجل الفذ الذي له ثقله ووزنه في ميزان العلم والعلماء حتى اليوم.

---

(١) مصادر ترجمة ابن الجوزي: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن عبد الهادي الدمشقي ت ٩٠٩هـ، معجم الكتب، تحقيق يسرى عبد الغني البشري، نشر مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، القاهرة.
عبد الحميد العلوجي، مؤلفات ابن الجوزي، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٣٨٥هـ /١٩٦٥م.
مقدمة تحقيق كتاب نواسخ القرآن لابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- الذيل لابن رجب.
- الحافظ المنذري، التكملة لوفيات النقلة.
- الذهبي، تذكرة الحفاظ.
- السيوطي، طبقات الحفاظ.
- الشيخ عدي بن مسافرالأموي الشامي المتوفى سنة: ٥٥٧هـ،
- كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة.
- ومفتاح السعادة١/٢٠٧.
- المختصر المحتاج إليه ٢/٢٠٥ - ٢٠٨.
- ودول الإسلام ٢/١٠٦.
- والعسجد المسبوك ٢/٢٦٨.
- وغاية النهاية ١/٣٧٥.
- وعقود الجوهر ص: ٣٩ - ٤٥.
- والمجددون في الإسلام ص: ٢٣٢ - ٢٤٠.
- ودائرة المعارف الإسلامية ١/١٢٥.
- والأعلام ٤/٨٩ - ٩٠.
- ومرآة الجنان ٣/٤٨٩ - ٤٩٢.
- البداية والنهاية.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.
- العبر في خبر من غبر.
- الكامل في التاريخ ابن الأثير.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان.

ابن تغري بردي

أبو المحاسن بن تغري بردي

يوسف بن تغري بردي [1] بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين البشقاوى القاهرى: مؤرخ بحاثة. من أهل القاهرة، مولدًا ووفاة. كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، نائب الشام يعرف بابن تغرى بردى الأديب المورخ ولد سنة ٨١٣ هـ، وتوفى سنة ٨٧٤ هـ أربع وسبعين وثمانمائة، ولد بالقاهرة ورباه زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفي. تفقه بشمس الدين محمد الرومي وبالعيني وغيرهما.

وأخذ النحو عن الشمنى ولازمه كثيرًا. وأخذ البديع والأدبيات عن الشهاب بن عربشاه وحضر على ابن حجر العسقلاني وانتفع به. ثم حبب إليه علم التاريخ.

فلازم مؤرخي عصره مثل العيني والمقريزي واجتهد في ذلك إلى الغاية وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره وصحة فهمه. ومهر وكتب وصنف وانتهت إليه رئاسة هذا الشأن في عصره، وتأدب وتفقه وقرأ الحديث وأولع بالتاريخ وبرع في فنون الفروسية وامتاز في علم النغم والإيقاع [2].

---

(١) تغري بردي: كلمة تترية، بمعنى " عطاء الله " أو " الله أعطى " كان يكتبها الأتراك " تكري ويردي " ويلفظون الكاف نونا، والواو أقرب إلى ال V بحركة بين الفتح والكسر.

(٢) الزركلي، الأعلام، ٨ / ٢٢٢ - ٢٢٣، هدية العارفين في أسماء المؤلفين - ط إحياء التراث، ٤ / ١١٢، معجم المطبوعات، ١ / ٥٢.

من مؤلفاته:

١ - حلية الصفات في الأسماء والصناعات في الأدب. جمع فيه أشعارًا على ترتيب الحروف فكتب ما يتعلق بطول الليل في حرف الطاء مثلاً.

٢ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ذيلا على تاريخ المقريزى المسمى بالسلوك. ويعتبر ذيلاً على كتاب " السلوك للمقريزي " حيث يقول أبو المحاسن بن تغري بردي في أوله: (الحمد لله مدبر الدهور ومدول الأيام والشهور.. إلخ).

ثم قال: لما كان شيخنا المقريزي أتقن من حرر تاريخ الزمان وأجل تحفة اخترعها: (كتاب السلوك) قد انتهى فيه إلى: أواخر سنة ٨٤٤، أربع وأربعين وثمانمائة وهي التي توفي فيها.

ولم يأت بعده من يعول عليه في هذا الفن إلا الشيخ بدر الدين محمود العيني فنظرت فيما علقه في تلك الأيام فإذا به كثير الغلطات والأوهام لكبر سنه واختلاط ذهنه بحيث أنه لا يمكن الاستفادة منه إلا بعد تعب لاختلاف الضبط وعدم التحرير فأحببت: أن أكتب تاريخا يعقب موت الشيخ وجعلته: كالذيل على (السلوك) وسميته (حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور).

لكن لم أسلك فيه: طريق الشيخ في تطويل الحوادث في السنة وقصر التراجم في الوفيات بل أوسعت في التراجم لتكثير الفائدة فيه من الطرفين وما وجدته مختصرًا من التراجم فراجع إلى: (المنهل الصافي) فإني هناك شفيت الغلة.

٣ - الدليل الشافي على المنهل الصافى في تراجم الأعيان. في مجلد صغير، وهو اختصار لكتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

وسماه: (الدليل الشافي على المنهل الصافي) وأوله: (الحمد لله الذي لا يستدل عليه إلا به.. إلخ) قال: جعلته لتاريخنا المسمى: (بالمنهل الصافي) كالديباجة ورتبته على: ترتيبه من: أوله إلى آخره.. واختصرت فيه التراجم جدًّا ليكون الناظر في ذلك على بصيرة.

٤ - السكر الفاضح والعطر الفائح.

٥ - الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة.

٦ - المنهل الصافى في تراجم الأعيان على الحروف.

٧ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى في التاريخ والتراجم.

٨ - مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة في التاريخ.

اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين من غير مزيد، واستفتح: بذكر مولد سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - ووفاته، ثم ابتدأ من: الخلفاء الراشدين إلى خليفة وقته: القائم بأمر الله - تعالى - حمزة، ثم ذكر: العبيديين ثم ذكر ملوك مصر من أول الدولة الأيوبية إلى الدولة الجركسية.

٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

أوله: (الحمد لله الذي أيد الإسلام بمبعث سيد الأنام.. إلخ) استفتحه: بفتح مصر ومن حضرها من الصحابة ثم من وليها وما وقع في زمانه ومن توفي من الأعيان بدأ فيه بولاية عمرو بن العاص إلى الدولة الأشرفية الأينالية وهذا تاريخ كبير مرتب على السنين ابتدأ فيه من الفتح العمري إلى زمانه وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة ذكرًا مبسوطًا أصالة وذكر ملوك الأطراف والوقائع إجمالاً ضمنًا

وذكر من توفي من الأعيان والعلماء والملوك وأشار إلى زيادة النيل ونقصانه بعبارة مبسوطة ولما فتح السلطان سليم الديار المصرية وجد ذلك التاريخ واستحسنه فأمر المولى شمس الدين حمد بن سليمان بن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ أن يترجمه إلى التركية وهو يومئذ قاض بعسكر أناطولي فنقل في كل منزل جزءًا وبيضه المولى حسن المعروف بأشجي زاده ثم عرضه إلى السلطان في الطريق فأعجبه وأمر بنقله هكذا فعل إلى تمامه ولخص المصنف كتابه وسماه (الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة) وهو مجلد أوله (الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة.. إلخ) ذكر أنه اختصره حذرًا من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتدى في ذلك بجماعة من العلماء: كالذهبي والمقريزي فإن الذهبي:

اختصر (تاريخ الإسلام): (بسير النبلاء) ثم اختصر (سير النبلاء): (بالعبر) ثم اختصر (العبر): (بالإشارة إلى وفيات الأعيان).

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات في بلدان مختلفة منها.

طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

وطبعة دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤١٣هـ.

وطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م.

وطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.

وغيرها الكثير من الطبعات.

١٠ - نزهة الرأى في التاريخ، هو تاريخ مفصل على السنين

والشهور والأيام [1].

١٣ - سكب الأدب شرح لامية العرب [2].

أما كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " موضوع الاختصار فيعد أشهر تآليف ابن تغري بردي الجليلة الممتعة، ومن أكبر الموسوعات الأدبية والتاريخية. أرخ فيه لمصر، منذ الفتح الإسلامي سنة ٢٠هـ إلى خلال سنة ٨٧٢هـ. قال في مقدمته: (لما كان لمصر ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين، أحببت أن أجعل تاريخاً لملوكها.. وأستطرد فيه إلى ذكر ما بني فيها من المباني الزاهرة، كالميادين والجوامع، ومقياس النيل، وعمارة القاهرة، أولاً بأول، أذكره في يوم مبناه وفي زمن سلطانه، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشانه). وقد كان للمستشرقين عناية كبيرة بهذا الكتاب، فترجموه إلى معظم اللغات الأوروبية، ويذكر أن السلطان سليم لما فتح مصر حمل إليه هذا الكتاب، فنظر فيه وأمر بترجمته إلى التركية، ذلك لأنه تأليف ابن والي بلاد الشام (تغري بردي)، فقام بمهمة الترجمة كبير علماء عصره (ابن الكمال). وكان أول من نشر منه قسماً في أوروبا: المستشرق الهولندي (يونبل) في ليدن، بين سنتي (١٨٥١و ١٨٥٥م) حيث نشر منه مجلدين، يشتملان على الأحداث، من سنة (٢٠هـ حتى ٣٦٥هـ) مع مقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية. ثم قام المستشرق الأمريكي (وليم بوبر) بنشر عشرة مجلدات منه، تبدأ من حيث انتهى (يونبل) وتنتهي بآخر الكتاب، غير أنها تنقصها الأحداث: من سنة ٥٦٥هـ حتى سنة ٨٠٠هـ، وطبع عمله بجامعة كاليفورنيا، من سنة (١٩٠٩ حتى ١٩٢٩م). وطبع

(١) هدية العارفين في أسماء المؤلفين ط إحياء التراث، ٤ / ١١٣.
(٢) كشف الظنون، ٢ / ١٩٤٢.

الكتاب كاملاً في القاهرة سنة ١٩٦٣م في ثمانية مجلدات ضخمة. قال حاجي خليفة: (واختصره بنفسه وسماه (الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة) في مجلد واحد، واحتذى في ذلك بجماعة من العلماء كالمقريزي والذهبي، فإن الذهبي اختصر (تاريخ الإسلام) في (سير النبلاء) ثم اختصر (سير النبلاء) في (العبر) ثم اختصر العبر في (الإشارة إلى وفيات الأعيان..). للكتاب نسخ نادرة في بعض مكتبات العالم، أهمها: نسخة مكتبة آياصوفيا بتركيا، في سبعة مجلدات، ينقصها المجلد الثاني.

* * *

محمد بن سعد

محمد بن سعد وكتاب الطبقات [1]

حقيقة إن المعلومات التي نحتاجها لنرسم منها صورة لسيرة محمد بن سعد في كتابه " الطبقات الكبرى " قليلة لا تفي بشيء، لأن محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المكنى بأبي عبد الله، يظهر لنا في كتابه " الطبقات الكبرى " في شخصية الراوية الذي لم يسمح لذاته وعلاقاته وأحواله بأن تدل على ما يرويه، أو أن تتدخل فيه، وإنه لمن المفارقات أن ترى الشخص الذي حفظ لنا الصفات الخلقية والخلقية وأدق المظاهر أحياناً عن حياة الأشخاص، لا يجد من يكتب عنه ترجمة موضحة.

نشأته:

فتقول التراجم التي جمعناها له أنه ولد سنة ١٦٨هـ بالبصرة، فنسب إليها، وارتحل إلى بغداد وأقام فيها ملازماً لأستاذه الواقدي يكتب له، حتى عرف باسم " كاتب الواقدي ". وكانت له رحلة إلى المدينة والكوفة، ولا ريب في أن رحلته إلى المدينة تمت قبل سنة ٢٠٠هـ، فهو يذكر أنه لقي فيها بعض الشيوخ عام ١٨٩هـ كما أن أكثر الذين روى عنهم من أهلها أدركتهم المنية قبل مطلع القرن الثالث. وقد كان أحد أجداده مولى لبني هاشم، ولكن ابن سعد نفسه كان قد تحلل من عهدة الولاء، وفي نسبته أنه زهري، وهي نسبة غريبة بعدما صرحت الروايات بولاء أهله لبني هاشم.

---

(١) مصادر الترجمة: ابن النديم، الفهرست، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل رقم: ١٤٣٣، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٥/ ٣٢١، ابن خلكان، وفيات الأعيان رقم: ٦١٧، الصفدي، الوافي، ٣/ ٨٨ (رقم ١٠٠٩)، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزري، طبقات القراء ١/ ١٤٢.

رحلته العلمية:

لقد جاب ابن سعد الأقطار طلبًا لعلم الحديث، وتفرغ لدراسته من منابعه الأصيلة، وكان شغله الشاغل هو لقاء الشيوخ وكتابة الحديث وجمع الكتب، ولذلك اتصل بأعلام عصره من المحدثين فروى عنهم وقيد مروياته، وأفاد منها في تصنيف كتبه حتى وصف بأنه كان كثير العلم، كثير الحديث والرواية، كثير الكتب.

ونستطيع أن نقول: إن محمد بن سعد كان على اتصال بأكبر رجال الحديث في عصره، سواء أكانوا شيوخاً أم تلامذة. ومن يطلع على الطبقات يجد له شيوخاً كثيرين منهم سفيان بن عيينة وأبو الوليد الطيالسي ومحمد بن سعدان الضرير ووكيع بن الجراح وسليمان بن حرب وهيثم والفضل بن دكين والوليد بن مسلم ومعن بن عيسى وعشرات غيرهم، ولو راجع القارئ تراجم هؤلاء الشيوخ في كتب الرجال، لوجد معظمهم ممن لا يشك في عدالته. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن المادة التي نقلها ابن سعد قد وجهت بالنقد الضمني لأنه تحرى قبل نقلها أن تكون في الأكثر مأخوذة عن العدول الثقات. وهذا الموقف هو الذي كسب لابن سعد تقدير معاصريه ومن بعدهم، فكلهم تقريباً وثقه وأثنى عليه حتى قال فيه الخطيب: " محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فإنه يتحرى في كثير من رواياته ". وقال ابن خلكان: " كان صدوقاً ثقة " وقال ابن حجر: " أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين " ووصفوه بالفضل والفهم والنبل، وفضلوه على أستاذه الواقدي ضعيف ".

ولم تقتصر ثقافة ابن سعد على الحديث والأخبار والسير بل إنه كتب الغريب والفقه، وربما دلت صلته بالنحويين واللغويين مثل أبي زيد الأنصاري على استكماله للنواحي اللغوية والنحوية، على نحو واسع.

أما صلته بمحمد بن سعدان الضرير وهو من مشهوري القراء فتدل على اهتمامه بالقراءات. وقد صرح ابن الجزري بأن ابن سعد روى الحروف عن محمد بن عمر الواقدي ثم رواها عنه الحارث بن أبي أسامة. وكان توفره على كتابة تراجم الرجال سبباً في اطلاعه الواسع على علم الأنساب، ويبدو من الطبقات أنه أحكم هذا الفرع إحكاماً جيداً بحيث تمكن فيه من المناقشة والترجيح، وعمدته في ذلك رواية أستاذه الواقدي، ورواية ابن إسحاق، ورواية ابن عمارة الأنصاري في نسب الأنصار، ورواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وعن هذا الأخير روى ابن سعد كتابه " جمهرة الأنساب ".

أما تلامذته فهم كثيرون أيضاً، ومنهم أحمد بن عبيد وابن أبي الدنيا والبلاذري والحارث بن أبي أسامة والحسين بن فهم وغيرهم.

مؤلفاته:

لم يتوقف نشاط ابن سعد عند تأليف كتاب " الطبقات "، وعلى سعة باعه في نواحٍ علمية كثيرة فإن المصادر لم تذكر له من المؤلفات إلا كتابين آخرين - عدا الطبقات الكبير - وهما كتاب " الطبقات الصغير "، وهو مستخرج من المؤلف الأول، وكتاب " أخبار النبي " - وهو الكتاب الوحيد الذي ذكره ابن النديم - وربما لم يكن شيء سوى الجزأين الأولين من الطبقات الكبير، أي أن الكتب الثلاثة في حقيقتها كتاب واحد، وتسكت المصادر عما سوى ذلك من مؤلفات.

وفاته:

وتكاد المصادر تجمع على أن ابن سعد توفي يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ، بمدينة بغداد ودفن في مقبرة باب الشام وهو يومئذ ابن اثنتين وستين سنة. وهذا الخبر منقول عن

الحسين بن فهم أحد تلامذته الأدنين، وأحد اثنين رويا كتاب الطبقات. ولكن ابن أبي حاتم يذكر أنه توفي سنة ست وثلاثين (يعني ومائتين) وقال الصفدي في الوافي أنه توفي سنة ٢٢٢ هـ على خلاف في ذلك. ويبدو أن رواية ابن فهم هي الصحيحة، فأما رواية الصفدي في الوافي فواضحة الخطأ لأن ابن سعد يؤرخ لأناس توفوا سنة ٢٢٨ هـ و٢٢٩هـ وليس هناك ما يدل على أن ذلك مما زاده الرواة الذين نقلوا الكتاب. أما رواية ابن أبي حاتم فقد كتبت بالأرقام لا بالحروف وهي في شكلها الذي كتبت به لا تسلم من الخطأ.

وكتاب " الطبقات " معرض لنواح كثيرة من ثقافة وعلم ابن سعد، وهو عمل ضخم أراده أن يكون في خمسة عشر مجلداً، ليخدم به السنة أو علم الحديث، فتحدث فيه عن الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم والصحابة والتابعين إلى عصرهم مقتفياً خطى أستاذه الواقدي الذي ألف أيضاً كتاب " الطبقات "، وقد خصص ابن سعد أكثر الجزأين الأولين لسيرة الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم، ثم أضاف فصلاً عن الذين كانوا يفتون بالمدينة على عهد الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم، ثم أخذ يترجم في الأخير الذي خصصه للنساء. وقد راعى في التراجم عنصرين: عنصر الزمان وعنصر المكان - أما عنصر الزمان فقد تدخل في بناء الطبقات من أولها إلى آخرها، وكانت السابقة إلى الإسلام هي المحور الأكبر فيه، سواء اتصلت بالهجرة إلى الحبشة ثم بموقعة بدر أو وقتت بما قبل فتح مكة، أو غير ذلك من النقط الزمنية التي وجهت التقسيم في ذلك الكتاب. ومن ثم بدأ بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين ثم بمن أسلم قديماً ولم يشهد بدراً وإنما هاجر إلى الحبشة أو شهد أُحداً (فالبدريون مفضلون على من عداهم) ثم من أسلم قبل فتح مكة وهكذا. ونلاحظ

في هذه القسمة أن ابن سعد احتذى فيها شيئاً شبيهاً بما صنعه عمر بن الخطاب عندما دون الدواوين. وبعد هذا تدخل العنصر المكاني فأخذ يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأمصار التي نزلوا فسمى من كان بالمدينة ومكة والطائف واليمن واليمامة، ثم من نزل الكوفة، ثم من نزل البصرة، ومن كان موطنه الشام ومصر وغيرهم. وفي أثناء هذا التقسيم التفت إلى التقسيمات المكانية، وبخاصة عند الحديث عن التابعين لأنه ترجم لهم في الطبقات، والطبقة في العادة تساوي جيلاً أو عشرين سنة أو عشر سنين، وهي تساوي في كتاب ابن سعد عشرين سنة تقريباً، فمثلاً تراوح نهاية الطبقة الثالثة بين سنتي ١٠٨ - ١١٣ وتراوح نهاية الطبقة الرابعة بين سنتي ١٢٦ - ١٣٢.

وقد أظهر هذا التقسيم عيباً واحداً في الكتاب إذ قد يكون أحد الأشخاص داخلاً في غير موضع واحد في هذا المنهج الكبير، أي قد يكون أحد الناس بدريًّا، ممن يفتي أيام الرسول، ثم هاجر إلى مصر من الأمصار وعلى هذا فلا بد له من ثلاث تراجم، غير أن ابن سعد كان على وعي بهذا ولذلك ففي مثل هذه الأحوال تجده يطيل الترجمة في موطن واحد ويوجز في المواطن الأخرى. وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتماد الكلي على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التي تهم ابن سعد الرواية عنها من جميع النواحي، أخذت الترجمة تتضاءل وتقل قيمتها، وبدلاً من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيضة لمن عاصرهم، نجده اكتفى في هذا بقولة موجزة وأفاض كثيراً في تراجم الصحابة وكبار التابعين وبلغ من الدقة حدًّا يجعل من كتابه وثيقة بالغة القيمة.

وقد اختفت شخصية ابن سعد أو كادت وراء السند، وليس لابن سعد

في الكتاب تعليقات كثيرة ولكن ما يوجد منها يدل على قدرة نقدية طيبة.

ويجب أن نذكر أن كتاب الطبقات من أوائل ما ألف في هذا الموضوع، وإننا لا نعلم كتاباً سبقه إلا طبقات الواقدي، وتذكر هذه الحقيقة يجعلنا ندرك قيمة الكتاب من حيث هو مصدر قديم ومن حيث هو أحد النماذج الأولى في موضوع " الرجال ". حقًّا إن التأليف في هذه الناحية كثر من بعده، وربما انقسم التأليف في الطبقات بعده قسمين، قسم خاص بالصحابة وقسم خاص بسائر رجال الحديث من بعدهم، ولكن أثر كتاب ابن سعد، سواء ذكر اسمه أو لم يذكر، قد ظهر في التواليف التي جاءت من بعد. فنحن نعلم أن الصلة بين ابن سعد والبلاذري مثلاً كانت وثيقة، وأن مادة ابن سعد قد تركت أثراً واضحاً في كتاب " فتوح البلدان "، وكتاب " أنساب الأشراف "، والثاني من هذين الكتابين صورة أخرى للتأليف في الطبقات. وفي كتاب ابن سعد فصول هي الأصل الذي احتذاه المؤلفون في " دلائل النبوة " كأبي نعيم والبيهقي وعنه نقل ابن منده في طبقاته، ويمكن أن تقارن أصول السند عنده بما عند أبي نعيم الأصفهاني في " حلية الأولياء " فإن المتن متشابه وطرق الإسناد هي نفس طرق ابن سعد، متجهة اتجاهاً آخر، على أيدي رواة آخرين. ومن الغريب أن ابن عبد البر القرطبي في " الاستيعاب " لا يذكر أنه اعتمد على طبقات ابن سعد ويقول أنه استمد من طبقات الواقدي نفسه عن طريق محمد بن سعد عن طريق إبراهيم بن موسى بن جميل (س٠ ٣٠٠) وهذا الأخير أندلسي هاجر إلى المشرق وسمع ابن حنبل وابن أبي الدنيا وابن قتيبة وابن سعد نفسه. وتظل شهرة ابن سعد بين الأندلسيين محدودة - بعكس طبقات الواقدي -

حتى إن الكلاعي مؤلف " الاكتفاء " اعتمد على ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي ومصعب الزبيري ولم يذكر شيئاً عن ابن سعد وطبقاته. على أنّا نجد أندلسيًّا متأخراً ينقل عنه وهو ابن أبي بكر (-٧٤١) في كتابه " التمهيد والبين في مقتل الشهيد عثمان "، وهو كتاب ما يزال مخطوطاً. وأغرب من هذا أمر المشارقة وبخاصة ابن الأثير مؤلف " أسد الغابة " فإنه اكتفى في كتابه هذا بالاعتماد على أربعة كتب هي: كتاب ابن منده وكتاب أبي نعيم وكتاب ابن عبد البر ثم تذييل الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر ابن أبي عيسى الأصفهاني. وواضح من هذا أن كتاب ابن سعد يدخل في " أسد الغابة " دخولاً غير مباشر، ولكن إغفال ابن الأثير له أمر يستوقف النظر.

غير أن طبقات ابن سعد، مع ذلك كله، مصدر هام عند ابن عساكر في كتابه " تاريخ دمشق " ومصدر هام في " تاريخ الإسلام " للذهبي وفي " تجريد أسماء الصحابة " و " سير أعلام النبلاء " ومعتمد في " الإصابة " و " تهذيب التهذيب " لابن حجر. وينقل عنه ابن كثير في تاريخه ويصرح ابن تغري بردي بقوله: " ونقلنا عنه كثيراً في هذا الكتاب " - أي كتاب النجوم الزاهرة - وكذلك كان مرجعاً لمن كتبوا في السيرة من المتأخرين كالمقريزي في " إمتاع الأسماع "، ولكثير من الكتب في الرجال.

ومنذ سنة ١٩٠٣ عمل في نشر هذا الكتاب جماعة من العلماء الألمان فأشرف عليه سخاو وأعانه فيه هوروفنز ومنوخ وبروكلمان وشوالي ولبرت وميسنر وسترستين، وكان اعتمادهم على مخطوطات خمس وجدوها، فجاء عملهم في حدود الإمكانات التي توفرت لهم جيداً مضبوطاً دقيقاً. فإعادة طبع هذا الكتاب اليوم عمل

هام ضروري، غايته تقريبه من أيدي الدارسين وتسهيل وصوله إليهم، ففي صفحاته كنز لا ينضب من المعرفة لمن شاء أن يدرس سيرة الرسول وحياة القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، وهو المنبع الذي يمد الباحثين بموضوعات جديدة في كتابة السير والبحث عن طرق الإسناد وكيفية تدوين الحديث، ويعلمنا الشيء الكثير عن الأمور الاجتماعية المتصلة بحياة البيت والسوق وأمور الزي والطعام والشراب وعن جوانب من الأعمال والمهن والحياة التجارية، وعن كثير من النواحي الثقافية والأحكام الفقهية، والصراع بين السنة والأهواء، وعن عشرات من الموضوعات، كل ذلك في لغة سهلة مستوية جزلة، وفي اعتدال وقصد وموضوعية وتجرد لا يستطيعه إلا من كان مخلصاً، كابن سعد، يقدم الغاية العلمية على كل شيء آخر [(١)].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب الطبقات الكبرى، للمحقق إحسان عباس، طبعة دار صادر ببيروت، محمد أحمد حامد الأزوري، منهج ابن سعد في نقد الرواة من خلال الطبقات الكبرى، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤١٧هـ.

الإمام الذهــبي

أعــلام المؤرخين

الإمام الذهبي

هو الشيخ الإمام الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، شيخ المحدثين، محدث العصر، وخاتمة الحفاظ، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي ثم الدمشقي، الشافعي، المقرئ.

يرجع الذهبي إلى أصول تركمانية، فهو من أسرة تركمانية الأصل، سكنت مدينة مَيَّافارقين من أشهر مدن ديار بكر،ويرجع في ولائه(١) إلى بني تميم.

ولد الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة، في مدينة دمشق، وعاش في أجواء أسرة متدينة متعلمة ميسورة الحال، الأمر الذي ساعده على التحصيل العلمي منذ نعومة أظفاره، فمن جهة والده، كان والده شهاب الدين أحمد بن عثمان قد طلب العلم، وسمع الصحيح من المقداد القيسي سنة (٦٦٦هـ)، وقد ترجم له الذهبي في معجم شيوخه، وقد توفي والده سنة (٦٩٧هـ)، وكذلك استفاد الذهبي من عمته ست الأهل بنت عثمان بن قايماز، وهي أمه من الرضاعة، وكان قد أجاز لها ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة. وسمعت من عمر بن القواس وغيره.

فروى الذهبي عنها، وكانت وفاتها سنة (٧٢٩هـ).

---

(١) المقصود بالولاء هنا:

أ - ولاء عتق: وهو الغالب بحيث ينسب إلى من أعتقه.

ب - وإما أن يكون ولاء إسلام: وذلك بأن يسلم العجمي على يد العربي.

ج - وإما أن يكون ولاء حلف: وذلك بأن يكون الشخص حليفاً لقبيلة فينسب إليها. انظر المنهل الراوي من تقريب النواوي (ص١٩٩ - ٢٠٠).

وأما من جهة والدته: فإنها ابنة علم الدين، أبو بكر سنجر بن عبد الله الموصلي، فقد كان خيرًا، عاقلاً، مديراً للمناشير بديوان الجيش، مات سنة (٦٨٠هـ).

ولما كان الذهبي من أسرة متدينة متعلمة، ميسورة الحال، فقد دفعت به إلى كتاتيب تعليم القرآن في صغره، وفرغته بعد ذلك لطلب العلم وتحصيله من ريعان شبابه، بدلاً من الانشغال في تحصيل قوته وطلب رزقه. ولم يكن يكدر صفو هذه النعمة إلا امتناع والده عن السماح له بالرحلة في طلب العلم إلا في رحلات قصيرة لا تتجاوز أربعة أشهر، وذلك لخوفه عليه وشدة تعلقه به.

والعامل الثاني الذي أثر في نشأة الذهبي، فهو بلده دمشق التي كانت تجمع في ذلك العصر شموس العلم من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ المزي وغيرهما، فقد حظي الذهبي برفقة هؤلاء والإفادة منهم، وأضف إلى ذلك اشتهار دمشق في ذلك الحين بكبريات دور الحديث، كدار الحديث الظاهرية، ودار الحديث السكرية، ودار الحديث الأشرفية، وغيرها. فقد كانت دمشق في ذلك العصر مركز إشعاع علمي وخاصة في علوم الحديث.

وقد بدأ الذهبي بدايته العلمية بحفظ كتاب الله تعالى، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وذلك على يد أحد المؤدبين، واسمه علاء الدين علي ابن محمد الحلبي، المعروف بالبصبص، حيث أقام الذهبي في مَكْتَبِه أربعة أعوام.

ثم انتقل الذهبي بعدها إلى الشيخ مسعود بن عبد الله الأغزازي، فلقنه جميع القرآن، ثم قرأ عليه نحوًا من أربعين ختمة.

تلك هي بواكير دراسته، والتي تبعها بعد ذلك جلوسه في مجالس

الشيوخ، وذلك ببلوغ سن الثامنة عشرة، حيث تعتبر هذه السن عند الذهبي بداية مرحلة العناية بطلب العلم، وقد ركز في تلك المرحلة على علمين شريفين عظيمين هما:

علم القراءات وعلم الحديث، فلازم كبار علماء القراءات في عصره، حتى أصبح متقناً لهذا الفن وأصوله ومسائله، مما حذا بالشيخ محمد بن عبد العزيز الدمياطي - وهو من المقرئين المجودين - أن يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي، عقب مرض الشيخ، الذي توفي على إثره سنة (٦٩٣هـ).

إلا أن الذهبي لم يستمر في ذلك المنصب إلا قرابة السنة بسبب انشغاله بالرحلة إلى طلب العلم.

وأما علم الحديث، فقد كان له النصيب الأوفر عند الذهبي، حيث اعتنى به العناية الفائقة حتى أصبح هذا العلم هو شغله الشاغل طيلة حياته، فقد سمع الذهبي مئات الكتب والأجزاء الحديثية.

ومع عناية الذهبي بعلمي القراءات والحديث في تلك المرحلة، إلا أنه لم يهمل علوم العربية والأدب والتاريخ، فقد عني بدراسة النحو، فسمع " الحاجبية " على شيخه موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء - النصيبي المتوفى سنة (٦٩٥هـ).

كما دَرَسَ على شيخ العربية، وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك، الشيخ محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي المتوفى سنة (٦٩٨هـ).

" إضافة إلى سماعه لعدد كبير من مجاميع الشعر واللغة والأدب "، وقد تعاطى الشعر، ونظم اليسير منه.

" واهتم بالكتب التاريخية، فسمع عدداً كبيراً منها على شيوخه، في المغازي، والسيرة، والتاريخ العام، ومعجمات الشيوخ والمشيخات،

وكتب التراجم الأخرى ".

وفي العموم فقد اعتنى الذهبي في فترة تحصيله بشتى العلوم الدينية مع ما تحتاجه تلك العلوم من علوم الآلة ونحوها من العلوم المساعدة مع أنه لم ينقطع عن التحصيل والسماع طوال حياته، يشهد لذلك معجمات شيوخه ومؤلفاته الموسوعية التي تؤكد دراسته لعدد ضخم من المؤلفات في العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، واللغة، والأدب، وغيرها.

وقد انعكس هذا التحصيل الواسع على مؤلفاته التي تشهد له بسعة الاطلاع وغزارة الإنتاج مع القوة والتمكن في مختلف العلوم.

ومن أشهر كتبه في علوم الحديث " ميزان الاعتدال في نقد الرجال ".

وأما علم التاريخ والتراجم:

فالذهبي صاحب الموسوعات الكبار في هذا المجال، والتي أهمها " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "، و " سير أعلام النبلاء "، و " العبر "، و " دول الإسلام "، و " تذكرة الحفاظ "، وغيرها كثير، وقد أظهر الذهبي في تلك المؤلفات براعة في العرض، ودقة في التحليل والنقد، مع غزارة في المعلومات، تشهد له بالذكاء والعبقرية وقوة الحافظة، لدرجة أن ابن حجر - مع فضله وجلالة قدره - شرب ماء زمزم سائلاً الله أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ والفطنة.

وقد عول الكُتَّاب والعلماء على مؤلفاته، وأصبحت عمدة لهم فيما كتبوا وألفوا من بعده. وقد عد الذهبي والمزي أكبر المؤرخين في القرن الثامن.

وقد عُرف الذهبي - رحمه الله - بمواقفه التي تدعو إلى التمسك بعقيدة السلف الصالح علماً واعتقاداً وعملاً ودعوة وتعليماً، ويظهر ذلك جليًّا لمن اطلع على مصنفاته سواء ما يتعلق منها بمسائل الاعتقاد مثل كتاب " العلو "، وكتاب " العرش "، وكتاب " الأربعين في صفات رب العالمين "، ورسالة " التمسك بالسنن والتحذير من البدع وغيرها "، أو كتبه الأخرى في علوم الحديث وغيرها.

فقد سطر الذهبي ببراعة معتقد السلف وأثبته في تلك الكتب، ونافح ودافع عن عقيدة أهل السنة وأثنى على أهلها بما يستحقونه من الأوصاف، كما أبرز جهودهم العلمية والعملية في نشر السنة ونصرتها، وفي الوقت ذاته سلط قلمه على أهل البدع والأهواء، فما يمر على صاحب بدعة إلا ويشير إلى بدعته، ويبين وجه انحرافه، وقول أهل السنة فيه وفي بدعته، وإن كان في بعض الأحيان يوجد في كلامه بعض التساهل مع بعض المبتدعة لكنه قليل ومحدود.

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها والإشادة بها في هذا المقام، أن الذهبي قام رحمه الله على ثغرة عظيمة، هي علم الرجال والتراجم، فاعتنى بها واهتم بأمرها اهتماماً كبيراً، حتى أصبحت محور تفكيره وأساس كثير من كتبه، فقام بخدمة هذا الجانب خير قيام، وذلك وفق منهج أهل السنة والجماعة، على غرار ما فعل شيخه وصاحبه شيخ الإسلام ابن تيمية في خدمة مسائل الاعتقاد والرد على أصحاب المقالات، فكل من الإمامين قام على ثغرة، وقام بأكبر خدمة.

فقد شوه أصحاب البدع وأرباب المقالات حقائق التاريخ وسير العلماء بما دسوا فيها من الأكاذيب والأباطيل، كما فعلوا في مسائل الاعتقاد الأمر ذاته.

فتصدى الذهبي - رحمه الله تعالى - للجانب التاريخي فوضع الأمور في نصابها وأوضح بجلاء سير أعلام السنة على وجهها الصحيح وحلاها بأجمل الحلل وكساها أبهى العبارات.

وقام في الوقت ذاته بفضح أهل البدع والأهواء وكشف باطلهم، الأمر الذي أثار حفيظة أهل البدع والأهواء ونقمتهم على كتب الإمام الذهبي لما لها من ثقل ووزن في فنها، فهي تعد غصة في حلوق أهل الكلام والمتصوفة والرافضة ومن على شاكلتهم، لكونها كشفت عورات زعمائهم وأظهرت بطلان عقائدهم.

وكان الذهبي معروفاً في حياته بمواقفه الصلبة من العقائد المنحرفة وأهلها، كما اشتهر عنه صلته الوثيقة وموافقته لشيخ الإسلام ابن تيمية في نصرة السنة ومحاربة البدعة، الأمر الذي جعل الأشاعرة من الشافعية بدمشق يمانعون في توليه لمشيخة أكبر دار للحديث بدمشق حينذاك، وهي دار الحديث الأشرفية، التي شغرت مشيختها بعد وفاة رفيقه المزي سنة (٧٤٢هـ)، رغم ترشيح قاضي القضاة علي بن عبد الكافي السبكي أن يعين الذهبي لها، وكان السبب في رفضهم كون الذهبي ليس بأشعري.

ومعلوم أن الصراع كان على أشده في ذلك الحين بدمشق بين أنصار المنهج السلفي وخصومهم من أهل الكلام والمتصوفة.

ولكن مع ذلك كله فللذهبي بعض المواقف المخالفة في المسائل المتعلقة بالقبور وتعظيمها لا يُقر عليها ولا يُوافق.

واشتهر الذهبي بكثرة التصنيف حتى قال عنه ابن حجر: " كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ".

وقد اجتهد الدكتور بشار عواد في جمع أسماء مؤلفات الذهبي في

كتابه " الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام "، وقد بلغ مجموع ما سمى من مؤلفاته (٢١٥) مؤلفاً. ونظراً لكثرتها فإني سوف أكتفي بذكر أسمائها:

أولا: القراءات:

١ - التلويحات في علم القراءات.

ثانيا: الحديث:

٢- الأربعون البلدانية. ٣ - الثلاثون البلدانية.

٤ - طرق حديث: ﴿**من كنت مولاه فعلي مولاه**﴾.

٥ - الكلام على حديث الطير.

٦ - المستدرك على مستدرك الحاكم.

ثالثا: مصطلح الحديث وآدابه:

٧ - كتاب الزيادة المضطربة. ٨ - طريق أحاديث النزول.

٩ - العذب السلسل في الحديث المسلسل.

١٠ - منية الطالب لأعز المطالب.

١١ - الموقظة في علم مصطلح الحديث (باريس: ٤٥٧٧).

رابعا: العقائد:

١٢ - أحاديث الصفات.

١٣- الأربعين في صفات رب العالمين.

١٤ - جزء في الشفاعة. ١٥- جزآن في صفة النار.

١٦ - الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية.

١٧ - الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال.

١٨ - رؤية الباري. ١٩ - العرش.

٢٠ - العلو للعلي الغفار. ٢١ - الكبائر.

٢٢ - ما بعد الموت. ٢٣ - مسألة دوام النار.

٢٤ - مسألة الغيبة. ٢٥ - مسألة الوعيد.

خامسا: أصول الفقه:

٢٦ - مسألة الاجتهاد. ٢٧ - مسألة خبر الواحد.

سادسا: الفقه:

٢٨ - تحريم أدبار النساء.

٢٩ - تشبيه الخسيس بأهل الخميس.

٣٠ - جزء في الخضاب. ٣١ - جزء في صلاة التسبيح.

٣٢ - جزء في القهقهة. ٣٣ - حقوق الجار.

٣٤ - فضائل الحج وأفعاله. ٣٥ - اللباس.

٣٦ - مسألة السماع. ٣٧ - الوتر.

سابعا: الرقائق:

٣٨ - جزء في محبة الصالحين. ٣٩ - دعاء المكروب.

٤٠ - ذكر الولدان. ٤١ - التعزية الحسنة بالأعزة.

٤٢ - كشف الكربة عند فقد الأحبة.

ثامنا: التاريخ والتراجم:

٤٣ - أخبار السد. ٤٤ - أخبار قضاة دمشق.

٤٥ - أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع.

٤٦ - الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام.

٤٧ - الإعلام بوفيات الأعلام.   ٤٨ - الامصار ذوات الآثار.

٤٩ - أهل المئة فصاعدًا.   ٥٠ - البيان عن اسم ابن فلان.

٥١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.

٥٢ - التاريخ الممتع.

٥٣ - تذكرة الحفاظ.

٥٤ - تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق.

٥٥ - تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري.

٥٦ - تقييد المهمل.   ٥٧ - التلويح بمن سبق ولحق.

٥٨ - جزء أربعة تعاصروا.   ٥٩ - دول الإسلام.

٦٠ - ديوان الضعفاء والمتروكين.

٦١ - ذكر من اشتهر بكنيته من الأعيان.

٦٢ - ذكر من يؤتمن قوله في الجرح والتعديل.

٦٣ - ذيل الإشارة إلى وفيات الأعيان.

٦٤ - ذيل دول الإسلام.   ٦٥ - ذيل سير أعلام النبلاء.

٦٦ - ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين.

٦٧ - ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

٦٨ - الذيل على ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

٦٩ - ذيل العبر في خبر من عبر.

٧٠ - الرد على ابن القطان. ٧١ - الزلازل.

٧٢ - سير أعلام النبلاء.   ٧٣ - طبقات الشيوخ.

٧٤ - العباب في التاريخ.   ٧٥ - العبر في خبر من عبر.

٧٦ - عنوان السير في ذكر الصحابة.

٧٧ - القبان (في أصحاب التقي ابن تيمية).

٧٨ - المجرد في أسماء رجال كتب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجة سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين.

٦٩ - المرتجل في الكنى.

٨٠ - المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم.

٨١ - معجم الشيوخ الكبير. ٨٣ - المعجم الصغير (اللطيف).

٨٤ - المعجم المختص بمحدثي العصر.

٨٥ - معرفة آل منده.

٨٦ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار.

٨٧ - المعين في طبقات المحدثين. ٨٨ - المغني في الضعفاء.

٨٩ - المقدمة ذات النقاط في الألقاب.

٩٠ - من تكلم فيه وهو موثق.

٩١ - الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم.

٩٢ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال.

٩٣ - هالة البدر في عدد أهل بدر.

تاسعا: السير والتراجم المفردة:

٩٤ - أخبار أبي مسلم الخراساني.

٩٥ - أخبار أم المؤمنين عائشة.

٩٦ - التبيان في مناقب عثمان.

٩٧ - ترجمة ابن عقدة الكوفي.

٩٨ - ترجمة أبي حنيفة.

٩٩ - ترجمة أبي يوسف القاضي.

١٠٠ - ترجمة أحمد بن حنبل.

١٠١ - ترجمة الخضر.

١٠٢ - ترجمة السلفي(١).

١٠٣ - ترجمة الشافعي.

١٠٤ - ترجمة الشيخ الموفق.

١٠٥ - ترجمة مالك بن أنس.

١٠٦ - ترجمة محمد بن الحسن الشيباني.

١٠٧ - توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق.

١٠٨ - الدرة اليتيمية في سيرة التيمية.

١٠٩ - الزخرف القصري (في ترجمة الحسن البصري).

١١٠ - سيرة الحلاج.

١١١ - سيرة أبي القاسم الطبراني.

١١٢ - سيرة سعيد بن المسيب.

١١٣ - سيرة عمر بن عبد العزيز.

١١٤ - السيرة النبوية (وهي في تاريخ الإسلام).

١١٥ - فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب.

١١٦ - قض نهارك بأخبار ابن المبارك.

١١٧ - مناقب البخاري.

١١٨ - نعم السمر في سيرة عمر.

١١٩ - نفض الجعبة في أخبار شعبة.

١٢٠ - سيرة لنفسه.

عاشرا: المنوعات:

١٢١ - بيان زغل العلم والطلب.

١٢٢ - التمسك بالسنن.

١٢٣ - جزء في فضل آية الكرسي.

١٢٤ - الطب النبوي (وينسب لغيره أيضا).

١٢٥ - كسر وثن رتن.

أحد عشر: المختصرات والمنتقيات:

١٢٦ - أحاديث مختارة من الموضوعات من " الأباطيل " للجورقاني.

١٢٧ - بلبل الروض.

١٢٨ - تجريد أسماء الصحابة. اختصره من " أسد الغابة " لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

١٢٩ - تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

١٣٠ - ترتيب " الموضوعات " لابن الجوزي.

١٣١ - تلخيص " العلل المتناهية في الأحاديث الواهية " لابن الجوزي.

١٣٢ - تنقيح كتاب " التحقيق في أحاديث التعليق " لابن الجوزي.

١٣٣ - تهذيب تاريخ علم الدين البرزالي.

١٣٤ - ذكر الجهر بالبسملة مختصرا. اختصره من تصنيف في هذا الموضوع للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

١٣٥ - الرخصة في الغناء والطرب بشرطه. اختصره من كتاب " السماع " للادفوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.

١٣٦ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة. اختصره من " تهذيب الكمال " لشيخه ورفيقه المزي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ.

١٣٧ - المجرد من " تهذيب الكمال ".

١٣٨ - مختصر " إنباه الرواة على أنباه النحاة " لابن القفطي.

١٣٩ - مختصر " الأنساب " لأبي سعد السمعاني.

١٤٠ - مختصر " البعث والنشور " للبيهقي.

١٤١ - مختصر " تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي.

١٤٢ - مختصر " تاريخ دمشق " لابن عساكر.

١٤٣ - مختصر " تاريخ مصر " لابن يونس.

١٤٤ - مختصر " تاريخ نيسابور " لأبي عبد الله الحاكم.

١٤٥ - مختصر " تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف " للمزي.

١٤٦ - مختصر " تقويم البلدان " لأبي الفدا.

١٤٧ - مختصر " التكملة لكتاب الصلة " لابن الأبار.

١٤٨ - مختصر " التكملة لوفيات النقلة " للمنذري.

١٤٩ - مختصر " جامع بيان العلم وفضله " لابن عبد البر.

١٥٠ - مختصر " الجهاد " لبهاء الدين بن عساكر.

١٥١ - مختصر " ذيل تاريخ بغداد " لأبي سعد السمعاني.

١٥٢ - مختصر " الرد على ابن طاهر " لابن المجد.

١٥٣ - مختصر " الروضتين في أخبار الدولتين " وذيله لأبي شامة.

١٥٤ - مختصر " الزهد " للبيهقي.

١٥٥ - مختصر " سلاح المؤمن في الأدعية المأثورة " لابن الإمام.

١٥٦ - مختصر " صلة التكملة لوفيات النقلة " لعز الدين الحسيني.

١٥٧ - مختصر " الضعفاء " لابن الجوزي.

١٥٨ - مختصر " الفاروق في الصفات " لشيخ الإسلام الأنصاري.

١٥٩ - مختصر " القدر " للبيهقي.

١٦٠ - المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن الدبيثي.

١٦١ - مختصر " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.

١٦٢ - مختصر " المستدرك على الصحيحين " لأبي عبد الله الحاكم.

١٦٣ - مختصر " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " للمراكشي.

١٦٤ - مختصر " مناقب سفيان الثوري " لابن الجوزي.

١٦٥ - مختصر " وفيات الأعيان " لابن خلكان.

١٦٦ - مختصر " الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام " لابن القطان.

١٦٧ - المستحلى في اختصار " المحلى " لابن حزم.

١٦٨ - معرفة التابعين من " الثقات " لابن حبان.

١٦٩ - المقتضب من " تهذيب الكمال " للمزي.

١٧٠ - المقتنى في سرد الكنى. اختصره من كتاب " الكنى " لأبي أحمد الحاكم المتوفى سنة ٣٧٨.

١٧١ - المنتخب من " التاريخ المجدد لمدينة السلام " لابن النجار البغدادي.

١٧٢ - منتقى " الاستيعاب في معرفة الأصحاب "، لابن عبد البر.

١٧٣ - المنتقى من تاريخ أبي الفدا.

١٧٤ - المنتقى من " تاريخ خوارزم " لابن أرسلان الخوارزمي.

١٧٥ - المنتقى من " مسند " أبي عوانة.

١٧٦ - المنتقى من " مسند " عبد بن حميد.

١٧٧ - المنتقى من " معجم شيوخ " يوسف بن خليل الدمشقي.

١٧٨ - المنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المقلين لدعلج.

١٧٩ - المنتقى من " معرفة الصحابة " لابن منده.

١٨٠ - مهذب " السنن الكبرى " للبيهقي.

١٨٢ - نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري.

١٨٣ - النبلاء في شيوخ السنة. اختصره من كتاب " المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النبل " لابن عساكر.

اثنا عشر: التخاريج:

قام الذهبي بتخريج عدد كبير من معجمات الشيوخ والمشيخات والأربعينات والأجزاء الحديثية الكبيرة والصغيرة، منها:

أ – معجمات الشيوخ:

١٨٤ معجم شيوخ ابن البالسي المتوفى سنة ٧١١ هـ.

١٨٥ - معجم شيوخ ابن حبيب الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ.

١٨٦ - معجم شيوخ علاء الدين بن العطار الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٤ هـ.

١٨٧ - المعجم العلي للقاضي الحنبلي (أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي المتوفى سنة ٧١٥ هـ).

ب – المشيخات:

١٨٨ - مشيخة التلي (محمد بن أحمد الصالحي الخياط المتوفى سنة ٧٤١ هـ).

١٨٩ - مشيخة الجعبري المتوفى سنة ٧٠٦ هـ.

١٩٠ - مشيخة ابن الزراد الحريري المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

١٩١ - مشيخة عز الدين المقدسي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ.

١٩٢ - مشيخة ابن القواس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ.

١٩٣ - مشيخة زين الدين الكحال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

ج– الأربعينات:

١٩٤ - أربعون حديثًا بلدانية من " المعجم الصغير " للطبراني.

١٩٥ - أربعون حديثًا بلدانية من " معجم " ابن جميع الصيداوي.

١٩٦ - أربعون حديثًا بلدانية من " معجم شيوخ " أبي بكر المقدسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

١٩٧ - أربعون حديثًا بلدانية من " معجم شيوخ " ابن زاذان المتوفى سنة ٤٨١ هـ.

١٩٨ - أربعون حديثًا لأبي المعالي الأبرقوهي المتوفى سنة ٧٠١ هـ.

١٩٩ - أربعون حديثًا لابنه أبي هريرة عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٩٩ هـ.

د – الثلاثيات:

٢٠٠ - ثلاثون حديثًا من " المعجم الصغير " للطبراني.

هـ - العوالي:

٢٠١ - عوالي الشمس ابن الواسطي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ.

٢٠٢ - عوالي الطاووسي المتوفى سنة ٧٠٤ هـ.

٢٠٣ - عوالي أبي عبد الله بن اليونيني المتوفى سنة ٧٤٧ هـ.

٢٠٤ - العوالي من حديث مالك بن أنس.

٢٠٥ - العوالي المنتقاة من حديث الذهبي.

و – الأجزاء:

٢٠٦ - الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار.

٢٠٧ - جزء من حديث القزويني المتوفى سنة ٧٠٤ هـ.

٢٠٨ - جزء من حديث أبي بكر المرسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

٢٠٩ - جزء من حديث ابن المحب المقدسي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

٢١٠ - جزء من حديث ابن الكويك المتوفى سنة ٧٣٤ هـ.

٢١١ - جزء من حديث أمين الدين الواني المتوفى سنة ٧٣٥ هـ.

٢١٢ - جزء من حديث ابن جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٦٧ هـ.

٢١٣ - أحاديث " مختصر " ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ.

٢١٤ - ثلاثيات ابن ماجة.

٢١٥ - المنتقى من حديث تقي الدين ابن الشيخ شمس الدين بن المجد البعلي.

وتوفي الذهبي رحمه الله تعالى قبل منتصف ليلة الاثنين، ثالث ذي القعدة، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكان قد بلغ من العمر حينذاك خمسة وسبعين عاماً وسبعة أشهر.

وكانت وفاته بدمشق، ودفن رحمه الله بمقبرة الباب الصغير، وحضر الصلاة عليه جملة من العلماء، وكان رحمه الله قد كف بصره قبل موته بسبع سنين. قال تلميذه الحسيني: " أضر في سنة إحدى وأربعين، ومات في ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بدمشق، ودفن في مقبرة الباب الصغير رحمه الله تعالى " [(١)].

(١) مصادر ترجمة الإمام الذهبي: الوافي بالوفيات للصفدي (١٦٣/٢). البداية لابن كثير (٢٢٥/١٤). شذرات الذهب لابن العماد (١٥٣/٦). طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٥١٧). طبقات الشافعية الكبرى (١٠٠/٩، ترجمة رقم ١٣٠٦). الدرر الكامنة لابن حجر (٤٢٦/٣). البدر الطالع للشوكاني (١١٠/٢). غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (٧١/٢). النجوم الزاهرة (١٨٢/١٠). نكت الهميان للصفدي (ص٢٤١). ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص٣٤، ٣٤٧). الرد الوافر لابن ناصر الدين (ص٣١ - ٣٢). رونق الألفاظ لسبط ابن حجر (ق١٨٠). مقدمة سير أعلام النبلاء لبشار عواد (٧/١ - ١٤٦). الذهبي ومنهجه في كتابه التاريخ لبشار عواد.
طبقات الشافعية للإسنوي (٥٥٨/١، ترجمة رقم ٥١٤). الدارس في أخبار المدارس (٧٨/١). وفيات الأعيان (٣٧٠/٢، ترجمة رقم ٣٩١). الدليل الشافي على المنهل الصافي (٥٩١/٢، ترجمة رقم ٢٠٢٩). هدية العارفين (٢٨٩/٨). الأعلام (٢٢٢/٦). معجم المؤلفين (٢٨٩/٨) ، كتاب العرش، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط الثانية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، مقدمة كتاب سير أعلام النبلاء طبعة دار الرسالة، تحقيق شعيب الأرناؤوط. مقدمة كتاب الكبائر، تحقيق عبد المحسن قاسم البزاز، ط دار الصابوني، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

المؤرخ المقريزي

أعــلام المؤرخــين

المؤرخ المقريزي [1]

هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم تقي الدين المقريزي، [بفتح الميم نسبة إلى مقريز - محلة من بعلبكّ] البعلي ثم المصري الفقيه المؤرخ الشافعيّ. وأصله من (بعلبك)، ثم هاجرت أسرته واستقر بها المقام في مصر.

ولد سنة (٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م) بحارة برجوان، بقسم الجمالية، بمحافظة القاهرة، بمصر.

نشأ المقريزي في أسرة معروفة بالاشتغال بالعلم في دمشق وبعلبك والقاهرة. وعبر عشرين سنة - هي سنوات طفولته ومراهقته وشبابه - شهد المقريزي حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية

---

(١) مصادر ترجمة المقريزي: - (هدية العارفين للبغدادي): ٥/ ١٢٧.
- (السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي): ١/ ٢٢ - ٢٣، ٣/ ٥٢ وما بعدها.
- (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر): ٢/ ٢٩١ - دار الجيل - بيروت.
- (إنباء الغمر لابن حجر): ٩/ ١٧١ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.
- (دراسات عن المقريزي)، د. محمد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيال، في آخرين، هيئة الكتاب - القاهرة. - (المقريزي مؤرخًا): د. محمد كمال الدين عز الدين علي، رقم (٦) من سلسلة المؤرخين، عالم الكتب - القاهرة.
- (أربعة مؤرخين، وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة): د. محمد كمال الدين عز علي رقم (٥٣) من سلسلة تاريخ المصريين - هيئة الكتاب - القاهرة.
- (الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربيّ إلى نهاية العصر المملوكي): د. سهام مصطفى أبو زيد - هيئة الكتاب القاهرة.
- (البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك): أحمد عبد الرزاق أحمد، دراسة عن الرشوة - هيئة الكتاب - القاهرة.
- (المقريزي وكتابه درر العقود الفريدة - في تراجم الأعيان المفيدة): دراسة وتحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب - القاهرة.
- (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداريّ) للمقريزي: المقدمة، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور.
- (معرفة ما يجب لآل البيت النبوي للمقريزي): المقدمة، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور، هو والذي قبله، طبع دار الاعتصام - القاهرة.

المصرية البعيدة عن شئون الدولة المملوكية وأمرائها الذين جعلوا من السلاطين الأطفال وأشباه الأطفال وقتذاك، ستارًا رقيقًا شفافًا ساذجًا يعملون من ورائه لتحقيق مطامعهم.

ثقافته:

و في وسط تلك الحوادث الصاخبة المتقلبة، عكف الشاب أحمد المقريزي على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته، وهي دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ودراسة الفقه والتفسير، والحديث، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ، وتقويم البلدان، والأدب، والحساب.

مصادر ثقافته:

ترجع مصادر ثقافة المقريزي إلى:

١ - أنه كان يملك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب في مختلف أنواع العلم والمعرفة المتداولة في عصره، والدليل واضح في الكثرة الكثيرة من المراجع التي أشارت في مؤلفاته إلى أنه رجع إليها وأخذ عنها.

٢ - أنه ولى وظائف كثيرة مختلفة، مكنته من التعرف على دولاب العمل وكيف يدار، وعلى مختلف النظم الإدارية والمالية، وعلى أحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية.

٣ - اشتغاله بعلمي الحديث والتاريخ، وهما علمان يعتمدان أصلا على الجرح والتعديل، والنقد والتحليل، والتثبت من كل قول، أو رواية أو حقيقة علمية.

شخصية المقريزي:

أودع المقريزي في صفحة العنوان من كتاب [السلوك لمعرفة دول الملوك]، شيئًا من صفاته الشخصية، حيث يقول بعد كتابة اسم الكتاب واسمه هو، وكأنما يخاطب نفسه:

[لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته، ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل أوليته، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هي العليا، وأعاذك من عز مفقود، وعيش مجهود، وأحياك ما كانت الحياة أجمل لك، وتوفاك إذا كانت الوفاة أصلح لك، بعد عمر مديد، وسمو بعيد، وختم بالحسنى عملك، وبلغك في الأولى أملك، وسدد فيها مضطربك، وأحسن في الأخرى منقلبك، إنه سميع قريب، جواد منيب].

الوظائف التي تولاها المقريزي:

التحق المقريزي بالخدمة الحكومية، بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من [أهل العلم والمعرفة] وهي التسمية المخصصة لهذه الطبقة تمييزًا لها عن طبقة [أهل السيف] وهم المماليك وحدهم، دون غيرهم من سكان البلاد المصرية والشامية جميعًا.

وأول عهد المقريزي بالخدم الحكومية كأبيه من قبله: [ديوان الإنشاء بالقلعة]، وهو الديوان الذي يقابله في العصر الحاضر [وزارة الخارجية]، فعمل المقريزي الشاب سنة ١٣٨٨ م موقعًا - أي كاتبًا - وهي وظيفة لا يبلغها وقتذاك سوى أصحاب الموهبة والمعرفة والتفوق في اللغة والأدب والتاريخ. ثم تعين المقريزي نائبًا من نواب الحكم - أي قاضيًا - عند قاضي قضاة الشافعية بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعيّ منذ أيام دراسته، وتحوله عن مذهب

الحنفيــة الـذي نشــأ فيــه، ثــم صــار المقريــزي إمــام الجــامع الحــاكم الفاطمي، وهي وظيفة في ذلك العصر.

وتولى المقريزي بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية، وهي وظيفة يقابلها في المصطلح الجامعي في العصر الحاضر [أستاذ ذو كرسي].

- وربما كان تعيين أحمد المقريزي في تلك الوظيفة التعليمية بتوصية خاصة من أستاذه [عبد الرحمن بن خلدون] لدى صديقه [السلطان برقوق].

ثم انتقل المقريزي من التدريس إلى الحسبة حين عينه [السلطان برقوق] سنة ١٣٩٨ م محتسبًا للقاهرة والوجه البحري، فانتقل بذلك من دائرة الإدارة والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع، ذلك أن وظيفة المحتسب التي يقابلها في الوقت الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقت ذاك النظر في الأسعار الجارية، وأحوال النقود، وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس، ومراقبة الآداب العامة ونظافة الشوارع، وتنظيم حركة المرور، مع الإشراف على المدارس والمدرسين والطلاب، والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات، فضلا عن مراقبة أصحاب الصناعات الفنية من الأطباء، والصيادلة، والمعلمين [أي المهندسين المعماريين].

ويضاف إلى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة في اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجائلين، والمتعيشين، والشحاذين، والمتعطلين الذين كانوا خطرًا دائما على الأمن.

ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسئوليتها أن أحمد بن علي المقريزي الذي تعين عليها بأمر [السلطان برقوق]، لا بدّ أنه اشتهر

وقتذاك بالكفاية والدقة في الإدارة والأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية.

غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين في عامين متتالين، إذ ضاق بمسئوليتها التي شغلت وقته ليلاً ونهارًا، وصرفته عن القراءة، وتطلبت منه الجلوس في دكة المحتسب - [بوابة المتولي الحالية] - للفصل في شكاوى السوق والسوقة، وتوقيع عقوبات على المخالفين، وإصدار الأوامر إلى العرفاء والأعوان والنقباء، مع العلم بأن وظيفة [محتسب القاهرة] شملت الوجه البحري كله.

مؤلفات المقريزي:

ترك المقريزي - رحمه الله - مؤلفات عديدة، في مجال التاريخ، والأنساب، والعقائد، والفقه، والأدب، والعلوم البحتة، زادت على نحو مائتي مجلدة كبار في مكتبات العالم، أو المثبت عنواناته لدى من ترجم له، أو اعتنى بالفهرسة العامة للمؤلفات العربية، ويمكن إجمال مؤلفاته على النحو التالي:

١ - (اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء):

أرخ فيه المقريزي للدولة الفاطمية منذ قيامها في المغرب العربيّ، وحتى سقوطها في مصر، مترجمًا لخلفائها، مشيرًا من خلال ترجماتهم إلى الحوادث الواقعة في زمانهم، وقد انتظمتها عدة حوليات متتابعة، مقدمًا لترجماتهم بالحديث عن أولاد على بن أبي طالب وأعقابهم، مع تحقيق نسب الخلفاء الفاطميين، والتعريف بنشأة دولتهم في المغرب العربيّ، ومذيلا عليها بالتعريف برسوم دولتهم في مصر، وما عابه الفقهاء والمؤرخون عليهم، فضلا عما صار إليه أمر أهليهم وذويهم، بعد سقوط دولتهم في مصر.

نشره بالقاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، فيما بين سنتي (١٩٦٧)، (١٩٧٣)، في ثلاثة أجزاء بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، والدكتور محمد حلمي عبد الهادي.

٢ - (أخبار قبط مصر):

وهو في تاريخ الأقباط، مستخرج من كتاب (المواعظ والاعتبار).

نشره هماكر بأمستردام سنة (١٨٢٤)، ونشره وستنفيلد بغوطا سنة (١٨٤٥).

٣ - (الإخبار عن الأعذار):

عالج المقريزي من خلاله موضوعًا تاريخيًّا اجتماعيًّا، يدور حول ما يقام من ولائم في البناء [الزواج]، والختان. ذكره السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٢.

٤ - (إزالة التعب والعناء في معرفة الحال في الغناء):

ذكره ابن تغري بردي في (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨، السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، منه نسخة في دار الكتب [فهرس الخديوية]: ٧/ ٥٦٤، ونسحة بالمكتبة الوطنية بباريس.

٥ - (الإشارة والإيماء في حل لغز الماء):

وهو رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي يوم الثلاثاء، لأربع عشر ليلة خلت من المحرم سنة (٨٢٣ هـ، ١٤٢٠ م) على سبيل التسلية، مستعرضا من خلالها معارفه الأدبية، واللغوية، وإمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع (١ / ١٩) البلاغية، والفقهية، والعلمية البحتة، وهي تدور حول حل [تفسير] لغز الماء. لكن يعيب هذا المؤلف ما تخلل مادته من التسليم ببعض الخرافات

ومستغربات الحدوث، مع احتوائه على بعض المعاني المستغلقة، بعيدة المرمى، تحتاج إلى إيضاح.

توجد منه عدة نسخ خطية، في مسودتين، تحتفظ بهما مكتبة جامعة القاهرة، تحت رقمي (٢٢٠٧٥) و(٢٦٢٤٧) ضمن مجموع رسائل المقريزي - رحمه الله - ومنه نسخة في دار الكتب المصرية [فهرس الدار]: ٣/ ١٢، ونسخة في مكتبة نور العثمانية في استامبول برقم (٤٩٣٧/ ٠١٥).

٦ - (الإشارة والإعلام ببناء الكعبة البيت الحرام):

أو تاريخ بناء الكعبة ذكره المقريزيّ - رحمه الله - في (الذهب المسبوك): ٢٦. منه نسخة خطية في دار الكتب الظاهرية بدمشق، وهي بخط المؤلف برقم (٤٨٠٥)، وليدن برقم (٩٤٣).

٧ - (إغاثة الأمة بكشف الغمة):

وهي رسالة لطيفة الحجم، فرغ المقريزيّ - رحمه الله - من تأليفها في المحرم سنة (٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ م) كما ذكره هو في (إغاثة الأمة): ٤٣، ٨٦، على إثر المجاعات والكوارث الاقتصادية، التي لحقت بمصر فيما بين عامي (٧٩٦ هـ)، (٨٠٨ هـ) عارضًا من خلالها لما حل بمصر من غلاء، وما ترتيب عليه من مجاعات أو كوارث مجيحة فيما قبل نشوء الإسلام وبعده، حتى سنة ثمان وثمانمائة للهجرة، محصيًا منها ستًّا وعشرين حادثة، خصّ مصر الإسلامية منها عشرين، وردت على سبيل التمثيل لا الحصر وقد أشير من خلالها إلى أن فيها ما هو أشدّ وأنكى من المحن المعاصرة، معللا لهذه المحن بأسباب طبيعية، كقصور جري النيل في مصر، وعدم نزول المطر في الشام، والعراق، والحجاز، وما يصيب الغلال

من الآفات وسمائم الرياح.

و أخرى غير طبيعية، ترجع إلى سوء تدبير ولاة الأمور، وتتحصر في أمور ثلاثة، هي:

١ - ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشاء.

٢ - غلاء إيجار الأطيان الزراعية على مبلغ ما تغله الأرض من محصول.

٣ - رواج الفلوس النحاسية.

وفي هذا العامل الأخير يكمن لب المشكلة وحلها في رأي المقريزيّ - رحمه الله - ولذا صرف جل اهتمامه إليه، مستطردًا منه إلى ثلاثة موضوعات، هي:

١ - النقد الإسلامي، وتطور سك العملة، وأثره في النظام النقدي في مصر.

٢ - نشأة الفلوس المضروبة من النحاس الأحمر في مصر، وتراجع الدراهم المضروبة من الذهب لعدم ضربها، وسبكها محليًّا.

٣ - أسعار النقد [ذهبا وفضة]، وبعض السلع الرئيسية من المحاصيل الزراعية.

لكن شاب هذه الرسالة - كذلك - تسليم المقريزيّ - رحمه الله - من خلال مادتها بكثير مما جاء في مصادره من المبالغات، أو مستغربات الحدوث، في مصر والشام. ومن ذلك إشارته إلى نطق ثور جبة عسال - قرية من قرى دمشق بالشام.

منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية [فهرس الدار]: ٥/ ٣٦، ونسخة خطية في مكتبة نور العثمانية برقم (٤٩٣٧/ ١).

نشره في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٥٧ م، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، والدكتور جمال الدين الشيال.

٨ - (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام):

هو رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي - رحمه الله - أثناء مجاورته في مكة سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥ - ١٤٣٦ م)، مرتبًا لها على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة قصيرة جدًّا، اقتصر فيها على الصلاة والتسليم.

منه نسخ خطية في: مكتبة جامعة ليدن برقم (٩٩٢)، (٩٩٣)، مكتبة نور العثمانية برقم (٤٩٣٧/ ١١)، دار الكتب المصرية برقم (٥٠٠) [فهرس الدار]: (٥/ ٣٨) مكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤١ هـ). وظهرت لهذا الكتاب طبعتان: نشره رينك، ليدن، سنة (١٧٩٠ م)، نشر في القاهرة سنة (١٣١٣ هـ).

٩ - (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع):

وهو مؤلف مطول في سيرة الرسول ﷺ، جمع مادته من مصادر رئيسية ومتعددة، محررًا فيه الخلاف حول كثير من الوقائع، مع العناية بتحقيق الكثير من المسائل الفقهية المتصلة بحوادث السيرة، حدّث به المقريزيّ في مكة، أثناء مجاورته فيها سنتي (٨٣٤ هـ) (١٤٣١ م)، (٨٣٩ هـ) (١٤٣٦ م).

توجد منه نسخ خطية محتفظ بها في مكتبة كوبريللي - تركيا برقم (١٠٠٤)، كتبت في شوال سنة (٨٣٩ هـ/ ١٥٦١ م)، كوبريللي زاده محمد باشا كتابخانه سند محفوظ، صحيفة (٦٦) وهي في جزء واحد

ضخم، تقع في ستة أجزاء ضخمة، ضمت (٩١٩) ورقة، مقاسها ٢٧ ٤٠ سم، ومسطرتها نحو ٣٥ سطرًا، وعنها مصورتي: دار الكتب المصرية في القاهرة، برقم (٨٨٦) تاريخ، ومعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، برقم (٦٣) تاريخ، لكن عدد صفحاتها (١٨٣٩) صفحة نسخة بمكتبة غوطا برقم (١٨٣٠)، وهي في ستة أجزاء، وهي ناقصة، وقد أنكر أمناء مكتبة غوطا أن تكون في ستة أجزاء، نسخة في مكتبة ليدن، برقم (٨٧١)، وهي نسخة صغيرة ناقصة جدًّا، كما توجد نسخة أخرى في خزانة عموجة حسين باشا في الآستانة، برقم (٣٥٤) طبع الجزء الأول منه بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة (١٩٤١)، على نفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية. ثم طبع نفس الجزء مصورًا على الأوفست في دولة قطر بإشراف الشيخ عبد الله الأنصاري. ثم طبع الجزء الأول مرة أخرى، نشرته دار الأنصار بالقاهرة (١٩٨١)، ثم أعيد نشر الكتاب كاملا بالمقدمة والفهارس في سبعة عشر مجلدًا، نشرته دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (١٩٩٨).

١٠ - (الأوزان والأكيال الشرعية):

وهي رسالة في الموازين والمكاييل، منها نسخة خطية في: مكتبة ليدن، برقم (١٠١٤)، دار الكتب المصرية، [فهرس الخديوية]: (٥/ ١٨٦).

نشرها تيكس، روستوك بألمانيا سنة (١٧٩٧ م)، (١٨٠٠ م).

١١ - (البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد):

منه نسختان خطيتان في ليدن، [فهرس أمين المدني] برقم ١٨٨، وهي بخط المؤلف، دار الكتب المصرية، [فهرس الخديوية]: ٧/

٥٦٥، لكن جاء في فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، أن هذه المخطوطة تصنيف أحد علماء المائة الثامنة الهجرية، وأن المقريزي - رحمه الله - ناسخها فقط، (فهرس المخطوطات المصورة):١/ ١١٩، عمود ٢.

١٢ - (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب):

هي رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي - رحمه الله - سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م) مشيرًا من خلالها إلى القبائل العربية التي دخلت مصر مع الفتح العربيّ، وأماكن وجودها في عصره، مقررًا أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر، وجهلت أكثر أعقابهم، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر حضرت لديه ست عشرة قبيلة، وهي ثعلبة، وجرم، وسنبس، وجذام وبني هلال، وبلى وجهينة، وقريش، وكنانة والأنصار، وعوف، وفزارة، ولواته، ولخم، وحرام، وبني سليم، غير مرتب لها على حروف المعجم، ولا على أصول الأنساب: [قحطانية وعدنانية]، أو بحسب منازلهم في مصر، فأتت أشبه شي ء بمذكرات كتبت على عجل، وعلى غير نظام واضح.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية [فهرس الدار]: ٥/ ٦٤، مكتبة جامعة كمبردج، برقم (١٥٧)، مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ١٠)، مكتبة ليدن، برقم (٩٧٥)، المكتبة الوطنية في باريس، برقم (١٧٢٥)، مكتبة فينة برقم (٩١٠). ظهرت لهذا الكتاب طبعتان:

نشره وستنفلد، غوطا سنة (١٨٤٧ م)، نشر في القاهرة سنة (١٣٣٤ هـ)، ثم أعاد نشره محققا الدكتور عبد الحميد عابدين،

القاهرة، عالم الكتب، ط ١ سنة ١٩٦١، مع دراسة عن تاريخ العروبة في وادي النيل.

١٢ - (التاريخ الكبير المقفى في تاريخ أهل مصر والواردين عليها):

هو معجم تأريخي ضخم، أتى في ست عشرة مجلدة، ترجم المقريزي - رحمه الله - فيه لمشاهير أهل مصر، فيما قبل الإسلام وبعده حتى وقته، على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، ممن استقروا فيها، أو تحولوا عنها إلى غيرها من البلدان [ميتًا محنطًا] أو [رأسًا مقطوعة]، حيث يقول: [لما دخل المعز لدين الله أبو تميم معد إلى القاهرة، كان معه توابيت آبائه: المنصور إسماعيل - هذا - والقائم أبي القاسم محمد، والمهدي عبيد الله، فدفنهم بتربة القصر من القاهرة، فلذلك ذكرته في كتابي هذا]. (المقفى): كما ترجم لخلف بن جبير، أحد ثوار المغرب، وقد قتل في المغرب، وطيف برأسه في القيروان، ثم حملت إلى مصر فطيف بها في القاهرة. (المقفى)، أشار المقريزي - رحمه الله - إلى هذا الكتاب في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٢٦٦ بتحقيقنا.

منه نسخة خطية في مكتبة باريس، برقم (٢١٤٤)، بخط المؤلف - رحمه الله - ميونخ برقم (٩٥٧)، ليدن، بأرقام (١٠٣٢)، (١٨٤٧)، (١٨٥١)، تم نشره بتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، الغرب الإسلامي، ط ١، سنة ١٩٨٧.

١٣ - (تاريخ بناء الكعبة):

منه نسخة خطية في: دار الكتب الظاهرية في دمشق، وهي بخط المؤلف، ونسخة في مكتبة ليدن، برقم (٩٤٣)، نسخة بالظاهرية في دمشق، برقم (٤٨٠٥).

١٤ - (تجريد التوحيد المفيد):

هو مؤلف لطيف الحجم، يدور موضوعه حول علم التوحيد، أجمل المقريزي - رحمه الله - الإشارة إليه في مقدمته بقوله: وبعد، فهذا كتاب جم الفوائد، بديع الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة، سميته: تجريد التوحيد المفيد، والله أسأل العون على العمل بمنه وكرمه.

وهذا المؤلف على وجازته لم يأت مؤرخنا فيه بموضوع ديني تقليدي، وإنما أحاط فيه إلى جانب ذلك بالتعريف بكثير من الفرق الإسلامية، ذاكرًا من خلالها مذاهبها وأدلتها، مناقشًا لها.

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧/ ١١)، مكتبة البلدية بالإسكندرية، برقم (٩٩/ ٦) فنون، ومكتبة نور عثمانية، برقم (٥٩٣٧/ ٠٢)، مكتبة باريس برقم ٠١٢، مكتبة جامعة برنستن [مجموعة كاريت] برقم (٠١٤٩٦)، مكتبة ليدن [هوتسما]، برقم (٩٩٣).

وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة (١٣٤٣ هـ)، ثم طبع في المطبعة المنيرية بالقاهرة، سنة (١٣٧٣ هـ) بتحقيق طه الزيني.

١٥ - (التذكرة):

هو مؤلف في التاريخ - كما يوهم ملخصه - أشار إليه ابن تغري بردي في (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨، إلا أنه كمل منه ثمانون مجلدًا.

١٦ - (تراجم ملوك المغرب):

احتوى على بعض ترجمات ملوك المغرب العربيّ، وقد يكون مذكرات جمعها المقريزي - رحمه الله - من المصادر للانتفاع بها في بعض مؤلفاته، مقدمة تحقيق (اتعاظ الحنفاء): ١/ ١٤، بتحقيق

الدكتور جمال الدين الشيال. فيه أخبار أبي حمو، وأخلافه من ملوك تلمسان.

١٧ - (تلقيح العقول والآراء، في تنقيح، أخبار الجلة الوزراء):

ذكره المقريزي - رحمه الله - في (الخطط): ١/ ٤٤٣، ٢/ ٢٢٣.

١٨ - (جنى الأزهار من الروض المعصار):

منه نسخة خطية في مكتبة برلين، برقم (٦٠٤٩)، مكتبة فينا، برقم (١٢٦٦)، دار الكتب المصرية، [فهرس الدار]: ٦/ ٢٥، مكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤١ هـ).

١٩ - (حصول الإنعام والمير، في سؤال خاتمة الخير):

هي رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول سؤال العبد ربه - تعالى - أن يختم له ولأخيه المؤمن بخير، مستلهما ذلك من قول يوسف - عليه السلام - مناجيا ربه:{تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

٢٠ - (الخبر عن البشر):

هو مؤلف ضخم، جعله المقريزي - رحمه الله - مدخلاً لكتاب (إمتاع الأسماع)، مؤرخًا من خلاله للخليقة حتى ظهور الإسلام، هادفًا من وراء ذلك إلى التعريف بقبائل العرب، وتمييزها من سائر الأجناس، ليعرف لها حقها من المحبة والإعظام، والتجلة والإكرام لكونه ﷺ هاشميا، قرشيًّا، عربيًّا.

قال عنه المقريزي - رحمه الله: ثم لما رأيت فضل الله علي - بما علمني وفهمني - عظيما، ومنته وطوله - بما رزقني من كثرة الأشراف على مقالات الخليقة - جسيمًا، جعلته كتابًا مستقلاً، لاتساعه

وكثرة فوائده، وشرف أوضاعه، وسميته: (الخبر عن البشر): ورقة ٤ أ، مخطوطة تونس.

وترجع أهمية هذا الكتاب - كذلك - إلى احتوائه - فضلا عن ذلك - على مادة رئيسية، تكشف عن مفهوم المقريزي - رحمه الله - لموضوع (علم التاريخ)، وأقسامه، وإقراره بفوائده، وتحمسه للدفاع عنه.

ومنه/ نسخة خطية في ليدن، برقم ٠١٠٨٠، ونسخة في مكتبة آياصوفيا في الآستانة، تقع في ستة أجزاء متسلسلة، أرقام (٣٣٦٢) حتى (٣٣٤١)، وتشمل الأجزاء ١، ٤، ٥، ٦ [غير متسلسلة]. (دفتر كتب خانة آياصوفيا): ص ٢٠٢، (دفتر فاتح كتبخانة سي): ص ٢٤٨.

٢١ - (خلاصة التبر في كتاب السر):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (الخطط): ٢/ ٦٣.

٢٢ - (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة):

هو معجم في ترجمات أعيان عصر المقريزي - رحمه الله - أشار في مقدمته إلى دافعه لتأليفه، قائلا وبعد، فإنّي ما ناهزت من سنى العمر الخمسين، حتى فقدت معظم الأصحاب والأقربين، فاشتد حزني لفقدهم، وتنغص عيشي من بعدهم، فعزيت النفس عن لقائهم بتذكارهم، وعوضتها عن مشاهدتهم باستماع أخبارهم، وأمليت ما حضرني من أنبائهم في هذا الكتاب وسميته (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة).

له نسخة في مكتبة غوطا، المجلد الأول منها بخط المؤلف - رحمه الله -، ونسخة في الموصل، لدى الدكتور محمود الجليلي، في جزأين،

تاريخهما (٨٧٨ هـ) وعن هذه النسخة الأخيرة تم نشر (٣٠٠) ترجمة - حيث يحتوي الكتاب على [٥٥٦] ترجمة - بعالم الكتب - بيروت سنة (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م)، بتحقيق الدكتور محمد كمال الدين عز الدين علي، بعد تصديره بدراسة وافية عن المؤلف والكتاب بشكل موسوعي يستحق التقدير.

٢٣ - (الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية):

منه نسخة خطية في كمبرج، برقم (٣٦٥)، أشار إليه السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣.

٢٤ - (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك):

رسالة لطيفة الحجم يدور موضوعها حول التأريخ لمن حج من الخلفاء والملوك في خلافته أو ملكه، فرغ المقريزي - رحمه الله - من تصنيفها في ذي القعدة سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م)، مرتبا لها على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

- أما المقدمة، فقد أشار فيها إلى تسميته للكتاب، مهديًا إياه إلى شخصية كبيرة في عصره، عزمت على الحج، لم يفصح عن اسمها.

- وأما الفصول، فقد أجمل في أولها الإشارة إلى [حجة الوداع]، لكونه ﷺ هو الذي بين للناس معالم دينهم، مشيرًا من خلال ذلك إلى بعض شعائر الحج والعمرة، كالقران، والتمتع، والهدي.

وجعل ثانيها من حج من الخلفاء في خلافته، مترجمًا من خلاله بترجمات قصيرة لثلاثة عشر خليفة، مؤرخًا لحجهم.

وجعل ثالثها للترجمة لثلاثة عشر ملكًا أو سلطانًا ممن حج في ملكه أو سلطنته، منذ انقسمت الخلافة الإسلامية إلى دويلات يحكمها ملوك،

وحتى عهد الأشرف شعبان - أحد سلاطين المماليك - مع التأريخ لحججهم.

- وأما الخاتمة، فقد أتت مقتضبة للغاية، تبين عن الفراغ من كتابته، وانتهاء مادته، على النحو التالي:

".. والله - سبحانه - هو أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم - والحمد للَّه رب العالمين).

منه له نسخة خطية في: مكتبة الأسكوريال [في أسبانيا]، برقم (١٧٧١)، مكتبة كمبدرج، برقم (٤٤٢)، (٤٤٣)، مكتبة نور عثمانية، برقم (٦/ ٤٩٣٧).

٢٦ - (رسالة في حرص النفوس على الذكر):

رسالة لطيفة الحجم، أنشأها المقريزي - رحمه الله - هادفًا من خلالها إلى الترغيب في عمل الخير، مقدمًا لموضوعه بقوله:

".. وبعد فهذه مقالة لطيفة، وتحفة سنية شريفة، في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر، أسأل الله - تعالى - أن يجعل لنا ثناء حسنًا في الصالحين، وأن يحبونا بالزلفى إلى يوم الدين بمنه وكرمه).

متبعا ذلك بموضوع الكتاب، وقد أشار من خلال مادته إلى أن البقاء من أعظم وأحسن صفات الله - تعالى - في حين ليس للعبد من نفسه إلا العدم، والفاضل هو الذي يحرص على بقاء ذكره دائما، على النحو الوارد في القرآن الكريم على لسان إبراهيم - عليه السلام - واجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [الشعراء: ٨٤].

منه نسخة خطية في: خزانة ولي الدين في الآستانة، ضمن مجموع

خطي يشمل خمس عشرة رسالة كلها للمقريزي - رحمه الله - برقم (٣١٩٥) راجع دفتر كتابخانه. ولي الدين، صحيفة (١٩٥)، مكتبة جامعة القاهرة برقم (١١/ ٢٦٢٤٧). وقد نشره في القاهرة الخانجي سنة (١٩٥٥) بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال.

منه نسخة خطية في خزانة ولي الدين في الآستانة، وقد جاء في (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان: ٣/ ١٨٧، أن اسم هذا المخطوط: (مقالة لطيفة في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر)، وأنه محفوظ في المتحف البريطاني في لندن.

٢٧ - (السلوك في معرفة دول الملوك):

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية [فهرس الدار]: ٥/ ١٢٩، المكتبة الظاهرية بدمشق، مجلد رقم (٧٣٠٤)، مكتبة كوبريللي برقم (١١٣٧)، مكتبة بني جامع [ضمن المكتبة السليمانية في استامبول]، برقم (٨٨٧)، مكتبة باتنا في الهند، برقم ١/ ١٦٦ (٢٢٢٣)، مكتبة غوطا، برقم (١٦٢٠)، (١٦٢١)، مكتبة باريس، برقم (١٧٢٦)، (١٧٢٨)، مكتبة الفاتيكان، (٥/ ٧٢٥)، مكتبة جستربتي في دبلن، [فيها المجلد الثامن منه] برقم (٤١٠٢)، مكتبة المتحف البريطاني، الذيل: (٤٨٠).

طبع هذا الكتاب بكماله في القاهرة في أربعة أجزاء على النحو التالي:

- الجزء الأول في ثلاثة أقسام، بتحقيق محمد زيادة (١٩٣٤ - ١٩٣٩).

- الجزء الثاني في ثلاثة أقسام، بتحقيق محمد زيادة (١٩٤١ - ١٩٥٨).

- الجزء الثالث في ثلاثة أقسام، بتحقيق سعيد عاشور (١٩٧٠ -

١٩٧٢).

- الجزء الرابع في ثلاثة أقسام، بتحقيق سعيد عاشور (١٩٧٢ - ١٩٧٣).

٢٨ - (شارع النجاة):

أشار السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، إلى أنه يشتمل على جميع ما اختلفت فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها، مع أدلتها، وتوجيه الحق منها، ذكره المقريزي - رحمه الله - في (الذهب المسبوك)، ٥، ٧.

٢٩ - (شذور العقود في ذكر النقود):

رسالة لطيفة الحجم، انقسمت إلى مقدمة وخاتمة، فيما بينها ثلاثة فصول.

- أما المقدمة فقد أشار فيها إلى موضوع الكتاب: «نبذة لطيفة في أمور النقود الإسلامية». وأنه أنشأه تلبية [للأمر العالي] الذي يرجح أن يكون شخصية كبيرة في بلاط المؤيد [شيخ المحمودي].

- وأما الفصل الأول فقد جعله للحديث عن [النقود القديمة]، التي كانت على وجه الدهر، وجعل الفصل الثاني للتعريف ب [النقود الإسلامية] - نشأتها وتطورها - وجعل الفصل الثالث للحديث عن [النقود المصرية]، وهو في هذه الفصول الثلاثة يشير إلى أنواع النقود، وأوزانها، وأعيرتها، وزيوفها، وما حدث فيها من التغيير والتبديل، على اختلاف عصورها.

منه نسخة خطية في: مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧)، مكتبة برلين، برقم (٦٠٢٤)، مكتبة ليدن، برقم (١٠١٢)، (١٠١٣)، مكتبة كمبردج، برقم (٤٧٥)، مكتبة الأسكوريال، برقم (١٧٧١).

و قد ظهرت لهذا الكتاب طبعات مختلفة:

- نشرها تيكسن في روستك (١٧٩٧ م).

- نشرها أحمد فارس الشديقان، مطبعة الجوائب استامبول، (١٢٩٨ هـ)، ضمن ثلاث رسائل.

- نشرها ماير، الإسكندرية (١٩٣٣).

- نشرها محمد آل بحر العلوم، النجف (١٩٣٨) ثم توالت طبعات لهذا الكتاب في النجف، فكانت الخامسة سنة (١٩٦٧).

- نشرها الأب أنستاس ماري الكرملي، ضمن كتابه (النقود العربية وعلم النميات، القاهرة (١٩٣٩ م).

٣٠ - (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداريّ):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول صحابي جليل، هو [تميم بن أوس الداريّ] - رحمه الله - وكان نصرانيًّا، جاء الرسول ﷺ، ورأى الرسول ﷺ وأسلم، وروي الرسول ﷺ عنه حديث [الجساسة والمسيخ الدجال]، فانفرد هو من دون الصحابة بذلك، وكانت روايته ﷺ من باب رواية [الفاضل عن المفضول، والمتبوع عن تابعه]، وقد استعرض المقريزي - رحمه الله - من خلال مادتها الحديث عن أنساب الناس وأنساب العرب، وقدوم وفد الداريين على رسول الله ﷺ وإسلام تميم، وتحديثه - عليه السلام - عنه، وإقطاعه إياه قريتي [جبرون وعينون]، ولم يكن فتحهما حدث بعد!! وما كان من أحوال تميم في الجاهلية والإسلام، معددًا لمآثره، مؤرخًا لوفاته بسنة أربعين للهجرة، مناقشًا من خلال تلك الرسالة [قضية الهبة]، مناقشة فقهية

قضائية، مختتمًا لها بالتعريف بما آل إليه مصير [حبرون وعينون] حتى وقته.

له نسخة خطية في خزانة ولي الدين بالآستانة. تم طبع هذا المخطوط تحت اسم (ضوء الساري في خبر تميم الداريّ)، بتحقيق الأستاذ محمد أحمد عاشور، في دار الاعتصام بالقاهرة وبيروت، سنة (١٣٩٢ هـ)، اعتمادًا على نسختين خطيتين: الأولى منقولة من الخزانة الوليدية في الآستانة - لعلها نفس خزانة ولي الدين آنفة الذكر - ويدل على ذلك الرقم الّذي بينه المحقق، فهو نفس رقم المجموع الّذي منه (ضوء الساري)، والأخرى منقولة عن المكتبة الأهلية في باريس.

٣١ - (الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة):

رسالة لطيفة الحجم، استفاد المقريزي - رحمه الله - مادتها في مكة، أثناء مجاورته فيها سنة (٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م) من بعض القادمين عليه من أهل حضرموت، ابتدأها بمقدمة موجزة، أشار فيها إلى ذلك قائلا: «وبعد، فهذه جملة من أخبار وادي حضرموت، علقتها بمكة - شرفها الله تعالى - أيام مجاورتي بها في عام [تسعة وثلاثين وثمانمائة]، حدثني بها ثقات من قدم مكة من أهل حضرموت».

ثم أتبعها بوصف جغرافي موجز لبلاد حضرموت، وما تردد في بعض المصادر من الاختلاف في نسب [حضرموت]، وما اشتهرت به هذه البلاد من مزروعات أو حيوان [كالماشية والإبل]، مذيلاً عليها بطائفة كبيرة من الروايات الشفهية، المتضمنة الكثير من الخرافات أو مستغربات الحدوث، مما وثق مؤرخنا به، كنحو قوله:

«و في جبال ظفار قوم يقال لهم القمر، أهل بادية، وقد جرت العادة

في ظفار أنها تمطر ثلاثة أشهر متوالية ليلاً ونهارًا، مطرًا غزيرًا جدًّا فإذا أراد أحد أن يسافر في مدة المطر إلى جهة من الجهات، طلب واحدًا من القمر، ودفع له مالاً ليدفع عنه المطر، ثم سار معه والمطر نازل، فيصير عن يمينه وشماله ولا يصيبه هو ولا أحماله منه قطرة واحدة، حتى يبلغ حيث يريد.

له نسخة خطية في مكتبة جستربتي - برقم (٤١١٨/ ٠٢)، مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ٤)، مكتبة ليدن، برقم (٨١٠)، مكتبة كمبردج، برقم (٦٥٤)، (٦٥٥)، معهد المخطوطات العربية في الكويت، برقم (٧٧٦/ ٠٢)، المصورة عن مخطوطة (شستربتي)، ومخطوطة ولي الدين في مصورتها المحتفظ بها لدى جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧)، وقد نشرها [نوسكوى] مع ترجمة لاتينية في بون سنة (١٨٦٦).

٣٢ - (عجائب تيمور):

٣٣ - (عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في صدر كتابه (اتعاظ الحنفاء): ١/ ٤ بقوله: «ضمنته ما وقفت عليه، وأرشدني الله - سبحانه - إليه من أحوال مدينة الفسطاط، منذ افتتح أرض مصر أصحاب رسول الله ﷺ وصارت دار إسلام، إلى أن قدمت جيوش الإمام المعز لدين الله أبي تميم معد من بلاد المغرب، مع عبده وقائده وكاتبه، أبي الحسين جوهر القائد الصقلي، في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ونزلت في شمالي الفسطاط بالمناخ، وأسس مدينة القاهرة، وحل بها»، كما ذكره أيضا في (السلوك): ١/ ٢٨.

وقد اشتمل هذا المؤلف على فترة من تاريخ مصر الإسلامية، امتدت

فيما بين الفتحين الإسلامي والفاطمي لها.

٣٤ - (قرض سيرة المؤيد لابن ناهض):

ذكره السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣.

٣٥ - (ما شاهده وسمعه مما لم ينقل في كتاب):

يبدو أنه احتوى على كثير من النوادر التاريخية وغير التاريخية، مما عايشه المقريزي - رحمه الله - أو أخبر به، على النحو المدرك من قول السخاوي: .. ومن أعجب ما فيه أنه كان في رمضان سنة (إحدى وتسعين وسبعمائة) مارًّا بين القصرين، فسمع العوام يتحدثون أن الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك، واجتمع عليه الناس. قال: فضبطت ذلك اليوم فكان كذلك. (الضوء اللامع): ٢/ ٢٥، ٢٤.

٣٦ - (مجمع الفرائد ومنبع الفوائد):

ذكره السخاوي، مشيرًا إلى أنه يشتمل على علمي العقل والنقل، المحتوي على فني الجد والهزل، بلغت مجلداته نحو المائة، بينما أشار ابن تغري بردي إلى أنه كمل منه نحو ثمانين مجلدا كالتذكرة.

(الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨.

٣٧ - (مختصر الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة لابن عدي):

منه نسخة خطية بخط المقريزي - رحمه الله - مؤلف هذا المختصر، كتبها سنة (٧٥٩ هـ)، وهي في مكتبة مراد ملا باستامبول، برقم (٥٦٩)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، برقم (٤٥٦) تاريخ. أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١١/ ٣١١.

٣٨ - (معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول ما يجب لآل البيت النبوي على المسلمين من حبهم وإجلالهم، ونصرتهم ومودتهم، فرغ المقريزي - رحمه الله - من تأليفها في ذي القعدة سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) مرتبا لها على مقدمة، أشار فيها إلى دافعه إلى تأليفها قائلا:

«.. وبعد فإنّي لما رأيت أكثر الناس في حق آل البيت مقصرين، وعما لهم من الحق معرضين، ولمقدارهم مضيعين، وبمكانتهم من الله - تعالى - جاهلين، أحببت أن أقيد في ذلك نبذة تدل على عظم مقدارهم، وترشد المتقي للّه - تعالى - على جليل أقدارهم ليقف عند حده، ويصدق بما وعدهم الله ومن به عليهم من صادق وعده».

تتبعها فصول خمسة، شارحة من خلال أقوال أئمة اللغة والتفسير لخمس آيات قرآنية، مع ما أتصل بها من الأحاديث النبويّة، عالج موضوعة من خلالها، وهي قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾} [الأحزاب: ٣٣].

-{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطور: ٢١].

-{وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا} [الكهف: ٨٢].

-{جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ} [الرعد: ٢٣].

-{قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ} [الشورى: ٢٣].

مختتمًا لهذه الرسالة بعدد من الرؤى والحكايات الشفهية - التي أمده بها شيوخه ورفقته - وتدور كلها حول الحث على حب آل البيت

النبوي وتعظيمهم.

منه نسخة خطية في فينا، برقم (٨٩٠). طبع في دار الاعتصام، ط ٢ سنة ١٩٧٣ م بالقاهرة وبيروت بتحقيق محمد أحمد عاشور.

٣٩ - (المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية):

مؤلف علمي بحت يبحث في المعادن، أشار المقريزي - رحمه الله - من خلاله إلى كروية الأرض، وحركتها، وإحاطة الماء باليابسة من سائر جهاتها، والأجسام المتولدة عليها، وتكويناتها، وصفاتها، وأمكنة وجودها، والقيمة العلمية والمادية والطبية لها.

ومنه نسخة خطية في مكتبة نور عثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ٩)، ومكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤٢ هـ)، مكتبة كمبردج، برقم (١٠٨٢)، مكتبة جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧/ ١٠).

٤٠ - (منتخب التذكرة في التاريخ):

مؤلف في التاريخ الإسلامي العام، اقتصر فيه المقريزي - رحمه الله - على ذكر العرب والفرس، دون غيرهم من الأمم المطيفة بهم في أطراف الأرض، اختصره من مؤلف أبسط منه سماه (التذكرة)، فكان ما أودعه في هذا المؤلف اللب منه.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الدار): (٥/ ٣٦٨)، مكتبة باريس برقم (١٥١٤) عرب، ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية، برقم (١٦٥٨)، تاريخ عن مخطوطة مكتبة باريس ذات الرقم (١٥١٤) عرب، وتقع في نحو ١٦٦ ورقة لطيفة الحجم، مزدوجة الصفحات، باستثناء أولها وآخرها، مسطرتها نحو أربعة عشر سطرًا.

٤١ - (المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر):

يضم الفترة فيما بين سنتي (٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م)، (٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م)، انتقاه المقريزي - رحمه الله - في ربيع الأول للآثار الشرقية سنة (٨١٤ هـ / ١٤١١ م).

طبع في القاهرة - المعهد الفرنسي للآثار الشرقية سنة (١٩٨١) بتحقيق أيمن فؤاد سيد.

٤٢ - (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)

وتعرف بخطط المقريزي:

منها نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الخديوية):

(١/ ١٦٢)، المكتبة العمومية بدمشق، الأرقام (٣٤٣٧)، (٥٦٩٦)، (٥٦٩٧)، (٧٠٠٤)، مكتبة آياصوفيا باستامبول، الأرقام (٣٤٧١)، (٣٤٨٤)، مكتبة طوب قبو سراي باستامبول، الأرقام (٢٩٤٧)، (٢٩٥٤)، مكتبة محمد الفاتح باستامبول برقم (٤٤٩٥)، (٤٤٩٩)،.. وغير ذلك.

طبع في مجلدين، بولاق (١٢٧٠ هـ)، وقد أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست، طبع في أربعة أجزاء، مطبعة النيل - القاهرة (١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ)، طبعت منه خمسة أجزاء بتحقيق المستشرق الآثاري فييت، القاهرة (١٩١١ - ١٩٢٧) ولم تتم.

وظهرت لهذا الكتاب طبعات جزئية، نذكر منها:

- أخبار قبط مصر، وقد سبقت الإشارة إليه.

- (القول الإبريزي للعلامة المقريزي)، نشره مينا إسكندر، وهو يتضمن تاريخ الأقباط وأحوالهم - نقلاً عن (خطط المقريزي).

٤٣ - (نبذ تاريخية):

ليس مؤلفًا مستقلاً - على ما يبدو - ولكنه ملتقطات مما جمعه المقريزي - رحمه الله - من المصادر، ليضمنه بعض مؤلفاته.

منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم (٢١٢٥ د/ ٢٥٩)، تقع في (٥٢) ورقة مقاسها نحو (١٣ ١٦ سم)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة برقم (٨٤٥) تاريخ.

٤٤ - (نحل عبر النحل):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول النحل، وما يتخلف منه من عسل وشمع، مستلهمًا منه العبرة والعظة لبني الإنسان، وقد رتبت على مقدمة وعشرة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فقد أشار فيها إلى موضوع الكتاب قائلا: (.. وبعد، فهذا قول وجيز في ذكر النحل، وما أودع فيه البارئ - جلت قدرته - من غرائب الحكمة وعجائب الصنع، ليعتبر أولو الأبصار، ويتذكر أرباب الاعتبار) وأما الفصول - فقد اتصلت بعلوم: الحيوان، واللغة، والتفسير، والحديث، والفقه، والطب، والبيطرة، والنبات، والاقتصاد، والتاريخ، والأدب، فيجمل المقريزي - رحمه الله - فيها الحديث عن النحل من الناحية الحيوانية، ذاكرًا أسماءه، وألوانه، وأحجامه، وصفاته، وخلاياه، وآفاته، وعلاجها، وعسله، وأنواعه وأصنافه - وجامعه، [مشتاره] وآلاته التي يستعين بها في جمعه، وما يرعاه النحل من أزهار وأنوار، وما ينتجه من شمع، مفصحًا عن مركزه الاقتصادي في مصر الإسلامية، وما ورد في النحل والعسل من الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، وأقوال الحكماء، والفقهاء

والمفسرين، وما اتصل بالشمع من الحوادث التاريخية، سواء بالاستصباح [الإضاءة] به لدى الخلفاء، والسلاطين، والفقهاء، أو باستخدامه في القصور، والمواكب السلطانية، وحفلات العرس والزواج، أو بالختم به على تركات الموتى من أولاد الخلفاء، مختتمًا بذلك بما أنشئ في [الشمع] من أشعار وأما الخاتمة فقد أشار فيها إلى انتهاء مادة الكتاب باكتماله، قائلاً:

(.. تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين، سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، منه نسخة خطية في: مكتبة نور عثمانية برقم (٤٩٣٧/ ٠٣)، مكتبة كمبردج، برقم (٦٦٤)، (٩٢٣)، مكتبة جستربتي في دبلن، برقم (٤١١٨/ ٠٢)، وقد طبع في القاهرة، مكتبة الخانجي، سنة (١٩٤٦) بتحقيق د. جمال الدين الشيال.

٤٥ - (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول استئثار بني أمية وبني هاشم بالخلافة من دون [علي بن أبي طالب] وبنيه، أشار المقريزي - رحمه الله - من خلالها إلى ما كان من منافرة ومنافسة بين بني أمية وبني هاشم قبل الإسلام وبعده.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الدار) ٥/ ٣٨٥، المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم (٣٧٣١)، مكتبة نور عثمانية، برقم (٤٩٣٧)، ومكتبة ستر اسبورج، مكتبة ليدن، برقم (٨٨٥)، مكتبة فينة، برقم (٨٨٦) وقد طبع هذا الكتاب مرتين:

الأولى في ليدن، نشره فوس، سنة (١٨٨٨)، والثانية في القاهرة

سنة (١٩٢٧) ثم طبع عدة طبعات آخرها بدار المعارف - القاهرة - سنة (١٩٨٨) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس. وقد أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٣٥٥.

٤٦ - (النحل وما فيه من غرائب الحكمة):

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة كمبردج، راجع (تاريخ آداب اللغة العربية) جورجي زيدان، ٣/ ١٧٨، فقرة ١٢.

٤٧ - (نهاية الجمع لأخبار القراءات السبع):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٣٢ ولم أقف له على مصدر آخر يشير إلى نسخ منه مخطوطة أو مطبوعة.

من هذا العرض الموجز لمجهودات المقريزي - رحمه الله - في الكتابة التاريخية، نجد أنه قد ألح من خلالها على التوكيد على ثلاث صفات امتاز بها، وهي:

[مصريته] و[عروبته] و[إسلامه].

أما مصريته، فتبدو في تحمسه للتأريخ لمصر في أطوارها المختلفة، فيما قبل الإسلام وبعده، حيث أنشأ فيها مؤلفًا مجملاً، لتاريخها، وخططها، وعمرانها - منذ القدم وحتى وفاته - وهو:

إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع - (١ / ٢٦)

(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، ثم عمد إلى تفصيل أكثر، أجمل فيه بالتأريخ لمصر الإسلامية، منذ الفتح الإسلامي لها وإلى قبيل وفاته، في عدة مؤلفات متتابعة، وهي: (عقد جواهر الأسفاط)

و(اتعاظ الحنفاء) و(السلوك) و(المقفى) وأما عروبته، فقد كانت دافعًا قويًّا لديه إلى إنشاء عدة مؤلفات، منها (الخبر عن البشر) و(البيان والإعراب) و(تراجم ملوك المغرب) و(الطرفة الغريبة).

و أما إسلامه، فيتبدى - فضلاً عن العاطفة الدينية الجياشة، المبثوثة في سائر مؤلفاته - في (إمتاع الأسماع)، وقد جعله تاريخًا مجملاً للرسول ﷺ وسيرته، و(النزاع والتخاصم) وهو مبحث في الخلافة، و(التذكرة) و(منتخبها) و(الدرر المضيئة) و(الإمام).

وقد جعل من هذه المؤلفات تاريخًا عامًّا للدولة الإسلامية في مختلف أطوارها وأمصارها. بل إن أكثر رسائله ومؤلفاته الموجزة، المفردة بالتأليف في موضوع بعينه، تنزع إلى أي من هذه الصفات الثلاث [(١)].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب فضل آل البيت عليهم السلام تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ٧٦٦ هـ - ٨٤٥ هـ، تحقيق السيد علي عاشور، ضيف الله بن يحيى الزهراني، مصادر السيرة النبوية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مقدمة تحقيق كتاب إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع لتقى الدين أحمد بن على المقريزى (م ٨٤٥)تحقيق: محمد عبد الحميد النميسى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعه: الأولى، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.

المقري الأديب

المقري الأديب والمؤرخ صاحب كتاب نفح الطيب

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي اليعيش ابن محمد التلمساني المقَّري نسبة إلى مقَّرة من قرى تلمسان. مؤرخ أندلسي وُلِد بتلمسان بالجزائر ونشأ بها، انتقل إلى فاس فكان خطيبها والقاضي بها. وكان كثير الأسفار، زار مصر والشام والحجاز أكثر من مرة. واشتهر بمؤلفه نفح الطيب. وكتابه أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض اتخذ فيه من القاضي عياض نواة حشد حولها المعلومات الأدبية والتاريخية. ولم يكتف بأخبار عصره ومصره، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجيله.

وكان المقري شديد الإعجاب بشخصيَّة الوزير الغرناطي العالم والأديب لسان الدين بن الخطيب، ومن ثم كان غرضه من هذا المؤلف أن يتناول شخصية ابن الخطيب من كل جوانبها.

وينقسم الكتاب قسمين، وكل قسم في ثمانية أبواب:

فالقسم الأول بأبوابه الثمانية يختص بالأندلس، فيصفها في عمرانها وعاصمتها قرطبة وجامعها والزهراء الناصرية والعامرية، ثم يفرد حديثًا عن الخلافة الأموية بالأندلس وعن قوة الإسلام وسلطانه في شبه الجزيرة الأندلسية.

ونجد في هذا القسم تعريفًا بأعلام الشخصيات الأندلسية، التي رحلت إلى المشرق لإكمال دراستها أو تلقي العلم. وكانت الرحلة إلى المشرق من متطلبات التكوين العلمي والأدبي لأهل الأندلس، كما يذكر أولئك المشارقة الذين وفدوا على الأندلس من أعلام الأدباء والمفكرين. وهذا القسم مليء بالأخبار الطريفة والأشعار الكثيرة،

كما تتنوع تراجم الشخصيات الأندلسية فيه بين ملوك وأمراء وقواد ووزراء وشعراء وكتاب وقضاة وفقهاء وزهاد وغيرهم. وأهم ما يميز هذا القسم غلبة الطابع الأدبي عليه.

أما القسم الثاني بأبوابه الثمانية فمخصص لابن الخطيب، يتحدث فيه المَقري عن أصله ونشأته وثقافته ومناصبه ورحلاته، كما يعرض لتلاميذه ومريديه وأصدقائه وندمائه وحاسديه وأعدائه.

وأهمية هذا القسم أنه حفظ قدرًا طيبًا من تراث ابن الخطيب النثري، كما حفظ شعره وموشحاته وأزجاله.

وتعد مقدمة الكتاب من معالم النثر الأدبي للمَقَّري. فهي أقرب ما تكون إلى ما عرف بأدب الرحلة، إذ يتحدث فيها عن رحلته من المغرب إلى مصر، برًّا وبحرًا، ويصف ما عاناه من أهوال الرحلة ثم زيارته للبيت الحرام ووصوله بعد ذلك إلى مصر. وخلال كل ذلك يصف ما اعتراه من شوق وما عاناه من وجد وهو بعيد عن بلده يصطلي بالحنين إليها.

كما تحفل المقدمة بطائفة من الشعر له ولغيره في وصف الوطن وحرقة البعد عنه، حتى أضحت المقدمة سفرًا قيمًا في أدب الرحلة وأدب الديار.

وأسلوب النفح مشوق وجذاب، وإن غلب عليه السجع، ذلك أن المقري كان يتشبه في أسلوبه بلسان الدين بن الخطيب. كما كانت الاستطرادات، لكثرتها، مشتتة لذهن القارئ، بجانب أن بعض الأخبار تتكرر في أكثر من موضع. ومن إيجابيات الكتاب اعتماد المقري أسلوب الرواية فيما يورده من أخبار، فيرجع كل خبر إلى أصله وكل شعر إلى مصدره. ويعد نفح الطيب من آخر الموسوعات العربية الكبرى والمتخصصة في التراث الإسلامي الأندلسي؛ لعنايته بالجانب التاريخي السياسي وبأدب

الرحلة والبلدان والترجمات وذكر الحروب، كما عكس الأسى والأسف لضياع الأندلس إذ أن الكتاب كتب وما يزال الجرح نازفًا.

السبب وراء تأليف المقري لكتابه نفح الطيب:

١ - إعجابه بلسان الدين ابن الخطيب، بحيث يقلده في طريقته الإنشائية ويحفظ الكثير من رسائله وشعره، كان كفيلاً بدفعه إلى كتابة مؤلف عنه، وخاصة لإحساسه بالغربة والوحشة اللتين أحس بهما (مثله الأعلى) حينما لجأ إلى المغرب.

٢ - أن مثل هذا الكتاب كان كفيلاً بأن ينفس عنه كربه، ويعود به من خلال أشعار الحنين ومن خلال التاريخ الماضي والقريب إلى وطنه، عودة نفسية وروحية.

٣ - أن المنهج للتأليف في لسان الدين كان سهلاً مفتوح المسارب أمام عينيه لأنه قد مارس مثل هذا المنهج حينما كتب عن القاضي عياض كتاباً سماه (أزهار الرياض).

٤ - أن انفصام آخر الروابط الإسلامية من الأندلس لم يكن قد مضى عليه إلا سنوات، فكانت صورة (المأساة) ما تزال تلح على مخيلة المقري، وكان الربط بين الماضي والحاضر من الأمور التي تعين على التذكر والتذكير والعبرة في آن واحد؛ وكل من قرأ (نفح الطيب) بتأمل، سيشعر بهذه الناحية، ويكفينا مثلاً على ذلك تلك الوقفة الطويلة التي وقفها المقري وهو يستعيد صورة المنصور بن أبي عامر الذي يمثل البطولة العربية بالأندلس في أوجها.

٥ - كان المقري كغيره من المغاربة يحس مدى إهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي، وكان ذلك الإهمال في القديم للاعتداد بالثقافة المشرقية، أما في عصر المقري فكان سببه ضعف الثقافة

عامة، وحسبك أن تجد لسان الدين - وهو من هو في المغرب والأندلس - محتاجاً إلى من يعرف المشارقة به ويحدثهم عن أخباره؛ ولهذا وجد المقري أن كتابه مؤلف جامع شامل تحقق هذا الغرض، وكان في البدء يزمع أن يقصره على لسان الدين، ثم وجد أن صورة لسان الدين لا يمكن أن تتضح إلا على محمل من التطور الأدبي والسياسي في الأندلس. وفي الوقت نفسه كان الكتاب يحقق تبيان الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب، ولهذا خصص جزءاً كبيراً من كتابه للرحلتين: رحلة المغاربة إلى الشرق ورحلة المشارقة إلى الأندلس والمغرب، وفي هذه الناحية الثانية كان المقري يحس أنه حلقة في تلك السلسلة الطويلة، وكأنه في مقدمة الكتاب وفي بعض فصوله الأخرى سجل طرفاً من رحلة، كما سجل أسلافه من قبل أخبار تنقلاتهم. وبذلك أسعفه مؤلفه هذا على أن يحقق ما قد نسميه (نزعة مغربية) وهي نزعة لا تقتصر على الرحلة وإنما كانت تشمل نقل التراث المغربي الخالص والأندلسي إلى المشارقة.

٦ - كان تأليف نفح الطيب بمثابة وعد كان المقري قد قطعه على نفسه وأنجزه، فقد حدث تلامذته فيها عن لسان الدين ومكانته السياسية والأدبية فأثار في نفوسهم حب الاستطلاع إلى مزيد من البيان عنه، وكان أحمد الشاهيني المدرس بالجقمقية أشدهم إلحاحاً في ذلك، ولهذا نزل المقري عند رغبته، ووعده إياه، وكان في البداية يزمع أن يسميه (عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب) فلما رأى أن المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس وأدبها غير اسم الكتاب وجعله (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب). وعلى هذا النحو أصبح الكتاب قسمين: قسم خاص بالأندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين

وما يتعلق به من شئون. وفي كل قسم من هذين القسمين ثمانية فصول. وقد طبع النفح عدة طبعات في المشرق كان أولها طبعة بولاق سنة ١٢٧٩، ثم كان آخر الطبعات المشرقية طبعة المكتبة التجارية بإشراف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٤٩).

- مؤلفات المقري:

١ - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.

٢ - أزهار الرياض في أخبار عياض.

٣ - إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة.

٤ - إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى.

٥ - أجوبة على مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي سماها " إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس".

٦ - حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.

٧ - عرف النشق من أخبار دمشق.

٨ - شرح مقدمة ابن خلدون.

٩ - قطف المهتصر في شرح المختصر، شرح على حاشية مختصر خليل.

١٠ - فتح المتعال في مدح النعال.

١١ - وكان المقري قد ختم كتابه السابق برجز في النعال الشريفة ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلائي ولعله المسمى " النفحات العنبرية في نعل خير البرية ".

١٢ - وللمقري أراجيز كثيرة أخرى منها " أزهار الكمامة في شرف العمامة ".

١٣ - والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين.

١٤ - ورجز " نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط ".

١٥ - البلدة والنشأة.

١٦ - الغث والسمين والرث والثمين.

١٧ - حسن الثنا في العفو عمن جنى.

١٨ - الأصفياء.

١٩ - الشفاء في بديع الاكتفاء.

٢٠ - القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية.

٢١ - النمط الأكمل في ذكر المستقبل.

٢٢ - أرجوزة في الإمامة.

٢٣ - نظم في علم الجدول.

٢٤ - وذكر في النفح أنه كان يزمع تأليف كتاب في تلمسان يسميه: (أنواء نيسان في أنباء تلمسان) ويبدو أنه لم يحقق ذلك.

٢٥ - شرح له على قصيدة (سبحان من قسم الحظوظ).

٢٦ - ونسبت له المصادر كتاب (الجمان من مختصر أخبار الزمان).

٢٧ - رسالة (إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة).

٢٨ - وأخيراً كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) موضوع الاختصار. وفيما كان يزمع الهجرة من مصر ليستوطن

الشام، وافته منيته في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ.

الطبـــري

الامام الطبرى شيخ المؤرخين العرب

الطبـــري

أعــلام المؤرخـين

الإمام الطبري

شيخ المؤرخين العرب

في بلاد (طبرستان).. بلاد العلم والأدب والفقه، وفي أجمل مدنها.. مدينة (آمُل) العريقة عاصمة طبرستان، والتي تقع الآن في دولة أذربيجان، جنوب بحر قزوين، وُلد حجَّة العلوم، وعالم العلماء في عصره، الإمام (محمد بن جرير الطبري)سنة ٢٢٤هـ، ولُقب بالطبري لأن أهل طبرستان جميعًا يُنْسَبون إليها؛ فيقال لكل واحد منهم: طبري، فكان أهل طبرستان كثيري الحروب، فكان كل منهم يحمل سلاحه في يده، وهو نوع من الأشجار يسمى (الطبر).

لم يكد الطبري يبلغ السن التي تؤهله للتعلم حتى عهد به والده إلى علماء (آمُل) وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه علامات النبوغ، فكان هذا النبوغ المبكر حافزًا لأبيه على إكمال تعليم ابنه، وبخاصة أنه رأى رؤية تفاءل من تأويلها، قال الطبري: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مِخلاة مملوءةٌ بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه) وقصَّ رؤياه على مفسر للأحلام، فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص أبي على معونتي من أجل طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

أخذ ابن جرير الطبري يرحل في طلب العلم، فتعلم الفقه ببغداد، والمغازي والسير في الكوفة، ثم توجه ناحية مصر، وفي طريقه إليها مرَّ ببيروت، وقضى بها عدة أيام حتى قرأ القرآن برواية الشاميين، ثم واصل مسيرته، وفي مصر تلقى الطبري العلم، فأخذ من علمائها قراءة (حمزة) (وَرْش) ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى، وانقطع للعلم والدراسة والتأليف في كثير من الأوقات، وكان يتاجر بقية الوقت ليأتي برزقه.

وكان الطبري عالي الهمة،عظيم الاجتهاد؛ ومما يحكى عنه: أن رجلاً جاءه يسأله في العَرُوض (وهو علم يعرف به الشعر من النثر) ولم يكن الطبري له إلمام كبير بهذا العلم فقال له: علي قولٌ ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فتعالَ إلي، ثم طلب أبو جعفر كتاب العروض، فتدارسه في ليلته، وقال: أمسيت غير عَرُوضي، وأصبحت عروضيًّا.

وقد تمكن ابن جرير من نواحي العلم، وأدلى بدلوه فيها، حتى أصبح إمام عصره بغير منازع، وقد قيل عنه: كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو.. وظل الطبري أربعين عامًا يكتب كل يوم أربعين ورقة، قاصدًا بذلك وجه الله، بما ينفع به الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله من العباد الزهاد، يقوم الليل، نظيفًا في ظاهره وباطنه، ظريفًا، حسن العشرة، مهذبًا في جميع أحواله.

مؤلفات الطبري:

كان الطبري من أكثر علماء عصره نشاطًا في التأليف، أشهر مؤلفاته تفسيره المعروف بتفسير الطبري، وكتاب " تاريخ الأمم والملوك " روي عنه أنه قال: استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني [١].

قال الحاكم: وسمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لي أبو بكر بن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير قلت: بلى كتبته عنه إملاء قال: كله؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة؟ قلت: من سنة

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٥/١١.

ثلاث وثمانين ومائتين إلى سنة تسعين ومائتين قال: فاستعاره مني أبو بكر ثم رده بعد سنين ثم قال: لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير (١).

قال أبو محمد الفرغاني: تم من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل (٢).

وتم من كتبه " كتاب التاريخ " إلى عصره وتم أيضًا كتاب " تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم " وتم له كتاب " لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام " وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له وهو ثلاثة وثمانون كتابًا وتم له كتاب " القراءات والتنزيل والعدد " وتم له كتاب " اختلاف علماء الأمصار " وتم له كتاب " الخفيف في أحكام شرائع الإسلام " وهو مختصر لطيف وتم له كتاب " التبصير " وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين وابتدأ بتصنيف كتاب " تهذيب الآثار " وهو من عجائب كتبه ابتداء بما أسنده الصديق مما صح عنده سنده وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ثم فقهه واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعاني والغريب والرد على الملحدين فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي وبعض مسند ابن عباس فمات قبل تمامه. قلت: هذا لو تم لكان يجيء في مائة مجلد، قال: وابتدأ بكتابه " البسيط " فخرج منه كتاب الطهارة فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين وحجة كل قول وخرج منه أيضا أكثر كتاب الصلاة وخرج

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.

منه آداب الحكام وكتاب المحاضر والسجلات و " كتاب ترتيب العلماء " وهو من كتبه النفيسة ابتدأه بآداب النفوس وأقوال الصوفية ولم يتمه وكتاب " المناسك " وكتاب " شرح السنة " وهو لطيف بين فيه مذهبه واعتقاده وكتابه " المسند المخرج " يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي من صحيح وسقيم ولم يتمه ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خم عمل كتاب " الفضائل " فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر وتكلم على تصحيح حديث غدير خم واحتج لتصحيحه ولم يتم الكتاب.

وقال بعض العلماء: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرًا.

أسلوبه في التأليف:

يقول أحمد بن خلكان: " لأبي جعفر في تأليفه عبارة وبلاغة فمما قاله في كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة: القول في البيان عن الحال الذي يجب على العبد مراعاة حاله فيما يصدر من عمله لله عن نفسه قال: إنه لا حالة من أحوال المؤمن يغفل عدوه الموكل به عن دعائه إلى سبيله والقعود له رصدًا بطرق ربه المستقيمة صادًّا له عنها كما قال لربه عز ذكره إذ جعله من المنظرين:{لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [الأعراف: ١٦، ١٧]، طمعًا منه في تصديق ظنه عليه إذ قال لربه:{لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢]، فحق على كل ذي حجى أن يجهد نفسه في تكذيب ظنه وتخييبه منه أمله وسعيه فيما أرغمه ولا شيء من فعل العبد أبلغ في مكروهه من طاعته ربه وعصيانه أمره ولا شيء أسر إليه من عصيانه ربه واتباعه أمره فكلام أبي جعفر من هذا النمط وهو

كثير مفيد ".

وروي عن أبي سعيد الدينوري مستملي ابن جرير " أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بعقيدته فمن ذلك وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وهذا تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبدًا " (١).

ثناء العلماء عليه:

قال أبو سعيد بن يونس: محمد بن جرير من أهل آمل كتب بمصر ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه.

وقال الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظًا لكتاب الله عارفًا بالقراءات بصيرًا بالمعاني فقيهًا في أحكام القرآن عالمًا بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين عارفًا بأيام الناس وأخبارهم. وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاء وكثرة تصانيف قل أن ترى العيون مثله.

مواقف من حياته:

قيل: إن المكتفي أراد أن يحبس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء فأحضر له ابن جرير فأملى عليهم كتابًا لذلك فأخرجت له جائزة

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٩٥.

فامتنع من قبولها فقيل له: لا بد من قضاء حاجة قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ففعل ذلك وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابًا في الفقه فألف له كتاب الخفيف فوجه إليه بألف دينار فردها.

وروي عن محمد بن أحمد الصحاف السجستاني سمعت أبا العباس البكري يقول: جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضر بهم الجوع فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على ابن خزيمة فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي مصر يدق الباب ففتحوا فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه ثم قال: وأيكم محمد بن جرير فأعطاه خمسين دينارًا وكذلك للروياني وابن خزيمة ثم قال: إن الأمير كان قائلا بالأمس فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم فأنفذ إليكم هذه الصرر وأقسم عليكم إذا نفذت فابعثوا إلي أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تاريخ الطبري قال: حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت معه بضاعة يتقوت منها فسرقت فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكمي قميصه فقال له بعض أصدقائه: تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان قال: نعم فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير ورفع مجلسه وأجرى عليه عشرة دنانير في

الشهر فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسأل استلافه رزق شهر ففعل وأدخل في حجرة التأديب وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال: قد شرطت على شيء فلا آخذ سواه فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه وسأله فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء فيقبله ويكافئه أضعافًا لعظم مروءته. وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه وزهده في الدنيا ورفضه لها وقناعته رحمه الله بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ::: وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ::: ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي ::: لكنت إلى العلى سهل الطريق
وله خلقان لا أرضى فعالهما ::: بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرًا ::: وإذا افتقرت فتِهْ على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فقال: إنا لله ماتت الهمم فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك ثم أملاه على نحو من

قدر التاريخ[1].

وكان الطبري لا يقبل المناصب خوفًا أن تشغله عن العلم من ناحية ولأن من عادة العلماء البعد عن السلطان من ناحية أخرى، فقد روى المراغي قال: لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله فعرض عليه القضاء فامتنع فعرض عليه المظالم فأبى فعاتبه أصحابه وقالوا: لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم فذهبوا إليه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه قال: فانصرفنا خجلين.

وفاتـه:

قال أبو محمد الفرغاني: حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير طلب ماءً ليجدد وضوءه فقيل له: تؤخر الظهر تجمع بينها وبين العصر فأبى وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة منهم أبو بكر بن كامل فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا فقال: الذي أدين الله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلامًا هذا معناه وأكثر من التشهد وذكر الله عز وجل ومسح يده على وجهه وغمض بصره بيده وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا.

قال أحمد بن كامل توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١ - ٢٩٧.

سنة عشر وثلاث مئة ودفن في داره برحبة يعقوب يعني ببغداد قال: ولم يغير شيبه وكان السواد فيه كثيرًا وكان أسمر أقرب إلى الأدمة (السواد) أعين نحيف الجسم طويلاً فصيحًا وشيعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى.

حقيقة تشيع الطبري!!

نود أن نثبت أن الذي أثار هذه التهمة قديماً هو الحافظ أحمد بن علي السليماني وهو الذي صرح أن الطبري يضع الحديث للروافض وإزاء تلكم المقولة قال الحافظ أبو حيان: إن ابن جرير إمام من أئمة الشيعة الإمامية. وقبل أن نتحدث عن معطيات وأسباب هذا الاتهام أود أن نثبت رأي علماء الجرح والتعديل يدلون بشهادتهم لتستبين حقيقة هذه التهمة:

قال الحافظ أبو الوفاء الحلبي الطرابلسي ت ٨٤١هـ:

" محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاثمائة ثقة صادق فيه تشيع وموالاة لا تضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض " (١).

وقال الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ت٧٤٨هـ:

" محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لا تضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني. وهذا رجم بالظن الكاذب بل إن ابن

---

(١) أبو الفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ٢٢١/١.

جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولا سيما في مثل إمام كبير " [(١)].

لكن كيف يتهم إمام حافظ مثل السليماني على جلالة قدره لابن جرير الطبري؟! فما أدلته على هذه التهمة؟!

يجيب على هذه الشبهة أيضاً الحافظ شمس الدين الذهبي:

" فلعل السليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني " [(٢)].

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، فيقول عن الطبري: " محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر صاحب التصانيف الباهرة مات سنة عشر وثلاثمائة، ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لا تضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولا سيما في مثل إمام كبير مثل السليماني فلعل السليماني أراد (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) لبررت والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل والله أعلم.

---

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.
(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.

وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليماني فقال في الكلام على الصراط في أوائل تفسيره: وقال أبو جعفر الطبري وهو إمام من أئمة الإمامية. ونبهت عليه لئلا يغتر به فقد ترجمه أئمة النقل في ألاف[1] وبعده فلم يصفوه بذلك وإنما ضره الاشتراك في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته وكثرة تصانيفه " [2].

وهذه شهادة الحافظ أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي ت٤٦٣هـ يترجم للطبري ترجمة مطولة في تاريخه نختار منها:

قال الشيخ أبو بكر " استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل الألاف وكان حافظًا لكتاب الله عارفًا بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيها في أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام عارفًا بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تارخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه وسمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي المعروف بالسمسماني يحكى أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة وبلغني عن أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني أنه قال: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك

(١) الألاف: بتشديد اللام الذين يؤلفون الكتب.

(٢) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٠٠/٥.

كثيرًا أو كلامًا هذا معناه أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد قال: ثنا علي بن احمد بن الصناع عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن قالوا: كم يكون قدره فقال: ثلاثون ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنا لله ماتت الهمم " (١).

في ضوء ما سبق نستطيع أن نخلص بالنتائج التالية:

- لا نستطيع أن نجزم اتهام الحافظ العلامة ابن جرير الطبري مما هو منسوب إليه من تهمة الرفض والتشيع ووضع أحاديث لمصلحة أهل البيت.

- قد يكون الحافظ السليماني اختلط عليه الأمر حيث ظن أن الشيعي أبا جعفر محمد بن جرير بن رستم هو نفسه أبو جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير.

- أما الرجل الآخر الذي يتفق اسمه وكنيته ولقبه مع ابن جرير السني يقول عنه الحافظ ابن حجر: " محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني انتهى وقد ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الري بعد ترجمة محمد بن جرير الإمام فقال: هو الآملي قدم الري وكان من جلة المتكلمين على مذهب المعتزلة وله مصنفات روى عنه الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة الرعيني وروى أيضا عن أبي عثمان المازني وجماعة وعنه أبو الفرج

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦٢/٢ ومابعدها.

الأصبهاني في أول ترجمة ابن الأسود من كتابه وذكر شيخنا في الذيل بما تقدم أولا وكأنه سقط من نسخته أراد الآتي بعد لعل السليماني إلى آخره وكأنه لم يعلم بأن في الرافضة من شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه وإنما يفترقان في اسم الجد ولعل ما حكي عن محمد بن جرير الطبري من الاكتفاء في الوضوء بمسح الرجلين إنما هو هذا الرافضي فإنه مذهبهم " [1].

(د) الطبري من أئمة علماء أهل السنة بشهادة علماء الجرح والتعديل وصيارفة الإسلام في علم أحوال الرجال كالذهبي وابن حجر والبغدادي والطرابلسي وغيرهم.

(هـ) أما أنه كان فيه تشيع يسير وموالاة لأهل البيت لا تضر.. لا يعني ذلك أن الرجل كان يميل إلى عقيدة الشيعة بالمعنى الإنحرافي؛ فالطبري شأنه شأن بعض العلماء الذين يوالون عليًّا رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه فقط. وهذه النعوت كان يستخدمها بعض علماء أهل السنة كابن قتيبة فكان يقول عن الرجل أو الراوي أنه شيعي بمجرد الموالاة لعلي بن أبي طالب وآل بيته دون الحط من منزلة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ودون أن يستتبع ذلك غلو أو سب في عموم الصحابة فإذا تجاوز هذا الحد إلى درجة الغلو فهنا يتحول المصطلح من شيعي إلى رافضي وهم خارجون على منهج أهل السنة والجماعة. هذا هو المقصود من مصطلح شيعي قديماً أما بعد تطور هذا المصطلح عقب العصور المختلفة في تاريخ الإسلام فقد تغير مدلوله الآن وصار مصطلحاً يتناقض ومنهج أهل السنة ومن ثم فلا يتصور أن يستخدم

(١) لسان الميزان، ١٠٣/٥.

هذا المصطلح في وقتنا الحاضر بغية نعت أحد علماء أهل السنة بحجة أنه يوالي عليًّا رضي الله عنه وآل البيت لأن كلمة شيعي الآن لها دلالة تختلف عن معناها الاصطلاحي قديماً.

حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء المتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم.

مما لا شك فيه أن الطبري روى عن أبي مخنف وابن الكلبي؛ ولنا وقفة مع هؤلاء الإخباريين بعد أن نلقي الضوء على أهم المصادر التي استند عليها الطبري في تاريخه:

الأول: تاريخ الطبري يبدأ منذ بدء الخليقة حتى أحداث سنة ٣٠٢هـ.

الثاني: مصادر الطبري في تاريخ الرسل والأنبياء ابن إسحاق وكتب وهب بن منبه.

الثالث: في تاريخ العرب قبل الإسلام على مرويات عبيد بن شرية ومحمد بن كعب القرظي وهشام الكلبي وابن إسحاق أيضاً.

الرابع: وفي السيرة النبوية استند إلى مرويات أبان بن عثمان وعروة ابن الزبير وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر والزهري وابن إسحاق وشرحبيل بن سعد.

الخامس: مصادره عن حروب الردة عن مرويات سيف بن عمر والمدائني.

السادس: أما مصادره في معركتي الجمل ٣٦هـ، وصفين ٣٧هـ فعلى مرويات أبي مخنف ومحمد بن السائب وابنه هشام الكلبي وسيف ابن عمر.

السابع: ومصادره عن الدولة الأموية من مرويات عوانة بن الحكم وأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وعمر بن شبة.

الثامن: مصادره عن العصر العباسي على مرويات أحمد بن أبي خيثمة وابن ززهير والمدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عدي والواقدي.

نلاحظ أنه لم يعتمد على مرويات أبي مخنف وابني الكلبي فقط بل إنه قد نوع مصادره كما هو واضح. لكن أخطر مصادره بحق هي مرويات أبي مخنف عن موقعتي الجمل وصفين لأن هناك تزويراً وتلفيقاً وسبًّا يخلص المرء بعد قراءته لهاتين الموقعتين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجموعة من أصحاب الدنيا الذين يتقاتلون على ملك زائل يشتم بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً وصحابة رسول الله براء من هذه المرويات الكاذبة التي رواها أبو مخنف وابنا الكلبي، ومن ثم لزام علينا أن نلقي الضوء على هؤلاء الإخباريين:

أما أبو مخنف لوط بن يحيى ت١٥٧هـ:

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: " إخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق. وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا حاتم عنه فنفض يده وقال: أحد يسأل عن هذا وذكره في الضعفاء " [1].

وقال فيه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٢٧٢هـ: " قرئ على العباس بن محمد الدوري قال: سمعت يحيى بن معين

(١) لسان الميزان، ٤٩٣/٤.

يقول: أبو مخنف ليس بثقة نا عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: متروك " [1].

وقال الحافظ أبو أحممد عبد الله بن عدي ت٢٦٥هـ: " معروف بكنيته واسمه حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولا يبعد منه أن يتناولهم وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم " [2].

أما عن محمد بن السائب الكلبي ت١٤٦هـ:

يقول الذهبي: " العلامة الإخباري أبو النضر محمد بن السائب بن المفسر وكان أيضًا رأسًا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث يروي عنه ولده هشام وطائفة " [3].

وقال الذهبي أيضاً في ميزان الاعتدال عن محمد بن السائب الكلبي:

" وقال يزيد بن زريع وكان سبئيًّا قال أبو معاوية: قال الأعمش: اتق هذه السبئية فإني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. وقال ابن حبان (عن ابن الكلبي): سبئيًّا من أولئك الذين يقولون: إن عليًّا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب وقال الدارقطني وجماعة: متروك. وقال ابن حبان: مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه " [4].

وقال ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: " محمد بن السائب أبو

---

(١) عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث، بيروت، ١٨٢/٧.
(٢) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، دار الفكر، بيروت، ٩٣/٦.
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤٨/٦.
(٤) ميزان الاعتدال، ١٦١/٦.

النضر الكوفي النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض " [1].

أما هشام بن السائب الكلبي ت٢٠٤هـ:

يقول عنه ابن حجر: " هشام بن محمد بن أبو المنذر الإخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة قال أحمد ابن حنبل إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني وغيره متروك وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة " [2].

وذكره الخطيب البغدادي بعد أن ساق بسقده قائلاً: " حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: سمعت أبى يقول: هشام بن محمد بن من يحدث عنه إنما هو صاحب نسب وسمر وما ظننت أن أحداً يحدث عنه بلغني أن هشام مات في سنة أربع ومائتين وقيل: سنة ست ومائتين " [3].

وقال ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: " هشام بن محمد بن السائب ومحمد بن السائب والده صاحب التفسير سمعت ابن حماد يقول حدثني عبد الله سمعت أبى يقول: هشام من يحدث عنه إنما هو صاحب سمر ونسبة وما ظننت أن أحدًا يحدث عنه وهذا كما قال أحمد: هشام الغالب عليه الأخبار والأسمار والنسبة ولا أعرف له شيئًا من المسند " [4].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، سوريا، ٤٧٩/١.
(٢) لسان الميزان، ١٩٦/٦.
(٣) تاريخ بغداد، ٤٥/١٤.
(٤) الكامل في ضعفاء الرجال، ١١٠/٧.

صفوة القول:

إن أبا مخنف إخباري رافضي تالف متهم بالكذب، شيعي محترق. أما محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام فهما إخباريان متهمان بالرفض والتشيع وتلفيق المرويات التاريخية.

لكن يبقى السؤال قائماً: لماذا روى الطبري عن هؤلاء الإخباريين رغم تجريح العلماء لهم؟

نجد الإجابة على هذا التساؤل في مقدمة تاريخ الطبري إذ يوضح لنا منهجه بكل صراحة حين يقول:

" فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا " [١].

هكذا يلقي الطبري تبعة الرواية على عهدة الراوي لأنه يعلم أنه بمجرد ذكر اسم الراوي الذي أخذ عنه الخبر أو الحديث فإنه يكون قد أدى الأمانة لأصحابها لأن الناظر علمه بحال الراوي وخاصة في حالة الرواة المجروحين فإنه لن يقبل هذه الرواية الواهية أو المكذوبة. وهذه كانت طريقة كثير من علماء السلف قديمًا الذين لم يكونوا يشترطون على أنفسهم الصحة في كل المرويات التي يكتبونها. وكنا نود أن يعلق الطبري على الأخبار والخرافات والأساطير والأكاذيب التي قيلت في حق الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة في موقعتي الجمل وصفين تلك المرويات التي اعتمد عليها

(١) ابن جريرالطبري، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٥/١.

كل من أراد النيل من تاريخ الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم حتى صار الأمر ببعض البسطاء باعتقادهم أن ما شجر بين الصحابة مسلم به لأنه مروي عن ابن جرير لأنه المصدر الأساسي لكل هذه الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية الأولى التي رواها الإخباري الخبيث أبو مخنف وابنا الكلبي [١].

ونريد أن نقول: أن اتهام الطبري بالتشيع لم يثبت، وإن كانت كتاباته كانت نقلاً (في أحيان كثيرة) عمن اتهم ليس بالتشيع فقط بل بالرفض والوضع والتشنيع على الصحابة الأطهار الأخيار وأهل السنة الأبرار، لذا وجب التنويه على القارئ والباحث في كتابات الطبري توخي الحذر من مروياته لا سيما في الجوانب الخلافية بين الصحابة وأهل السنة والجماعة والشيعة.

* * *

(١) هاني السباعي، مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية بلندن، من مصادر السيرة النبوية، كتب التاريخ العام.

ابن خلكـــان

أعـــلام المؤرخـين

المؤرخ " ابن خلكان "
صاحب كتاب " وفيات الأعيان "

ابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس البرمكي الإربلي الشافعي، ولد بإربل سنة ثمان وستمائة وسمع بها " صحيح البخاري " من أبي محمد بن هبة الله ابن مكرم الصوفي وأجاز له المؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وزينب الشعرية. روى عنه المزي والبرزالي والطبقة، وكان فاضلاً بارعاً متفنناً عارفاً بالمذهب حسن الفتاوي جيد القريحة بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الاطلاع حلو المذاكرة وافر الحرمة، فيه رياسة كبيرة، له كتاب " وفيات الأعيان " وقد اشتهر كثيراً وله مجاميع أدبية. قدم الشام في شبيبته وقد تفقه بالموصل على كمال الدين ابن يونس وأخذ بحلب عن القاضي بهاء الدين بن شداد وغيرهما. ودخل مصر وسكنها مدة وتأهل بها وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري ثم قدم الشام على القضاء في ذي الحجة سنة تسع وخمسين منفرداً بالأمر ثم أقيم معه في القضاء ثلاثة سنة أربع وستين وكان ذلك في جمادى الأولى جاء من مصر ثلاثة تقاليد لشمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي ولزين الدين عبد السلام الزواوي المالكي ولشمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر الحنبلي فلم يقبل المالكي ووافق الحنفي والحنبلي، وكان الحنفي قبل ذلك نائبًا للشافعي، ثم إن الأمر من مصر ورد بإلزام المالكي وامتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية وقالا: نحن في كفاية. قال شهاب الدين أبو شامة: ومن العجيب اجتماع ثلاثة من قضاة القضاة لقب كل واحد منهم شمس الدين في زمن واحد. واتفق أن الشافعي استناب نائباً لقبه شمس الدين فقال

بعض الأدباء الظرفاء:

أهـــل دمشـــق اســـترابوا ::: مـــن كثـــرة الحكـــام
إذ هــم جميعـــاً شمـــوس ::: وحـــالهم في الظـــلام

وقال أيضاً:

بدمشـــق آيـــة قـــد ::: ظهـــرت للنـــاس عامـــا
كلمـــا ازدادوا شموســـا ::: زادت الـــدنيا ظلامهـــا

ثم عزل عن القضاء سنة تسع وستين بالقاضي عز الدين بن الصائغ، ثم عزل ابن الصائغ بعد سبع سنين به، وقدم من مصر فدخل دخولاً لم يدخل غيره مثله من الاحتفال والزحمة وأصحاب البغال والشهود وكان يومًا مشهودًا وجلس في منصب حكمه وتكلم الشعراء. ولما قدم ابن خلكان إلى دمشق ثانياً وكان لثامن سنة قال رشيد الدين الفارقي في ذلك:

أنت في الشام مثل يوسف في مصر ::: وعنـــدي أن الكـــرام جنـــاس
ولكـــل ســـبع شـــداد وبعـــد ::: السبع عام يغـــاث فيـــه النـــاس

وقال سعد الدين الفارقي:

أذقت الشام سبع ســنين جــدبًا ::: غـــداة هجرتـــه هجـــرًا جميـــلا
فلمـــا زرتـــه مـــن أرض مصـــر ::: مددت عليه مـــن كفيـــك نـــيلا

وكان كريمًا جوادًا ممدوحًا فيه ستر وحلم وعفو، وحكايته في ذلك مشهورة. ثم عزل بابن الصائغ ودرس بالأمينية إلى أن مات عشية نهار السبت سادس عشرين شهر رجب سنة إحدى وثمانين بالنجيبية النورية وشيعه الخلائق.

أنشدني من لفظه لنفسه شهاب الدين أحمد بن غانم كاتب الإنشاء يرثي قاضي القضاة شمس الدين:

يا شمس علوم في الثرى قد غابت ::: كم نبت عن الشمس وهي ما إن نابت

لم تأت بمثلك الليالي أبدًا ::: إما قصرت عنه وإما هابت

وكان وجيه الدين محمد بن سويد صاحبه وكان يسومه قضاء أشغال كثيرة ويقضيها، فحضر في بعض الأيام ورام منه أمراً متعذرا فاعتذر، فقال: ما يكون الصاحب صاحباً حتى يعرق جبينه مع صاحبه في جهنم، فقال القاضي: بلى يا وجيه الدين، صرنا معك قشلمشا وما ترضى. ويقال: إنه عمل تاريخًا للملك الظاهر ووصل نسبه بجنكزخان، فلما وقف عليه قال: هذا يصلح أن يكون وزيراً، اطلبوه، فطلب وبلغ الخبر الصاحب بهاء الدين بن حنا فسعى في القضية إلى أن أبطل ذلك، وناسى السلطان عليه، فبقى في القاهرة يركب كل يوم ويقف في باب القرافة ويمشي قدام الصاحب إلى أن يوصله بيته، وافتقر حتى لم يكن له غير البغلة لركوبه، وكان له عبد يعمل بابًا ويطعمه، والشيخ بهاء الدين ابن النحاس يؤثره، ومع ذلك فلا يحنو عليه الصاحب ولا يحن إلى الإحسان إليه، حتى فاوضه الدوادار وقال له: إلى متى يبقى هذا على هذه الحالة فجهز إلى مكانه بدمشق على القضاء. وحضر إليه وهو بالقاهرة عز الدين محمد بن شداد بكتب فقارس من الغور وانتقالها إلى الظاهر وقد ثبتت عليه بالشام وطلب منه الإشهاد عليه بما فيها لتثبت بمصر، قال: كيف أشهد علي قال: يأذن لك قاضي القضاة ابن رزين. فقال: لو كنت موليًّا ما كنت آذن له، أفأكون مولى من جهته هذا لا يكون أبداً. واطلع الظاهر على ذلك فعظم عنده وتحقق شرف نفسه. وأمر له بدر الدين بيليك الخزندار تلك الأيام بألفي درهم ومائة إردب قمح فأبى من قبولها وتلطف معه مع القاصد، فقال: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، ولم يقبل وأصر على الامتناع مع الفاقة الشديدة. وكان له

ميل إلى بعض أولاد الملوك وله فيه الأشعار الرائقة، يقال: إنه أول يوم جاء إليه بسط له الطرحة وقال: ما عندي أعز من هذه، طأ عليها، ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعوه من الركوب فقال:

يا سادتي إني قنعت وحقكم ::: في حبكم منكم بأيسر مطلب
إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ::: ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى ::: يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي ::: ألقاه من ألمٍ إذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالةٍ ::: لولاك لم يك حملها من مذهبي
قسماً بوجهك وهو بدر طالع ::: وبليل طرتك التي كالغيهب
وبقامةٍ لك كالقضيب ركبت في ::: أخطارها في الحب أصعب مركب
وبطيب مبسمك الشهي البارد ::: العذب النمير اللؤلؤي الأشنب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها ::: العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذ لي ::: خلع العذار ولو ألح مؤنبي
لكن خشيت بأن تقول عواذلي ::: قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت ::: كشف القناع بحق ذياك النبي
لا تفضحن محبك الصب الذي ::: جرعته في الحب أكدر مشرب

أخبرني من لفظه القاضي جمال الدين عبد القاهر التبريزي قال: كان الذي يهواه القاضي شمس الدين هو الملك المسعود وكان قد تيمه حبه فكنت أنام عنده في العادلية فتحدثنا في بعض الليالي إلى أن راح الناس من عنده فقال لي: نم أنت، وألقى علي فروة، وقام يدور حول البركة في بيت العادلية، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبح وتوضأ. والبيتان المذكوران:

أنا والله هالك ::: آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي ::: قد أقامت قيامتي

ويقال: إنه سأل بعض أصحابه عما يقوله أهل دمشق عنه فاستعفاه فألح عليه فقال: يقولون: إنك تكذب في نسبك وتأكل الحشيشة وتحب الغلمان. فقال: أما النسب والكذب فيه فإذا كان ولا بد منه فكنت أنتسب إلى العباس أو إلى علي بن أبي طالب أو إلى أحد الصحابة، وأما النسب إلى قوم لم يبق لهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة. وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم وإذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر لأنه ألذ. وأما محبة الغلمان فإلى غد أجيبك عن هذه المسألة.

قال قطب الدين البونيني: سمعت من يذكر إنما خرج له النسب إلى البرامكة أبو شامة، وليس كذلك. ووقفت على مجلدة من " تاريخ إربل " لوزيرها شرف الدين وقد ذكر وفاة ابن عم قاضي القضاة وقد نسبه إلى البرامكة ولعل ذلك قبل خروجه من إربل. وذكره الصاحب كمال الدين في " تاريخ حلب " ونسبه إلى البرامكة.

ومن شعره:

وسرب ظباء في غدير تخالعوا ::: بدور بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول عذولي والغرام مصاحبي ::: أما لك عن هذي الصبابة مذهب
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى ::: فقلت له: ذرهم يخوضوا ويلعبوا

ومنه مضمناً:

كم قلت لما اطلعت وجناته ::: حول الشقيق الغض دوحة آس
لعذاره الساري العجول بخده ::: ما في وقوفك ساعة من باس

ومنه:

لما بدا العارض في خده ::: بشرت قلبي بالنعيم المقيم
وقلت هذا عارض ممطر ::: فجاءني فيه العذاب الأليم

ومنه على ما قيل:

انظـــر إلى عارضــــه فوقـــه ::: لحاظـه ترسـل منـها الحتـوف
تشـــاهد الجنـــة في وجهـــه ::: لكنها تحـت ظـلال السـيوف

ومنه:

ولمــــــا أن تفرقنــــــا ::: وحالـــت نـــوب الـــدهر
رأيـــت الشـــهد لا يحلـــو ::: فمـــا ظنـــك بالصـــبر

ومنه:

وما سر قلبي منذ شطت به النوى ::: نعـيم ولا لهـو ولا متصـرف
ولا ذقت طعم المـاء إلا وجدتـه ::: سوى ذلك الماء الذي كنت أعرف
ولم أشـهد اللـذات إلا تكلفـا ::: وأي سـرور يقتضـيه التكلـف

ومنه:

أحبابنا لـو لقيـتم في إقـامتكم ::: من الصبابة ما لا قيـت في ظعـني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبسـاً ::: والبر من أدمعي ينشـق بالسـفن

ومنه:

تمثلـتم لي وبـالبلاد بعيـدة ::: فخيل لي أن الفؤاد لكـم مغـنى
وناجاكم قلبي على البعد والنـوى ::: فأوحشتم لفظاً وآنسـتم معـنى

وقال في ملاح أربعة يلقب أحدهم بالسيف:

مـلاك بلـدتنا بالحسـن أربعـة ::: بحسنهم في جميع الخلق قد فتكـوا
تملكوا منهج العشـاق وافتتحـوا ::: بالسيف قلبي ولولا السيف ما ملكوا

ومنه:

أي ليـل علـى المحـب أطالـه ::: سـائق الظعـن يـوم زم جمالـه
يزجر العيس طاوياً يقطـع المهـ ::: ـه عسـفاً وسـهوله ورمالـه
أيهـا السـائق المجـد ترفـق ::: بالمطايـا فقـد سـئمن الرحالـه

وأنخهـــا هنيهـــة وأرحهـــا ::: قد براها السرى وفرط الكلالـه
لا تطل سيرها العنيف فقـد بـر ::: ح بالصـب في سـراها الإطالـه
وتركتم وراءهـم حلـف وجـد ::: نادبـاً في محلكـم أطلالـه
يسأل الربع عـن ظبـاء المصلى ::: ما على الربع لو أجـاب سـؤاله
ومحـال مـن المحيـل جـواب ::: غير أن الوقـوف فيهـا غلالـه
هـذه سـنة المحـبين يبكـو ::: ن علـى كـل مـترل لا محالـه
يا ديار الأحبـاب لا زالـت الأد ::: مع في تـرب سـاحتيك مذالـه
وتمشـى النسـيم وهـو عليـل ::: في مغانيـك سـاحباً أذيالـه
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـ ::: رع عنـا ذهابـه وزوالـه
حيث وجه الشباب طلـق نضـير ::: والتصـابي غصـونه ميالـه
ولنا فيك طيـب أوقـات أنـس ::: ليتنـا في المنـام نلقـي مثالـه
وبأرجاء جوك الرحـب سـرب ::: كل عـين تـراه تهـوى جمالـه
من فتـاة بديعـة الحسـن ترنـو ::: مـن جفـون لحاظهـا مغتالـه
ورحـيم الـدلال حلـو المعـاني ::: تتـثنى أعطافـه مختالـه
ذي قوام تود كل غصـون الـ ::: بان لـو أنهـا تحـاكي اعتدالـه
وجهـه في الظـلام بـدر تمـام ::: وعـذاراه حولـه كالهالـه

ومن ذلك:

كأنني يوم بان الحي عـن إضـم ::: والقلب من سطوات البين مذعور
ورقاء ظلت لفقد الإلف سـاجعة ::: تبكي عليه اشتياقاً وهـو مأسـور
يا جيرة الحي هل من عودة فعسى ::: يفيق من نشوات الشوق مخمـور
إذا ظفرت مـن الـدنيا بقـربكم ::: فكل ذنب جناه الـدهر مغفـور

وله في الدوبيت شيء كثير من أحسنه قوله:

في هامش خـدك البـديع القـاني ::: أسرار هوى لكـل صـب عـان
قد خرجها الباري فمـا أحسـنها ::: مـن حاشـية بـالقلم الريحـاني

وقوله:

روحي بك يا معذبي قد شقيت ::: في جنب رضاك في الهوى ما لقيت
لا تعجل بالله عليها فعسى ::: أن تدركها برحمة إن بقيت

وقوله:

يا سعد عساك تطرق الحي عساك ::: قصداً فإذا رأيت من حل هناك
قل صبك ما زال به الوجد إلى ::: أن مات غراماً أحسن الله عزاك

وكتب إليه السراج الوراق لغزاً في مئذنة:

يا إماماً له ضياء ذكاء ::: يتلاشى له ضياء ذكاء
ما مسمى بالرفع يعرب والنصـ ::: ـب وإن كان مستقر البناء
علم مفرد فإن رفعوه ::: رفعوه عمداً لأجل النداء
أنثوه ومنه قد عرف التذكيـ ::: ـر فانظر تناقض الأشياء
وهو ظرف فأين من فيه ظرف ::: ليجلي من هذه العمياء

فأجاب: قال شمس الدين أحمد بن المنير في قاضي القضاة المذكور:

ليس شمس الضحى كأوصاف شمس الديـ ::: ـن قاضي القضاة حاشا وكلا
تلك مهما علت محلا ثنت ظلا ::: وهذا مهما علا مد ظلا

وكتاب " وَفَيَات الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزَّمان " من أشهر كتب التراجم العامّة وأوفاها. ألّفه أبو العبّاس، أحمد بن محمد بن خلّكَان (ت٦٨١هـ، ١٢٨٢م) المؤرّخ الحجة والأديب الماهر، المولود في إربل بالقرب من الموصل.

أبان ابن خلكان عن طبيعة تأليفه في مقدمته التي صدَّر بها الكتاب فقال فيها: " ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة من العلماء أو الملوك أو الشعراء.. بل كل من له شهرة بين الناس ". ومع ذلك فإن ابن خلكان لم يعمد إلى ذكر كافة الأعلام المشاهير، فقد أغفل تراجم معظم الصحابة والخلفاء ومن في حكمهم وركّز على

أعلام زمنه. ولعلنا نجد له مخرجًا لأن هؤلاء المشاهير قد استوفاهم كثير ممن ألّف في التراجم، لذا جعل عمدته مشاهير عصره ومن يقع السؤال عنهم في زمانه فأضاف إلى تراث التراجم مادة أصيلة لا غنى للباحثين عنها.

ومع أن المؤلف قصد إلى الاختصار وجعله رائده في ذلك، إلاّ أنك كثيرًا ما تجده يطيل في بعض التراجم ويسهب في ذكر الروايات التاريخية والأشعار حتى وصل في بعض التراجم إلى عشرين صفحة أو نحوها. ورغم ذلك فقد حوى الكتاب قرابة ألف ترجمة.

وقد بدأ ابن خلكان كتابه مفضلاً مبدأ السنين في ترتيب التراجم، ثم وجده عسيرًا فعدل عنه إلى الترتيب الهجائي، وهو المنهج السائد لدى كثيرين ممن صنفوا في التراجم، وقد عرض لذلك في مقدمة الكتاب فقال: " ورأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين، فعدلت إليه والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة ليكون أسهل للتناول، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخّر وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين ".

وتميّز الكتاب على سائر كتب التراجم بعناية مؤلفه بإثبات سنة الولادة والوفاة متى تيسّر له ذلك، وبلغ من عنايته بذلك أنه كان يسقط الترجمة كلها إذا لم يوفق في الوقوف على سنة الوفاة ويعتذر عن ذلك بقوله عن بعض التراجم: " ولم أظفر بوفاته حتى أفرد له ترجمة ".

وهذه الحفاوة بذكر التواريخ، بالإضافة إلى غزارة المادة وسداد المنهج وسهولة التناول، جعلت الكتاب في صدارة كتب التراجم العامة؛ لذلك حظي الكتاب باهتمام الباحثين منذ القدم فأكمل ابن شاكر الكتبي بعض نواقصه بكتابه المسمَّى فوات الوفيات، كما ألف صلاح الدين الصفدي كتابًا يُعدُّ ملحقًا له سمّاه الوافي بالوفيات. أما في العصر الحديث فقد بلغ من عناية الناس به أنه طبع نحو سبع طبعات.

* * *

ابن حجر العسقلاني

أعــلام المؤرخــين

خاتمة الحفاظ المؤرخ
ابن حجر العسقلاني

هو شهاب الدين، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الكناني، العسقلاني، الشافعي، المصري المولد والمنشأ والدار، والوفاة، القاهري.

والعسقلاني: نسبة إلى " عسقلان " وهي مدينة بساحل الشام من فلسطين، والظاهر أن القبيلة التي ينتمي إليها الحافظ ابن حجر كانت قد استقرت في عسقلان، وما جاورها إلى أن نقلهم " صلاح الدين الأيوبي " عندما خربها ما بين " ٥٨٠ - ٥٨٣ هـ " على إثر الحروب الصّليبية.

وقال ابن حجر:

وبمصر مولده وأصل جدوده ::: من عسقلان المقدسية قد بدي

اشتهاره بابن حجر:

لقد اشتهر بـ " ابن حجر " واختلفت المصادر في اعتباره اسماً أو لقباً.

كان مولده في شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة على شاطئ النيل بمصر القديمة وقال:

شعبان عام ثلاثة من بعد سبع ::: مائة وسبعين اتفاق المولد

وكان المنزل الذي ولد فيه يقع بالقرب من دار النحاس ولبث فيه إلى أن تزوج بأم أولاده، فسكن بقاعة جدها منكوتمر المجاورة لمدرسته " المنكوتمرية " داخل باب القنطرة بالقرب من حارة بهاء الدين واستمر بها حتى مات.

نشأ الحافظ ابن حجر يتيماً - كما عبر هو عن نفسه - إذ مات أبوه في

رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل.

وقال: " تركني ولم أكمل أربع سنين، وأنا الآن أعقله كالذي يتخيل الشيء ولا يتحققه، وأحفظ عنه أنه قال: كنية ولدي أحمد أبو الفضل "، ولم يكن من يكفله، وكان والده قد أوصى قبل وفاته بولده اثنين من الذين كانت بينه وبينهم مودّة ويبدو أن عليًّا كان حفيًّا بولده أحمد، فهو الذي كناه واصطحبه عندما حج وزار بيت المقدس وجاور، ويظن الحافظ ابن حجر أن أباه أحضره في مجاورته مجالس الحديث وسمع شيئاً ما، غير أن المنية اختارته ولم يسعد بولده الذي صار له فيما بعد شأن عظيم.

وأصبح اليتيم في وصاية زكي الدين أبي بكر بن نور الدين علي الخروبيّ، وكان تاجراً كبيراً بمصر، وورث مالاً كثيراً وأصبح رئيساً للتجار، كما أوصى به والده العلامة شمس الدين بن القطان الذي كان له بوالده اختصاصاً لكنه لم ينصح له في تحفيظه الكتب وإرشاده إلى المشايخ والاشتغال حتى أنه كان يرسل بعض أولاده إلى كبار الشيوخ.. ولا يعلمه بشيء من ذلك.

وقال عن ابن حجر: وكان له اختصاص بأبي فأسند إليه وصيته فلم يحمد تصرفه.

وتشير المصادر إلى أن نشأة الحافظ ابن حجر كانت برغم ذلك - في غاية العفة والصيانة والرياسة، وأن الخروبيّ المذكور لم يأل جهداً في رعايته والعناية بتعليمه فكان يستصحبه معه عند مجاورته في مكة، وظل يرعاه إلى أن مات سنّة ٧٨٧هـ وكان الحافظ ابن حجر قد راهق ولم تعرف له صبوة ولم تضبط له زلّة.

ولم يدخل الكُتّاب حتى أكمل خمس سنين فأكمل حفظ القرآن الكريم

وله تسع سنين ومن الذين قرأ عليهم في المكتب شمس الدين بن العلاف الذي ولي حسبة مصر وقتاً وغيره.

وأكمل حفظه للقرآن على صدر الدين محمد بن محمد بن عبد الرزاق السفطي، وكان الاتجاه الثقافي السائد آنذاك يقتضي من الذي يستظهر القرآن أن يصلي بالناس إماماً في صلاة التراويح في ليالي شهر رمضان، غير أن هذه الفرصة لم تتهيأ لابن حجر الصّبي النّابه الذي حفظ القرآن ولم يزل في التاسعة من عمره، وهذه في الحقيقة مسألة شرعية حيث لا تجزئ صلاة المؤتمين إن لم يكن إمامهم بالغاً، ومع الاختلاف النسبي في تحديد سن البلوغ، فإن السنّة الثانية عشرة من عمر الصبي كانت تتيح له على ما يظهر أن يصلي إماماً بالمسلمين إن هو حفظ القرآن الكريم، فكان عليه أن ينتظر بلوغ هذه السن.

وفي أوّل سنة ٧٨٣ اشتغل بالإعادة، وفي سنّة ٧٨٥ أكمل الحافظ ابن حجر اثنتي عشرة سنة من عمره، ومن حسن حظه أن يكون متواجداً حينئذ مع وصية الزكي الخرّوبي في مكة في تلك السنة فصلى التراويح هناك.

ويمكن تصور بوادر نبوغه وشجاعته، فبقدر ما كانت مفخرة له كصبي يتقدّم إماماً بالمسلمين في بيت الله الحرام فإنها كانت لحظة حاسمة وحرجة اجتازها بثبات وحسن أداء، فكانت الخيرة له في ذلك كما قال، وكان الحج يومئذ يوم الجمعة فحج وجاور في الحرم الشريف ثم صلّى بعد ذلك بالقدس.

ويظهر من استقراء تراجم الذين عاشوا في عصر الحافظ ابن حجر أن تقليداً ثقافيًّا كان يسود بين أوساط التلاميذ الذين يدخلون بالكتّاب وذلك بإلزام التلاميذ بالتدرج في حفظ بعض مختصرات العلوم

والكتب وسماع بعضها الآخر، وهي التي اتفق العلماء آنذاك اعتبارها أساساً في بناء ثقافة طلاب العلم، وكان حفظها أو سماعها يتم بإشراف أساتذة كفاة بارزين في حقول اختصاصهم أو ما يقرب منها.

وإذا كانت ثقافة الحافظ ابن حجر تقليدية في أسلوبها فهي ليست كذلك في مكوّناتها، نظراً لقائمة الكتب المهمة التي كوّنت ثقافته بادئ ذي بدء.

وبعد أن حفظ القرآن الكريم ظهرت مخايل الذكاء الفطري جلية عليه ما لبث أن استكملها بالتتبع والتحصيل حتى صار حافظ عصره وشيخ الإسلام.

وحفظ بعد رجوعه مع الخروبي إلى مصر سنّة ٧٨٦ " عمدة الأحكام " للمقدسي، و " الحاوي الصّغير " للقزويني و " مختصر ابن الحاجب " الأصلي في الأصول، و " ملحة الإعراب " للهروي، و " منهج الأصول " للبيضاوي وألفيّة العراقي وألفيّة ابن مالك، والتنبيه في فروع الشافعية للشيرازي وتميز بين أقرانه بسرعة الحفظ فأشار مترجموه إلى أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد، وكان يحفظ الصحيفة من الحاوي الصغير في ثلاث مرات يصححها ويقرؤها على نفسه ثم يقرؤها أخرى ثم يعرضها حفظاً، وكانت له طريقته الخاصة في الحفظ، حدث عنها تلامذته فهو لم يكن يحفظ بالدرس، وإنما بالتأمّل، وصرف همته نحو ما يروم حفظه، وقد وصف السّخاوي هذه الطريقة بأنها طريقة الأذكياء.

وسمع " صحيح البخاري " سنة ٧٨٥ هـ على مسند الحجاز عفيف الدين عبد الله النشاوري، وكأنه نسي تفاصيل سماعه منه، لكنه كان

يتذكر أنه لم يسمع جميع الصحيح، وإنما له فيه إجازة شاملة وقد بين ذلك ابن حجر بقوله: " والاعتماد في ذلك على الشيخ نجم الدين المرجاني فإنه أعلمني بعد دهرٍ طويل بصورة الحال فاعتمدت عليه وثوقاً به ".

وقرأ بحثاً في عمدة الأحكام على الحافظ الجمال بين ظهيرة عالم الحجاز سنة ٧٨٥هـ، وكان عمره اثنتي عشرة سنة.

واجتهد في طلب العلم فاهتم بالأدب والتاريخ وهو ما يزال في المكتب فنظر في التواريخ وأيام الناس، واستقر في ذهنه شيء من أحوال الرواة، وكان ذلك بتوجيه رجل من أهل الخير سماه ابن حجر للسخاوي إلا أن السخاوي نسيه.

وسمع في فتوته من المُسنِد نجم الدين أبي محمد عبد الرحيم بن رزين بن غالب " صحيح البخاري " بقراءة الجمال بن ظهيرة سنة ست وثمانين وسبعمائة بمصر، وفاته شيء يسير، كما سمع الصحيح أيضاً من أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك الغزي وغيرهما.

وبلغ به الحرص على تحصيل العلم مبلغاً جعله يستأجر أحياناً بعض الكتب، ويطلب إعارتها له، يبرز في هذا المجال من بين شيوخه بدر الدين البشتكي الشاعر المشهور الذي أعاره جملة من الكتب منها كتاب " الأغاني " لأبي الفرج الأصبهاني وغيره.

ويبدو من خلال الاستقراء أن فتوراً حصل في نشاطه الثقافي استمر إلى أول سنة تسعين وسبعمائة، اشتغل في هذه المدة بالتجارة فنشأ في وسط تجاري لأن جده وأعمامه كانوا تجاراً، وكان وصيه الخروبيّ رئيساً للتجار في مصر.

ولعل لموت الخرّوبي سنة ٧٨٧هـ أثراً في فتور ابن حجر واشتغاله بالتجارة حيث فقد من كان يحثه على الاشتغال بالعلم، وهو في مرحلة يحتاج فيها إلى ذلك، كما ترتب عليه أن يكفل نفسه وينهض بأعباء الحياة، وقد يتضح ذلك من قول السخاوي، ولو وجد من يعتني به في صغره لأدرك خلقاً ممن أخذ عن أصحابهم.

في سنة ٧٩٠ هـ أكمل السّابعة عشرة من عمره، وحفظ فيها القرآن الكريم وكتباً من مختصرات العلوم، وقرأ القراءات تجويداً على الشهاب أحمد الخيوطي، وسمع صحيح البخاري على بعض المشايخ كما سمع من علماء عصره البارزين واهتم بالأدب والتاريخ.

وقد لازم حينئذ أحد أوصيائه العلامة شمس الدين محمد بن القطان المصري، وحضر دروسه في الفقه والعربية والحساب وغيرها، وقرأ عليه شيئاً من الحاوي الصغير فأجاز له ثم درس ما جرت العادة على دراسته من أصل وفرع ولغة ونحوها وطاف على شيوخ الدراية.

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره نظر في فنون الأدب، ففاق أقرانه فيها حتى لا يكاد يسمع شعراً إلا ويستحضر من أين أخذ ناظمه، وطارح الأدباء.

وقال الشعر الرّائق والنثر الفائق، ونظم المدائح النبوية والمقاطيع.

وتمثل سنة ٧٩٣ منعطفاً ثقافيًّا في حياة ابن حجر، فمن هذه الثقافة العامة والسعة، واجتهاده في الفنون التي بلغ فيها الغاية القصوى أحس بميل إلى التخصص فحبّب الله إليه علم الحديث النبوي فأقبل عليه بكليته.

وأوضحت المصادر أن بداية طلبه الحديث كان في سنة ٧٩٣ هـ

وغير أنه لم يكثر إلا في سنة ٧٩٦هـ وكتب بخطه: ".. رفع الحجاب، وفتح الباب، وأقبل العزم المصمم على التحصيل، ووفق للهداية إلى سواء السبيل " فكان أن تتلمذ على خيرة علماء عصره.

وكان شيخه في الحديث زين الدين العراقي الذي لازمه عشر سنوات، وحمل عنه جملة نافعة من علم الحديث سنداً ومتناً وعللاً واصطلاحاً، فقرأ عليه ألفيته وشرحها فنون الحديث وانتهى منهما في رمضان سنة ٧٩٨هـ بمنزل شيخه المذكور بجزيرة الفيل على شاطئ النيل، كما قرأ عليه نكته على ابن الصلاح في مجالس آخرها سنة ٧٩٩هـ، وبعض الكتب الكبار والأجزاء القصار، وحمل جملة مستكثرة من " أماليه " واستملى عليه بعضها وهو أول من أذن له بالتدريس في علوم الحديث عام ٧٩٧هـ.

وقرأ على مُسْنِدي القاهرة ومصر الكثير في مدة قصيرة فوقع له سماع متصل عال لبعض الأحاديث.

وكانت أسرة الحافظ ابن حجر تجمع بين الاشتغال بالتجارة والاهتمام بالعلم، فكان عم والده فخر الدين عثمان بن محمد بن علي الذي عرف بابن البزاز وبـ " ابن حجر " قد سكن ثغر الإسكندرية وانتهت إليه رئاسة الإفتاء هناك على مذهب الإمام الشافعي وتفقه به جماعة منهم الدّمنهوري، وابن الكويك، وكان له ولدان هما ناصر الدين أحمد، وزين الدين محمد، وكانا من الفقهاء.

أما جده قطب الدين محمد بن محمد بن علي فلقد كان بارعاً رئيساً تاجراً، حصل على إجازات من العلماء، وأنجب أولاداً منهم كمال الدين، ومجد الدين، وتقيّ الدين وأصغرهم وليّ الدين ثم نور الدين علي، وهو والد ابن حجر الذي انصرف من بينهم لطلب العلم أما

إخوته فكانوا تُجاراً.

ويبدو من خلال سيرة نور الدين على أنه مع اشتغاله بالتجارة عكف على الدرس وتحصيل العلوم فتفقه على مذهب الإمام الشافعيّ وحفظ الحاوي الصغير، وأخذ الفقه عن محمد بن عقيل وأجازه، وسمع من أبي الفتح بن سيد الناس وطبقته وله استدراك على الأذكار للنووي فيه مباحث حسنة، وعدّة دواوين شعر منها ديوان الحرم فيها مدائح نبوية، وكان معنيًّا بالنظم ذا حظ جيّد في الأدب.

وقال ابن حجر عن أبيه: " لم يكن له بالحديث إلمام ونظمه كثير سائر " ووصفته المصادر بالعقل والدّيانة والأمانة ومكارم الأخلاق، وصحبة الصّالحين، ونوّهت بثناء ابن القطان وابن عقيل والوليّ العراقي عليه، وناب في القضاء، وأكثر من الحج والمجاورة وصنف، وأجيز بالإفتاء والتدريس والقراءات السبع وتطارح مع ابن نباتة المصري والقيراطي، وتبادل معهما المدائح.

كان مولده في حدود سنة ٨٢٠ هـ في رجب سنة ٧٧٧ هـ.

أما والدته فهي تجار ابنة الفخر أبى بكر بن شمس محمد بن إبراهيم الزفتاوي، أخت صلاح الدّين أحمد الزفتاوي الكارمي صاحب القاعة الكائنة بمصر تجاه المقياس.

وكانت له أخت، ترجم لها في " إنباء الغمر " و " المجمع المؤسس " وهي ست الركب بنت علي بن محمد بن محمد بن حجر، وكانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء، أثنى عليها وقال: " كانت أمي بعد أمي، أصبت بها في جمادى الآخرة من هذه السنّة " أي سنة ٧٩٨هـ.

وذكر السّخاوي تحصيلها الثقافي وإجازتها، وزواجها، وأولادها كما ذكر الحافظ ابن حجر شيوخها وإجازتها من مكة ودمشق وبعلبك

ومصر وقال: " وتعلّمت الخط وحفظت الكثير من القرآن، وأكثرت من مطالعة الكتب فمهرت في ذلك جدّاً.. وكانت بي بارة رفيقة محسنة، وقد رثاها أخوها الحافظ ابن حجر في قصيدة، وكان له أخ من أمه اسمه عبد الرحمن بن الشهاب أحمد بن محمد البكري، ترجم له في إنبائه وقال: إنه مهر وحصّل مالاً أصله من قبل أمه - وهي والدتي - فقدر الله موته فورثه أبوه.

تزوّج الحافظ ابن حجر عندما بلغ عمره خمساً وعشرين سنة، وذلك في سنّة ٧٩٨ من أنس ابنة القاضي كريم الدين عبد الكريم بن عبد العزيز ناظر الجيش، وتنتمي أنس إلى أسرة معروفة بالرئاسة والحشمة والعلم.

وكان ابن حجر حريصاً على نشر الثقافة والعلم بين أهل بيته وأقاربه كحرصه على نشر العلم بين الناس، وسيتضح ذلك في دراسة جهوده في التدريس وعقده لمجالس الإملاء.

فأسمع زوجته من شيخه حافظ العصر عبد الرحيم العراقي الحديث المسلسل بالأولية، وكذا أسمعها إياه من لفظ العلامة الشرف ابن الكويك، وأجاز لها باستدعاء عدد من الحفاظ فيهم أبو الخير بن الحافظ العلائي، وأبو هريرة عبد الرحمن بن الحافظ الذهبي، ولم تكن الاستدعاءات بالإجازة لها لتقتصر على المصريين بل من الشاميين والمكيين واليمنيين، وكان الحافظ ابن حجر في حالة الاستدعاء لها بدون أسماء من ولدن من بناتها اللاتي ولدن تباعاً.

وحجت في صحبة زوجها في سنة ٨١٥ هـ كما حجت وجاورت بعد ذلك وحدثت بحضور زوجها، وقرأ عليها الفضلاء، وكانت تحتفل بذلك وتكرم الحاضرين، وقد خرج لها السخاوي أربعين حديثاً عن

أربعين شيخاً، وقرأها عليها بحضور زوجها، وكان الحافظ ابن حجر قد أسلف لها بالإعلام بذلك على سبيل المداعبة بقوله: قد صرت شيخة إلى غير ذلك، وكانت كثيرة الإمداد للعلامة إبراهيم بن خضر بن أحمد العثماني العلامة المنفس الذي كان يقرأ لها " صحيح البخاري " في رجب وشعبان من كل سنة، وتحتفل يوم الختم بأنواع من الحلوى والفاكهة، ويهرع الكبار والصغار لحضور ذلك اليوم قبيل رمضان بين يدي زوجها الحافظ، ولما مات الحافظ ابن خضر قرأ لها سبطها يوسف بن شاهين، ولم تضبط لها هفوة ولا زلة.. وكان زوجها يكن لها الاحترام الكبير كما كانت هي عظيمة الرعاية له. فولدت له عدة بنات زين خاتون وفرحة، وعالية، ورابعة، وفاطمة، ولم تأت منه بذكر، وكانت كلما حملت ذكراً ولد قبل أوانه ميتاً.

وتمر السنوات ثقيلة متباطئة، وتتدافع في نفسه أمور متنافرة يحترم أم أولاده ويرعاها، غير أنه شاء الله لها أن لا تلد إلا إناثاً، أما الذكور فيموتون، بيد أنه أحب أن يكون له ولد، فاختار التسري، وكانت لزوجته جارية يقال: إن اسمها خاص نزل، فأظهر غيظاً بسبب تقصيرها، وأقسم بأن لا تقيم بمنزله فبادرت أنس لبيعها، فأرسل شمس الدين بن الضياء الحنبلي فاشتراها له بطريق الوكالة وتزوّجها في مكان بعيد عن منزله، فحملت بولده الوحيد بدر الدين بن المعالي محمد المولود في الثامن عشر من صفر سنة ٨١٥ هـ وكانت العقيقة في منزل أنس، ولم تشعر بذلك إلا قبل انفصال الولد عن الرضاع، فلما علمت أنس ذهبت هي وأمها إلى مكان وجود الولد وأمه وأحضرتها معها إلى منزلها وأخفت أمرهما. ولما حضر الحافظ ابن حجر استجوبته زوجته أنس فما اعترف ولا أنكر بل روى بما يفهم

منه الإنكار، ثم قامت فأخرجت الولد وأمه فأسقط في يده.

وعاتبته عتاباً مرًّا، فاعتذر بميله للأولاد الذكور، ودعت عليه أن لا يرزق ولداً عالماً، فتألم لذلك وخشي من دعائها، وقال لها: أحرقت قلبي أو شيئاً من هذا القبيل؛ لأنها كانت مجابة الدّعاء.

وبعد وفاة الحافظ ابن حجر أرسل لها علم الدين البلقيني على يد ولده أبي البقاء يطلب الزواج منها، وقيل: إنها لم تكن تأبى ذلك لكن عصم الله - كما قال السخاوي: ببركة شيخنا - فلم تتزوّجه.

كما تزوج الحافظ ابن حجر أرملة الزين أبي بكر الأمشاطي بعد وفاته، وذلك عند مجاورة أم أولاده سنة ٨٣٤هـ ورزق منها في رجب سنة ٨٣٥ ابنة سماها آمنة، لم تعش طويلاً حيث ماتت في شوال ٨٣٦هـ، وبموتها طلقت أمها لأنه علّق طلاقها عند سفره إلى آمد على موتها. كما تزوج الحافظ ابن حجر من ليلى ابنة محمود بن طوعان الحلبية عندما سافر مع الأشرف سنة ٨٣٦هـ إلى آمد. وكان زواجه منها في حلب، واستمرت معه إلى أن سافر من حلب ففارقها دون أن يعلمها بالطلاق، لكن أسرّه إلى بعض خواصه، والتمس منه ألا يعلمها بذلك، وكان يريد أن يختبر ولاءها، ولأنها قد لا تطيق أن تترك حلب وتسافر معه إلى مصر، ثم راسل بعض أصدقائه الحلبيين في تجهيزها إن اختارت ويعلمها بأن الذي يحمله على الطلاق هو الرفق بها لئلا تختار الإقامة بحلب أو يحصل لها نصيبها فلا تتضرّر، وجاء في الكتاب الذي قرأه السخاوي بخطه وصفه لها بأنها نعم المرأة عقلاً وحسن خلق وخُلق ويعدها بكل جميل وأنها إن قدمت ينزلها أحسن المنازل.. فامتثلت إشارته وتجهزت حتى قدمت عليه إلى مصر.. واستمرت معه حتى مات، وكان قد أسكنها في بيت خاص.. ويأتي إليها في يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، ولم

يرزق منها أولاداً، وكان شديد الميل إليها حتى قال فيها شعراً.

أما أولاده فهم خمس بنات وولد واحد، وهم: زين خاتون، وفرحة، وعالية، ورابعة وفاطمة وبدر الدين محمد.

فكانت " زين خاتون " هي البكر، ومولدها في ربيع الآخر سنة ٨٠٢، فاعتنى بها واستجاز لها في سنة ولادتها وما بعدها خلقاً وأسمعها على شيوخه كالعراقي والهيثمي وأحضرها على ابن خطيب داريا، ثم تزوّجها الأمير شاهي العلائي الكركي الذي صار داوداراً عند المؤيد مدة، فولدت له عدة أولاد ماتوا كلهم في حياة أمهم، ولم يتأخر من أولادها إلاّ أبو المحاسن يوسف بن شاهين المعروف كسبط ابن حجر، وكانت قد تعلمت القراءة والكتابة وماتت - وهي حامل - بالطاعون سنة ٨٣٣ هـ. وأما " فرحة " فكان مولدها في رجب سنة ٨٠٤، واستجيز لها مع أمها، وتزوجها شيخ الشيوخ محب الدين بن الأشقر الذي ولي نظر الجيش وكتابة السّر، وكان أحد الأعيان في الديار المصرية فولدت له ولداً مات صغيراً في حياة أمه التي كانت وفاتها سنّة ٨٢٨ هـ بعد أن رجعت من الحج مع زوجها موعوكة. وأما " عالية " فكان مولدها سنة ٨٠٧هـ واستجيز لها جماعة وماتت هي وأختها فاطمة في الطّاعون سنة ٨١٩ مع من مات من أفراد أسرة أبويهما. وأما " رابعة " فكان مولدها سنة ٨١١ وأسمعها والدها علي المراغي بمكة سنة ٨١٥هـ وأجاز لها جمع من الشاميين والمصريين وتزوجها الشهاب أحمد بن محمد بن مكنون، واستولدها بنتاً سماها " عالية " ماتت في حياتيهما، ومات عنها زوجها سنّة ٨٣٠ هـ فتزوجها المحب بن الأشقر حتى ماتت عنه في سنة ٨٣٢هـ، وعمل صداقها في أرجوزة.

أما ولده الوحيد بدر الدين أبو المعالي محمد فكان والده حريصاً على

تعليمه وتهذيبه، فحفظ القرآن وصلّى بالناس كما كانت العادة جارية في سنة ٨٢٦، وأسمعه الحديث على الواسطي وجماعة وأجاز له باستدعاء والده منذ مولده سنة ٨١٥هـ فما بعد عدد من كبار المسندين ذكرهم والده في معجم شيوخه.

وبلغ من حرصه واهتمامه به بعد أن صنف كتابه:

" بلوغ المرام من أدلة الأحكام " لأجله، لكنه لم يحفظ إلا اليسير منه وكتب عن والده كثيراً من مجالس الإملاء وسمع عليه شيئاً كثيراً واشتغل بأمر القضاء والأوقاف مساعداً لوالده، حتى صارت له خبرة بالمباشرة والحساب واشتدت محبة والده له.

وولي في حياة أبيه عدة وظائف أجلها مشيخة البيبرسية وتدريس الحديث بالحسينية ناب عنه فيهما والده، والإمامة بجامع طولون وغير ذلك.

وقد وصفه ابن تغري بردي بالجهل، وسوء السيرة، ولم يرض ذلك السخاوي فرد عليه مُفيداً بأنه كان حسن الشكالة متكرّماً على عياله قل أن يكون في معناه، لكن السخاوي أشار في موضوع آخر إلى محنة الحافظ ابن حجر بسبب ولده وما نسب إليه من التصرف في أموال الجامع الطولوني بالاشتراك مع آخرين، واحتجز رهن التحقيق، وكان والده في ضيق صدر زائد وألم شديد بسببه وتأوّه كثيراً وكل يوم يسمع من الأخبار ما لم يسمعه بالأمس، وكان يتوجه إليه في يوم الجمعة يوماً أو أكثر إلى المكان الذي يكون فيه فيرجع.. وهو مسرور لما يرى من ثبات ولده وقوة قلبه وشجاعته وانتظام كلامه ومهارته، إلى أن تبين أن ما أشيع عنه مجرد اتهام، ولذلك عمل الحافظ ابن حجر جزءاً سماه " ردع المجرم عن سب المسلم "

ويبدو أن القاضي ولي الدين السفطي كان له دور مهم في محنة الحافظ ابن حجر بسبب ما كان بينهما من المنافسة على القضاء فكانت هذه الحادثة سبباً في زهد الحافظ ابن حجر في القضاء.

ابن حجر المحدث وخطيب الأزهر:

تولى ابن حجر الخطابة في عدة مساجد من أكبر المساجد بالقاهرة مثل الجامع الأزهر وجامع عمرو وغيرهما من المساجد الكبرى بالقاهرة فقد كان متبحراً في العديد من العلوم، وكان يفد إليه طلاب العلم وأهل الفضل من سائر الأنحاء، وكان يتسم بالحلم والتواضع والصبر كثير الصيام والقيام.

وكان مرجعاً في الحديث النبوي، حتى لقب بلقب " أمير المؤمنين " في الحديث وهذا اللقب لا يظفر به إلا أكبر المحدثين الأفذاذ وقد حبب إلى ابن حجر الحديث وأقبل عليه بكليته وطلبه من سنة ثلاث وتسعين ولكنه لم يلزم الطلب إلا من سنة ست وتسعين فعكف على الزين العراقي وتخرج به وانتفع بملازمته، وتحول إلى القاهرة فسكنها قبيل القرن وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية وأخذ عن الشيوخ والأقران وأذن له جل هؤلاء في الإفتاء والتدريس.

وتصدر لنشر الحديث وقصر نفسه عليه مطالعة وقراءة وإقراء وتصنيفاً وإفتاء وزادت تصانيفه التي معظمها في فنون الحديث وفيها من فنون الأدب والفقه - على مائة وخمسين تصنيفاً وقد عرف ابن حجر بالحفظ وكثرة الاطلاع والسماع وبرع في الحديث وتقدم في جميع فنونه وأثنى عليه شيوخه في هذا الشأن وقد سبق أنه ولي تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية وتدريس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة ثم تدريس الشافعية بالمؤيدة الجديدة ومشيخة البيبرسية في

دولة المؤيد وتدريس الفقه بالمدرسة الصلاحية المجاورة للإمام الشافعي، كما تولى الخطابة بالجامع الأزهر وبين التدريس والإفتاء ولي منصب القضاء، وكانت أول ولايته القضاء في السابع والعشرين من المحرم سنة سبع وعشرين وثمانمائة بعد أن امتنع أولاً لأنه كان لا يؤثر على الاشتغال بالتأليف والتصنيف شيئاً غير أن ابن حجر كما يقول السخاوي قد ندم على قبوله وظيفة القضاء ويقول ابن حجر: إن من آفة التلبس بالقضاء أن بعضهم ارتحل إلى لقائي وأنه بلغه تلبسي بوظيفة القضاء فرجع، وعزل عن القضاء وأعيد إليه مرات وكان آخر ولايته القضاء إذ عزل نفسه في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

شيوخه:

بلغ عدد شيوخه بالسّماع وبالإجازة وبالإفادة على ما بين بخطه نحو أربعمائة وخمسين نفساً، وإذا استثنينا الشيوخ الذين أجازوا عموماً فقد ترجم في " المجمع المؤسس " لأكثر من ستمائة شيخ، وذكر بعضهم أن عدد شيوخه بلغ ستمائة نفس سوى من سمع منه من الأقران.

واجتمع له من الشيوخ الذين يشار إليهم ويعول في حل المشكلات عليهم ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره؛ لأن كل واحد منهم كان متبحراً ورأساً في فنه الذي اشتهر به " فالبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع وابن الملقن في كثرة التصانيف والعراقي في معرفة علوم الحديث، ومتعلقاته، والهيثمي في حفظ المتون، واستحضارها والمجد الشيرازي في حفظ اللغة وإطلاعه عليها، والغماري في معرفة العربية ومتعلقاتها، وكذا المحب ابن هشام كان حسن

التصرف فيها لوفور ذكائه، وكان الغماري فائقاً في حفظها، والإيناس في حسن تعليمه وجودة تفهيمه، والعز بن جماعة في تفننه في علوم كثيرة بحيث كان يقول: أنا أقرأ في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها والتنوخي في معرفة القراءات وعلو سنده فيه.

شيوخ القراءات:

١ - إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المؤمن التنوخي الشيخ برهان الدين الشامي " ٧٠٩هـ - ٨٠٠هـ " بلغ عدد شيوخه ستمائة شيخ بالسماع وبالإجازة يجمعهم معجمه الذي خرّجه له الحافظ ابن حجر ونزل أهل مصر بموته درجة، قرأ عليه الحافظ ابن حجر من أول القرآن {الفاتحة} إلى قوله:{المفلحون} من سورة البقرة جامعاً للقراءات السبع ثم قرأ عليه الشاطبية تامة بسماعه لها على القاضي بدر الدين بن جماعة كما قرأ عليه الخلاصة للألفية من العربية نظم ابن عبد الله، فضلاً عن قراءته عليه " صحيح البخاري "، وبعض المسانيد، والكتب والأجزاء، وخرج له المائة العشرية، ثم الأربعين التالية لها، وأذن له بالإقراء سنة ٧٩٦هـ.

٢ - محمد بن محمد بن محمد الدمشقي الجزري " ٧٥١ - ٨٣٣ " شيخ القراءات وأجاز له ولوالده محمد وحثه على الرّحلة إلى دمشق، حدث بكتابه " الحصن الحصين " في البلاد اليمنية، ومهر الجزري في الفقه إلا أن فنّه القراءات.

شيوخ الحديث:

١ - عبد الله بن محمد بن محمد بن سليمان النيسابوري المعروف بالنشاوري " ٧٠٥ - ٧٩٠هـ " وهو أول شيخ سمع عليه الحديث

المسند فيما اتصل بعلمه، سمع عليه " صحيح البخاري " مع فوت بقراءة شمس الدين السلاّوي سنّة ٧٨٥هـ بالمسجد الحرام بسماعه على الرضي الطبري على أنه شك في إجازته منه، وترك التخريج والرواية بتلك الإجازة وقال: " وفي المصرح به غني عن المظنون والله المستعان ".

٢ - محمد بن عبد الله بن ظهيرة المخزوميّ المكيّ جمال الدين " ٧٥١ - ٨١٧ هـ " وهو أول من بحث عليه في فقه الحديث وذلك في مجاورته مع الخرّوبي بمكة سنة ٧٨٥ وهو ابن اثنتي عشرة سنة، حيث قرأ عليه بحثاً في عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني المقدسي، ثم كان أول من سمع بقراءته الحديث بمصر سنة ٧٨٦، وسمع عليه كتباً أخرى.

٣ - عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي أبو الفضل زين الدين الحافظ الكبير " ٧٢٥ - ٨٠٦هـ " وأول ما اجتمع به سنة ٧٨٦ فقرأ عليه ثم فتر عزمه، كما وضح فيما فات، ثم لازمه عشر سنوات وتخرج به وهو أوّل من أذن له بالتدريس في علوم الحديث في سنّة ٧٩٧هـ، وحضر مجالس إملائه، وقرأ عليه كتابه " الأربعين العشارية " من جمعه واستملى عليه الحافظ ابن حجر في غياب ولده أبي زرعة، وحمل عنه جملة مستكثرة من أماليه، وأذن له في تدريس ألفيته من الحديث، وشرحها، والنكت على ابن الصلاح، وسائر كتب الحديث وعلومه، ولقبه بالحافظ وعظمه ونوّه بذكره.

وللحافظ ابن حجر مع شيخه مراجعات كثيرة.

٤ - علي بن أبي بكر بن سليمان أبو الحسن الهيثمي " ٧٣٥ - ٨٠٧ " لازم العراقي أشد ملازمة وهو صهره، خرج زوائد مسند البزار

ثم مسند أبي يعلى الموصلي، ثم الطبرانيات، وجمع الجميع في كتاب واحد محذوف الأسانيد، ورتب الثقات لابن حبان على حروف المعجم، و " حلية الأولياء " على الأبواب، اقتصر منها على الأحاديث المسندة، ومات وهو مسودة فكمل ابن حجر ربعه، وصار الهيثمي لشدة ممارسته أكثر استحضاراً للمتون من شيخه العراقي حتى يظن من لا خبرة له أنه أحفظ منه، وليس كذلك؛ لأن الحفظ المعرفة. قال ابن حجر: كان يودني كثيراً وبلغه أنني تتبعت أوهامه في " مجمع الزوائد " فعاتبني فتركت ذلك " قرأ عليه قريناً لشيخه العراقي ومنفرداً.

شيوخ الفقه:

١ - إبراهيم بن موسى بن أيوب برهان الدين الأنباسي الورع الزاهد " ٧٢٥ - ٨٠٢ هـ " سمع من الوادي آشي وأبي الفتح الميدومي ومسند عصره ابن أميلة وطبقتهم، قال عنه ابن حجر: " سمعت منه كثيراً وقرأت عليه الفقه " وقال: " اجتمعت به قديماً وكان صديق أبي ولازمته بعد التسعين، وبحثت عليه في المنهاج وقرأت عليه قطعة كبيرة من أول الجامع للترمذي بسماعه على.. ابن أميلة " وله مصنفات، يألفه الصّالحون ويحبه الأكابر وفضله معروف.

٢ - عمر بن عليّ بن أحمد بن الملقن " ٧٢٣ - ٨٠٤هـ " كان أكثر أهل عصره تصنيفاً فشرح المنهاج عدة شروح، وخرّج أحاديث الرافعي في ست مجلّدات، وشرح " صحيح البخاري " في عشرين مجلدة انتقده ابن حجر عليه وعلى أشياء أخرى. قرأ عليه قطعة من شرحه الكبير على المنهاج.

٣ - عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني نزيل القاهرة أبو

حفص، شيخ الإسلام علم الأعلام مفتي الأنام " ٧٢٤ - ٨٠٥ هـ " أقدمه أبوه القاهرة وله اثنتا عشرة سنة فبهرهم بذكائه وكثرة محفوظه وسرعة إدراكه وعرض عليه محافظيه ورجع، غير أنه لم يرزق ملكة في التصنيف قد لازمه الحافظ ابن حجر مدة، وقرأ عليه الكثير من الروضة، ومن كلامه على حواشيها، وسمع عليه بقراءة البرماوي مختصر المزني، وكتب له خطه بالإذن بالإعادة وهو أول من أذن له في التدريس والإفتاء، وتبعه غيره.

٤ - محمد بن علي بن عبد الله القطان الفقيه " ٧٣٧ - ٨١٣هـ " مهر في فنون كثيرة، وتفقه عليه الحافظ ابن حجر، وقال عنه:

قرأت عليه وأجاز لي وذكر لي أنه قرأ الأصول على الشيخ نور الدين الأسنائي وكان ماهراً في القراءات والعربية والحساب ولازمه في الفقه، وقرأ عليه قسماً كبيراً من " الحاوي " وغيره.

٥ - عليّ بن أحمد بن أبي الآدمي الشيخ نور الدين، قال ابن حجر: قرأت عليه في الفقه والعربية، وكان على طريقة مثلى من الدين والعبادة والخير والانجماع ولازمه كثيراً.

شيوخ العربية:

١ - محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري المصري المالكي " ٧٢٠ - ٨٠٢هـ " وكان كثير الاستحضار واللغة مع مشاركة في الأصول والفروع، ودرس القراءات في الشيخونية وهو خاتمة من كان يشار إليه في القراءات العربية، سمع عليه الحافظ ابن حجر القصيدة المعروفة بالبردة بسماعه لها على أبي حيان بسماعه من ناظمها، وأجاز له غير مرّة كما أجازه مروياته عن غيره، وكان عارفاً بالعربيّة كثير الحفظ للشعر لا سيما الشواهد قوي المشاركة

في فنون الأدب.

٢ - محمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي الأصل بدر الدين البشتكي الأديب الفاضل المشهور " ٧٤٨ - ٨٣٠ هـ ".

حفظ كتاباً في فقه الحنفية ثم تحوّل شافعيًّا، ثم نظر في كتب ابن حزم، واشتغل في فنون كثيرة، وعني بالأدبيات فمهر فيها، لازمه ابن حجر بضع سنين، وانتفع بفوائده وكتبه وأدبياته وطارحه بأبيات وسمع منه الكثير من نظمه وأجاز له ولأولاده، وسبقت الإشارة إلى أنه كان يعيره بعض الكتب الأدبية، وقرأ عليه مجلساً واحداً من مقدمة لطيفة في علم العروض استفاد منه لمعرفة الفن بكماله، كما قرأ عليه البشتكى بعد ذلك في الحديث فهو شيخه، وتلميذه في آن واحد.

٣ - محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الشيخ العلامة مجد الدين أبو طاهر الفيروزآبادي " ٧٢٩ - ٨١٧ هـ " نظر في اللغة فكانت جل قصده في التحصيل فمهر فيها إلى أن فاق أقرانه، اجتمع به في زبيد، وفي وادي الخصيب وناوله جل " القاموس المحيط " وأذن له مع المناولة بروايته عنه وقرأ عليه من حديثه عدة أجزاء، وسمع منه المسلسل بالأولية بسماعه عن السبكي، وكتب له تقريضاً على بعض تخريجاته أبلغ فيه شيخه في أغلب العلوم.

هو محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن جماعة الحموي الأصل ثم المصري الشيخ عز الدين بن المسند شرف الدين " ٧٥٩ - ٨١٩ ".

أتقن فنون المعقول إلى أن صار هو المشار إليه في الدّيار المصرية في هذا الفن.. ولم يقرأ عليه كتاب من الكتب المشهورة إلا ويكتب

عليه نكتاً وتعقيبات واعتراضات بحسب ما يفتح له أخذ عنه في " شرح منهاج الأصول "، و " جمع الجوامع "، و " مختصر ابن الحاجب " وفي " المطول " لسعد الدين وأجاز له غير مرة ولأولاده، وقال البقاعي: وأجل من أخذ عنه المعقول والأدبيات علامة الدنيا الشيخ عز الدين بن جماعة، ولازمه طويلاً، وأخذ عنه علماً جزيلاً.

وقال السخاوي: إن ابن جماعة كان يقول: " أنا أقرأ في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها ".

ولازمه الحافظ ابن حجر في غالب العلوم التي كان يقرؤها من سنة ٧٩٠ هـ إلى أن مات سنة ٨١٩هـ ولم يخلف بعده مثله كما قال في " إنباء الغمر ".

مصنفاته:

قال الشمس السخاوي تلميذ الحافظ ابن حجر:

" وزادت تصانيفه التي معظمها في فنون الحديث وفيها من فنون الأدب والفقه، والأصلين وغير ذلك على مائة وخمسين تصنيفاً رزق فيها من السعد والقبول خصوصاً " فتح الباري بشرح البخاري " الذي لم يسبق نظره أمراً عجباً ".

بلغت مصنفاته أكثر من اثنين وثلاثين ومائة تصنيف، وها هي مرتبة على حروف المعجم.

١ - الآيات النيرات للخوارق المعجزات.

٢ - اتباع الأثر في رحلة ابن حجر.

٣ - إتحاف المهرة بأطراف العشرة.

٤ - الإتقان في فضائل القرآن.

٥ - الأجوبة المشرقة على الأسئلة المفرقة.

٦ - الأحكام لبيان ما في القرآن من إبهام.

٧ - أربعون حديثاً متباينة الأسانيد بشرط السّماع.

٨ - أسباب النزول.

٩ - الأسئلة الفائقة بالأجوبة اللائقة.

١٠ - الاستبصار على الطّاعن المُعثار.

١١ - الاستدراك على الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

١٢ - الاستدراك على الكاف الشاف.

٩٣ - الإصابة على تمييز الصحابة.

١٤ - أطراف المختارة.

٩٥ - أطراف الصحيحين.

١٦ - أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي.

١٧ - الإعجاب ببيان الأسباب.

١٨ - الإعلام بمن ذكر في البخاري من الأعلام.

١٩ - الإعلام لمن ولي مصر في الإسلام.

٢٠ - الإفصاح بتكميل النكت على ابن الصلاح.

٢١ - الإفنان في رواية القرآن.

٢٢ - إقامة الدلائل على معرفة الأوائل.

٢٣ - الألقاب.

٢٤ - أمالي ابن حجر.

٢٥ - الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع.

٢٦ - الإنارة في الزيارة.

٢٧ - إنباء الغمر بأنباء العمر.

٢٨ - الانتفاع بترتيب الدارقطني.

٢٩ - انتقاض الاعتراض.

٣٠ - الأنوار بخصائص المختار.

٣١ - الإيناس بمناقب العبّاس.

٣٢ - البداية والنهاية.

٣٣ - بذل الماعون بفضل الطّاعون.

٣٤ - البَسْط المبثوث في خبر البرغوث.

٣٥ - بلوغ المرام بأدلّة الأحكام.

٣٦ - بيان الفصل بما رجح فيه الإرسال على الوصل.

٣٧ - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه.

٣٨ - تبيين العجب بما ورد في فضل رجب.

٣٩ - تجريد التفسير.

٤٠ - تحرير الميزان.

٤١ - تحفة أهل التحديث عن شيوخ الحديث.

٤٢ - تحفة الظراف بأوهام الأطراف.

٤٣ - تخريج أحاديث الأذكار للنووي.

٤٤ - تخرج أحاديث الأربعين للنووي.

٤٥ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.

٤٦ - تخريج الأربعين النووية بالأسانيد العليّة.

٤٧ - التعريج على التدريج.

٤٨ - ترجمة النووي.

٤٩ - تسديد القوس في مختصر مسند الفردوس.

٥٠ - التشويق إلى وصل المهم من التعليق.

٥١ - تصحيح الروضة.

٥٢ - تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة.

٥٣ - التعريف الأوحد بأوهام من جمع رجال المسند.

٥٤ - تعريف أولي التقدير بمراتب الموصوفين بالتدليس.

٥٥ - تعريف الفئة بمن عاش مئة.

٥٦ - تعقبات على الموضوعات.

٥٧ - تعليق التعليق.

٥٨ - تقريب التقريب.

٥٩ - تقريب التهذيب.

٦٠ - تقريب المنهج بترتيب المدرج.

٦١ - تقويم السّناد بمدرج الإسناد.

٦٢ - التمييز في تخريج أحاديث الوجيز.

٦٣ - تهذيب التهذيب

٦٤ - تهذيب المدرج.

٦٥ - توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس.

٦٦ - توضيح المشتبه للأزدي في الأنساب.

٦٧ - التوفيق بتعليق التعليق.

٦٨ - الجواب الجليل عن حكم بلد الخليل.

٦٩ - الجواب الشافي عن السؤال الخافي.

٧٠ - الخصال المكفرة للذنوب المقدّمة والمؤخرة.

٧١ - الخصال الواردة بحسن الاتصال.

٧٢ - الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية.

٧٣ - الدرر.

٧٤ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.

٧٥ - ديوان شعر.

٧٦ - ديوان منظور الدرر.

٧٧ - ذيل الدرر الكامنة.

٧٨ - رد المحرم عن المسلم.

٧٩ - الرسالة العزية في الحساب.

٨٠ - رفع الإصر عن قضاة مصر.

٨١ - الزهر المطلول في بيان الحديث المعلول.

٨٢ - الزهر النضر في أنباء الخضر.

٨٣ - السبعة النيرات في سبعة أسئلة عن السيد الشريف في مباحث الموضوع.

٨٤ - سلوت ثبت كلوت: التقطها من ثبت أبي الفتح القاهري.

٨٥ - شرح الأربعين النووية.

٨٦ - شرح سنن الترمذي.

٨٧ - شرح مناسك المنهاج.

٨٨ - شرح منهاج النووي.

٨٩ - شفاء الغلل في بيان العلل.

٩٠ - الشمس المثيرة في معرفة الكبيرة.

٩١ - طبقات الحفاظ.

٩٢ - عرائس الأساس في مختصر الأساس للزمخشري.

٩٣ - عشاريات الأشياخ.

٩٤ - عشرة أحاديث عشارية الإسناد.

٩٥ - عشرة العاشر.

٩٦ - فتح الباري بشرح البخاري.

٩٧ - فضائل شهر رجب.

٩٨ - فهرست مروياته.

٩٩ - فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال، لرجال البخاري.

١٠٠ - الفوائد الجمة فيمن يجدد الدين لهذه الأمة.

١٠١ - قذى العين من نظم غريب البين.

١٠٢ - القصارى في الحديث.

١٠٣ - القول المسدد في الذب عن المسند.

١٠٤ - الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف.

١٠٥ - كشف السحر عن حكم الصلاة بعد الوتر.

١٠٦ - لذة العيش بجمع طرق الحديث " لأئمة من قريش ".

١٠٧ - لسان الميزان.

١٠٨ - المجمع المؤسس في المعجم المفهرس.

١٠٩ - مختصر البداية والنهاية لابن كثير.

١١٠ - مختصر تهذيب الكمال.

١١١ - المرجمة الغيثية عن الترجمة الليثية.

١١٢ - مزيد النفع بما رجح فيه الوقف على الرفع.

١١٣ - المسلسل بالأولية بطرق علية.

١١٤ - المسند المعتلى بأطراف الحنبلي.

١١٥ - المشتبه.

١١٦ - المطالب العالية من رواية المسانيد الثمانية.

١١٧ - المطالب العالية في زوائد الثمانية.

١١٨ - المقترب في بيان المضطرب.

١١٩ - المقصد الأحمد فيمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد.

١٢٠ - الممتع في منسك المتمتع.

١٢١ - المنحة فيما علق به الشافعي القول على الصحة.

١٢٢ - منسك الحج.

١٢٣ - النبأ الأنبه في بناء الكعبة.

١٢٤ - نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر.

١٢٥ - نزهة الألباب في الأنساب.

١٢٦ - نزهة القلوب في معرفة المبدل عن المقلوب.

١٢٧ - نزهة النظر بتوضيح نخبة الفكر.

١٢٨ - النكت الحديثية على كتاب ابن الصلاح.

١٢٩ - نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب.

١٣٠ - النيرات السبعة، ديوان ابن حجر.

١٣١ - هداية الرواة إلى تخريج المصابيح والمشكاة.

١٣٢ - هدي السّاري لمقدمة فتح الباري.

مرضه ووفاته:

بدأ المرض بحافظ الدنيا ابن حجر طيب الله مثواه في ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ، وفي الحادي عشر منه حضر مجلس الإملاء كما أملى في يوم الثلاثاء الخامس عشر من الشهر المذكور مجلساً وهو متوعّك، ثم تغير مزاجه وأصبح ضعيف الحركة.

وخشي الأطباء أن يناولوه مسهلاً لأجل سنّه فأشير " بلبن الحليب " فتناوله فلانت الطبيعة قليلاً وأدى ذلك إلى نشاط.. وصار مسروراً بذلك، ولكنه لم يشف من مرضه تماماً.. ثم عاد إلى الكتمان وتزايد الألم بالمعدة وكان يقول: هذا بقايا الغبن من سنة تسع وأربعين وتوابعها، ولم يستطع أن يؤدي صلاة الأضحى الذي صادف يوم الثلاثاء، وهو الذي لم يترك صلاة جمعة ولا جماعة، وصلى الجمعة التي تلي العيد، ثم توجه إلى زوجته الحلبية، وكأنه أحس بدنو أجله، فاعتذر عن انقطاعه عنها واسترضاها وكان ينشد:

ثاء الثلاثين قد أوهت قوى بـدني ::: فكيـف حـالي وثـاء الثمانينـا

وتردد إليه الأطباء، وهرع الناس من الأمراء والقضاة والمباشرين لعيادته، وقبل منتصف شهر ذي الحجة من سنة ٨٥٢ هـ أشيع أن شيخ الإسلام قد توعك فأنشأ يقول:

أشـكو إلى الله مـا بي ::: ومـا حوتـه ضـلوعي
قـد طـال السـقم جسـمي ::: بنـزلة وضـلوعي

وكان مرضه قد دام أكثر من شهر، حيث أصيب بإسهال ورمى دم " ديسانتري "، غير أن السخاوي يقول: " ولا أستبعد أنه أكرم بالشهادة فقد كان طاعون قد ظهر ".

ثم أسلم الروح إلى بارئها في أواخر شهر ذي الحجة من سنّة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

وترك وصيته التي نقل السخاوي نصها، مستقاة من سبطه يوسف ابن شاهين، ومما ورد فيها أنه أوصى لطلبة الحديث النبوي والمواظبين على حضور مجالس الإملاء بجزء من تركته.

وفي أواخر أيامه عاده قاضي القضاة سعد الدين بن الديري الحنفي فسأله عن حاله فأنشده أربعة أبيات من قصيدة لأبي القاسم الزمخشري هي:

قرب الرحيل إلى ديـار الآخـرة ::: فاجعل إلهي خير عصـري آخـره
وارحم مبيتي في القبور ووحـدتي ::: وارحم عظامي حين تبقى نـاخرة
فأنـا المسـكين الـذي أيامـه ::: ولت بـأوزار غـدت متـواترة
فلئن رحمت فأنت أكـرم راحـم ::: فبحار جودك يـا إلهـي زاخـرة

وصلي عليه بمصلاة بكتمر المؤمن، حيث أمر السلطان جقمق بأن يحضر إلى هناك ليصلي عليه، وتقدم في الصلاة عليه الخليفة بإذن

من السلطان.

وحضر الشيوخ وأرباب الدولة وجمع غفير من الناس، وازدحموا في الصلاة عليه حتى حزر أحد الأذكياء من مشى في جنازته بأنهم نحو الخمسين ألف إنسان.

ومن شدة حب الناس، وإكرامهم له تصور البعض أن الخضر صلى عليه كما ذكر ذلك صاحب مفتاح السعادة، فقال: ومن جملة من صلّى عليه " الخضر عليه السلام رآه عصابة من الأولياء ".

وكان يوم موته عظيماً على المسلمين وحتى على أهل الذمة، وشيعته القاهرة إلى مدفنه في القرافة الصغرى، وتزاحم الأمراء الأكابر على حمل نعشه، ومشى إلى تربته من لم يمش نصف مسافتها قط، فدفن تجاه تربة الديلمي بتربة بني الخروبي بين مقام الشافعي ومقام سيدي مسلم السّلمي، وكانت وصيته خلاف ذلك.

وقيل: إن السماء أمطرت على نعشه مطراً خفيفاً فعد ذلك من النوادر.

ذكر من رثاه وما أحقه بقول ابن دريد في قصيدة طويلة:

إن المنية لم تتلف بها رجلا ::: بل أبلغت علمًا للدين منصوبًا
كان الزمان به تصفو مشاربه ::: والآن أصبح بالتكدير مقطوبًا
كلا وأيامه الغر التي جعلت ::: للعلم نورًا وللتقوى محاريًّا

وبقول غيره:

ذهب العليم بعيب كل محدث ::: وبكل مختلف من الإسناد
وبكل وهم في الحديث ومشكل ::: يعنى به علماء كل بلاد

وبقول غيره:

بكيت على فراقك كل يوم ::: وأمليت الجوار من الجفون

ولو كان البكـــاء بقـــدر شـــوقي ::: لملتـــه العيـــون مـــن العيـــون

وبقول غيره:

رزءٌ ألم فقلـــب الـــدهر في وهـــج ::: وأغفل الناس منسوب إلى الهـــوج

وللقلوب وجيـــب في مراكزهـــا ::: مهول فهو بتشقيق الصدور حجي

وللعيون انهمـــال كالغمـــام بكـــا ::: فكل فج به عـــال مـــن اللجـــج

يا واحد العصر يا من لا نظير له.. إذ كل شخص من الأمثال في لجج:

يا شيخ الإسلام يا مولى لقد خضعت ::: غلب الرجال لما تبدى من الحجج

يا بر حلم بحور العلم قد تركـــت ::: قلما سمعنا بـــداع، مقبـــل سمـــج

أصم أسماعنـــا لمـــا تـــلا ســـحرا ::: قد مات من هزم الأهوال حين نجي

قاضي القضاة المفدى من بني حجر ::: من خلقه ليس في شيء من الحرج

فلو رضي الدهر منا فدية عظمـــت ::: وحقـــك، جـــدنا فيـــك بـــالمهج

ومنهم العلامة الشهاب أبو الطيب أحمد بن محمد الحجازي الذي أنشد لفظه لنفسه قوله:

كـــل البريـــة للمنيـــة صـــابرة	:::	وقفوهـــا شـــيئا فشـــيئا ســـائره
والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن	:::	لم ترض كانت عند ذلك خاســـره
وأنا الذي راض بأحكـــام مضـــت	:::	عن ربنا الـــبر المهـــيمن صـــارده
لكن سئمت العيش من بعد الـــذي	:::	قد خلف الأفكـــار منـــا حـــائره
هو شيخ إســـلام المعظـــم قـــدره	:::	من كان أوحد عصـــره والنـــادره
قاضي القضاة العســـقلاني الـــذي	:::	لم ترفع الـــدنيا خصـــيما نـــاظره
وشهاب دين الله ذو الفضل الذي	:::	أربى على عدد النجـــوم مكـــاثره
لا تعجبـــوا لعلـــوه فـــأبوه مـــن	:::	قبل على في الـــدنا والآخـــره [1]

(١) انظر مقدمة كتاب التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) من نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ. ١٩٨٩م، ومقدمة كتاب " رفع الإصر عن قضاة مصر " تقديم الدكتور شاكر محمود عبد المنعم عن الحافظ ابن حجر، و " معجم المؤلفين " ٢٠/٢، " الرسالة المستطرفة " ١٢١ "، طبقات الحفاظ ٥٤٧، حسن المحاضرة، ٣٦٣/١ " ذيل تذكرة الحفاظ " ٣٢٦، " شذرات الذهب " ٢٧٠/٧، " الضوء اللامع " ٣٦/٢، " ذيل طبقات الحفاظ " ٣٨٠، " نظم العقيان " " ٤٥ "، " التاريخ المكلل " ٣٦٢، " طبقات الحفاظ " ٥٤٧، " مقدمة كتاب إنباء الغمر " ٧ "، " معجم طبقات الحفاظ " ٥٥، ٣٢١، " فهرس الفهارس " ١٢٠/١١، " الجامع في الرجال " ١٣٦، " الكنى والألقاب " ٢٦١/١، " البدر الطالع " ٨٧/١، " القلائد الجوهرية " ٣٣١، " مفتاح السعادة " ٢٠٩/١،
" المؤرخين في مصر " ١٧، " عقود الجوهر " ١٨٨، " كشف الظنون " ٧، ٨، ١٢،.. " إيضاح المكنون " ١٣/١، " الأعلام " ١٧٩/١، " هدية العارفين " ١٢٨/١.

جلال الدين السيوطي

أعــلام المؤرخــين

الإمام الحافظ المؤرخ
جلال الدين السيوطي

هو إمام المتأخرين، وعلم أعلام الدين، وخاتمة الحفاظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكربن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي، ولقب رحمه الله بجلال الدين. وكنيته أبو الفضل.

مولده: ولد رحمه الله بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة هجرية، فقد ولد رحمه الله في بيت عرف بالعلم والادب وسمو المكانة وعلو المنزلة، ولا عجب فقد كان أبوه، علمًا من الأعلام وفقيها من فقهاء الشافعية المرموقين، فقد ولي رحمه الله في مستهل حياته منصب القضاء في أسيوط ثم انتقل إلى مصر حيث أسند إليه بها منصب الإفتاء على مذهب الإمام الشافعي. وتوفي ولده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل من حفظ القرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم ولكن الله تعالى قد كلأه بعنايته وأحاطه برعايته فقيض له العلامة الكمال ابن الهمام، فكان رحمه الله يرعاه ويتابعه في تحفيظ القرآن وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

نشأ رحمه الله نشأة علمية منذ نعومة أظفاره، فقد كان ولده رحمه الله شديد الحرص على توجيهه الوجهة الصالحة إذ كان يحفظ القرآن الكريم في صغره ويستصحبه إلى دور العلم ومجالس القضاء ودروس الفقهاء وسماع الحديث. ويذكر المؤرخون الذين ترجموا له رحمه الله أن أباه قد طلب من الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني صاحب الفتح أن يدعو له بالبركة والتوفيق، وكان رحمه الله يرى في

الحافظ ابن حجر مثله الأعلى وكان يترسم خطاه ويحذو حذوه فيما بعد حتى قيل: إنه شرب من ماء زمزم بنية أن يجعله الله مثل ابن حجر فاستجاب الله سبحانه وتعالى له فكان من أكبر الحفاظ.

وكان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء، قوي الذاكرة، حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين حفظ عمدة الأحكام وشرحه لابن دقيق العيد ثم حفظ منهاج الإمام النووي في فقه الشافعية ثم منهاج البيضاوي في الأصول ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي. وعرض ذلك رحمه الله على طائفة من مشايخ الإسلام مثل البلقيني وعز الدين الحنبلي وشيخ الأقصراني فأجازه هؤلاء وغيرهم. ولم يدع رحمه الله من فروع المعرفة ولا نوعًا من أنواع العلم إلا وقد أدلى فيه بدلو وتلقاه عند أهله، فأخذ الفقه عن شيخ الشيوخ سراج الدين البلقيني وقد لازمه إلى أن توفي فلازم من بعده ولده علم الدين. أخذ الفرائض عن فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي، ولازم الشرف المناوي أبا زكريا محمد بن عبد الرؤوف شارح الجامع الصغير. وأخذ العلوم العربية عن الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي وكتب له تقريظًا على شرح ألفية ابن مالك. ولزم العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني وأخذ عن جلال الدين المحلي وعن المعز الكناني أحمد بن إبراهيم الحنبلي، وحضر على الشيخ سيف الدين الحنفي دروسًا عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشية عليه وتلخيص المفتاح في البلاغة، وقد أجيز بتدريس في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة، أي في سن الخامسة عشرة وأخذ أيضًا عن المجد بن السباع وعبد العزيز الوقائي الميقات، وأخذ الطب عن محمد بن إبراهيم الدواني الرومي. والمتتبع لنشأة السيوطي يجد أنه قد أخذ

الكثير من العلوم عن الكثير من المشايخ. وقد ذكر بعض أهل العلم ممن ترجموا له أن شيوخه قد وصلوا نحو ستمائة ولا غرابة في ذلك ولا عجب فإن السيوطي قد عاش حياته يأخذ العلم حيث وجده وعن كل من يلقاه وأنه أكثر من السفر والترحال في سبيل تحصيل العلم ورواية الحديث. وذكر أيضا في بعض الروايات أنهم مائة وخمسون شيخًا وشيخة وفي بعضها قارب عددهم الستمائة على ما ذكر آنفا.

قيامه بالتدريس:

كان الإمام السيوطي رحمه الله خير مؤدبي عصره وأفضل مدرسيه إذ اشتهر بالبراعة في الشرح والروعة في الإملاء ومن ثم شدت إليه الرحال من كل مكان فكان رحمه الله يدرس العربية في سن مبكرة إذ كان عمره وقت إجازته بالتدريس خمسه عشر عامًا فقط وهي قصيرة من أعمار العلماء الأعلام ثم شرع أيضًا في تدريس الفقة وإملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة أي بعد مباشرته تدريس العربية بنحو ست سنوات ثم شرع بعد ذلك يزاول التدريس والإملاء، في مختلف العلوم وشتى الفنون فقال متحدثا عن نفسه متحدثا بنعمة الله أنه رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير والفقه والحديث والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

وكان رحمه الله يقول أيضا: إنه بلغ الاجتهاد إذ قال: وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد وبحمد الله تعالى أقول ذلك متحدثًا بنعمة الله تعالى لا فخر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوحها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله.

مصنفاته:

لم يدع السيوطي فنًّا إلا وكتب فيه، وبدأ في التأليف في سن مبكرة إذ ذكر المترجمون له أنه شرع في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة هجرية وكان أول شيء ألفه في التفسير وهو تفسير للاستعاذة والبسملة وقد عرضه على شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فأجازه وكتب له تقريظًا حسنًا، ثم توالى بعد ذلك تأليفه. وقد اختلف الباحثون في عدد المصنفات التي أثرى بها الحافظ الجلال السيوطي المكتبة الإسلامية فمنهم من يرى أنها تبلغ إحدى وستين وخمسمائة وهو ما ذهب إليه فلوجل وأما ما ذهب إليه بروكلمان فقد عد له خمسة عشر وأربعمائة كتاب.

ولقد حدثنا رجل فاضل أنه ألف كتابًا للحافظ السيوطي تكلم عنه وترجم له وعد مصنفاته حتى بلغت ستاً وألف كتاب وهذا إن دل إنما يدل على سعة تبحره كما ذكرنا. وهنا أورد بعض مصنفات هذا الإمام الجليل. فمن أهم تصانيفه على سبيل المثال لا الحصر:

- إسعاف المبطأ برجال الموطأ.
- الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء.
- الأشباه والنظائر.
- الإتقان في علوم القرآن.
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير.
- الجامع الكبير.
- الحاوي للفتاوى.
- الحبائك في أخبار الملائك.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.
- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج.
- الروض الأنيق في فضل الصديق.
- العرف الوردي في أخبار المهدي.
- الغرر في فضائل عمر.
- ألفية السيوطي.
- الكاوي على تاريخ السخاوي (ألفه بسبب خصومته مع السخاوي).
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.
- المَدْرَج إلى المُدْرَج.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب.
- أسباب ورود الحديث.
- أسرار ترتيب القرآن.
- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب.
- إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين.
- إعراب القرآن.
- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر.
- تاريخ الخلفاء.
- تحذير الخواص من أحاديث القصاص.

- تحفة الأبرار بنكت الأذكار النووية.
- تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي.
- تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك.
- تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك.
- تنبيه الغبيّ في تبرئة ابن عربي.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة.
- ذم المكس.
- شرح السيوطي على سنن النسائي.
- صفة صاحب الذوق السليم.
- طبقات الحفّاظ.
- طبقات المفسرين.
- عقود الجمان في علم المعاني والبيان.
- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث.
- عين الإصابة في معرفة الصحابة.
- كشف المغطي في شرح الموطأ.
- لب اللباب في تحرير الأنساب.
- لباب الحديث.
- لباب النقول في أسباب النزول.

- ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين.
- مشتهى العقول في منتهى النقول.
- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين.
- مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة.
- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع.
- الفارق بين المصنف والسارق وهو أول كتاب فقهي حول الملكية الفكرية التي لم يتعرف عليها العالم إلا في عام ١٨٨٦م، من خلال اتفاقية برن لحقوق المؤلف.

وغير ذلك مما حوته كتب التراجم.

ثناء العلماء عليه:

لم أجد ترجم لهذا الإمام إلا وقد شهد له بالبراعة والتبحر، ولقد أثنى عليه شيوخه وأقرانه وتلاميذه والعلماء من بعده ممن قرأ كتبه. فيقول أبو الحسنات محمد محمد عبد الحلي اللكنوي في حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطي: وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره وأنه حقيق بأن يعد من مجددي الملة المحمدية في بدء المائة العاشرة وآخر التاسعة كما ادعاه بنفسه وشهد بكونه حفيًّا به ممن جاء بعده كعلي القارئ المكي في المرآة.

انقطاعه عن التدريس والقضاء والإفتاء:

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عدد من علماء عصره، كان ميدانها الحملات الشرسة في النقد اللاذع في الترجمة المتبادلة، ومن خصومه: البرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوجري، غير أن أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي اتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه. ولم يقف السيوطي مكتوف الأيدي في هذه الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها " مقامة الكاوي في الرد على السخاوي " نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام. وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له من اعتداء في الخانقاه البيبرسية أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها " المقامة اللؤلؤية "، ورسالة " التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس ". وقد تنبه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوبوه إلى هذا العالم الجليل من سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد أن يسترضي هذا العالم الجليل الذي لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل

السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرغه للعبادة والتأليف.

اعتزال السلاطين:

عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطانًا مملوكيًّا، وكانت علاقته بهم متحفظة، وطابعها العام المقاطعة وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، فقد ذهب يومًا للقاء السلطان الأشرف قايتباي وعلى رأسه الطيلسان - عمامة طويلة - فعاتبه البعض، فأنشأ رسالة في تبرير سلوكه أطلق عليها " الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان ". وفي سلطنة طومان باي الأول حاول هذا السلطان الفتك بالسيوطي، لكن هذا العالم هجر بيته في جزيرة الروضة واختفى فترة حتى عُزل هذا السلطان. وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة، فيردها ولا يقبل من أحد شيئًا، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألف في ذلك كتابًا أسماه " ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين ".

ريادة ثقافية في عصر العلماء:

كان السيوطي من أبرز معالم الحركة العلمية والدينية والأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، حيث ملأ نشاطه العلمي في التأليف مختلف الفروع في ذلك الزمان من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وطبقات ونحو ولغة وأدب وغيرها، فقد كان موسوعي الثقافة والاطلاع. وقد أعانه على

كثرة تأليفه انقطاعه التام للعمل وهو في سن الأربعين حتى وفاته، وثراء مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي لمدة ٤٥ سنة، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له مدة ٢٢ عامًا متواصلة، ولو وُزع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليوم الواحد ٤٠ ورقة، على أن القسم الأكبر من تأليفه كان جمعًا وتلخيصًا وتذييلا على مؤلفات غيره، أما نصيبه من الإبداع الذاتي فجِدّ قليل. وقد تمنى السيوطي أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة لعلمه الغزير، فيقول: " إني ترجيت من نعم الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم ". وزادت مؤلفات السيوطي على الثلاثمائة كتاب ورسالة، عدّ له بروكلمان ٤١٥ مؤلفًا، وأحصى له " حاجي خليفة " في كتابه " كشف الظنون " حوالي ٥٧٦ مؤلفًا، ووصل بها البعض كابن إياس إلى ٦٠٠ مؤلف. ومن مؤلفاته في علوم القرآن والتفسير: " الإتقان في علوم القرآن "، و " متشابه القرآن "، و " الإكليل في استنباط التنزيل "، و " مفاتح الغيب في التفسير "، و " طبقات المفسرين "، و " الألفية في القراءات العشر ".

أما الحديث وعلومه، فكان السيوطي يحفظ مائتي ألف حديث كما روى عن نفسه، وكان مغرمًا بجمع الحديث واستقصائه لذلك ألف عشرات الكتب في هذا المجال، يشتمل الواحد منها على بضعة أجزاء، وفي أحيان أخرى لا يزيد عن بضع صفحات.. ومن كتبه: " إسعاف المبطأ في رجال الموطأ "، و " تنوير الحوالك في شرح

موطأ الإمام مالك "، و " جمع الجوامع "، و " الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة "، و " المنتقى من شعب الإيمان للبيهقي "، و " أسماء المدلسين "، و " آداب الفتيا "، و " طبقات الحفاظ ". وفي الفقه ألف " الأشباه والنظائر في فقه الإمام الشافعي "، و " الحاوي في الفتاوي "، و " الجامع في الفرائض " و " تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع ". وفي اللغة وعلومها كان له فيها أكثر من مائة كتاب ورسالة منها: " المزهر في اللغة "، و " الأشباه والنظائر في اللغة "، و " الاقتراح في النحو "، و " التوشيح على التوضيح "، و " المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب "، و " البهجة المرضية في شرح ألفية ابن مالك ". وفي ميدان البديع كان له: " عقود الجمان في علم المعاني والبيان "، و " الجمع والتفريق في شرح النظم البديع "، و " فتح الجليل للعبد الذليل ". وفي التاريخ والطبقات ألف أكثر من ٥٥ كتابًا ورسالة يأتي في مقدمتها: " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة "، و " تاريخ الخلفاء "، و " الشماريخ في علم التاريخ "، و " تاريخ الملك الأشرف قايتباي "، و " عين الإصابة في معرفة الصحابة "، و " بغية الوعاة في طبقات النحاة "، و " نظم العقيان في أعيان الأعيان "، و " در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة "، و " طبقات الأصوليين ". ومن مؤلفاته الأخرى الطريفة: " منهل اللطايف في الكنافة والقطايف "، و " الرحمة في الطب والحكمة "، و " الفارق بين المؤلف والسارق "، و " الفتاش على القشاش "، و " الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ". وقد شاءت إرادة الله أن تحتفظ المكتبة العربية والإسلامية بأغلب تراث الإمام السيوطي، وأن تطبع غالبية كتبه القيمة وينهل من علمه الكثيرون.

وفاته ورثاؤه:

توفي رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة وتسعمائة في منزله بروضة المقياس عن عمر بلغ اثنين وستين عاما وكان له مشهد عظيم، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وصلي عليه بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة، وقيل: أخذ الناس قميصه وقبعته فاشترى بعض الناس قميصه من الناس بخمسة دنانير للتبرك به وباع قبعته بثلاثة دنانير لذلك أيضا.

وقد رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفي بقوله:

مات جلال الدين غيث الورى ::: مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى ::: ومرشد الضال بنفع يعود
فيا عيون انهملي بعده ::: ويا قلوب انفطري بالوقود
وأظلمي يا دنيا إذ حق ذا ::: بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفي ::: وحق للقائم فيك القعود
وحق للنور بأن يختفي ::: ولليالي البيض أن تبقى سود
وحق للناس بأن يحزنوا ::: بل حق أن كل بنفس يجود
وحق للأجيال خسرًا وأن ::: تطوى السماء طيًّا كيوم الوعود
وأن يفور الماء والأرض أن ::: تميد وعم المصاب الوجود
مصيبة حلت فحلت بنا ::: وأرثت نار اشتعال الوجود
صبرنا الله عليها وأولاده ::: نعيمًا حل دار الخلود [1]

(١) انظر مقدمة كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م، وكتاب روضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود - على محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية، وكتاب جلال الدين السيوطي لمصطفى الشكعة: - ط مطبعة الحلبي ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، وكتاب الحافظ جلال الدين

ابن كثير

الحافظ ابن كثير

أعــلام المؤرخــين

السيوطي لعبد الحفيظ فرغلي القرنـي: - سلسلة أعلام العرب - الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٠.

الحافظ ابن كثير

هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي.

ولد بقرية " مِجْدَل " من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل.

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفي أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة ٧٠٧ هـ، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: " وقد كان لنا شقيقًا، وبنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة ٧٥٠ هـ فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر " (١).

شيوخه:

تلقى الحافظ ابن كثير العلم على يد كثير من الشيوخ منهم:

شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله والحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله.

والحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله.

والشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ " ابن الشحنة ".

والشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري، رحمه الله والحافظ كمال الدين

(١) البداية والنهاية، ١٤/ ٣٢.

عبد الوهاب الشهير بـ " ابن قاضي شهبة " والإمام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الزملكاني، رحمه الله والإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى الشيباني، رحمه الله والإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي، رحمه الله والشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازي، رحمه الله والشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، رحمه الله وعفيف الدين إسحاق بن يحيى الآمدي الأصبهاني، رحمه الله والشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر، رحمه الله وأبو محمد عيسى بن المطعم، رحمه الله وجمال الدين سليمان بن الخطيب، قاضي القضاة ومحمد بن جعفر اللباد، شيخ القراءات وجمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسي، رحمه الله. وغيرهم الكثير.

ومن تلاميذه:

الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي، رحمه الله ومحمد بن محمد ابن خضر القرشي، رحمه الله وشرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي، رحمه الله ومحمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات، رحمه الله وابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، رحمه الله والإمام ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله والحافظ أبو المحاسن الحسَيني، رحمه الله.

ثناء العلماء عليه:

كان ابن كثير، رحمه الله، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومن بعدهم الثناء الجم.

فقد قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: " وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذى الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له

عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم " [١].

وقال عنه أيضًا في المعجم المختص: " الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال " [٢].

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: " صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل " [٣].

وقال العلامة ابن ناصر الدين: " الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين " [٤].

وقال ابن تغري بردي: " لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفي " [٥].

وقال ابن حجر العسقلاني: " كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته " [٦].

وقال ابن حبيب: " إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير،

---

(١) طبقات الحفاظ للذهبي، ٤/ ٢٩، أحمد شاكر، عمدة التفسير، ١/ ٢٥.
(٢) المعجم المختص للذهبي.
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٨، وعمدة التفسير لأحمد شاكر (١/ ٢٦).
(٤) الرد الوافر.
(٥) النجوم الزاهرة (١١/ ١٢٣).
(٦) الدرر الكامنة.

وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير " [١].

وقال العيني: " كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة " [٢].

وقال تلميذه ابن حجي: " أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئًا كثيرًا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه " [٣].

وقال الداودي: " أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب " [٤].

مؤلفاته:

أ - في علوم القرآن:

١ - تفسير القرآن العظيم.

٢ - فضائل القرآن.

ب - في السنة وعلومها:

(١) شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢٣٢).
(٢) النجوم الزاهرة (١١/ ١٢٣).
(٣) شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢٣٢).
(٤) طبقات المفسرين.

٣ - أحاديث الأصول.

٤ - شرح صحيح البخاري.

٥ - التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل.

٦ - اختصار علوم الحديث.

٧ - جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن.

٨ - مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

٩ - مسند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

١٠ - الأحكام الصغرى في الحديث.

١١ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية.

١٢ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.

١٣ - مختصر كتاب " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.

١٤ - جزء في حديث الصور.

١٥ - جزء في الرد على حديث السجل.

١٦ - جزء في الأحاديث الواردة في فضل أيام العشرة من ذي الحجة.

١٧ - جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب.

١٨ - جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس.

جـ - في الفقه وأصوله:

١٩ - الأحكام الكبرى.

٢٠ - كتاب الصيام.

٢١ - أحكام التنبيه.

٢٢ - جزء في الصلاة الوسطى.

٢٣ - جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.

٢٤ - جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.

٢٥ - جزء في الرد على كتاب الجزية.

٢٦ - جزء في فضل يوم عرفة.

٢٧ - المقدمات في أصول الفقه.

د - في التاريخ والمناقب:

٢٨ - البداية والنهاية.

٢٩ - جزء مفرد في فتح القسطنطينية.

٣٠ - السيرة النبوية.

٣١ - طبقات الشافعية.

٣٢ - الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس.

٣٣ - مناقب ابن تيمية.

٣٤ - مقدمة في الأنساب.

وفاته ورثاؤه:

في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة توفي الحافظ ابن كثير بدمشق، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، رحمه الله.

وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه " كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية ".

وقد قيل في رثائه، رحمه الله:

لفقدك طـــلاب العلــوم تأســفوا ::: وجادوا بـــدمع لا يـــبير غزيـــر

ولو مزجوا ماء المـــدامع بالـــدما ::: لكان قليلا فيك يا بـــن كـــثير [1]

* * *

(١) مقدمة تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

ابن حــزم

أعــلام المؤرخــين

العلامة ابن حزم الأندلسي

في (مدينة) قرطبة الساحرة، إحدى مدن الأندلس وفي قصر أحد الوزراء، في أواخر شهر رمضان في عام ٣٨٤هـ، كان ميلاد طفل مبارك أصبح له بعد ذلك شأن كبير، فرح به والده فرحًا شديدًا، وشكر الله سبحانه وتعالى على نعمته وعطائه.

نشأ الغلام في قصر أبيه نشأة كريمة، فقد كان أبوه وزيرًا في الدولة العامرية وتعلم القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر العربي، وفنون الخط والكتابة، وتمر الأيام ويكبر الغلام، فيجعله أبوه في صحبة رجل صالح يشرف عليه، ويشغل وقت فراغه، ويصحبه إلى مجالس العلماء.. إنه: (علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) الشهير بابن حزم الأندلسي.

كانت أسرته لها مكانة مرموقة وعراقة في النسب، فـ(بنو حزم) كانوا من أهل العلم والأدب، ومن ذوي المجد والحسب، تولى أكثر من واحد منهم الوزارة، ونالوا بقرطبة جاهًا عريضًا.

وكان والد (ابن حزم) من عقلاء الرجال، الذين نالوا حظًّا وافرًا من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن في الكلام، ويقول: (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا).

وكانت هذه الثقافة الواسعة، والشخصية المتزنة العاقلة هي التي أهلت والد ابن حزم لتولي منصب الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر في أواخر خلافة بني أمية في الأندلس، وفي القصر عاش ابن حزم عيشة هادئة رغدة، ونشأ نشأة مترفة، تحوط بها النعمة، وتلازمها

الراحة والترف، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلى مال، وحوله الجواري الحسان ورغم هذه المغريات عاش ابن حزم عفيفًا لم يقرب معصية.. يقول في ذلك: (يعلم الله وكفى به عليمًا، أني بريء الساحة، سليم الإدام (أي: آكل حلالاً) صحيح البشرة، نقي الحجزة، وأني أقسم بالله أجل الأقسام، أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت إلى يومي هذا).

وتغيرت الأحوال؛ فقد مات الخليفة، وجاء خليفة آخر، فانتقل ابن حزم مع والده إلى غرب قرطبة بعيدًا عن الفتنة، ومن يومها والمحن تلاحق ابن حزم، فالحياة لا تستقرُّ على حال، فقد كشرت له عن أنيابها، وأذاقته من مرارة كأسها، بعدما كانت له نعم الصديق، واضطر(ابن حزم)إلى الخروج من قرطبة إلى (المَرِيَّة) سنة ٤٠٤هـ وبعدها عاش في ترحال مستمر بسبب السياسة واضطهاد الحكام له، وكان ابن حزم واسع الاطلاع، يقرأ الكثير من الكتب في كافة المجالات، ساعده على ذلك ازدهار مكتبات قرطبة بالكتب المتنوعة، واهتمام أهل الأندلس بالعلوم والآداب، واشتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسعة، فكان بحق موسوعة علمية أحاطت بالكثير من المعارف التي كانت في عصره في تمكن وإحاطة.

قال عنه أحد العلماء (أبو عبد الله الحميدي): كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفنِّنًا في علوم جمَّة عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين..

وبعد أن بلغ ابن حزم رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، طالب بضرورة الأخذ بظاهر النصوص في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان ابن حزم متنوع الكتابات، كتب في علوم القرآن

والحديث، والفقه والأديان، والرد على اليهود والنصارى، والمنطق.. وغيرها من العلوم، قال عنه أحد المؤرخين: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان (أي علوم اللغة) وزيادة حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار.. وقد بلغ ما كتبه ابن حزم أربعمائة مجلد، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريبًا، كما قال ابنه الفضل.. يقول عنه الإمام (أبو حامد الغزالي): وجدت في أسماء الله تعالى كتابًا ألفه (ابن حزم الأندلسي) يدل على عظيم حفظه وسيلان ذهنه.

شغل ابن حزم منصب الوزارة ثلاث مرات، وكان وفيًّا للبيت الأموي الحاكم في الأندلس، ومواليًا لهم، يعمل على إعادة الخلافة للدولة الأموية، ويرى أحقيتها في الخلافة، وبسبب ذلك كان يعرِّض نفسه للأسر أو السجن أو النفي، وقد دبر له خصومه المكائد، وأوقعوا بينه وبين السلطان حسدًا وحقدًا عليه، حتى أحرقت كتبه في عهد (المعتضد بن عباد) فقال ابن حزم في ذلك:

فإن تحرقوا القِرْطاس لا تَحْرِقُوا الذي تضمَّنه القرطاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي

يَسِيُر مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلتْ رَكَائبي ::: وَيَنْزِلُ إِنْ أنزل وُيدْفن في قبري

وقد منح الله ابن حزم ذاكرة قوية وبديهة حاضرة، فكان متواضعًا لله، شاكرًا له، يقول في ذلك: (وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وَهَبَكَ إياها ربُّك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمتَ وحفظتَ).

وكان عزيز النفس، واثق الكلمة أمام خصومه وأعدائه، لا ينافق

الحكام، ويرفض قبول هداياهم حتى لو سبب له ذلك الكثير من المتاعب، وكانت صفة الوفاء ملازمة له، فكان وفيًّا لدينه وإخوانه وشيوخه، ولكل من اتصل به.

وتفرغ ابن حزم للتأليف؛ فأخرج كتبًا كثيرة، مثل: (المحلَّى) في الفقه و(الفصل بين أهل الآراء والنحل) و(الإحكام في أصول الأحكام) و(جمهرة أنْسَاب العرب) و(جوامع السير) و(الرد على من قال بالتقليد) و(شرح أحاديث الموطأ) كما يعد كتاب (طوق الحمامة) من أشهر كتبه، وفيه الكثير من الشعر الذي قاله في مختلف المناسبات. وعاش هذا الفقيه في محراب العلم، يتصدى للظلم والجهل، ويجاهد مع ذلك هوى نفسه، وبعد حياة حافلة بالكفاح والعلم والصبر على الإيذاء، لقي ابن حزم ربه في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٤٥٦ هـ عن عمر يقارب إحدى وسبعين سنة، ويقف (أبو يوسف يعقوب المنصور) ثالث خلفاء دولة الموحدين أمام قبره خاشعًا ولم يتمالك نفسه، فيقول: كل الناس عيال على ابن حزم.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء والأئمة فقد قال عنه أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتابًا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد:كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

قال أبو عبد الله الحميدي:كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه،

مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمة، عاملا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديه أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام - وكان أحد المجتهدين:

ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل: (المحلى) لابن حزم [(١)].

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد:كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

ولابن حزم مصنفات جليلة منها:

١- أكبرها (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال).

٢- و(الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام).

٣- و(المحلى).

٤- و(المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار).

٥- (حجة الوداع).

٦- (قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي).

٧- (الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها).

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨ / ١٩٤.

٨- (الجامع في صحيح الحديث).

٩- (التلخيص والتخليص في المسائل النظرية).

١٠- (ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي).

١١- (مختصر الموضح) لأبي الحسن بن المغلس الظاهري.

١٢- (اختلاف الفقهاء الخمسة مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وداود).

١٣- (التصفح في الفقه).

١٤- (التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين).

١٥- (الإملاء في شرح الموطأ).

١٦- (الإملاء في قواعد الفقه).

١٧- (در القواعد في فقه الظاهرية).

١٨- (الإجماع).

١٩- (الفرائض).

٢٠- (الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي).

٢١- (الإحكام لأصول الأحكام).

٢٢- (الفصل في الملل والنحل).

٢٣- (الرد على من اعترض على الفصل).

٢٤- (اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين).

٢٥- (الرد على ابن زكريا الرازي).

٢٦- (الترشيد في الرد على كتاب الفريد)لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات.

٢٧- (الرد على من كفر المتأولين من المسلمين).

٢٨- (مختصر في علل الحديث).

٢٩- (التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية).

٣٠- (الاستجلاب) مجلد، كتاب(نسب البربر).

٣١- (نقط العروس).

٣٢- (مراقبة أحوال الإمام).

٣٣- (من ترك الصلاة عمدًا).

٣٤- (رسالة المعارضة).

٣٥- (قصر الصلاة).

٣٦- (رسالة التأكيد).

٣٧- (ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس).

٣٨- (فضائل الأندلس).

٣٩- (العتاب على أبي مروان الخولاني).

٤٠- (رسالة في معنى الفقه والزهد).

٤١- (مراتب العلماء وتواليفهم).

٤٢- (التلخيص في أعمال العباد).

٤٣- (الإظهار لما شنع به على الظاهرية).

٤٤- (زجر الغاوي).

٤٥- (النبذ الكافية).

٤٦- (النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد).

٤٧- (الرسالة اللازمة لأولي الأمر).

٤٨- (مختصر الملل والنحل).

٤٩- (الدرة فيما يلزم المسلم) جزآن.

٥٠- (مسألة في الروح).

٥١- (الرد على إسماعيل اليهودي، الذي ألف في تناقض آيات).

٥٢- (النصائح المنجية).

٥٣- (الرسالة الصمادحية في الوعد والوعيد).

٥٤- (مسألة الإيمان).

٥٥- (مراتب العلوم).

٥٦- (بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل).

٥٧- (ترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين).

٥٨- (عدد ما لكل صاحب في مسند بقي)، (تسمية شيوخ مالك).

٥٩- (السير والأخلاق).

٦٠- (بيان الفصاحة والبلاغة) رسالة في ذلك إلى ابن حفصون.

٦١- (مسألة هل السواد لون أو لا).

٦٢- (الحد والرسم).

٦٣- (تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر).

٦٤- (شيء في العروض).

٦٥- (مؤلف في الظاء والضاد).

٦٦- (التعقب على الأفليلي في شرحه لديوان المتنبي).

٦٧- (غزوات المنصور بن أبي عامر).

٦٨- (تأليف في الرد على أناجيل النصارى).

مؤلفاته في الطب:

٦٩- ولابن حزم: (رسالة في الطب النبوي) وذكر فيها أسماء كتب له في الطب منها:

٧٠- (مقالة العادة).

٧١- و(مقالة في شفاء الضد بالضد).

٧٢- و(شرح فصول بقراط).

٧٣- وكتاب (بلغة الحكيم).

٧٤- وكتاب (حد الطب).

٧٥- وكتاب (اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة).

٧٦- وكتاب في (الأدوية المفردة).

٧٧- و(مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب).

٧٨- و(مقالة في النخل).

٧٩- (تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل).

٨٠- وأشياء سوى ذلك [(١)].

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء، وشرد عن وطنه، فنزل بقرية

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٨/١٨، الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، ١ / ١٣.

له، وجرت له أمور، وقام عليه جماعة من المالكية، وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومنافرات، ونفروا منه ملوك الناحية، فأقصته الدولة، وأحرقت مجلدات من كتبه، وتحول إلى بادية لبلة في قرية.

قال أبو الخطاب ابن دحية:كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان، وأصابه زمانة، وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر.

قال الذهبي:وكذلك كان الشافعي - رحمه الله - يستعمل اللبان لقوة الحفظ، فولد له رمي الدم (١).

مواقف من حياته:

منابر الذهب والفضة:

ذكر أن ابن حزم اجتمع يومًا مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب كتابي المنتقى والاستغناء وغيرهما من التواليف وجرت بينهما مناظرة فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سرج الحراس.

قال ابن حزم وتعذرني أيضا فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة. أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر (٢).

من كلامه:

- لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده، أعظم من لذة الآكل بأكله، والشارب

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٩/١٨، الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، ١ / ١٤.
(٢) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، نشر دار الكتب العلمية، مكان النشر بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، ٣ / ٥٤٨.

بشربه، والواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره، وبرهان ذلك، أن الحكيم العاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا، كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر.

- ثم قال: إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا، إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن،إما بذهابه عنك،وإما بذهابك عنه،ولا بد من أحد هذين الشيئين،إلا العمل لله عز وجل؛ فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل،أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس، وإنك به معظم من الصديق والعدو،وأما في الآجل فالجنة.

وقال:

- لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم. وباذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى.

- لا مروءة لمن لا دين له.

- العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة.

- لإبليس في ذم الرياء حبالة، وذلك أنه رب ممتنع من فعل خير خوف أن يظن به الرياء.

- العقل والراحة هو إطراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة

بكلام الخالق عز وجل بل هذا باب العقل، والراحة كلها. من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون.

- من حقق النظر، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه، لأن مدحهم إياه، إن كان بحق وبلغه مدحهم له، أسرى ذلك فيه العجب، فأفسد بذلك فضائله، وإن كان بباطل فبلغه فسره، فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقص شديد. وأما ذم الناس إياه، فإن كان بحق فبلغه، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه، وهذا حظ عظيم، لا يزهد فيه إلا ناقص، وإن كان بباطل وبلغه فصبر، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر، وكان مع ذلك غانماً، لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها، ولا تكلفها، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون. وأما إن لم يبلغه مدح الناس إياه، فكلامهم وسكوتهم سواء، وليس كذلك ذمهم إياه، لأنه غانم للأجر على كل حال، بلغه ذمهم أو لم يبلغه. ولولا قول رسول الله ﷺ في الثناء الحسن:﴿ذلك عاجل بشرى المؤمن﴾ لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل، أكثر من رغبته في المدح بالحق، ولكن إذا جاء هذا القول، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل، فإنما تجب البشرى بما في الممدوح لا بنفس المدح.

- ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرد من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه.

- طالب الآخرة ليفوز في الآخرة متشبه بالملائكة،وطالب الشر متشبه بالشياطين،وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع،وطالب اللذات متشبه بالبهائم،وطالب المال لعين المال لا لينفقه في الواجبات والنوافل المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه!ولكنه يشبه الغدران التي في الكهوف، في المواضع الوعرة، لا ينتفع بها شيء من الحيوان.

فالعاقل لا يغتبط بصفه يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد، وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات، وهي: التمييز الذي يشارك فيه الملائكة.

فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير موضعها لله عز وجل فليعلم أن النمر أجرأ منهن وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومن سر بقوة جسمه، فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً، ومن سر بحمله الأثقال، فليعلم أن الحمار أحمل منه، ومن سر بسرعة عدوه، فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدواً منه، ومن سر بحسن صوته، فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه، وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته، فأي فخر وأي سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه.

- رأيت أكثر الناس إلا من عصم الله تعالى - وقليل ما هم - يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويحتقبون عظيم الإثم الموجب للنار في الآخرة بما لا يحظون معه بنفع أصلاً!: من نيات خبيثة يضبون عليها من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار، ومن لا ذنب له، وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقيناً أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئاً مما يتمنونه أو يوجب كونه.

وإنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها، لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، من غير أن يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه، أو يمنع كونه. فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها، وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها؟

- لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة!

- ولو لم يكن من نقص الجهل، إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة!

- لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره! ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم، وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج، والنرد، والخمر، والأغاني، وركض الدواب في طلب الصيد، وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة، وأما فائدة، فلا فائدة.

- من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون.

- نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم، كإطعامك العسل

والحلواء من به احتراق وحمى، أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء.

- الباخل بالعلم، ألأم من الباخل بالمال، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل.

- من مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه، فيكون كغارس النارجيل بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا ينجب.

- أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.

- انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.

- العلوم الغامضة كالدواء القوي، يصلح الأجساد القوية، ويهلك الأجساد الضعيفة. وكذلك العلوم الغامضة. تزيد العقل القوي جودة وتصفية من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف.

- لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون، ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون، ويقدرون أنهم يصلحون.

- من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به، بمنّه آمين.

- غاظني أهل الجهل مرتين من عمري:أحدهما: بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي،والثاني: بسكوتهم عن الكلام بحضرتي، فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

- وسرني أهل العلم مرتين من عمري:أحدهما: بتعليمي أيام جهلي، والثاني بمذاكرتي أيام عملي.

- من فضل العلم والزهد في الدنيا، أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما ومستحقهما.

- ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال والصوت، أن أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفيمن لا يستحقهما.

- من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

- ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة.

- منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله، والثناء الرديء فينفر منه، فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة،ولا يأتي الفضائل ممن لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جدًّا، فاضل التركيب، وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام لأن الله تعالى علمهم الخير كله، دون أن

يتعلموه من الناس.

- وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال، وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جدًّا.

- ورأيت ممن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام، ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمه في خبث السيرة، وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق، وهذا كثير جدًّا، فعلمت أنهما مواهب، وحرمان من الله تعالى.

- احرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك، حتى ربما أضر ذلك بك، وربما قتلك.

- وطّن نفسك على ما تكره، يقل همك إذا أتاك، ويعظم سرورك، ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدّرته.

- إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها.

- الغادر يفي للمجدود (المحظوظ)، والوفي يغدر بالمحدود (عديم الحظ)، والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان.

- طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها.

- الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام: فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه،وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك،وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك. فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل.

والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه: المتاركة والمباعدة.

والثاني فضل وبر: وهو الحلم على الحقيقة، وهو الذي يوصف به الفضلاء.

والثالث ينقسم قسمين: إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلط ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه، فالصبر عليه فضل وفرض، وهو حلم على الحقيقة.

وأما من كان لا يدري مقدار نفسه ويظن أن لها حقًّا يستطيل به، فلا يندم على ما سلف منه، فالصبر عليه ذل للصابر، وإفساد للمصبور عليه، لأنه يزيد استشراء، والمقارضة له سخف، والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن ينتصر منه، وإنه إنما ترك ذلك استرذالاً له فقط، وصيانة عن مراجعته ولا يزاد على ذلك.

وأما جفاء السفلة فليس جزاؤه إلا النكال وحده.

- من جالس الناس لم يعدم همًّا يؤلم نفسه، وإنما يندم عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم؟

والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم، ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها.

- لو لم يكن في مجالسة الناس إلا عيبان لكفيا، أحدهما الاسترسال عند الأنس، وبالأسرار المهلكة القاتلة، التي لولا المجالسة لم يبح بها البائح، والثاني: مواقعة الغلبة المهلكة في الآخرة، فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة.

- لا تحقر شيئاً من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قل، فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل.

- لا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن وإن قل، فإنه يحط عنك كثيراً، لو اجتمع لقذف بك في النار.

- الوجع والفقر والنكبة والخوف، لا يحس أذاها إلا من كان فيها، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها.

- وفساد الرأي، والعار، والإثم لا يعلم قبحها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يراه من كان داخلاً فيها.

- الأمن والصحة والغنى، لا يعرف حقها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يعرف حقها من كان فيها.

- وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة، لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها، ولا يعرفه من لم يكن من أهلها.

- أول من يزهد في الغادر، من غدر له الغادر، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به، وأول من تهون الزانية في عينه، الذي يزني بها.

- كثرة المال ترغب، وقلته تقنع.

- كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه.

- لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته؛ فكل أحد صديقه يومئذ.

- لا تجب عن كلام نقل إليك عن قائل حتى توقن أنه قاله، فإن من نقل إليك كذباً رجع من عندك بحق.

- ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك.

- من استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء مما تشفق

عليه.

من قبيح الظلم الإنكار على من أكثر الإساءة إذا أحسن في الندرة.

- لم أر لإبليس أصيد، ولا أقبح ولا أحمق من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته: إحداهما: اعتذار من أساء بأن فلاناً أساء قبله، والثانية: استسهال الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس، أو أن يسيء في وجه ما، لأنه قد أساء في غيره، فقد صارت هاتان الكلمتان عذراً مسهلتين للشر ومدخلتين له.

- استعمل سوء الظن حيث تقدر على توفيته حقه في التحفظ والتأهب، واستعمل حسن الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ، فتربح راحة النفس.

- حد الجود وغايته أن يبذل الفضل كله في وجوه البر، وأفضل ذلك في الجار المحتاج، وذي الرحم الفقير، وذي النعمة الذاهبة، والأحضر فاقة.

- ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل في البخل، وعلى قدر التقصير والتوسع في ذلك يكون المدح والذم، وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير، وهو مذموم.

- وما بذلت من قوتك لمن هو أمس حاجة منك فهو فضل وإيثار، وهو خير من الجود، وما منع من هذا فهو لا حمد ولا ذم، وهو انتصاف.

- بذل الواجبات فرض، وبذل ما فضل عن القوت جود، والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل، ومنع الواجبات حرام، ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح، والمنع من الإيثار ببعض القوت عذر، ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نتن

ورذالة ومعصية.

- والسخاء بما ظلمت فيه، أو أخذته بغير حقه ظلم مكرر، والذم جزاء ذلك لا الحمد، لأنك إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك.

- حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قل من يعارض أو كثر.

والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق.

- حد العفة أن تغض بصرك، وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك، فما عدا هذا فهو عهر.

- حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه. وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه.

- وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً، وكل جود كرم، وفضل وليس كل كرم، وفضل جوداً. فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل وليس جوداً، والفضل فرض زدت عليه نافلة.

- كانت نفسي في عيوب، فلم أزل بالرياضة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين، والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق، هو الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوماً، إن شاء الله.

فمنها: كلف في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة، بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضا، وكأني سامحت نفسي في ذلك لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم.

ومنها دعابة غالية، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها، إذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهياً للكبر.

ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع.

ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي.

ومنها إفراط في الأنفة بغضت إلي إنكاح الحرم جملة بكل وجه، وصعبت ذلك في طبيعتي، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علي، والله المستعان.

ومنها حقد مفرط، قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه، وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً.

وأما سوء الظن فيعده قوم عيباً على الإطلاق وليس كذلك، إلا إذا أدى بصاحبه إلى ما لا يحل في الديانة، أو إلى ما يقبح في المعاملة، وإلا فهو حزم، والحزم فضيلة.

- النائل مني لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما، إما أن يكون كاذباً، وإما أن يكون صادقاً. فإن كان كاذباً فلقد عجل الله لي الانتصار منه على لسان نفسه، بأن حصل في جملة أهل الكذب،وبأن نبه على فضلي بأن نسب إلي ما أنا منه بريء العرض، وما يعلم أكثر السامعين له كذبه، إما في وقته ذلك، وإما بعد بحثهم عما قال.

وإن كان صادقاً فإنه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

إما أن أكون شاركته في أمر استرحت إليه استراحة المرء إلى من يقدر فيه ثقة، وأمانة، فهذا أسوأ الناس حالة، وكفى به سقوطاً وضعة.

وإما أن يكون عابني بما يظن أنه عيب وليس عيباً، فقد كفاني جهله شأنه، وهو المعيب لا من عاب.

وأما أن يكون عابني بعيب هو فيّ على الحقيقة وعلم مني نقصاً أطلق به لسانه، فإن كان صادقاً: فنفسي أحق بأن ألوم منه، وأنا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق.

وأما أمر إخواني (من نال منهم بحضرته) فإني لست أمسك عن الامتعاض لهم، لكني أمتعض امتعاضًا رقيقاً لا أزيد فيه أن أندم القائل منهم بحضرتي، وأجعله يتذمم ويعتذر ويخجل ويتنصل، وذلك بأن أسلك به طريق ذم من نال من الناس، وأن نظر المرء في أمر نفسه والتهمم بإصلاحها أولى به من تتبع عثرات الناس، وبأن أذكر فضل صديقي فأبكته على اقتصاره على ذكر العيب دون ذكر الفضيلة، وأن أقول: إنه لا يرضى بذلك فيك، فهو أولى بالكرم منك، فلا ترض لنفسك بهذا، أو نحو هذا من القول.

وأما أن أهارش القائل فأحميه وأهيج طباعه وأستثير غضبه، فينبعث منه في صديقي أضعاف ما أكره، فأنا الجاني حينئذ على صديقي، والمعرض له بقبيح السب، وتكراره فيه، وإسماعه من لم يسمعه، والإغراء به، وربما كنت أيضاً في ذلك جانياً على نفسي ما لا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي، من إسماعي الجفاء والمكروه، وأنا لا أريد من صديقي أن يذب عني بأكثر من الوجه الذي حددت، فإن تعدى ذلك إلى أن يساب النائل مني حتى يولد بذلك أن يتضاعف النيل، وأن يتعدى أيضاً إليه بقبيح المواجهة وربما إلى أبويّ وأبويه على قدر سفه النائل، ومنزلته من البذاءة وربما كانت منازعة بالأيدي، فأنا مستنقص لفعله في ذلك زارٍ عليه، متظلم منه، غير شاكر له.

لكني ألومه على ذلك أشد اللوم وبالله تعالى التوفيق.

- وجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء، أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

- وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فلييأس من أن يصلح نفسه أو يُقوِّم طباعه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا في خلق محمود.

- وأما الزهو، والحسد، والكذب، والخيانة، فلم أعرفها بطبعي قط، وكأنني لا حمد لي في تركها، لمنافرة جبلتي إياها، والحمد لله رب العالمين.

من عَيْبِ حبِّ الذكر، أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها، فكاد يكون شركاً، لأنه يعمل لغير الله تعالى، وهو

يطمس الفضائل، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حبًّا للخير، لكن ليذكر به.

- أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك، لأنه نبه على فضلك،ولقد انتصر لك من نفسه بذلك، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة.

- لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً.

- لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت.

- الإخوان والنصيحة والصداقة.

- استبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك.

- العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فإما تصفو وإما تطير.

- من طوى من إخوانك سره الذي يعنيك دونك، أخون لك ممن أفشى سرك، لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط، ومن طوى سره دونك منهم، فقد خانك واستخونك.

- لا ترغب فيمن يزهد فيك، فتحصل على الخيبة والخزي.

- لا تزهد فيمن يرغب فيك، فإنه باب من أبواب الظلم، وترك مقارضة الإحسان، وهذا قبيح.

- اكتم سر كل من وثق بك، ولا تفشي إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم، من سرك ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه، وإن كان أخص الناس بك.

وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه، وإن لم يعتمدك بالرغبة، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل، ولا

تبن إلا على أن من أحسنت إليه أول مضر بك، وساع عليك، فإن ذوي التراكيب الخبيثة، يبغضون لشدة الحسد كل من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من أحوالهم.

- لا تنصح على شرط القبول،ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة،لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة، وبذل المعروف.

- حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده هو: أن يكون المرء يسوؤه ما يسوء الآخر، ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقاً، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق، وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه.

- وليس كل صديق ناصحاً، لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه.

- وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ما ضر الآخر، ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه، وإن يسره ما نفعه، سر الآخر أو ساءه، فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة.

- وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه، وبماله لغير علة توجب ذلك، وآثرك على من سواك.

- ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء، فإن ذلك فضيلة تامة متركبة، لأنهم لا يكتسبون إلا بالحلم، والجود، والصبر، والوفاء.. والعفة.. وتعليم العلم، وبكل حالة محمودة.

ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أيام الحرمة، فأولئك لصوص الإخوان وخبث الأصدقاء، والذين يظن أنهم أولياء وليسوا كذلك. ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا. ولا نعني

أيضاً المصادقين لبعض الأطماع..، والمتآلفين على النيل من أعراض الناس، والأخذ في الفضول، وما لا فائدة فيه، فليس هؤلاء أصدقاء. ودليل ذلك أن بعضهم ينال من بعض، وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم، وإنما نعني إخوان الصفاء لغير معنى إلا لله عز وجل، إما للتناصر على بعض الفضائل الجدية، وإما لنفس المحبة المجردة فقط.

ولكن إذا أحصيت عيوب الاستكثار منهم، وصعوبة الحال في إرضائهم، والغرر في مشاركتهم، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم، فإن غدرت بهم أو أسلمتهم، لؤمت وذممت، وإن وفيت، أضررت بنفسك، وربما هلكت، وهذا لا يرضى الفاضل بسواه، إذا تنشب في الصداقة، وإذا تفكرت في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت أو فراق أو غدر من يغدر منهم، كاد السرور بهم لا يفي بالحزن الممض من أجلهم.

- وليس في الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح، ودليل ذلك أنه في الوجه سخف ممن يرضى به، وقد جاء في الأثر في المداحين ما جاء، إلا أنه قد ينتفع به في الإقصار عن الشر والتزيد من الخير، وفي أن يرغب في ذلك الخلق الممدوح من سمعه.

- بعض أنواع النصيحة يشكل تمييزه من النميمة، لأن من سمع إنساناً يذم آخر ظالماً له، أو يكيده ظالماً له، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً، ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربما قد ولد على الذام والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعد من الأذى، فيكون ظالماً له، وليس من الحق أن يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه، فالتخلص من هذا الباب صعب إلا على ذوي العقول. والرأي للعاقل في مثل هذا، إن يحفظ المقول فيه من القائل

فقط، دون أن يبلغه ما قال، لئلا يقع في الاسترسال زائد فيهلك. وأما في الكيد فالواجب أن يحفظه من الوجه الذي يكاد منه بألطف ما يقدر في الكتمان على الكائد، وأبلغ ما يقدر في تحفيظ المكيد، ولا يزد على هذا شيئاً.

وأما النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ إليه، وبالله التوفيق.

- النصيحة مرتان: فالأولى: فرض وديانة، والثانية: تنبيه وتذكير، وأما الثالثة: فتوبيخ وتقريع، وليس وراء ذلك إلا التركل واللطام، اللهم إلا في معاني الديانة، فواجب على المرء تزداد النصح فيها رضي المنصوح أو سخط، تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ.

- وإذا نصحت فانصح سرًّا لا جهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلا بد من التصريح. ولا تنصح على شرط القبول منك، فإذا تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة،وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة.

وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبيده.

- لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك، فإن طلبت أكثر، فأنت ظالم.

- ولا تكسب إلا على شرط الفقد. ولا تتول إلا على شرط العزل، وإلا فأنت مضر بنفسك خبيث السيرة.

- من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها، أو أردت ابتداءه بقضائها، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً، ومستحقًّا للوم منه ومن غيره

لا للشكر، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة.

- لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأرذال.

ولا تكتمه ما يستضر بجهله، فهذا فعل أهل الشر، ولا يسرك أن تمدح بما ليس فيك، بل ليعظم غمك بذلك، لأنه نقصك ينبه الناس عليه، ويسمعهم إياه، وسخرية منك وهزؤ بك، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل.

- ولا تأس إن ذممت بما ليس فيك، بل افرح به، فإنه فضلك ينبه الناس عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح، وسواء مدحت به أو لم تمدح، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم، وسواء ذممت به أو لم تذم.

من سمع قائلاً يقول في امرأة صديقه قول سوء، فلا يخبره بذلك أصلاً، لا سيما إذا كان القائل عيابة، وقاعاً في الناس، سليط اللسان، أو دافع معرة عن نفسه، يريد أن يكثر أمثاله في الناس، وهذا كثير موجود. وبالجملة فلا يحدث الإنسان إلا بالحق، وقول هذا القائل لا يدري أحق هو أم باطل، إلا أنه في الديانة عظيم.

فإن سمع القول مستفيضاً من جماعة، وعلم أن أصل ذلك القول شائع وليس راجعاً إلى قول إنسان واحد، أو اطلع على حقيقته إلا أنه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف هو عليه، فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق، وليقل له: النساء كثير، أو حصن منزلك، وثقف أهلك، أو اجتنب أمر كذا، وتحفظ من وجه كذا. فإن قبل المنصوح وتحرز فحظ نفسه

أصاب، وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالي أمسك ولم يعاوده بكلمة، وتمادى على صداقته إياه، فليس في أن لا يصدقه في قوله ما يوجب قطيعته، فإن اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة، ففرض عليه أن يخبره بذلك، وأن يوقفه على الجلية. فإن غير فذلك، وإن رآه لا يغير اجتنب صحبته؛ فإنه رذل لا خير فيه ولا نقية.

- ودخول رجل متستر في منزل المرء، دليل سوء لا يحتاج إلى غيره.

- ودخول المرأة في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً. وطلب دليل أكثر من هذين سخف.

وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها على كل حال، وممسكها لا يبعد عن الدياثة.

- الناس في أخلاقهم على سبع مراتب، فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم، وطائفة تذم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع، وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب، وهذه صفة أهل السخف والنواكة. وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم. وأما العيابون البرآء من النفاق والقحة، فيمسكون في المشهد، ويذمون في المغيب، وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا.

- إذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين، ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نماماً، فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى:{فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا} [طه: ٤٤]، وقال رسول الله ﷺ :《لا تنفروا》، وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم، ولعلك مخطئ في وجه نصحك، فتكون مطالباً بقبول خطئك وبترك الصواب.

- لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استثارتهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف.

- لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه، فما رأينا هذين العملين إلا سبباً للقطيعة، وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك، لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه. والمؤثرون على أنفسهم قليل جدًّا، فإذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه، وقعت المنازعة، ومع وقوعها فساد المروءة.

- الطمع أصل لكل ذل، ولكل هم، وهو خلق سوء ذميم. وضده نزاهة النفس، وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم، لأنه رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها، وكانت فيه نجدة أنتجت له عزة نفسه فتنزه، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته، وكانت فيه طبيعة عدل حببت إليه القناعة وقلة الطمع.

فإذن، نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات. فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات الأربع،

وهي الجبن والشح والجور والجهل. والرغبة طمع مستوفى متزايد مستعمل، ولولا الطمع ما ذل أحد لأحد. وأخبرني أبو بكر بن أبي الفياض قال: كتب عثمان بن محامس على باب داره بأستجة يا عثمان لا تطمع.

- من امتحن بقرب من يكره، كمن امتحن ببعد من يحب ولا فرق.

- اقنع بمن عندك، يقنع بك من عندك.

- السعيد في المحبة هو من ابتلي بمن يقدر أن يلقى عليه قفله، ولا تلحقه في مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس.

- إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة.

- الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وإن يتعدى غيره إلى حرمته؛ ومن كانت النجدة طبعاً له، حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام.

- أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه، أنه ما عرف الغيرة قط، حتى ابتُلي بالمحبة فغار. وكان هذا المخبر فاسد الطبع، خبيث التركيب، إلا أنه كان من أهل الفهم والجود.

- كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بلهاً.

- رب مخوف كان التحفظ منه سبب وقوعه، ورب سر كانت المبالغة في طيه علة انتشاره، ورب إعراض أبلغ في الاسترابة من إدامة النظر، وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال.

- الخطأ في الحزم خير من التضييع.

- من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه.

- إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علمًا وأجرًا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العالم أبدًا؛ فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصّلت خيرًا على كل حال، فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك.

- الناس في أخلاقهم على سَبْع مراتب:فطائفة تمدح في الوجه، وتذمّ في المغيب، وهذه صِفَة أهل النِّفاق من العَيَّابينَ، وهذا خلقٌ فاشٍ في الناس، غالبٌ عليهم، وطائفةٌ تذمّ في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السَّلاطة والوقاحة من العَيَّابينَ، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب؛ وهذه صفة أهل المَلَق والطَّمَع.

وطائفةٌ تذمّ في المشهد وتمْدَح في المَغِيبِ؛وهذه صفة أهلِ السّخْفِ والنَّواكَةِ [1].

وأمَّا أهل الفَضْلِ فَيمْسِكونَ عن المَدْح والذَّمِّ في المشَاهَدَةِ، ويثنون بالخير في المَغِيبِ، أو يمْسِكونَ عن الذَّمِّ.

وأمَّا العَيَّابونَ البرآء من النِّفاق والقِحَةِ؛ فيمْسِكون في المَشْهد، ويَذمّون في المَغِيب.

---

(١) النّوك: بالضَّم والفتح: الحمق.

وأمَّا أهل السَّلامة فيمْسِكون عن المدح، وعن الذَّمِّ في المَشْهَدِ والمغيب.

ومن كلٍّ هذه الصِّفاتِ قد شاهَدْنا وبَلَوْنا.

وقال أبو بكر بن حزم: إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره [1].

شعر ابن حزم:

لما أحرق له المعتضد بن عباد بعض الكتب قال:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ::: تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ::: وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا ::: بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ::: فكم دون ما تبغون لله من ستر
كذاك النصارى يحرقون إذا ::: علت أكفهم القرآن في مدن الثغر

ولابن حزم أيضا:

أشهد الله والملائك أني لا ::: أرى الرأي والمقاييس دينا
حاش لله أن أقول سوى ::: ما جاء في النص والهدى مستبينا
كيف يخفى على البصائر ::: هذا وهو كالشمس شهرة ويقينا

ومن شعره:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدر ::: كنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ::: تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف ::: نود لديه أننا لم نكن كنا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ::: وهم لما نخشى فعيشك لا يهنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ::: وفات الذي كنا نلذ به عنا
كأن الذي كنا نسر بكونه إذا ::: حققته النفس لفظ بلا معنى

(١) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٨٤.

وله على سبيل الدعابة - وهو يماشي أبا عمر بن عبد البر - وقد رأى شابًّا مليحًا، فأعجب ابن حزم، فقال أبو عمر: لعل ما تحت الثياب ليس هناك، فقال:

وذي عذل فيمن سباني حسنه ::: يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن حسن وجه لاح لم تر غيره ::: ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل
فقلت له:أسرفت في اللوم فاتئد ::: فعندي رد لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهري وأنني ::: على ما بدا حتى يقوم دليل

ومن شعره أيضا:

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت ::: فالدهر ليس على حال بمتترك
ذو الفضل كالتبر طورًا تحت ميفعة ::: وتارة في ذرى تاج على ملك

ومن شعره:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ::: ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ::: لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ::: ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن يترل الرحمن رحلي بينهم ::: فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك يدرى أن للبعد قصة ::: وأن كساد العلم آفته القرب

وله:

أنائم أنت عن كتب الحديث وما ::: أتى عن المصطفى فيها من الدين
كمسلم والبخاري اللذين هما ::: شدَّا عرى الدين في نقل وتبيين
أولى بأجر وتعظيم ومحمدة من ::: كل قول أتى من رأي سحنون
يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما ::: في نصر دينك محضًا غير مفتون

وله أيضاً:

لم أشك صدًّا ولم أذعن بهجران ::: ولا شعرت مدى دهري بسلوان
أسماء لم أدر معناها ولا خطرت ::: يومًا علي ولا جالت بميداني

لكنما دائي الأدوا الذي عصفت ::: علي أرواحه قدمًا فأعياني
تفرق لم تزل تسري طوارقه ::: لى مجامع أحبابي وخلاني
كأنما البين بي يأتم حيث رأى ::: لي مذهبا فهو يتلوني ويغشاني
وكنت أحسب عندي للنوى جلدًا ::: داء عنا في فؤادي شجوها العاني
فقابلتني بألوان غدوت بها ::: مقابلا من صباباتي بألوان

ولابن حزم:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت ::: أقوالهم وأقاويل الورى محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني ::: لا أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأنني مولع بالنص لست إلى ::: سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس يقال بها في ::: الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي ::: كبدي ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى ::: كمدا من مات من قوله عندي له كفن

ومن روائع شعر الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى:

كأنك بالزوار لي قد تبادروا ::: وقيل لهم أودى علي بن أحمد
فيا رب محزون هناك وضاحك ::: وكم أدمع تُذْرَى وخد مُخَدَّدِ
عفا الله عني يوم أرحل ظاعناً ::: عن الأهل محمولاً إلى بطن مَلْحَدِ
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به ::: وألقى الذي آنست دهراً مِنْهُ بمَرْصَدِ
فوا راحتي إن كان زادي مقدماً ::: ويا نصبي إن كنت لم أتزود

ومن أجمل قصائده قوله:

مناي من الدنيا علوم أبثها ::: وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي ::: تناسى رجال ذكرها في المحاضر
وألزم أطراف الثغور مجاهدا ::: إذا هيعة ثارت فأول نافر
لألقى حمامي مقبلا غير مدبر ::: بسمر العوالي والرقاق البواتر
كفاحا مع الكفار في حومة الوغى ::: وأكرم موت للتفى قتل كافر

فيا رب لا تجعل حمـــامي بغيرهـــا ::: ولا تجعلني مـــن قطـــين المقـــابر

ومن روائع شعره أيضًا:

إنَّمـــــا العَقْـــــل أَسَـــــاسٌ ::: فَوْقَـــــه الأخـــــلاق ســـــور
فَحَلِّـــــي الْعَقْـــــلَ بالعلــــــــ ::: ـــــــم وإلاَّ فهـــــو بـــــور
جاهـــــل الأشـــــياء أعمـــــى ::: لا يـــــرى حيـــــث يـــــدور
وتمـــــام العلـــــم بالعـــــد ::: ل وإلاَّ فهـــــــــــــــو زور
وزمـــــام العـــــدل بـــــالجو ::: د وإلاَّ فيجـــــــــــــــور
ومِـــــلاك الجـــــود بالنَّجْـــــ ::: ـــــدة والجـــــبن غـــــرور
عـــــفَّ إنْ كنـــــت غيـــــورًا ::: مـــــا زنى قـــــطّ غيـــــور
وكمـــــال الكـــــلِّ بالتَّقْـــــ ::: ـــــوى وقـــــول الحـــــقِّ نـــــور
ذي أصـــــول الْفَضْـــــلِ عَنْهـــــا ::: حَـــــدَثَتْ بَعْـــــدَ البـــــذور

ويقول ابن حزم:

مسهد القلب في خديـه أدمعـه ::: قد طالما شرقت بالوجـد أضـلعه

يأوي إلى زفـرات لـو يباشـرها ::: قاسي الحديد فواقـا ذاب أجمعـه

يشكو إلى القيد مـا يلقـاه مـن ::: ألم فبالأنين لدى شـكواه يرجعـه

يا هاجعًا والرزايا لا تؤرقـه قـل ::: كيف يهجع من في الكبل مهجه(١)

(١) ذروة المقتبس: ٣٠٨ - ٣١١، مطمح الأنفس، القسم الثاني المنشور في مجلة المورد. العراقية، المجلد العاشر، العدد، ٣ - ٤ / ١٩٨١ بتحقيق هدى شوكة بهنام ص: ٣٥٤ - ٣٥٧، الذخيرة المجلد الاول، القسم الأول: ١٦٧ - ١٧٥، تاريخ الحكماء، ٢٣٢ - ٢٣٣ الصلة ٢ / ٤١٥ - ٤١٧، بغية الملتمس: ٤١٥ - ٤١٨، معجم الأدباء ١٢ / ٢٣٥، المطرب: ٩٢، المعجب: ٣٢ - ٣٥، المغرب ١ / ٣٥٤ - ٣٥٧، وفيات الأعيان، ٣ / ٣٢٥ - ٣٣٠، تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤٦ - ١١٥٥، العبر ٣ / ٢٣٩، دول الإسلام: ١ / ٢٦٨، مسالك الأبصار: انظر الجزء الثامن، الوافي بالوفيات: المجلد الثاني من الجزء الأول الورقة: ٣٧٤، مرآة الجنان ٣ / ٧٩ - ٨١، البداية والنهاية ١٢ / ٩١ - ٩٢، الإحاطة ٤ / ١١١ - ١١٦، لسان الميزان ٤ / ١٩٨ - ٢٠٢، النجوم الزاهرة ٥ / ٧٥، طبقات الحفاظ: ٤٣٦ - ٤٣٧، طبقات الأمم لصاعد: ٨٦، الإعلام بتاريخ الإسلام: حوادث عام ٤٥٦، أخبار العلماء: ١٥٦، نفح الطيب ٢ / ٧٧ - ٨٤، كشف الظنون: ٢١، ١١٨، ٤٦٦، شذرات الذهب ٣ / ٢٩٩ - ٣٠٠، هدية العارفين ١ / ٦٩٠ - ٦٩١، إيضاح المكنون ١ / ٣١٩، دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٣٦ - ١٤٤، ابن حزم فقهه وآراؤه لمحمد أبو زهرة، مقدمة جمهرة أنساب العرب: ٥ - ١٢، ابن حزم الأندلسي: بقلم الدكتور زكريا إبراهيم سلسلة أعلام العرب " ٥٦ "، وانظر الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الحليم عويس: " ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري " نشر دار الاعتصام بالقاهرة.

الماوردي

أعلام المؤرخين

أقضى القضاة الماوردي

في شوارع البصرة وفي زمن العباسيين، كان هناك طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، ورث عن أبيه صناعة (ماء الورد) يقضي النهار كله أمام أبواب المساجد، يبيع ماء الورد لطلاب العلم ورواد المدارس مقابل دراهم معدودة، يتقوَّى بها على متاعب الحياة.

وقد أصبح هذا الصبي من قادة الفكر وحملة مشاعل العلم ومن أبرز رجال السياسة، وقاضيًا من أعدل القضاة، وأديبًا ناضجًا ومؤلفًا عظيمًا في شتى فروع ثقافة أمته.. إنه (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) الشهير بالماوردي.. ولد عام ٣٦٤هـ - ٩٧٤م في مدينة البصرة، ونشأ فيها يسقي طلاب العلم ماء الورد، ويرتوي من علم العلماء المشهورين في زمانه، وظل في البصرة حتى سمع أن عالمًا ببغداد يقصده الطلاب من كافة الأنحاء هو (أبو حامد الإسفراييني) فتعلم على يديه الفقه والعلوم الشرعية، وأصبح من مريديه، وما زال يرحل ويتنقل في بلاد المسلمين طلبًا للمعرفة حتى عاد إلى بغداد، ليبدأ فيها رحلة الدرس والتأليف، يتلقى عنه الطلاب القادمون من بلاد كثيرة. وتولى الماوردي القضاء في البلاد التي رحل إليها، كما تولى وظيفة قاضي القضاة في نيسابور، وذاعت شهرته، ولقب بأقضى القضاة سنة ٤٢٩هـ، وكان أول من لقب بذلك في تاريخ الإسلام، وعلم الماوردي أن توليه القضاء ليس تشريفًا له، ولكنها رسالة وأمانة في عنقه؛ فكان يتمهل قبل أن يصدر أحكامه، ويقرأ كتاب الله وأحاديث رسوله، حتى لا يضل الطريق؛ فيقضي بحكم فيه ظلم لأحد، كما كان جريئًا عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالحق حتى على أولي القربى وأصحاب السلطان. فقد أمر الخليفة العباسي أن يلقب جلال الدين بن بويه بلقب شاهنشاه

الأعظم ملك الملوك، واختلف الفقهاء ما بين موافق، وغير موافق لأن هذا اللقب لا يجوز إلا في حق الله، وانحاز عوام الناس إلى رأي الفقهاء المانعين، وانتظر الجميع رأي القاضي الماوردي الذي كانت تربطه بجلال الدين البويهي صلة ود وصداقة؛ وظهرت شجاعة الماوردي، فانحاز إلى جانب الحق، وضرب مثلا فريدًا في الثبات على الحق، فأفتى بالمنع، وأعجب جلال الدين بصدقه وشجاعته فقال له: (أنا أعلم أنك لو حابيت أحدًا لحابيتني، لما بيني وبينك من أواصر المحبة، وما حملك إلا الدين، فزاد بذلك محلك عندي). ولما ذاعت شهرة الماوردي أثناء فترة إقامته ببغداد لما عُرِفَ عنه من فضل وعلم، وحسن رأي، وجلالة قدر؛ اختير ليكون سفيرًا بين رجال الدولة في بغداد، وبني بويه في أصبهان من سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م إلى ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م، وكان لقربه من الحياة السياسية في عصره، واختلاطه بالأمراء والوزراء أثر كبير، فقام بكتابة العديد من المؤلفات السياسية الرائعة التي صدرت عن خبرة كبيرة ودراسة واسعة مثل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وكانت له مكانة ممتازة عند الأمراء والملوك في عصره، فكان يتصدر المراسم والاحتفالات الرسمية، وأسندوا إليه عقد قران الخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي السلطان (طغرلبك) سنة ٤٤٨هـ. واشتهر الماوردي بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال غيره، كما عرف عنه التدين والتنزه عن اللهو والهزل، وشهد المعاصرون للماوردي بالصلاح والتقوى، وهم محقون في ذلك، فقد أخفى مؤلفاته عن الناس في عصره خوفًا من أن يكون قد خالطها الرياء وهو يؤلفها، وعهد إلى صديقٍ له ألا يظهرها إلا بعد وفاته، وترك الماوردي العديد من المؤلفات منها: كتاب في التفسير و(الحاوي) في

الفقه الشافعي و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(أدب الدنيا والدين).
والماوردي مفكر سياسي إسلامي يعد من أوائل من اهتموا بعلم السياسة وأصول الحكم الإسلامي، يأخذ أفكاره وآراءه من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظل الماوردي في خدمة العلم إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ، وحضر جنازته جمع من الخطباء والعلماء والقضاة يودعونه إلى مثواه الأخير [(١)].

قال محمد بن عبد الملك الهمذاني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي عزاء، فتكلم الشيخ أبو إسحاق واجلا، فلما خرجنا، قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق! لو رآه الشافعي لتجمل به[(٢)].

الماوردي وآثاره:

كان الماوردي ذا خلق ودين وله علاقة وطيدة مع الخليفة ورجال الدولة في زمانه. وكان الخليفة يثق فيه وجعله سفيراً بينه وبين بني بويه وبينه وبين السلاجقة، وكانت بيد هؤلاء مراكز القوة في الدولة،

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ١٠٢ - ١٠٣، طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٣١، الأنساب: ورقة ٥٠٤ أ، المنتظم ٨ / ١٩٩ - ٢٠٠، معجم الأدباء ١٥ - ٥٢ - ٥٥، الكامل لابن الأثير ٩ / ٦٥١، اللباب / ١٥٦، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق: ٢٤، وفيات الأعيان ٣ / ٢٨٢ - ٢٨٤، المختصر في أخبار البشر، دول الإسلام ١ / ٢٦٥، العبر ٣ / ٢٢٣، ميزان الاعتدال ٣ / ١٥٥، تتمة المختصر ١ / ٥٤٩، مرآة الجنان ٣ / ٧٢ - ٧٣، طبقات السبكي ٥ / ٢٦٧ - ٢٨٥، طبقات الإسنوي ٢ / ٣٨٧ - ٣٨٨، البداية والنهاية ١٢ / ٨٠،، لسان الميزان ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١، النجوم الزاهرة ٥ / ٦٤، طبقات المفسرين للسيوطي: ٢٥، طبقات المفسرين للداوودي ١ / ٤٢٣ - ٤٢٥، مفتاح السعادة ١ / ٣٢٢، طبقات ابن هداية الله: ١٥١ - ١٥٢، كشف الظنون ١ / ١٩، ٤٥، ١٤٠، ١٦٨، ٤٠٨، ٦٢٨ و٢ / ١١٠١، ١٣١٥، ١٩٧٨، شذرات الذهب ٣ / ٢٨٥ - ٢٨٧، روضات الجنات: ٤٨٣، هدية العارفين ١ / ٦٨٩.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية، ٤ / ٢٢٧.

ولقد أهلته ثقافته العالية ووظائفه المتعددة واتصاله برجال السلطة عن قرب وخبراته السياسية للكتابة في الفقه السياسي. وله مؤلفات في كثير من العلوم وله من الكتب السياسية أربعة كتب:

١ - الأحكام السلطانية.

٢ - قوانين الوزارة.

٣ - نصيحة الملوك.

٤ - تسهيل النظر وتعجيل الظفر (في سياسة الملك).

وقد نال كتاب الأحكام السلطانية شهرة واسعة وهو يعد بحق أول من جمع مسائل الفقه السياسي المنثورة في مواضع متفرقة في كتاب واحد. ويقول عن ذلك في مقدمة كتابه:

(لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتاباً) [(١)].

وقد ألف الكتاب بأمر من خليفة العصر فالكتاب بذلك ليس كتاب فقه نظري بل هو موجه للسلطة الحاكمة للعمل به وتنفيذه.

يبدأ الكتاب بإعطاء تعريف للإمامة والمؤهلات المطلوبة لتقلد هذا المنصب الهام، والطرق الصحيحة لانعقاد الإمامة، ثم يبين واجبات الدولة وواجبات الشعب نحوها والأمور التي تؤدي إلى عزل الإمام. وبعد أن يعطي تعريفاً لكل من الوزارة والإمارة يتحدث عن أنواع الوزارة والإمارة وسلطات كل نوع والمؤهلات المطلوبة لتوليها، ثم ينتقل لمناقشة المهام التفصيلية لأجهزة الدولة المالية والقضائية

(١) الأحكام السلطانية ص ٣.

والعسكرية.

والكتاب الثاني من كتب الماوردي السياسية هو كتابه (قوانين الوزارة) وهذه رسالة هامة تبحث في موضوع متخصص من موضوعات الفقه السياسي. فقد بحث المؤلف فيها كل ما يتصل بالوزارة من فقه، ابتداء من تعريف الوزارة وأنواعها، ومؤهلات الوزراء إلى علاقتهم برئيسهم ووظائفهم وما يعينهم من سياسة للقيام بهذه الوظائف. وانتهى في هذه الرسالة إلى أن أهم غايات الوزارة تحقيق الأهداف التالية: (دين متبع، سلطان قاهر، عدل شامل، أمن عام، وخصب دائم).

أما كتابا الماوردي الآخران (نصيحة الملوك) و(تسهيل الظفر) فهما كتب الآداب والأخلاق السياسية ولا تدخل في نطاق الفقه [1].

الماوردي والجواري يلبسن الشعر:

قال الماوردي: رأيتُ جاريةً، ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة، لم أشكّ أنه عاشقٌ لها، وإليها مائلٌ، لِما رأيتُ من حركاته إذا نظرت، وسُروره إذا نطقت، وتهلُّله إذا غنّت. وكانت فوق وصف الواصف من الحُسن والجَمال، وعليها قميصٌ موشَّحٌ، ورداء معيَّنٌ، مكتوبٌ في وشاح القميص:

أغيب عنكَ بوُدٍّ لا يُغيّرُهُ ::: نأي المحلّ ولا صَرفٌ من الزمنِ
تعتلُّ بالشُّغل عنا ما تُكلّمنا ::: الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

وعلى طراز الرداء:

أقلّ الناس في الدنيا سُروراً ::: محبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ

قال: ورأيتُ جارية لبعض الهاشميين يُقال لها عَريب، عليها قميصٌ

(١) القاضي أبو يعلى الفراء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص ٥١٦ وما بعدها.

ملحَمٌ، موشَّحٌ بالذهب، مكتوبٌ في وشاحه:

وإني لأهــــواه مســـيئاً ومحســـــناً ::: وأقضي على قلبي له بالذي يَقضي
فحتى متى رَوْحُ الرضــا لا ينـــالني ::: وحتى متى أيام سُخطِكَ لا تَمضــــي

وعلى طراز كُمّه:

إذا صدّ من أهوى وأسلمني الغَري ::: ففُرقة من أهوى أحرُّ مـــن الجمـــرِ

ورأيتُ على ماجِنَ جارية مكاتم المغنّية قميصاً في وشاحه بالذهب:

زَفَـــــراتي لــــــيس تَفـــــنى ::: وفـــــؤادي بـــــك مُضـــــنى
أترضــــــــاكَ وأُبـــــــدي ::: لـــــــــــك.. ســـــــــنا
بـــــأبي كــــــم أتمنّــــــى ::: وإلى كـــــــــم أتمـــــــنى
بعـــــدما أصـــــبح قلــــبي ::: في يــــد الأحـــــرار رَهنـــــا

قال: ورأيتُ في صدر قميص جارية تَباريح الكوفية مكتوباً بالفضة والذهب سطراً وسطراً:

يا فتى! قلــتُ إذ دعـــاني هـــواه ::: مســـــتجيباً لصــــوته لبّيكـــــا
مـــا بكــت مُقلــتي لفقْــدك إلا ::: جَزَعاً أن أمــوت شــوقاً إليكـــا

قال: ورأيتُ مرة أخرى عليها دُرّاعَة ملْحَمٍ بتَرانين إبريسَم ولِبنة سوسَنْجرْد وفي دور اللّبنة مكتوبٌ:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا! ::: أمسك عليكَ فإنّ السهم قد قـــتلا
أصبتَ أسودَ قلبي إذ رمَيتَ فـــلا ::: شُلّت يمينُـــك أن صَـــيّرتني مَـــثلا

وكتبت بَنان جاريةُ الخيزران على تَرانين دُرّاعةٍ لها بذهب:

لم تقُــلْ قـــولاً ولكـــن حلفـــت ::: أنهـــا أحســـنُ عـــين أُطرفـــت
زعمَــــت أني قــــد لاحظتُهــــا ::: أيُّ عــــين لَحَظَــــت فاًعترفَــــت
أظهـــرت حُجّـــة مـــن يعشـــقها ::: واســـتباحَت غفلـــةً وانصـــرفَت

وعلى طراز كُمّها:

لـــيس بي صـــبرٌ ولا بي جَلَـــدٌ ::: قد نفـــى حُبُّــكَ عـــني جَلَـــدي

وقال الماوردي: رأيتُ جارية لبعض ولد المأمون، وعليها قلنسوة عليها مكتوبٌ:

يـــا تـــارك الجســـم بـــلا قَلْـــب ::: إنْ كـــان يَهـــواكَ فمـــا ذنـــبي؟

يـــا مفـــرَداً بالحُســـن أفـــردتَني ::: منك بطول الشـــوق والكَـــرْبِ

وعلى كَرزَن لها:

أنـــا العبـــد المقـــرّ بطـــول رقٍّ ::: وليس عليك من عبـــدٍ خِـــلافُ

قال: ورأيتُ على جارية لا هي كَرزَناً مكتوباً عليه:

عذّبـــــه بـــــالهجر مـــــولاه ::: وزاده شـــــــوقاً وأضْـــــــناهُ

فدمعـــه يجـــري علـــى خـــدّه ::: ولم تـــنمْ للوَجـــد عينـــاهُ

قد كتـــب الحُـــبُّ علـــى قلبـــه: ::: مُـــتْ كمَـــداً يرحمُـــك اللهُ

مكتوباً على النعال والخِفاف:

ما وجد للمتظرفات والظراف مكتوباً على النعال والخِفاف قال الماوردي: كتبَت جاريةٌ للمارقي على نعلها بالذهب:

لم ألـــقَ ذا شَـــجَنٍ يبـــوح بحبـــه ::: إلاّ حســـبْتُكَ ذلـــك المحبوبـــا

حذَراً عليكَ وإنـــني بـــك واثـــقٌ ::: أنْ لا ينال سوايَ منكَ نصـــيبا [(١)]

كتاب المنصور:

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم، فقال حدث منهم وهو يضرب:

(١) الوشاء، الموشى، ص ٧٦، ٧٧، ٨١.

أطــــال الله عمـــــرك في صــــلاحٍ ::: وعـــــز يـــــا أمـــــير المؤمنينــــــا
بعفـــوك نســـــتجير فـــإن تجرنـــــا ::: فإنّــــــك عصـــــــمةٌ للعالمينـــــــا
ونحـــن الكـــاتبون وقـــد أســـأنا ::: فهبنـــــا للكـــــرام الكاتبينــــــا

فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه [1].

خطوط العلماء في الأغلب رديئة:

وقال الإمام الماوردي: خطوط العلماء في الأغلب رديئة لاشتغالهم بالعلم حتى قال الفضل بن سهل: من سعادة المرء رداءة خطه أي لئلا يشغله تعلم الخط عن تعلم العلم. قيل: والأسباب المخلة بالخط ثمانية: إسقاط ألفاظ منه أو زيادة ألفاظ فيه أو إسقاط بعض حروف الكلم أو زيادة حروف أثناءها أو وصل المفصول أو فصل الموصول أو تغيير الحرف حتى يشتبه حرف بغيره أو ضعف الخط جملة أو إهمال النقط أو الشكل.

لا يسأل عنهما إلاّ علماء الدين:

عن الإمام الماوردي، رحمه الله، قال: كنت بمجلس درسي بالبصرة، فدخل علي شيخ مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها، قال: قصدتك بمسألة اخترتك لها. فقلت: ما هي؟ وظننت أنّه يسأل عن حادثة نزلت به. فقال عن طالع إبليس وطالع آدم من النجوم ما هو؟ فإنَّ هذين لعظيم شأنهما، لا يسأل عنهما إلاّ علماء الدين. قال، فعجبت وعجب من في المجلس من سؤاله. وبادر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف، فكففتهم وقلت: هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله، إلاّ بجواب مثله! فأقبلت عليه وقلت: يا هذا، إنَّ المنجمين يزعمون أنَّ نجوم الناس لا تعرف إلاّ بمعرفة مواليدهم. فإنَّ ظفرنا بمن يعرف وقت ميلادهما أخبرك بالطالع. فقال: جزاك الله خيرًا!

---

(١) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص٦.

وانصرف مسرورًا. فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولدهما [1].

من كلامه رحمه الله:

- قال الماوردي - رحمه الله: ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم.

- قال الماوردي - رحمه الله -:

وإذا كانت النفوس كباراً ::: تعبت في مرادها الأجسام

- وقال: والداعي إلى استسهال المصاعب وتحمل المشاق أمور منها علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى الهمة وشرف النفس التخصيص، أنفة من خمول الضعة واستنكاراً لمهانة النقص.

- قال الماوردي - في بيان ما يلزم الإمام من أعمال: والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل والأمة ممنوعة من زلل.

والثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في

(١) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ص٢٩٩، ٣٠٣.

المعاش وينتشروا في الأسفار، آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه نصًّا واجتهادًا من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة[١].

- قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى

(١) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٧، ١٦.

ومحمد، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين [1].

- قال الماوردي: " والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يقتنع بالبُلْغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه؛ وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك بن دينار: أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بُلغته.

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: من رضي بالمقدور قنع بالميسور.

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سُنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، فأما الرغبة: فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة: فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت.

- قال الماوردي: " فينبغي لطالب العلم ألا يني في طلبه، وينتهز الفرصة به، فربما شحّ الزمان بما سمع، وضنّ بما منح، ويبتدئ من العلم بأوله، ويأتيه من مدخله، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرّ الجهل به فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله، فإن لكلّ علم فضولاً مذهلة وشروراً مشغلة، متى صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها ".

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٦ / ٢٠٩.

- قال الماوردي: " واعلم أن لكلّ مطلوب باعثاً، والباعث على المطلوب شيئان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً وراهباً، أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدّتا إلى كنه العلم " [(١)].

* * *

(١) أدب الدنيا والدين، ص٥٤.

القاضي عياض

أعــلام المؤرخــين

القاضي عياض

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون، أبو الفضل اليحصبيّ السبتي الغرناطي الأندلسي القاضي الإمام العلاّمة.

ولد بمدينة سبتة في شهر شعبان سنة ستّ وتسعين وأربعمائة ٤٩٦هـ؛ لذا فهو أندلسي الأصل، قال ابنه محمد: " كان أجدادنا في القديم بالأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك، وانتقل عمرون إلى سبتة بعد سكنى فاس.

في سبيل العلم رحل عياض إلى الأندلس سنة تسع وخمسمائة ٥٠٩هـ طالبًا للعلم، فأخذ بقرطبة عن مجموعة غير قليلة من العلماء، وأجاز له بعضهم، ثم انتقل إلى المشرق فأخذ عن مجموعة أخرى من العلماء؛ فهو بذلك جمع إلى جانب علم المغاربة علوم المشارقة حيث نهل من المنبع والمصبّ معًا.

وتذكر المصادر القديمة عشرات الشيوخ والأساتذة الذين تلمذ لهم الرجل؛ ففي قرطبة أخذ عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين، كما أخذ عن أبي الحسين بن سراج وأبي محمد بن عناب وغيرهم، وأجاز له أبو علي الغساني.

وفي المشرق: أخذ عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي، وأخذ أيضا عن أبي عبد الله المازني، وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوشي، وذكر ولده محمد مجموعة أخرى من الشيوخ منهم: أحمد ابن بقي، وأحمد بن محمد بن محمد بن مكحول، وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي، والحسن بن محمد بن سكره وغيرهم، وقال صاحب الصلة البشكوالية - بعد أن ذكر بعض شيوخه: وقد اجتمع له

من الشيوخ بين من سمع منه وبين من أجاز له مائة شيخ.

وكانت الحصيلة العلميّة التي استقاها من هؤلاء العلماء كبيرة جدّا؛ يقولون: إنه صار إمام وقته في الحديث وعلومه، والتفسير وعلومه، كما صار من أهل التفنن في العلم، واليقظة والفهم، حتى إنه بعد عودته من رحلاته العلمية أجلسه أهل سبتة للمناظرة في المدوّنة وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عنها، ثم أُجلس للشورى، ثم ولي قضاء بلده مدة طويلة، حمدت سيرته فيها، ثم نقل إلى قضاء غرناطة في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ٥٣١هـ.

ولقد أشارت المصادر القديمة بمكانته العلميّة؛ فقالت: إنه كان فقيهًا أصوليًّا، عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، بصيرًا حافظًا لمذهب مالك، ريّانًا في علم الأدب، خطيبًا بليغًا.

كما تحدثت عن كريم أخلاقه، فقالت: إنه كان صبورًا حليمًا، جميل العشرة، جوادًا سمحًا كثير الصدقة، دؤوبًا على العمل، صلبًا في الحقّ.

ونظراً لمكانته الدينية والعلمية قرّبه الموّحدون، حكّام المغرب في عصره، حيث رحل إلى أميرهم بمدينة سلا؛ فأجزل له العطاء وأوجب برّه، وظلّ عياض في رحابهم إلى أن اضطربت أمور الموحّدين عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة ٥٤٣هـ، حيث رحل إلى مراكش مشرّدا، بعيدًا عن وطنه، فكانت بها وفاته في شهر جمادى الثانية، وقيل في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ٥٤٤هـ، ودفن في باب أيلان. رحمه الله.

وصنّف القاضي عياض مجموعة ضخمة من المصنفات أهمها:

١ ـ الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

٢ ـ الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.

٣ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك.

٤ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

٥ ـ مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم.

٦ ـ المعلم في شرح مسلم.

وللأسف الشديد ضاع معظم مؤلفاته التي تقدر بعشرين مؤلفًا، ولم يبق منها إلا النّزر اليسير، وأهمّ الكتب التي أفلتت من يد الزمن (كتاب الشفا) الذي يبرز عقليّة الرجل ومنهجه في الفهم وطريقته في التأليف[١].

وكان لما ظهر أمر الموحدين بادر إلى المسابقة بالدخول في طاعتهم ورحل إلى لقاء أميرهم بمدينة سلا، فأجزل صلته، وأوجب بره، إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة فتلاشت حاله، ولحق بمراكش مشردًا به عن وطنه فكانت بها وفاته.

كان مولد القاضي عياض بسبتة في شهر شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة، وتوفي بمراكش في شهر جمادى الأخيرة وقيل: في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل: إنه مات مسمومًا سمه يهودي.

(١) د. أحمد جمال العمري، القاضي عياض ومفهومه للإعجاز القرآني، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤ /١٦٥.

ودفن رحمه الله تعالى بباب إيلان داخل المدينة.

وقيل: إنه قتل بالرماح لكونه أنكر عصمة ابن تومرت.

وكان القاضي - رحمه الله - أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالمًا بالتفسير وجميع علومه، فقيهًا أصوليًّا عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، بصيرًا حافظًا لمذهب مالك رحمه الله تعالى، شاعرًا مجيدًا وريانًا من علم الأدب، خطيبًا بليغًا صبورًا حليمًا جميل العشرة، جوادًا سمحًا كثير الصدقة، دؤوبًا على العمل، صلبًا في الحق.

وكان لا يخطب إلا بإنشائه، وله شعر كثير حسن رائق فمنه قوله:

يا من تحمل عنى غير مكترث ::: لكنه للضنى والسقم أوصى بى

تركتني مسهام القلب ذا حرق ::: أخا جوى وتباريح وأوصاب

أراقب النجم في جنح الدجى سمرًا ::: كأننى راصد للنجم أو صابى

وله رحمه الله تعالى:

الله يعلم أنى منذ لم أركم ::: كطائر خانه ريش الجناحين

ولو قدرت ركبت الريح نحوكم ::: فإن بعدكم عنى جنى حينى

وله من أبيات:

إن البخيل بلحظه أو لفظه ::: أو عطفه أو رفقه لبخيل

وله في خامات الزرع بينها شقائق النعمان:

انظر إلى الزرع وخاماته ::: تحكي وقد ماست أمام الرياح

كتيبة خضراء مهزومة ::: شقائق النعمان فيها جراح

وله في لزوم ما لا يلزم:

إذا ما نشرت بساط انبساطٍ ::: فعنه فديتك فاطو المزاحا

فإن المزاح على ما حكاه ::: أولو العلم قبلي عن العلم زاحا

ومدحه أبو الحسن بن هارون المالقي الفقيه المشاور بقوله:

ظلموا عياضاً وهو يحلم عنهم ::: والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عيناً في اسمه ::: كي يكتموه فإنه معلوم
لولاه ما ناحت أباطح سبتةٍ ::: والروض حول فنائها معدوم

خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن:

وخطب القاضي أبو الفضل عياض خطبة ضمنها سور القرآن فقال

الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه وبين في سورة البقرة أحكامه ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وآلر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصديق في دار الكرامة وسبح الرعد بحمده وجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ إلا إليه ولا يظلمون قلامة وجعل في حروف كهيعص سرًّا مكنونًا قدم بسببه طه على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلا وصغارًا لعظمته وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم نزل به الروح الأمين على زين من وافى يوم القيامة وأوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لرب الأحزاب فسبا فاطر السماوات أهل الطاغوت وأكسبهم ذلا وخزيًا وحسرة وندامة وأمد يس بتأييد الصافات فصاد الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القليب مكدوس ومكبوب حين شالت بهم النعامة وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين رضي الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة العذاب وأيس من

السلامة ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف بقتال أعداء محمد يمينه وشماله وخلفه وأمامه فأعطوا الفتح وبوئوا حجرات الجنان وحين تلوا ق والقرآن المجيد وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السآمة ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة.

واعترف بالضعف لهم الحديد وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين حين نافروا السلامة.

أحمده حمد من امتحنته صفوف الجموع في نفق التغابن فطلق الحرمات حين اعتبر الملك وعامه وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه وقد ناح نوح الجن فتزمل وتدثر فرقًا من يوم القيامة وأنس بمرسلات النبأ فنزع العبوس من تحت كور العمامة وظهر له بالانفطار التطفيف فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة فورب الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرحت صدور المتقين حين تلوا سورة التين وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يبين ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفئوا نور القارعة ولم يلههم التكاثر حين تلوا سورة العصر والهمزة وتمثلوا بأصحاب الفيل:{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾} [قريش: ٣ - ٤]، أرأيتهم كيف جعلوا على رءوسهم من الكور عمامة فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصروا وعدل بهم عن لهب الطامة وبسورة الإخلاص قروا وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا

فأعيذوا من كل حزن وهم وغم وندامة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة تنال بها منازل الكرامة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت في الأيك حمامة [1].

* * *

(١) قلائد العقيان: ٢٢٢، الصلة ٢ / ٤٥٣، ٤٥٤، الخريدة في ١٢ / ١٧٣ - ١٧٥، بغية الملتمس رقم (١٢٦٩)، إنباه الرواة ٢ / ٣٦٣، ٣٦٤، التكملة لابن الأبار: ٦٩٤، معجم ابن الأبار: ٣٠٦ - ٣١٠، تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ٤٣، ٤٤، وفيات الأعيان ٣ / ٤٨٣ - ٤٨٥، المختصر ٣ / ٢٢، تاريخ الإسلام: وفيات ٥٤٤، دول الإسلام ٢ / ٦١، العبر ٤ / ١٢٢، ١٢٣، تذكرة الحفاظ ٤ / ١٣٠٤ - ١٣٠٧، معجم الوادي آشي: ٢١١ - ٢١٤، تتمة المختصر ٢ / ٧٨، البداية والنهاية ١٢ / ٢٢٥، الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ / ٢٢٢ - ٢٣٠، المرقبة العليا للنباهي: ١٠١، الديباج المذهب ٢ / ٤٦ - ٥١، طبقات ابن قنفذ: ٢٨٠، النجوم الزاهرة ٥ / ٢٨٥، طبقات الحفاظ للسيوطي: ٤٨٠، مفتاح السعادة ٢ / ١٤٩، جذوة الاقتباس: ٢٧٧، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري، نفح الطيب ٧ / ٣٣٣ - ٣٣٥، كشف الظنون ١٢٧، ١٥٨، ٢٤٨، ٣٩٥، ٥٧٧، ١٠٥٢، ١١٨٦، ١٢١١، ١٧٧٩، ١٩٦١، شذرات الذهب ٤ / ١٣٨، ١٣٩، تاج العروس ١ / ٢١٦ (حصب)، أجلى المسانذ: ٣١، روضات الجنات ٥٠٦، ٥٠٧، هدية العارفين ١ / ٨٠٥، إيضاح المكنون ٢ / ٢٤٣، ٢٤٤، سلوة الأنفاس ١ / ٥١، فهرس الفهارس ٢ / ١٨٣ - ١٨٩، معجم المطبوعات: ١٣٩٧، شجرة النور الزكية ١ / ١٤٠، ١٤١، الفهرس التمهيدي: ٣٨٦، تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٨٣، تاريخ بروكلمان ٦ / ٢٦٦ - ٢٧٥، سير أعلام النبلاء، ٢٠ /٢١٧، جمهرة خطب العرب، ٣ /٢٢٠.

ابن القيم

الإمام الفقيه ابن القيم

أعـلام المؤرخـين

الإمام الفقيه ابـن القيم

هو الفقيه الأصولي أبو عبد الله الشمس محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ).

نشأ في كنف والده، ودرس على عدد من أهل العلم بعدما حفظ القرآن وسمع حديث النبي ﷺ وتفقه بمذهب الحنابلة حتى برع فيه، وأفتى، وتفنن في علوم الإسلام، تفسيراً وحديثاً، وعقيدة وعربية، وسلوكاً، وفقهاً وطبًّا، وغير ذلك.

وقد نفعه الله كثيراً بشيخ لازمه وانتفع به وهو الشيخ أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ)، ونجاه الله من هلكة البدع والأهواء، فصاحبه ستة عشر عاماً حتى أضحى أبرز تلاميذه وأشهرهم، بعد أن كان سبباً في هدايته من مزالق المذاهب الفاسدة حيث يقول ابن القيم في ذلك نظماً:

يا قوم والله العظيم نصيحة ::: من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في ::: تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ::: من ليس تجزيه يدي ولساني
حَبْرٌ أتى من أرض حران فيا ::: أهلاً بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله ::: من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي فسار ولم يرم ::: حتى أراني مطلع الإيمان
ورأيت أعلام المدينة حولها ::: نزل الهدى وعساكر القرآن
ورأيت آثاراً عظيماً شأنها ::: محجوبة عن زمرة العميان
ووردت رأس الماء أبيض صافياً ::: حصباؤه كلآلئ التيجان

وقد لازمه حضراً وسفراً وسجناً، حتى سجن معه في سجن القلعة بدمشق سنة (٧٢٦هـ) إلى وفاة شيخه سنة (٧٢٨هـ) حيث خرج بعدها.

ومع اشتغاله بالتعلم والتعليم فقد أخذ عنه العلم الجم الغفير من العلماء، لما رزقه الله من حسن الخلق ولين الجانب، وممن انتفع به:

١ - أخوه الزين عبد الرحمن بن القيم (ت ٧٦٩هـ).

٢ - وأبناؤه ومنهم البرهان إبراهيم بن محمد بن القيم وهو النحوي صاحب شرح الألفية، وابنه عبد الله وهو الحافظ الذكي.

٣ - والحافظ ابن عبد الهادي المقدسي الحنبلي.

٤ - ومنهم الحافظ الزين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.

أما عبادته وعلمه، فقد قيل: إنه ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانقياد له والانكسار بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك. ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله. وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين - ابن تيمية - في المرة الأخيرة في القلعة، منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم. وتصانيفه ممتلئة بذلك.

وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يُتعجب منه.

ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها.

وله في الفنون العلمية - في علوم الإسلام - اليد الطولى. (انتهى كلام تلميذه الحافظ ابن رجب).

أما تصانيفه فكثيرة جدًّا في أنواع العلم، مع شدة محبته للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكتب، حتى اقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره. وكتب بيده وبخطه ما لا يوصف شهرةً ونال من ذلك بعض مصنفات شيخه أبي العباس ابن تيمية.

ومن عيون ما كتب وألّف:

١ - زاد المعاد في هدي خير العباد. وصفه ابن رجب بكونه في أربعة مجلدات خطية وهو كتاب عظيم جدًّا.

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين. وصفه ابن رجب بكونه في ثلاثة مجلدات.

٣ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. وصفه ابن رجب بكونه في ثلاثة مجلدات.

٤ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. مجلدان.

٥ - تهذيب سنة أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته. مجلد.

٦ - مدارج السالكين في بيان منازل إياك نعبد وإياك نستعين. مجلدان، وهو كتاب جليل القدر.

ومن أهم مؤلفات ابن القيم:

١ - أبدية الجنة والنار = رسالة في أبدية الجنة والنار:

- وهو في الواقع قطعة من كتابه " حادي الأرواح ".

٢ - اجتماع الجيوش الإسلامية.

أسماء مؤلفات ابن تيمية:

٣ - أقسام الحيل ومراتبها.

٤ - أقسام القرآن.

٥ - أمثال القرآن وتفسيرها لابن القيم.

٦ - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار.

حرف الباء(*)

١ - بدائع الفوائد.

٢ - بلوغ السؤل من أقضية.

٣ - " التبيان في أيمان القرآن " وهو " أقسام القرآن لابن القيم ".

٤ - تحفة المودود في أحكام المولود.

٥ - تفسير سورة الفلق لابن القيم.

٦ - تهذيب مختصر سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة لابن القيم.

حرف الجيم

١ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.

٢ - " الجواب الكافي " أو " الداء والدواء ".

حرف الحاء

١ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

٢ - حادي الأرواح.

حرف الدال

١ - الداء والدواء.

٢ - دلائل النبوة.

٣ - دواء القلوب:والظاهر أنه الداء والدواء.

حرف الراء

١ - رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه.

٢ - الرسالة التبوكية.

٣ - رسالة في أبدية الجنة والنار.

٤ - رسالة في الإرشاد.

٥ - رسالة في تفسير قوله تعالى:{ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ} [سبأ: ٦] الآية.

٦ - رسالة في حق الشفعة.

٧ - رسالة في العمل بالخطوط.

٨ - رسالة في الفرق بين ذوق السماع وقراءة القرآن.

٩ - رسالة في قوله تعالى:{وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ} [المائدة: ٢] الرسالة التبوكية.

١٠ - رفع اليدين في الصلاة.

١١ - الروح لابن القيم.

١٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين:

١٣ - " روضة العاشق ونزهة الوامق "، هي روضة المحبين لابن

القيم:

حرف الزاي

١ - زاد المعاد في هدي خير العباد:

حرف السين

١ - سفر الهجرتين وباب السعادتين = انظر طريق الهجرتين..

حرف الشين

١ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل:

٢ - شرح الصلاة = الصلاة.

٣ - شرح منازل السائرين = مدارج السالكين في بيان منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

حرف الصاد

١ - كتاب الصلاة:

٢ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة:

٣ - صيغ الصلوات على النبي ﷺ :

حرف الطاء

١ - الطب النبوي.

٢ - الطرق الحكمية.

٣ - طريق الهجرتين ومفتاح السعادتين.

حرف العين

١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

حرف الغين

١ - غزو الجيوش الإسلامية في الرد على المعطلة والجهمية.

وانظر اجتماع الجيوش.

حرف الفاء

١ - الفروسية.

٢ - فصل يتعلق بأسرار الصلاة.

حرف القاف

١ - القصيدة الميمية = الميمية.

٢ - القطر الطيب من الكلم الطيب.

حرف الكاف

١ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: النونية.

٢ - " الكلم الطيب والعمل الصالح " وهو " الوابل الصيب ".

حرف الميم

١ - مجموع رقم ٤٧٦٧.

٢ - مجموع فوائد ومسائل متفرقة.

٣ - مجموع.

٤ - مختارات من إعلام الموقعين = إعلام الموقعين.

٥ - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة.

٦ - مختصر هدي الرسول ﷺ لابن القيم.

٧ - مختصر الهدي النبوي " زاد المعاد " للشيخ محمد بن عبد

الوهاب.

٨ - مدارج السالكين شرح منازل السائرين.

٩ - معرفة أنواع علم الحديث.

١٠ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.

١١ معاني الأدوات والحروف.

١٢ - المنار المنيف في الحديث الضعيف.

١٣ - مناسك الحج.

١٤ - منتخب إغاثة اللهفان.

١٥ - من فتاوى النبي ﷺ في الحج.

حرف الهاء

١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

٢ - الهدي النبوي: زاد المعاد.

حرف الواو

١ - الوابل الصيب = الكلم الطيب [١].

مِحَنُه وَوَفَاتُه:

لقد عاش ابن القيِّم - رحمه الله - في مجتمع كان يسوده كثير من السلبيات والمفاسد الدينية والأخلاقية، وكان ابن القيِّم - في ظل هذه الأوضاع السيئة - صاحب رسالة سامية، وأهداف نبيلة، ومبادئ إصلاحية يهدف من ورائها: إلى الرجوع بالناس إلى ما كان عليه

(١) الأثبات في مخطوطات الأئمة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب.

سلف هذه الأمة من التمسك بالكتاب والسنة ونبذ البدع والخرافات والتقليد والتعصب.

لكن طريقه هذا الذي سار فيه لم يكن سهلاً ميسوراً، بل كان محفوفاً بالمشاقِّ، فنزلت به بسبب ذلك محن عديدة، وتعرَّض لإيذاء واضطهاد وفتن أثناء جهاده لنشر دعوته، وسعيه لإصلاح حال مجتمعه.

فلم يكن من السهل على هذا المجتمع الذي سيطرت عليه الأفكار الدخيلة، وسادته البدع المتوارثة، أن يستجيب لهذا المصلح المجاهد الذي بزغ نوره في هذا الظلام الحالك، وكيف يتم له ذلك ولهذه البدع حُرَّاسٌ وحماةٌ من أمراء البلاد وحُكَّامها، بل ومن بعض المُنْتَسِبين إلى العلم أنفسهم؟!

فقد كان الأمر صعباً إذاً، والمواجهة على أشدِّها، وظهر في الساحة أعداء لابن القيِّم، يتربصون به الدوائر، ويحيكون ضده الدسائس والمؤامرات، كما فعلوا من قبل مع شيخه وأستاذه.

إنكاره شَدُّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل، ومحنته بسبب ذلك:

من البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرب الناس بها إلى الله: بدعة شَدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام.

فقام ابن القيِّم - رحمه الله - في وجه هذه البدعة منكراً لها، ومبيناً مخالفتها لسنة رسول الله ﷺ وهَدْيه، فما كان من أعدائه وشانئيه إلا أن قاموا ضِدَّه، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك.

قال الحافظ الذهبي: " وقد حبس مدة وأوذي لإنكاره شدَّ الرحل إلى

قبر الخليل " [١].

والظاهر أن هذه هي المرة التي حبس فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة رحمه الله؛ ذلك أنه في السادس عشر من شعبان سنة ٧٢٦هـ اعْتُقِل الشيخ ابن تَيْمِيَّة في قلعة دمشق، وذلك بسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام " أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم.. وعزَّرَ جماعة منهم على دواب ونودي عليهم، ثمَّ أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية؛ فإنه حُبِس بالقلعة، وسكتت القضية ".

ولعل في إطلاقهم كل رفاقه وإبقائه وحده في الحبس، ما يُبَيِّنُ لنا مدى الحِنْق الذي كان في نفوس أعدائه - من أهل البدع - ضده، ويبين لنا في الوقت نفسه، ما كان لابن القيِّم من دور بارز، وتأثير بالغ في الناس آنذاك، مما جعل هؤلاء يخشونه على بدعهم، فرأوا أن يحجبوه في السجن.

ولكن شاء الله سبحانه أن يشاطر ابن القيِّم شيخه محنته هذه، فَسُجن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان (منفرداً عنه)[٢].

ولقد كان للحاقدين على شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة وتلميذه ابن القيِّم دورٌ قبيح في حبسهما، وتدبير الشر ضدهما، ذلك أنهم حرَّفوا فتوى ابن تَيْمِيَّة: بأنه يُحَرِّمُ زيارة قبور الأنبياء مطلقاً، ويعتبر ذلك معصية، مع أن الشيخ - وكذا تلميذه - " لم يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك.. ولا قال: إنها

---

(١) المعجم المختص، ص٢٩٦، البداية والنهاية، ١٢٨/١٤.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة، (٤٤٨/٢).

معصية.. ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ:﴿زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة﴾. والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا تخفى عليه خافية "(١).

ويَحكي المقريزي - رحمه الله - هذه الواقعة - مبيناً ملابساتها وظروفها - بأوسع من هذا، وأن ابن القيِّم - رحمه الله - قد ضُرب في هذه المرة قبل أن يُحبس، فيقول: (وفي يوم الاثنين سادس شعبان - يعني سنة ٧٢٦هـ - حُبِس تقي الدين أحمد بن تيمية، ومعه أخوه زين الدين عبد الرحمن بقلعة دمشق. وضُرِب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية، وشُهِّرَ به على حمار بدمشق.

وسبب ذلك: أن ابن قيِّم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق.

وكان قد وقع من ابن تَيْمِيَّة كلام في مسألة الطلاق بالثلاث: (أنه لا يقع بلفظ واحد، فقام عليه فقهاء دمشق، فلما وصلت كتب المَقادِسَة في ابن القيِّم، كتبوا في ابن تَيْمِيَّة وصاحبه ابن القيِّم إلى السلطان، فعرف شمس الدين الحريري - قاضي القضاة الحنفية بديار مصر - بذلك، فشَنَّع على ابن تَيْمِيَّة تشنيعاً فاحشاً، حتى كتب بحبسه، وضُرِبَ ابن القيِّم)(٢).

وقد ظل ابن القيِّم محبوساً مدة، ولم يُفْرَج عنه إلا بعد وفاة شيخه بشهر؛ ذلك أن ابن تَيْمِيَّة قد توفي في محبسه بالقلعة في العشرين من

(١) البداية والنهاية، (١٢٩/١٤).
(٢) السلوك، (٢٧٣/١/٢).

ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ)، (وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أُفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبد الله شمس الدين بن قيِّم الجوزية)[١].

وقد امتحن ابن القيِّم - رحمه الله - غير هذه المرة أيضاً:

فتواه بجواز السباق بغير مُحَلِّل ومحنته بسبب ذلك:

كان ابن القيِّم - رحمه الله - يُفتي بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير مُحَلّل، وَصنَّف في ذلك كتابه: (بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال) أو: (بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل)[٢].

وقد أشار ابن حجر - رحمه الله - إلى محنته هذه، فقال: " وجرت له محن مع القضاة، منها: في ربيع الأول - يعني سنة ٧٤٦هـ - طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير مُحَلّل، فأنكر عليه وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يُفتي به من ذلك " [٣].

وحكى ابن كثير هذه الحادثة، ولكنه ذكر ما يفيد أن ابن القيِّم كان يفتي في ذلك برأي شيخه، وصَنَّف هذا المصنف لنصرة رأي الشيخ، ثم صار يفتي به دون نسبته إلى شيخه، فظنوه قوله، فحصل له ما حصل، ثم (انفصل الحالُ على أن أظهر الشيخ شمس الدين.. الموافقة للجمهور)[٤].

قال الشيخ بكر أبو زيد: " وقضية الرجوع محل نظر، فلا بد من

---

(١) البداية والنهاية، (١٤/١٤٥).
(٢) انظر مؤلفات ابن القيِّم.
(٣) الدرر الكامنة: (٤/٢٣).
(٤) البداية والنهاية: (١٤/٢٢٧).

تثبيت ذلك، وأرجو من الله تعالى أن يمنَّ عليَّ بما يدل على ذلك، نفياً أو إثباتاً " [١].

قلت: أما كتبه التي بين أيدينا، فليس فيها ما يدل على رجوعه، وبخاصة كتاب (الفروسية)، ولكن ابن كثير - رحمه الله - يحكي ما شاهده بنفسه من إظهاره الموافقة للجمهور، فهل أظهر ابن القيِّم ذلك دفعاً للشر عن نفسه دون أن يرجع حقيقة عن رأيه؟ الله أعلم.

والذي يهمنا في هذه القضية: أن ابن القيِّم - رحمه الله - قد امتحن من القضاة بسببها، وأوذي في سبيل ذلك.

فتواه في مسألة الطلاق الثلاث ومحنته بسبب ذلك:

وقد امتحن ابن القيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تَيْمِيَّة أيضاً.

ويشير ابن كثير - رحمه الله - إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: " وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره " [٢].

ولم يبين لنا ابن كثير ما وقع له بسب ذلك، لكن الظاهر أنه لم يُحْبَس إلا في المرة التي كان فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة، وذلك بسبب فتوى شد الرحل، وأما مسألة الطلاق، وكذا مسألة المحلل في السباق، فيظهر أنه جرت له بسببهما فتن ومحن مع القضاة فحسب، وأنه لم يُسجن بسبب ذلك، وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه سُجن بسبب هذه

(١) ابن قيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص٤٣).
(٢) البداية والنهاية: (١٤/٢٤٦ - ٢٤٧).

الفتاوى كلها[١].

ولم أر ما يدل على ذلك، ولعل كلام ابن رجب صريح في أنه لم يُحبس إلا في تلك المرة مع الشيخ، فقد قال: " وقد امتُحن وأُوذي مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة في القلعة.. " [٢].

ومما يؤكد - أيضاً - أن فتواه في مسألة الطلاق قد سببت له مشكلات مع القضاة، ما حكاه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - من الصلح الذي تم بين السبكي وابن القيِّم، فقد ذكر في أحداث سنة ٧٥٠هـ - قبل موت ابن القيِّم بعام واحد - في السادس عشر من شهر جمادى الآخرة منها، أنه (حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبين الشيخ شمس الدين بن قيِّم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق)[٣].

فالمقصود أنه - رحمه الله - ابتلي وأوذي وامتحن بسبب صدعه بالحق، وإعلانه رأيه وما يعتقده دون مجاملة أو خوف من أحد، فرحم الله ابن القيِّم رحمة واسعة، وجزاه عما قدَّم خير الجزاء.

٢ - وفاتُه:

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجهاد المتصل لنشر منهج السلف، ومحاربة كثير من الانحرافات التي ابتدعها الخلف، وما لقيه من محن في سبيل ذلك، وبعد أن كَمُلَ له من العمر ستون سنة، توفي هذا الإمام

(١) ابن قيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص٤٢).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٤٨/٢).
(٣) البداية والنهاية: (٢٤٤/١٤).

العالم العلامة، وذلك في ليلة الخميس، ثالث عشر من شهر رجب، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة (٧٥١هـ) وقت أذان العشاء[١].

ووقع عند ابن رجب: (ثالث عشرين رجب)[٢]. ولعله تصحيف طباعي، فتكون كلمة (من) تصحفت إلى (ين)؟ وذلك لاتفاق المصادر على ما قدمناه من أنه كان في ثالث عشر؛ ولأن ابن رجب من تلاميذ ابن القيِّم المقرَّبين، فيبعد أن يخفى عليه يوم وفاته.

ووقع في (البدر الطالع) [٣]أنه كان في (ثالث شهر رجب)، وهذا خطأ أيضاً.

وقد صُلِّيَ عليه - رحمه الله - من الغد عقب صلاة الظهر بالجامع الأموي، [٤]ثم بجامع جَرَّاح[٥].

ولأن ابن القيِّم - رحمه الله - كان قائماً لله بالحق، صادقاً في النصح للخلق فقد " كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه " [٦].

فقد " شَيَّعَه - رحمه الله - خلق كثير " [٧]، " وكانت جنازته مشهودة "،
" وحافلة جدًّا " [٨].

---

(١) الوافي بالوفيات: (٢٧٢/٢)، البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤)، والدرر الكامنة: (٢٣/٤).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).
(٣) (١٤٥/٢).
(٤) البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).
(٦) البداية والنهاية: (٢٤٧/١٤).
(٧) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).
(٨) الرد الوافر: (ص٦٨). الدرر الكامنة: (٢٣/٤).

نعم لقد كانت جنازته حافلة عامرة، شهدها كثير من الخلق، كما كانت جنازة شيخه رحمه الله، التي لم يتخلف عنها من أهل دمشق سوى ثلاثة نفر، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: " قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز ".

كانت هذه جنازته - رحمه الله - مع ما كان له في قلوب الكثيرين من العداوات، ومع ما حِيكَ ضده من المؤامرات.

وَدُفِنَ - رحمه الله - عند والدته بمقابر الباب الصغير.

وقد رُؤِيَتْ له بعد موته " منامات كثيرة حسنة ".

وكان هو - رحمه الله - " قد رأى قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين - رحمه الله - في النوم، وسأله عن منزلته؟ فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله ".

فرَحِمِ الله ابن القيِّم رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً، وأسكنه فسيح جناته، آمين [١].

* * *

---

(١) كتاب ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة.

محمد بن شاكر الكتبي

المؤرخ محمد بن شاكر الكتبي
صاحب كتاب فوات الوفيات

هو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين [1]: داراني المولد دمشقي الدار، سمع من ابن الشحنة والمزي وغيرهما من علماء بلده، ولكنه حصل أكثر ثقافته - فيما يبدو - عن طريق الوراقة والمتاجرة بالكتب، وقد كان شديد الفقر قبل أن يجد الحرفة الملائمة، فلما غدا كتبياً توفر له من عمله مال طائل. وربما كانت جودة خطه ووضوحه، وذلك الاتقان في الوراقة جملة مما كفل له إقبال الناس على ما ينسخه من كتب، وكسب له حسن المعاملة في التجارة مزيداً من ذلك الإقبال، فقد وصف بأنه كان ذا مروءة في معاملته للناس؛ كذلك كان يذاكر بعض معارفه ويفيد، غير أنه لم يشتهر بين معاصريه بثقافته، وإن وصف نفسه في مقدمة الفوات بإكثاره من مطالعة كتب التاريخ، ولم ينل من عمق الثقافة ودقة الحكم ما ناله مشهورو الوراقين أمثال أبي حيان التوحيدي وياقوت الحموي، بل ظلت ثقافته تقميشاً وتنسيقاً. ويبدو لمن يطلع على نسخة الفوات أن الرجل كان لا يكترث كثيراً بمراعاة الأصول النحوية واللغوية، وربما كانت معرفته بالنحو واللغة بسيطة ساذجة، وهذا يبدو واضحاً إذا قارناه بمؤلفي كتب التراجم من معاصريه، فهم يميلون - في الأغلب - إلى استعمال أسلوب مبسط فيه كثير من طبيعة الحديث الدارج، ولكنهم لا يبلغون في ذلك مبلغ ابن شاكر.

---

(١) أصل المعلومات عنه عند ابن كثير، البداية والنهاية ١٤: ٣٠٢ - ٣٠٣، وترجم له ابن حجر ترجمة موجزة في الدرر الكامنة ٤: ٧١، ونقلت تلك الترجمة بنصها في الشذرات ٦: ٢٠٣، وانظر كشف الظنون ٢: ١١٨٥، حيث يذكر أن لقبه " فخر الدين "، وهدية العارفين ٢: ١٦٣.

ولا نعرف على وجه قاطع متى ولد ابن شاكر؛ وفي إحدى نسخ الدرر الكامنة أن ذلك كان عام ٦٨٦هـ، وهو تاريخ غير مستبعد، إلا أننا نعرف على وجه اليقين أنه عاش حتى شهر رمضان سنة ٧٦٤ هـ؛ يقول ابن كثير: " وفي يوم السبت الحادي عشر من رمضان من العام المذكور صلينا بعد الظهر على الشيخ محمد بن شاكر الكتبي " وبعد شهر، وفي ١٠ شوال ٧٦٤ هـ على التحديد، توفي معاصره الشيخ صلاح الدين الصفدي.

مؤلفات الكتبي:

١ ـ عيون التواريخ: ذكر حاجي خليفة أنه في ست مجلدات، وقال صاحب هدية العارفين: إنه في ٢٨ مجلداً، وإليه أشار ابن كثير حين قال: وجمع تاريخاً مفيداً نحواً من عشر مجلدات ولعل الاختلاف في عدد أجزاء الكتاب راجع إلى تفاوت في طبيعة النسخة التي اطلع عليها كل واحد منهم، وفي مكتبات استانبول عدة نماذج من نسخ هذا الكتاب، تشير إلى هذا التفاوت في التجزئة.

٢ ـ روضة الأزهار في حديقة الأشعار، ذكره صاحب هدية العارفين.

٣ ـ فوات الوفيات والذيل عليها.

كتاب فوات الوفيات:

يستفاد من المقدمة القصيرة التي صدر بها الكتبي كتابه هذا أنه قام يجمعه وترتيبه بعد أن اطلع على وفيات الأعيان لابن خلكان فوجد أنه لم يذكر أحداً من الخلفاء وأنه أخل بتراجم بعض فضلاء زمانه وجماعة ممن تقدم على أوانه، فأحب أن يستدرك عليه ما فاته ويذيل على كتابه؛ وفي ذكر هذه الغاية على هذا النحو شيء من المغالطة، فإن ابن خلكان قد صرح بأنه لا ينوي أن يترجم للخلفاء، وأنه لن

يدرج في كتابه إلا من عرف سنة وفاته، ولم يكن إغفاله الكثيرين (لذهول عنهم أو لأنه لم تقع له ترجمة أحد منهم) كما يدعي الكتبي، وإنما جرى ذلك خضوعاً لمنهج محدد.

ويتراءى لي أن مؤلف الفوات وجد أمامه كتاب الصفدي (الوافي بالوفيات) فاختار منه عدداً من التراجم (ربما لم تزد على ستمائة)، وجعل مصنفه الجديد في أربعة مجلدات، وتولى ما ينقله ببعض الاختصار، ولم يزد شيئاً في المعلومات التاريخية والإخبارية، وإنما زاد في بعض المختارات الشعرية، وأكثر منها بشكل واضح في بعض التراجم؛ وحاول حقًّا ألا يكرر ما أورده ابن خلكان من تراجم، إلا أن ذلك لم يكن مضطردًا دائمًا.

ويبدو أن الكتبي كان يصنع كتبه بالاتكاء على مؤلفات معاصريه من مؤلفي الموسوعات، فقد ذكر حاجي خليفة أيضاً أنه في (عيون التواريخ) يتتبع في الغالب ابن كثير، (ولا سيما في الحوادث، وكثيراً ما ينقل منه صفحة فأكثر بحروفه).

متى ألف الكتبي كتاب الفوات؟

في آخر نسخة الفوات التي كتبها المؤلف أن العمل قد تم سنة ٧٥٣هـ؛ إن هذا التاريخ إن لم يكن تاريخاً لتأليف الكتاب فإنه يعد تاريخ الصورة النهائية التي اعتمدها مؤلفه وارتضاها، وربما أنه يتكئ على الصفدي فيما نقله، فإن هذا التاريخ يشير إلى أن الصفدي نفسه كان قد انتهى من تأليف كتابه قبل ذلك العام [(١)].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب فوات الوفيات، للمؤلف محمد بن شاكر الكتبي، من تحقيق إحسان عباس، ونشر دار صادر - بيروت.

ابن القلانسي

أعــلام المؤرخــين

المؤرخ الكبير

ابن القلانسي صاحب كتاب تاريخ دمشق

ترجم لابن القلانسي عدد من المؤرخين يتصدرهم ابن عساكر ثم ياقوت وبعده الذهبي، ولما ذكره ابن عساكر مكانة خاصة للزمان والمكان، ومما قاله عنه ابن عساكر: " حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي، العميد كانت له عناية بالحديث، وكان أديباً له خط حسن ونثر ونظم.. وصنف تاريخاً للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، وتولى رئاسة ديوان دمشق مرتين ".

وقال عنه ياقوت: " حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى، المعروف بابن القلانسي التميمي الأديب الشاعر، المؤرخ، كان من أعيان دمشق ومن أفاضلها المبرزين، ولي رئاسة ديوانها مرتين، وبها توفي سنة خمس وخمسين، وله تاريخ للحوادث، ابتدأ به من سنة إحدى وأربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، وكانت له عناية بالحديث، وله كتب عليها سماعه ".

وقد أورد كل من ابن عساكر وياقوت نماذج من شعر من ابن القلانسي، لكنهما وإن ذكرا تاريخ وفاته لم يحددا تاريخ مولده أو سنّه حين الوفاة، وقد تولى الذهبي ذلك فبين أنه جاوز الثمانين أثناء وفاته وكان دون التسعين، وعن الذهبي نقل كل من أبي المحاسن في النجوم الزاهرة واليافعي في مرآة الجنان.

وجرت العادة لدى كثير من الأوائل الإشارة إلى أنفسهم في مصنفاتهم، حيث يمكن في أيامنا استخراج المعلومات من هذه الإشارات، وفيما يختص بابن القلانسي لم يشر إلى نفسه قط في

مصنفه أو تحدث عن دور من أدواره سيما وأنه كان من كبار رجالات الدولة في دمشق، نعم هناك إشارات غير مباشرة إلى بعض مواقفه السياسية وتذوقه للأدب، فهو قد ضمن كتابه عدة قصائد من نظمه، كما أثبت بعض نصوص الوثائق الديوانية الواردة إلى دمشق لإعجابه بصياغتها.

ولئن انعدمت إشاراته لنفسه فهناك بعض الإشارات لأفراد من أسرته، من ذلك أنه ذكر في حوادث سنة ٥٣٩: " وفي يوم السبت الثالث عشر من رجب من السنة، توفي الأخ الأمين أبو عبد الله محمد بن أسد ابن علي بن محمد التميمي عن أربع وثمانين سنة، بعلة الذرب، ودفن بتربة اقترحها خارج باب الصغير من دمشق، وكان على الطريقة المرضية من حسن الأمانة والتصون والديانة، ولزوم داره، والتنزه عن كل ما يوتغ الدين، ويكره بين خيار المسلمين، غير مكاثر للناس، ولا معاشر لهم، ولا متخلط بهم ".

وعلى أهمية هذه الإشارة كم كنا نتمنى لو أنه ذكر الفارق بالسن بينه وبين أخيه.

ومن ثنايا مواد ابن القلانسي نرى بأن أسرته كانت من كبار أسر دمشق، وأعظمها مكانة، فهو قد تحدث في وقائع سنة ٥٤٨ هـ عن الاضطرابات في دمشق، وبين أن هذه الاضطرابات انتهت حينما " ردّ - سلطان دمشق - أمر الرئاسة - رئاسة دمشق - والنظر في البلد.. إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي، وطاف في البلد مع أقاربه، وسكن أهله، وسكنت الدهماء، ولم يغلق في البلد حانوت ولا اضطرب أحد، واستبشر الناس قاطبة من الخاص والعام والعسكرية وعامة الرعية ".

واحتفظت أسرة آل القلانسي بمكانتها العالية في دمشق لعدة قرون فقد تحدث كل من ابن كثير، وابن طولون وبدران عن " الصاحب عز الدين أبو يعلى حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن عز الدين ابن غالب بن المظفر ابن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي ابن حمزة التميمي الدمشقي، ابن القلانسي، أحد رؤساء دمشق الكبار، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الحديث من جماعة ورواه.. وله رئاسة باذخة، وأصالة كثيرة، وأملاك هائلة كافية لما يحتاج إليه من أمور الدنيا، ولم يزل مع صناعة الوظائف إلى أن ألزم بوكالة بيت السلطان، ثم بالوزارة ".

وابن القلانسي هذا هو حفيد لمؤرخنا، وهو الذي بنى دار الحديث القلانسية في صالحية دمشق، ولعله بناها على تربة جده المؤرخ، ذلك أنه دفن في سفح جبل قاسيون.

وعلى العموم نجد أن ما جاء في كتب التراجم وفي ثنايا تاريخ ابن القلانسي عبارة عن مواد مقتضبة، فهي وإن تحدثت عن ثقافته العالية واهتمامه بالحديث فإنها لم تذكر اسم واحد من أساتذته ولا من تأثر بهم ثقافياً، ولا عن سلوكه ونشاطاته وصفاته الخلقية والخُلقية، وغير ذلك من الأمور التي بودنا لو عرفناها.

ومهما يكن الحال فإن كتابه في التاريخ وعمله في ديوان " الإنشاء " بمثابة رئيس له تدل على علو ثقافته وتمكنه من ناصية اللغة، ومن المفيد هنا أن نشير إلى أنه وإن شابه أهل عصر في اهتمامه بالصنعة والمترادفات، إلا أنه لم يسرف في ذلك كما أسرف العماد الأصفهاني وسواه ولا شك أن رئاسته للديوان جعلته وسط أخبار الوقائع والأحداث مع شيء من المشاركة، ومكنته من الاطلاع على الوثائق الرسمية على مختلف أنواعها سيما وأنه تسلم ديوان الحساب -

الخـراج - لفتـرة مـن الـزمن، جامعًـا بينـه وبـين ديـوان الإنشـاء - الرسائل.

ومرّ بنا قول ابن عساكر ثم ياقوت أنه بدأ مصنفه في التاريخ بحوادث ما بعد سنة أربعين أو إحدى وأربعين حسب تحديد ياقوت، وهذا التحديد فيه شيء من الوهم، لعل مرده إلى النساخ، فابن القلانسي بدأ كتابه بحوادث سنة /٤٤٨ هـ/ وصرح بأنه صنع " مذيلاً "، وفي العادة قد " يبنى المذيل " على ذيل، والذيل يأتي بمثابة ملحق بكتاب أساسي.

ولا يصرح ابن القلانسي باعتماده على كتب من سبقه من مؤرخين أمثال كتابي ثابت بن سنان [١] وهلال بن المُحَسِّن [٢] أو على واحد

---

(١) ثابت بن سنان، كان واحداً من أفراد آل الصابئ، الأسرة التي اشتهرت بالطب فنبغ منها عدد من الأطباء خدموا الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم، ويذكر بعض من ترجم لثابت بأنه كان مختصًّا بخدمة الخليفة الراضي [٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/٩٣٤ - ٩٤٠ م]، وأنه كان بارعًا بالطب، تولى تدبير المارستان في بغداد، وخدم عدداً من الخلفاء بعد الراضي، ومن المرجح أن ثابتًا قد توفي سنة ٣٦٥ هـ /٩٧٥ م، وكان ثابت بن سنان كمعظم بقية آله متميزاً إلى جانب كونه طبيبًا باهتمامه بالتاريخ وتدوينه، وقد كتب عدداً من التواريخ أشهرها واحد ذيل به - مع شيء من التداخل - على تاريخ الطبري، وله أيضا كتاب " مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد ".

(٢) كان هلال في بداية حياته على عقيدة أهل الصابئة ثم دخل الإسلام، وقد ولي ديوان الإنشاء في بغداد، وعاش فترة تاريخية هامة جدًّا، عاصر أحداثها وعرف أخبارها عن كثب وبشكل وثائقي، فقام بتدوينها في عدد من الكتب مفردة مثل كتابه في تاريخ الوزراء، أو جاءت كذيل لكتب ثابت بن سنان، ففي مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي نقرأ: " وكان هلال من كبار العلماء الأدباء، وله التاريخ الذي ذيله على تاريخ ثابت بن سنان، وبدأ به من سنة إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة "، وأكد هذا القفطي في تاريخ الحكماء حيث قال: " ثم كتاب هلال بن المُحَسِّن بن إبراهيم الصابئ، فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة، ولم يتعرض أحد في مدته إلى ما تعرض له من أحكام الأمور، والاطلاع على أسرار الدول، وذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كان كاتب الإنشاء ويعلم الوقائع، وتولى هو الإنشاء أيضاً، فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال، وهو كتاب حسن إلى بعد سنة سبعين وأربعمائة ".

منهما على الأقل، كل ما هنالك أنه في سياق حديثه عن ولاية " حيدرة ابن مفلح " لدمشق، وهو أحد الولاة الفاطميين قال: " واستمرت عليه الأيام في الولاية إلى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، التي بني هذا المذيل عليها، وعادت سياقة الحوادث منها، وإيراد ما فيها، وتجدد بعدها ".

والبحث التاريخي هو الذي قاد إلى الافتراض بأن ابن القلانسي بنى " مذيله " على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن، أو على واحد منهما فمن شبه المؤكد أن مصنف ابن القلانسي بشطريه " الأساس " و " المذيل " يبدأ بحوادث سنة /٣٦٠/ وبهذه السنة بدأ هلال كتابه، ومن المسلم به أن ما كتبه هلال عن أخبار السنوات /٣٦٠ - ٣٦٥ هـ/ وهي السنوات التي تداخل بها كتابه مع كتاب ثابت هناك تطابق بالمواد، مع اختلاف بالتفاصيل، وهذا ما نلاحظه حينما نقارن مواد السنوات المتداخلة بين تاريخ ثابت بن سنان وتاريخ الطبري، لهذا ليس من المستبعد أبداً أن يكون ابن القلانسي اعتمد على تاريخ هلال بن المحسن دون سواه.

يؤرخ مصنف ابن القلانسي لقرنين من الزمن هما من أهم القرون، وبالنسبة لكثير من الأحداث هو المصدر المتفرد، في هذين القرنين جرت أحداث الصراع القرمطي الفاطمي على الشام، وأعقب ذلك الحكم الفاطمي للشام، وكان حكمًا لم يعرف الاستقرار لأسباب داخلية فاطمية، ولمقاومة أهل الشام لهذا الحكم، وابن القلانسي يروي لنا سيرة المقاومة الشامية، وهي سيرة لشعب دمشق وشعب الشام أجمع، سيرة لمنظمات هذا الشعب وفئاته الاجتماعية وقبائله، سيرة لعمران دمشق وخططها، وهنا يقتضي أن ننوه أن هذه مزية تفرد بها ابن القلانسي إلى أبعد الحدود.

صحيح أن الكتاب أوقفه صاحبه بالأصل على دمشق لكنه يولي مع دمشق اهتماماته بقية أجزاء الشام، ثم بقية أجزاء الوطن العربي والعالم الإسلامي، فمواده عن كل من الخلافتين الفاطمية والعباسية لها مكانة خاصة، بل أكثر من هذا نجده يتقصى أخبار المغرب الأقصى ويقدم لنا رواية ذات مكانة خاصة حول المهدي بن تومرت وتأسيس دولة الموحدين.

وعلى مكانة مواد ابن القلانسي حول العصر الفاطمي، فإن الذي يفوقها أهمية هو ما رواه حول دخول الشام تحت السلطان السلجوقي، ثم أحداث الحروب الصليبية زمن الحملتين الأولى والثانية، وهي أحداث عاصرها وكان شاهد عيان لها، ولأهمية هذه الروايات تمت ترجمتها إلى كل من الإنكليزية والفرنسية.

وابن القلانسي مؤرخ ثقة يمكن الاعتماد على رواياته، وقد أوضح منهجه في كتابه بقوله: " قد انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ، ورتبته وتحفظت من الخطأ والخطل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات، ونقلته وأكدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث، إلى أن صححته إلى هذه السنة المباركة، وهي سنة أربعين وخمسمائة، وكنت قد منيت منذ سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وإلى هذه الغاية بما شغل الخاطر عن الاستقصاء عما يجب إثباته في هذا الكتاب، من الحوادث المتجددة في الأعمال، والبحث عن الصحيح منها في جميع الأحوال، فتركت بين كل سنتين من السنين بياضاً في الأوراق، ليثبت فيه ما يعرف صحته من الأخبار، وتعلم حقيقته من الحوادث والآثار، وأهملت فيما ذكرتها من أحوال سلاطين الزمان فيما تقدم، وفي هذا الأوان، باستيفاء ذكر نعوتهم المقررة، وألقابهم المحررة، تجنباً لتكريرها بأسرها، والإطالة بذكرها، ولم تجر بذلك عادة قديمة،

ولا سنة سالفة في تاريخ يصنف، ولا كتاب يؤلف، وإنما كان الرسم جارياً في القديم بإطراح الألقاب والإنكار لها، بين يدي ذوي العلوم والآداب، فلما ظهرت الدولة البويهية الديملية، ولقب أول مسعود نبغ فيها بعماد الدولة بن بويه، ثم أخوه وتاليه في الولادة والسعادة بركن الدولة أبي علي، ثم أخوهما بمعز الدولة أبي الحسين، وكل منهم قد بلغ من علو المرتبة والمملكة، ونفاذ الأمر في العراق وخراسان والشام إلى أوائل المغرب ما هو مشهور، وذكره في الآفاق منشور، ولما علا قدر الملك عضد الدولة فناخسره بن ركن الدولة أبي علي بن بويه بعدهم، وظهر سلطانه، وعلا شأنه وملك العراق بأسره وما ولاه من البلاد والمعاقل، وخطب له على المنابر، زيد في نعوته في أيام المطيع لله أمير المؤمنين رحمه الله: تاج الملة، ولم يزد أحد من أخوته: مؤيد الدولة صاحب أصفهان، وفخر الدولة صاحب الري وما ولاهما، وانضاف إليهما على اللقب.

ولم يزل الأمر على ذلك مستمراً إلى أن ظهر أمر السلطان ركن الدنيا والدين طغرلبك محمد بن ميكال بن سلجق، وقويت شوكة الترك، وانخفضت الدولة البويهية واضمحلت وانقرضت، ولقب السلطان طغرلبك لما ظهر أمره في العراق، واجتاح شأفة أبي الحارث أرسلان الفساسيري في أيام الإمام الخليفة القائم بأمر الله أمير المؤمنين رحمه الله بالسلطان المعظم شاهنشاه الأعظم، ركن الدنيا والدين، غياث المسلمين، بهاء دين الله، وسلطان بلاد الله، ومغيث عباد الله، يمين خليفة الله، طغرلبك.

ثم زاد الأمر في ذلك، إلى أن أضيف إلى ألقاب ولاة الأطراف: الدين والإسلام، والأنام والملة، وغير ذلك، بحيث اشترك في هذا الفن الخاص والعام، لا سيما في هذا الأوان ".

إن هذا النص الفريد في كتاب ابن القلانسي فيه أكثر من دليل، ليس على منهج المؤلف ودقته وتحريه ونوعية مصادره فحسب، بل على عمق في فهم التاريخ الإسلامي ومشاكله، ونظرة ثاقبة واعية لأحداثه، وقد تأثر بهذه النظرة عدد من المؤرخين والسياسيين المسلمين، فهذا ما نشهد صداه في كتاب الكامل لابن الأثير، وعدد آخر من المصنفات الإسلامية العربية والفارسية سواء.

ومع أن ابن القلانسي يشير بأنه كان يجمع مواد كتابه على شكل مذكرات يومية، فإن ما يؤسف له هو طابع الاختصار لديه، فقد عقدت مقارنة بينه وبين وليم الصوري وهو من معاصريه، وكلاهما كتب عن حوادث الحروب الصليبية، واحد في القدس باللاتينية وآخر في دمشق بالعربية، ومع أن ابن القلانسي انفرد بذكر أخبار بعض الحوادث إلا أنه إذا اجتمع مع وليم على قص خبر حادثة، فالتفاصيل لدى وليم أكبر منها عند ابن القلانسي.

وهذا لا يقلل من قيمة ابن القلانسي، خاصة إذا تذكرنا أنه المصدر العربي الوحيد الذي وصلنا، وقام برواية الأخبار من وجهة نظر عربية صريحة ومنصفة، وفيها اعتدال كبير، وهذه صفات افتقر إليها وليم الصوري وغيره من المؤرخين غير العرب مثل آنا كومينا، مؤرخة الحملة الصليبية الأولى بالإغريقية، والمؤرخ السرياني المجهول الذي أرخ للحملتين الأولى والثانية وميخائيل السرياني.

ولهذا لاقى كتاب ابن القلانسي عناية خاصة [1].

---

(١) انظر مقدمة تحقيق كتاب تاريخ دمشق، لمؤلفه حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي (المتوفى: ٥٥٥هـ)، للمحقق د: سهيل زكار، الناشر: دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

القدس والخليل

مجير الدين الحنبلي العليمي

أعلام المؤرخين

المؤرخ مجير الدين الحنبلي العليمي

صاحب كتاب " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل "

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي أبو اليمن مجير الدين العمري المنتهي نسبه إلى عبد الله بن عمر ابن الخطاب ولد بالقدس عام ٨٦٠ هـ وما إن بلغ مرحلة التعلم حتى تعهده أبوه بالرعاية والتوجيه حيث تنص الرواية بأنه تفقه على والده وأخذ عنه جملة من العلوم واختلف على جماعة من أهل الفضل والعلم للاستفادة والتحصيل أشار إليهم في كتابه هذا " الأنس الجليل " وهم:

١ ـ الشيخ تقي الدين عبد الله بن إسماعيل القرقشندي [(١)]:

قال مجير الدين " وقد عرضت عليه ملحة الإعراب في ثاني جمادى الأولى سنة ست وستين وثمانمائة بمنزله بجوار المدرسة الصلاحية ولي دون ست سنين وهو أول شيخ عرضت عليه وتشرفت بالجلوس بين يديه وأجازني بالملحة بسنده المتصل إلى المصنف وبغيرها من كتب الحديث الشريف وما يجوز روايته وكتب والدي الإجازة بخطه وكتب الشيخ خطه الكريم عليها ".

٢ ـ الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر العميري [(٢)]:

---

(١) شيخ الإسلام تقي الدين أبو بكر عبد الله بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ تقي الدين إسماعيل القرقشندي المقدسي الشافعي سبط الحافظ أبي سعيد العلائي ولد بالقدس عام ٧٨٣ هـ واشتغل في صغره على والده وغيره وسمع المشائخ وأجاز جمع من العلماء والحفاظ ثم أفتى ودرس وحدث وسمع عليه جمع كبير انتهت إليه الرياسة بالقدس وعظم عند المسؤولين توفي سنة ٨٦٧ هـ.

(٢) الحافظ العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن القاضي زين الدين عمر العميري الشافعي ولد سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة بالقدس اشتغل ودأب وحصل وأخذ الحديث عن الحافظ ابن حجر ولقي جماعة من أهل العلم وأخذ عنهم وباشر الحكم بالقدس نيابة

قال مجير الدين: " وقد عرضت عليه في حياة الوالد قطعة من كتاب المقنع في الفقه وأجازني في شهور سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ثم لما توفي الوالد لازمته للاشتغال فكنت أقرأ عليه في المقنع وأحضر مجلس وعظه ودرسه بالمسجد الأقصى وحصلت الإجازة منه غير مرة خاصة وعامة ".

٣ - الفقيه علاء الدين علي بن عبد الله بن محمد الغزي المقري الحنفي [١]:

قال مجير الدين " وقد قرأت عليه القرآن - ولي نحو عشر سنين - بمكتب باب الناظرة فأقرأني من سورة الأنبياء إلى الفاتحة ثم كررت ختم القرآن عليه مرات كثيرة وقرأت بعضه عليه برواية عاصم وأحضرني مجلس شيخنا ابن عمران لسماع الحديث واعتنى بتحصيل الإجازة لي منه ".

٤ - الشيخ كمال الدين محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي بن أبى شريف [٢]:

عن القاضي شهاب الدين قاضي الخليل وكان حافظاً فصيحاً له مشاركة في كثير من العلوم توفي عام ٨٩٠ ه ودفن بالقدس.

(١) الفقيه علاء الدين علي بن محمد الغزي المقري الحنفي المعروف (بابن قاموا) ذكر أنه لما نزل الأشرف برسباي إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة كان مراهقاً حفظ القرآن العظيم وتلى بالسبع على العلامة شمس الدين بن عمران وغيره أقام ببيت المقدس دهراً وأدب به الأطفال وسمع الحديث وأقرأ القرآن.

(٢) شيخ الإسلام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الأمير ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف المقدسي الشافعي سبط قاضي القضاة شهاب الدين أبي العباس أحمد العمري المالكي المشهور (بابن عوجان) ولد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة بمدينة القدس ونشأ بها ودرس في المدارس العلمية وحفظ القرآن وأذن له في التدريس سنة أربع وأربعين وثمانمائة ورحل إلى القاهرة في هذه السنة وأخذ عن العلماء هناك وكتب له ابن حجر إجازة ووصفه بالفاضل البارع الأوحد ومن سنة ٨٤٦ نظم وأنشأ ودرس وأفتى ودامت له الأمور وأصبح يشار له بالبنان في الأوساط العلمية وذكره

قال مجير الدين: " عرضت عليه في حياة الوالد رحمه الله قطعة من كتاب المقنع في الفقه على مذهب الإمام أحمد ثم عرضت عليه مرة ثانية ما حفظت بعد العرض الأول وأجازني في شهور سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وحضرت بعض مجالسه من الدروس والإملاء بالمدرسة الصلاحية وحضرت كثيراً من مجالسه بالمسجد الأقصى الشريف قبل رحلته إلى القاهرة وبعد قدومه إلى بيت المقدس.

وحصلت الإجازة منه غير مرة خاصة وعامة ".

٥ - قاضي القضاة نور الدين علي بن إبراهيم المالكي المصري [١]:

قال مجير الدين: " وقد قرأت عليه قطعة من آخر كتاب الخرقي في فقه مذهب الإمام رضي الله عنه قراءة بحث وفهم ثم قرأت عليه قطعة من أول المقنع قراءة بحث وفهم فكان يقرر العبارة تقريراً حسناً لعل كثيراً من أهل المذهب لا يقرره وقرأت عليه في النحو ولازمت مجالسه وترددت إليه كثيراً وحصل لي منه غاية الخير والنفع ولكن اخترقته المنية بسرعة قبل بلوغ المراد منه ".

٦ - شمس الدين أبو مساعد محمد بن عبد الوهاب [٢]:

المؤرخون إلى عام ٩٠ هـ وله شعر رقيق منه:

في بيـــت المقـــدس أحيـــي ::: بقاع القدس مــا هبــت الصــبا
فتلـــك ربـــاع الانـــس ::: في زمـــــن الصـــــبا
ومـــا زلـــت مـــن شـــوقي ::: إليهـــــا مواصـــــلا
ســـلامي علـــى تلـــك ::: المعاهـــــد والربـــــا

(١) قاضي القضاة نور الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم البدرشي البحري المالكي المصري من أهل العلم له معرفة تامة بالعربية وعلم الفرائض والحساب والحديث الشريف باشر نيابة الحكم بالقاهرة له مصنف في النحو وكان يحفظ القرآن حفظاً جيداً ويكثر من التلاوة نشر العلم وانتفع به الطلبة توفي عام ٨٧٨ هـ بالقدس.

(٢) الشيخ العلامة المحقق شمس الدين أبو مساعد محمد بن عبد الوهاب الشافعي من أعيان علماء بيت المقدس وكان يستفيد به الناس فائدة عظيمة توفي عام ٨٧٣ هـ بالطاعون.

قال مجير الدين: " وقد عرضت عليه قطعة من كتاب المقنع في الفقه في سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وأجازني ".

٧ - الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الأنصاري [١]:

قال مجير الدين: " وقد عرضت عليه قطعة من كتاب المقنع في الفقه بالزاوية الختنية سنة ٨٧٣ هـ واجازني بما يجوز له روايته ".

٨ - الشيخ المقرى المحدث شمس الدين محمد بن موسى بن عمران الغزي الحنفي [٢]:

قال مجير الدين: " وقد سمعت عليه صحيح البخاري بقراءة القاضي شهاب الدين بن عبيد الشافعي في سنة ٨٧١ هـ وأجازني بروايته وبرواية غيره من الأحاديث العشارية والمسلسل بالأولية وما يجوز له وعنه روايته ".

٩ - الشيخ محمد بن محمد بن أبى بكر السعدي [٣] قال الشطي

(١) الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن زين الدين عبد الرحمن الأنصاري الخليلي الشافعي ولد عام ٨١٩ هـ ببلدة الخليل لقي جماعة من أهل العلم والفضل وأخذ عنهم رحل إلى القاهرة وأخذ الحديث عن ابن حجر والفقه عن تقي الدين أبي بكر ابن قاضي شهبة وأذن له في الإفتاء والتدريس وباشر في نيابة الحكم عن القاضي برهان الدين بن جماعة ثم ترك الحكم وصار من أعيان علماء بيت المقدس وعاد من القاهرة عام ٨٨٨ إلى مسقط رأسه الخليل وأقام بها متصدياً لاشتغال الطلب إلى أن وافته المنية عام ثلاث وسبعين وثمانمائة هـ.

(٢) الشيخ العلامة المقري المحدث شمس الدين أبو عبد الله محمد بن موسى بن عمران الغزي المقدسي الحنفي شيخ القراء بالقدس ولد عام ٧٩٤ هـ بغزة سمع الحديث على الحافظ شمس الدين الجزري وأخذ عنه علم القراءات وأجازه وكان رجلاً صالحاً ملازماً لقراء القرآن انتفع به الناس وتخرج عليه جماعة وعرف هذا الفن معرفة جيدة وكان قنوعاً طارحاً التكلف ولم يبق في القدس شيخ متقن لفن القراءة سواه وكان شيخاً بهي المنظر توفي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة.

(٣) محمد بن محمد بن أبي بكر السعدي قاض من فقهاء الحنابلة من أهل القاهرة ولد عام ٨٣٦

" ورحل سن ٨٨٠ هـ إلى القاهرة وأقام بها عاكفاً علي طلب لعلم ولزم قاضي الحنابلة بالديار المصرية بدر الدين محمد بن أبي بكر السعدي أقام تحت نظره وتفقه عليه ولقد اكرم مثواه ومكث بالديار المصرية نحو عشر سنين ".

هؤلاء هم طليعة أساتذته وشيوخ إجازته وعلى هذا الضوء يمكن تقسيم مراحل تحصيله العلمي إلى قسمين قسم يختص بالقدس ونكاد نستفيد من مجموع ما قدمناه أن تلك المدة محددة لعام ٨٨٠ هـ وتحصيله بين المسجد الأقصى والمدرسة الصلاحية واختلف فيها على عدد من الأعلام ذكرنا أهمهم وقسم يختص بالقاهرة ويحدد بنحو عشر سنين حيث تنص المصادر على عودته إلى القدس عام ٨٨٩ هـ وكان أهم أساتذته هو ابن أبي بكر السعدي وبعد عودته من القاهرة ولي قضاء القدس ولعله بقي في مركزه حتى وفاته.

ولقد وصفته الرواية بأنه كان فطناً يحب العلم من صغره ذكي مجد وإذا ما عدنا إلى ادعائه بأنه عرض على شيخه تقي الدين إسماعيل القرقشندي المقدسي ملحة الإعراب وهو دون الست سنين وأجازه الشيخ بالملحة لسنده المتصل إلى المصنف وبغيرها من كتب الحديث وما يجوز له روايته نستطيع أن نتأكد بأن هذا الإنسان كان يتمتع بقابلية خاصة ونضوج مبكر أهله كل ذلك لأن يكون موضع عناية أساتذته وهو صبي لم يتجاوز الحلم وكيفما كان فقد واصل تحصيله وتتبعه العلمي على يد أساتذة معروفين بالفضل والكمال بحيث عرف بالأوساط العلمية بمكانة مقدرة ولقد خلف نتاجاً يدل على فضل وسعة

هـ ودرس وولي قضاء القضاة بالديار المصرية وألف كتباً منها الجوهر المحصل في مناقب الإمام أحمد مخطوط قال السخاوي: كتب بخطه من تصانيفه أشياء واستكتب كذلك توفي فجأة عام ٩٠٠هـ.

اطلاع وهو:

١ - فتح الرحمن في تفسير القرآن في مجلدين:

هكذا أسماه الزركلي أما بقية المصادر فأشارت إلى أن له تفسيرًا جليلاً على القرآن العظيم يشبه القاضي البيضاوي.

٢ - المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد:

قال جرجي زيدان: توجد منه نسخة في الخزانة التيمورية في مجلدين عدد صفحاتها ٥٢٣ هـ وهو مرتب على سني الوفاة.

٣ - التاريخ المعتبر في أنباء من غبر:

ذكره الحاجي جلبي ووصفه الشطي بأنه تاريخ جليل ابتدأ فيه من سيدنا آدم إلى سنة ٨٩٦ هـ مرتباً على السنين ذاكراً فيه الحوادث العجيبة والوقائع الغريبة على وجه الاختصار.

٤ - إتحاف الزائر وأطواف المقيم المسافر:

ذكره البغدادي وقال الجلي: إتحاف الزائر وأطراف المقيم المسافر - للشيخ أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي البغدادي ثم الدمشقي المتوفى سنة ٦١٣ هـ ".

٥ – الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل:

وبعض المصادر تسميه الأنيس الجليل وهو الكتاب الذي يدور حديثنا حوله في الفصل الثالث من هذا البحث ولم تشر لنا المصادر المختصة بأن مؤلفاته قد طبعت عدا كتاب " الأنس الجليل ".

وقد اختلف في تاريخ وفاته فالشطي لم يعثر على تاريخ وفاته ويقول: " ولعله كان في أوائل القرن العاشر " بينما نرى أغلب المصادر التي تترجمه تذهب إلى أن وفاته كانت عام ٩٢٨ هـ وقسم

قليل يرى أنها عام ٩٢٧ هـ [١].

ولقد أجمع المترجمون لحياة مجير الدين العليمي بأن كتاب " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل " من مؤلفاته وأنه في مقدمة ما دبجته براعته ضمنه خلاصة تواريخ القدس الشريف وبلدة الخليل مثوى سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كما أضاف إليه نبذة من الحوادث والوفيات وما يتعلق به من ذكر الملوك والكبراء والقضاة والعلماء حتى عام ٩٠٠ هـ - كما سيمر علينا في عرض منهجه وقد تحدث المؤلف عن طبيعة مؤلفه بقوله: " فهذا مختصر استخرت الله تعالى في جمعه وسألته المعونة لي بفضله في ترتيب وضعه عن لي أن أجمعه من كتب المتقدمين وأهذب ألفاظه من فوائد المؤرخين وتراجم الأعيان على وجه الاختصار فاستعنت بالله سبحانه فيما قصدته " ولقد كتب عدد من الأعلام في تاريخ القدس الشريف ممن سبقوا مجير الدين فخلفوا من نتاجهم ثروة علمية كانت هي المنبع الرئيسي لكتاب " الأنس الجليل " كما قال هو ويمكننا أن نضع قائمة تقريبية لأولئك الذين كتبوا في هذا المضمار من جميع جوانبه واعتقادي أننا نستطيع أن نقيم الكتاب على ضوئها وهم حسب التسلسل الزمني:

---

(١) هداية العارفين ٥٤٤ / ٧، معجم المؤلفين - لكحالة ١٧٧ / ٥، كشف الظنون ٦ / ١، مختصر طبقات الحنابلة ٧٤، معجم المطبوعات ٣٥٨، معجم المؤلفين ١٧٧ / ٥، هداية العارفين ٥٤٤ / ١، تاريخ آداب اللغة العربية ١٩٨ / ٣، الأعلام ١٠٨ / ٥.

١ - الواقدي أبو عبد الله محمد بن عمر [١] فقد تحدث عن تاريخ القدس فتوجه في كتابه (فتوح الشام) الذي طبع عدة مرات.

٢ - اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب [٢] الكاتب والمؤرخ المعروف أورد باكراً للقدس في كتابه المعروف بـ (تاريخ اليعقوبي) المطبوع في المطبعة الحيدرية من النجف الأشرف وغيرها.

٣ - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير [٣] المؤرخ والمفسر الشهير جاء من تاريخه (تاريخ الأمم والملوك) ذكر للقدس ومن تولاه وبناه.

٤ - ابن البطريق سعيد بن البطريق [٤] مؤرخ مسيحي أورد للقدس

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي المعروف ب (الواقدي) ولد بالمدينة عام ١٣٠ هـ واتصل ببني العباس وأصبح قاضياً عندهم من أقدم مؤرخي الإسلام قال ابن النديم: خلف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً كل قمطر منها حمل رجلين وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار مات ببغداد عام ٢٠٧ هـ وله مؤلفات عديدة. عنه انظر: تذكرة الحفاظ ٣١٧ / ١، وفيات الأعيان ٥٠٦ / ١، تاريخ بغداد ٣ / ٢١، ميزان الاعتدال ١١٠ / ٣، تهذيب التهذيب ٣٦٣ - ٣٦٨ / ٩، الفهرست لابن النديم ٩٨ / ١، أعيان الشيعة ١٧٠ - ١٧٨ / ٤٠.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب المعروف مؤرخ جغرافي كثير الأسفار من أهل بغداد صنف كتباً جيدة توفي عام ٢٨٤ هـ وخلف مؤلفات قيمة منها تاريخه المشهور وكتاب البلدان وغيرهما. عنه انظر، معجم الأدباء ٥ / ١٥٣، إيضاح المكنون - للبغدادي ١ / ٢١٩ و٢ / ٢٧٩، أعيان الشيعة ٣٣٠ - ١٠ / ٣٦٦، معجم المطبوعات ١٩٤٨، الأعلام ٩٠ - ١ / ٩١، معجم المؤلفين ١ / ١٦١.

(٣) محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري مؤرخ شهير ومفسر جليل وفقيه ضليع ولد في آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وتوفي فيها عام ٣١٠ هـ. قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ وفي تفسيره ما يدل على علم غزير عرض عليه القضاء فامتنع له مؤلفات تدل على سعة اطلاع وغزارة علم. انظر: تذكرة الحفاظ ٣٥١ / ٢، وفيات الأعيان ٤٥٦ / ١، طبقات السبكي ١٣٥ - ١٤٠ / ٢، روضات الجنات ١٦٣ - ١٦٥، رجال المامقاني ٩٠ - ٩١ / ٢، شذرات الذهب ٢٦٠ / ٢.

(٤) سعيد بن البطريق طبيب مؤرخ من أهل مصر ولد بالفسطاط عام ٢٦٣ هـ وأقيم بطريركاً في الإسكندرية توفي عام ٣٢٨ هـ وله مؤلفات عديدة. انظر: طبقات الأطباء ٨٦ / ٢، حسن المحاضرة - للسيوطي ١١٣ / ١، معجم المؤلفين ٢٢١ / ٤، آداب اللغة العربية ٢٠٠ / ٢.

ذكراً في كتابه (نظم الجوهر - أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق في معرفة التواريخ) المطبوع في ليدن.

٥ - الأصطخري إبراهيم بن محمد الفارسي [١] عالم جغرافي ورحالة تطرق لحديث القدس في كتابه (مسالك الممالك) المطبوع في ليدن ٦ - المسعودي علي بن الحسين [٢] من مشاهير المؤرخين ذكر القدس وولاتها في كتابه (التنبيه والإشراف).

٧ - المقدسي محمد بن أحمد [٣] من مشاهير الرحلة والجغرافيين تناول ذكر القدس في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم).

٨ - ابن عساكر علي بن الحسن [٤] أورد فتوحات بيت المقدس

---

(١) إبراهيم بن محمد الفارسي أبو إسحاق الأصطخري الكرخي نشأ بأصطخر (في إيران) وقام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند ووصفته المصادر بأنه جغرافي رحالة من العلماء لم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره فألف كتابيه " صورة الأقاليم " و " مسالك الممالك " توفي عام ٣٤٦ هـ. انظر: هداية العارفين ٦ / ١، دائرة المعارف للبستاني ٣/٧٤٤، دائرة المعارف الإسلامية ٢٥٦ / ٢، معجم المطبوعات ٤٥٣، الأعلام ٥٨ / ١.

(٢) علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي من أعلام التاريخ ومن مشاهير الرحالين ومن الباحثين المقدرين من أهل بغداد أقام بمصر وتوفي فيها عام ٣٤٦ هـ له مؤلفات عديدة منها مروج الذهب وأخبار الزمان وغير ذلك من المؤلفات القيمة. انظر: فوات الوفيات ٤٥ / ٢، لسان - الميزان ٢٢٤ / ٤، طبقات الشافعية ٣٠٧ / ٢، النجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥، تذكرة الحفاظ ٣/٣٧٠، الفهرست لابن النديم ١ / ١٥٤، أعيان الشيعة ٤١/ ١٩٨، ٢١٣، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٣/٣٤٧.

(٣) محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري الحنفي المقدسي شمس الدين أبو عبد الله ولد بالقدس عام ٣٦٦ هـ ولع في الأسفار فطاف أكثر بلاد الإسلام وعرفته المصادر بأنه رحالة جغرافي مات نحو سنة ٣٨٠ هـ وقالوا عنه: إنه امتاز بكثرة ملاحظاته وسعة نظره له مؤلفات في فنه تدل على أهميته. انظر: معجم المطبوعات ١٧٧٣، الأعلام ٢٠٣ / ٦.

(٤) علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ثقة الله ابن عساكر الدمشقي ولد بدمشق عام ٤٩٩ هـ كان محدث الديار الشامية ومن أعيان فقهاء الشافعية وقالت عنه الرواية بأنه مؤرخ حافظ رحالة توفي بدمشق عام ٥٧١ هـ له مؤلفات عديدة في مقدمتها تاريخه الكبير. انظر: وفيات الأعيان ٣٣٥/١، البداية والنهاية ٢٩٤/١٢، طبقات الشافعية ٢٧٣/٤،

وتعرض لتراجم بعض رجاله في كتابه (تاريخ ابن عساكر).

٩ - أسامة بن منقذ [1] من العلماء الشجعان والمؤرخين ذكر حروبه لبيت المقدس ومشاهداته فيها في كتابه (الاعتبار).

١٠ - العماد الأصبهاني محمد بن محمد من أكابر الكتاب وأعلام التاريخ ذكر تاريخ القدس وفتوحاته في كتابه (الفتح القسي في الفتح المقدسي).

١١ - ياقوت الحموي من المؤرخين المعروفين أورد للقدس ذكراً مفصلا في كتابه (معجم البلدان).

١٢ - ابن الأثير علي بن محمد المؤرخ الشهير تطرق لذكر تاريخ القدس وبنائه في كتابه (التاريخ الكامل).

١٣ - أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل مؤرخ محدث ذكر ولاة القدس في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين - النورية والصلاحية).

١٤ - ابن العبرى أبو الفرج مؤرخ سرياني مستعرب أورد للقدس ذكراً في كتابه (تاريخ مختصر الدول).

١٥ - ابن فضل الله العمري من المعروفين بخطوط الأقاليم والبلدان

تاريخ ابن الوردي ٨٧/٢، مرآة الزمان ١٠٠/١، دائرة المعارف الإسلامية ٢٣٧/١، الأعلام ٨٢/٥.

(١) أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيرازي أبو المظفر مؤيد الدولة ولد بشيراز عام ٤٨٨ هـ وسكن دمشق - وانتقل إلى مصر وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين من الأمراء ومن العلماء الشجعان له تصانيف في الأدب والتاريخ مات في دمشق عام ٥٨٤ هـ. انظر: تاريخ ابن عساكر ٤٠٠/٢، البداية والنهاية ٣٣١/١٢، وفيات الأعيان ٦٣/١، معجم الأدباء ٥/ ١٨٨ - ٢٤٥، دائرة المعارف الإسلامية٢ / ٧٩، الأعلام ١ / ٢٨٢.

أورد ذكراً للقدس في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار).

١٦ - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ذكر فتوح القدس وأخباره وبناءه وولاته في كتابه (التاريخ الكبير - المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب).

١٧ - المقريزي أحمد بن علي المؤرخ المصري المعروف تطرق لذكر هذا البيت المقدس وملوكه في كتابه(السلوك لمعرفة الملوك).

١٨ - ابن شاهين غرس الدين خليل مؤرخ شهير من المماليك ذكر خطط القدس في كتابه (زبدة كشف الممالك).

١٩ - ابن تغري بردي من المؤرخين المشهورين أورد ذكراً لتاريخ القدس وولاته وفتحه في كتابه (النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة).

٢٠ - شمس الدين السيوطي خص ذكر القدس وأهمية هذا البيت الشريف بكتابه (إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى).

٢١ - مجير الدين العليمي في كتابه (الأنس الجليل).

ونستطيع أن نحدد منهج المؤلف في كتابه هذا بالنقاط التالية: أولاً - عرض لتاريخ بيت المقدس يتضمن أسماء هذه المدينة وابتداء بنائها وما وقع فيها من الأخبار والأنباء حتى عام ٩٠٠ هـ. ثانيًا - ذكر الأنبياء والرسل الذين لهم أثر في هذا المسجد حتى رسول الإنسانية النبي الأعظم محمد ﷺ وما رافقته من أحداث هامة بالنسبة لهذا البيت المقدس أمثال الإسراء وتحويل القبلة. ثالثاً - عرض لذكر الخلفاء والولاة الذين فتحوا أو أشادوا في هذا البلد من صدر الإسلام حتى نهاية التاريخ المحدد للكتاب وحوادث الإفرنج وحروبهم.

رابعاً - عرض لذكر أعيان التابعين والعلماء والزهاد ممن دخلوا بيت المقدس سواء كانوا زائرين أو مستوطنين. خامساً - تقديم صورة موجزة عن تاريخ مدينة الخليل وما حولها من المشاهد والأماكن المعد للزيارة. سادساً - ترجمة أعيان ملوك الإسلام الذين تولوا الحكم في البيت المقدس والخليل وما فعلوه من الخيرات والميراث. سابعاً - ترجمة عدد من أعيان البلدتين من المذاهب الأربعة ومن ولي فيهما المناصب الحكمية والوظائف الدينية مضمناً هذه التراجم أهم الحوادث والأخبار التي ترافقها. ثامناً - يختم الكتاب بترجمة الملك الأشرف أبي النصر قايتباي وأهم مشاريعه الثقافية وفي مقدمتها مدرسته ثم يتعرض لترجمة كمال الدين أبي المعالي محمد بن أبي شريف الشافعي - رئيس مشيختها - وهو أحد أساتذة المؤلف - ولسنا مبالغين إذا ادعينا أن هذا الكتاب بهذا المنهج الضخم يكاد يكون أوسع مؤلف كتب في تاريخ هذه المدينة المقدسة سواء من الكتب الخاصة أو المصادر التاريخية العامة التي تناولت تاريخ هاتين المدينتين خاصة وأن المؤلف هو ممن تلك الديار وممن تثقف في أوساطها وعانى بؤسها ونعيمها وتذوق حلوها ومرها لهذا كله فهو أمكن من غيره في إعطاء الصورة الواضحة المعالم عنها وأقدر على استخلاص النتائج والحقائق من بين ثنايا الحوادث والأخبار التي مر بها تاريخ البلدين وقد جاء هذا المنهج بأسلوب سهل وعرض جميل بعيداً عن التكلف والتعقيد مبوباً في أحسن تبويب.

الأساليب والدوافع لوضع الكتاب:

لعل الأسباب والدوافع التي تحدث عنها المؤلف نفسه في تأليف هذا الكتاب معطياً هذا الجانب الهام فهو يقول وإنما دعاني لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا بتاريخها مما يفيد أخبارها

الواقع في الزمن السابق وبيت المقدس على شيء من ذلك الذي يختص به وإنما ذكروا في التواريخ أشياء في أماكن ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذي قصدت فعله العلماء كتب شيئاً يتعلق بالفضائل فقط وبعضهم تعرض لذكر الفتح وعمار بني أمي وبعضهم ذكر الفتح الصلاحي واقتصر عليه ولم يذكر بعده وبعضهم كتب تاريخاً تعرض فيه لذكر بعض جماع من أعيان مما ليس فيه كبير فائدة فأحببت أن أجمع بين ذكر البناء والفضائل وتراجم الأعيان وذكر بعض الحوادث المشهورة ليكون تاريخاً كاملاً سبحانه وتعالى المسؤول وهو المسؤول أن يمن علي بتيسير إتمامه " ومع ضخامة الكتاب وتوسعه في تنوع مواضيعه فقد صرح المؤلف في كتابه بأنه كان قد ابتدأ في جمعه في الخامس عشر من شهر ذي الحج ٩ هـ وفرغ من ترتيبه وجمعه في دون أربع أشهر رغم العوارض التي صرفت عن الاستمرار في مشروعه مد شهر لم يكتب فيها شيئاً.

وكان من المنتظر أن يكون الكتاب بهذه السرعة مرتجلاً خفيف الوزن ولكنه برغم ذلك كله فإنه كتاب قيم ممتع يدل على سعة اطلاع وبعد في التاريخ ولذا فلا نخشى إن ادعينا أنه من المصادر القيمة في بابه ويؤكد هذا المعنى ما قاله بعض الكتاب عنه " وظني أنه لم يصنف في مثله مثله ولم يوجد في بابه نظيره " [١].

* * *

(١) انظر مقدمة تحقيق كتاب " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل " لمؤلفه مجير الدين الحنبلي العليمي، من تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، دار النشر: مكتبة دنديس - عمان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

الإمام السمعاني

أعلام المؤرخين

الإمام السمعاني صاحب كتاب الأنساب [1]

والحقيقة أن علم الأنساب هو علم عربي أصيل والذي فتح هذا الباب وضبط علم الأنساب هو الإمام النسابة: هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة أربع ومائتين فإنه صنف فيه خمسة كتب: المنزلة والجمهرة والوجيز والفريد والملوك. ثم اقتفى أثره جماعة.

والأنساب علم يتعرف منه أنساب الناس، وقواعده الكلية والجزئية والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص، وهو علم عظيم النفع جليل القدر أشار الكتاب العظيم في :{وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ} [الحجرات: ١٣]، إلى تفهمه.

وحث الرسول الكريم ﷺ في«تعلموا أنسابكم تصلوا ارحامكم»[2] على تعلمه، والعرب قد اعتنوا في ضبط نسبهم إلى أن كثر أهل الإسلام واختلط أنسابهم بالإعجام فتعذر ضبطه بالآباء، فانتسب كل مجهول النسب إلى بلده أو حرفته أو نحو ذلك حتى غلب هذا النوع.

ومن أكثر الصحابة علمًا بالأنساب الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله ﷺأن يستعين بأبى بكر ليرد على كفار قريش لعلمه بأنسابهم، وفي حديث أبى بكر " وكان رجلا نسابة " النسابة: البليغ العلم بالأنساب والهاء فيه للمبالغة مثلها في العلامة.

وأشهر من صنف وضبط علم الأنساب هو الإمام النسابة هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة أربع ومائتين، فإنه صنف فيه خمسة كتب: المنزلة والجمهرة والوجيز والفريد والملوك.

---

(١) الأنساب: النسب هو نسب القرابات وهو واحد الأنساب. والنسبة والنسب القرابة، وقيل: هو في الآباء خاصة وقيل: النسبة مصدر الانتساب، والنسبة: الاسم.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ج ١/ ص ٣٩ حديث رقم: ٧٢.

ثم تبعه بعد ذلك جماعة أوردنا آثارهم منها: - أنساب الأشراف: لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ هـ وهو كتاب كبير كثير الفائدة كتب منه عشرين مجلدًا ولم يتم.

- أنساب حمير وملوكها: عبد الملك بن هشام صاحب السيرة المتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين.

- أنساب الرشاطي: وهو اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار، لأبي محمد بن عبد الله بن علي اللخمي الشهير بالرشاطي المتوفى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة وهو من الكتب القديمة في الأنساب، لخصه مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم البلبيسي المتوفى سنة اثنتين وثمانمائة، وأضاف إليه زيادات ابن الأثير على أنساب السمعاني وسماه القبس أوله: الحمد لله الذي خلق صنف البشر إلخ.. - الأنساب: لأبي محمد الحسن بن علي المعروف بالقاضي المهذب المتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة وهو كبير في نحو عشرين مجلدًا.

ولابن مهمندار يوسف بن أبي المعالي المتوفى سنة سبعمائة ولأبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي المتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ولأبي محمد قاسم بن أصبع النحوي المتوفى سنة أربعين وثلاثمائة وللفقيه جمال الدين محمد بن علي المدهجن القرشى نسابة عصره الذي ألفه سنة تسع وثمانين وثمانمائة.

- بغية ذوى الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم: للملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد علي صاحب اليمن المتوفى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وهو كتاب مختصر مفيد.

- تاج الأنساب: لمحمد بن أسعد الحسيني المتوفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

- الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة: لكمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

- ديوان العرب وجوهر الأدب في إيضاح النسب: لمحمد بن أحمد ابن عبد الله الأسدي النسابة.

- الشجرة في الأنساب: لمحمد بن رضوان المتوفى سنة سبع وخمسين وستمائة.

- الإكليل في أنساب حمير وأيام ملوكها: لأبي محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمداني اليمني المتوفى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وهو كتاب كبير عظيم الفائدة يتم في عشر مجلدات ويشتمل على عشرة فنون وفي أثنائه جمل من حساب القرانات وأوقاتها ونبذ عن علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل في القدم والأدوار وتناسل الناس ومقادير أعمارهم وغير ذلك.

- عجالة المبتدي: في الأنساب لزين الدين أبي بكر محمد بن موسى الحازمي الهمداني المتوفى سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

- القصد والأمم إلى أنساب العرب والعجم: لابن عبد البر يوسف ابن عبد الله الحافظ القرطبي المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

- اللباب إلى معرفة الأنساب: مختصر لأبي الحسن أحمد بن محمد ابن إبراهيم الأشعري المتوفى سنة.. ذكر فيه جملة مصنفات في هذا الفن ثم قال: قد استخرجت من هذه كتابًا مختصرًا سميته التعريف بالأنساب توسطت فيه بين الإكثار والإقلال ثم عملت اللباب.

أذكر فيه أمهات القبائل وبطونها وجعلته مدخلا إلى علم النسب.

- نسب عبد الشمس: لأبي الفرج علي بن حسين الأصبهاني المتوفى سنة.. وله نسب بني شيبان وبني تغلب وبني كلاب.

- نسب عدنان وقحطان: لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي المتوفى سنة خمس وثمانين ومائتن.

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: وهو مجلد متوسط أوله: الحمد لله الذي جعل للعرب ركنًا تتهافت عليه سائر الأمم.. إلخ.. ألفه لأبي الجود بقر بن راشد أمير العربان بالبلاد الشرقية والغربية ورتب كل قبيلة على حروف المعجم وجعله على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وذكر فيه أنه أوضح من قلائد الجمان لوالده.

- أنساب الشعراء: لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي النحوي المتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين.

- أنساب قريش: لأبي عبد الله زبير بن بكار القرشي المتوفى سنة ست وخمسين ومائتين ومختصره لأبي فيد مورج بن عمر البصري النحوي المتوفى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وفيه التبيين لابن قدامة.

- أنساب المحدثين: للحافظ محب الدين محمد بن محمود بن النجار البغدادي المتوفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وصنف فيه أبو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي ثم ذيله تلميذه أبو موسى محمد بن عمر الأصبهاني المتوفى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة في جزء ذكر فيه ما أهمله.

والذيل على الذيل المذكور للحافظ محمد بن محمد بن نقطة الحنبلي المتوفى سنة تسع وعشرين وستمائة.

- أنساب آل أبي طالب: لأبي جعفر الطبرسي محمد صاحب الاسباب والنزول.

- أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب: لأمير المؤمنين المستنصر بالله الحكم الأموي المتوفى سنة ست وستين وثلاثمائة.

- نسب القطب النبوي والشريف العلوي: لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي بن إبراهيم البدوي المتوفى سنة خمس وسبعين وستمائة.

ومن علماء الأنساب محمد بن إسحاق وأبو عبيدة ومصعب بن عبد الله الزبيري وعلي بن كيسان الكوفي ودعبل بن حنظلة ومن المتأخرين الهمداني صاحب الإكليل والبلاذري وأبو الحسن أحمد بن محمد الأشعري صاحب اللباب.

ومن أشهر كتب علم الأنساب وأهمها هو الأنساب للسمعاني.

قال صاحب كشف الظنون: وهو كتاب عظيم في هذا الفن وتمامه يكون في ثماني مجلدات لكنه قليل الوجود، ولما كان كبير الحجم لخصه عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري المتوفى سنة ثلاثين وستمائة زاد فيه أشياء واستدرك على ما فاته وسماه اللباب وهو في ثلاث مجلدات وفرغ في جمادى الأولى سنة خمس عشرة وستمائة وهو أحسن من الأصل على قول ابن خلكان.

والذي دفع ابن خلكان إلى هذا القول هو أن ابن الأثير رحمه الله استدرك على السمعاني ما فاته وأحسن الاختصار.

إلا أن العالم المتبحر والباحث المدقق لا يسعهما إلا اللجوء إليه لكثرة الأسامي والأعلام المذكورين فيه.

ثم لخصه السيوطي وجرده عن المنتسبين وزاد عليه أشياء وسماه لب اللباب، أوله: الحمد لله المنزه عن الأشباه إلخ.. قال: وقد استقصيت كثيرًا مما فاتهما واستدركت منه جميعًا غالبه من معجم البلدان لياقوت وهو في مجلد صغير الحجم فرغ منه في صفر سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة.

ولخص أيضا القاضي قطب الدين محمد بن محمد الخيضري الشافعي المتوفى سنة أربع وتسعين وثمانمائة أنساب السمعاني وضم إليه ما عند ابن الأثير والرشاطي وغيرهما من الزيادات وسماه الاكتساب.

والسمعاني هو الحافظ البارع العلامة تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم ابن الحافظ تاج الإسلام معين الدين أبي بكر محمد بن العلامة المجتهد أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد محمد بن جعفر التميمي السمعاني المروزي.

والسمعاني: كما ذكر المؤلف في حرف السين من هذا الكتاب، بفتح السين المهملة وسكون الميم وفتح العين المهملة وفي آخرها النون.

هذه النسبة إلى سمعان، وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه، وأما سمعان الذي ننتسب إليه فهو بطن من تميم، هكذا سمعت سلفي يذكر ذلك.

وولد في شعبان سنة ست وخمسمائة وحمله والده إلى نيسابور في آخر سنة تسع فلحق بحضوره المعمر عبد الغفار بن محمد الشيرازي وعبيد بن محمد القشيري وعده، وحضر بمرو على أبي منصور محمد بن علي نافلة الكراعي، فمات أبوه سنة عشر وتربى مع أعمامه وأهله، وحفظ القرآن والفقه ثم حبب إليه هذا الشأن وعني به

ورحل إلى الأقاليم النائية.

وجملة الأمر فإن أهله وعائلته بجملتهم كانوا من العلماء والفضلاء مما أتاح للسمعاني أن يسلك طريقهم ويتلقى عنهم ويستفيد منهم وهذا الذي شجعه فكان عالمًا متبحرًا قطع المسافات والآفاق والتقى بالعلماء وسمع عن الكثير حتى قال ابن النجار: سمعت من يذكر أن عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ وهذا شيء لم يبلغه أحد.

مشايخه:

مر أنه سمع من الكثير الكثير وأول من تلقى منهم أعمامه وأهله منهم: عمه الأكبر أبو محمد الحسن بن أبي المظفر السمعاني تفقه على والد المؤلف.

سمع منه الكثير وكان يكرمه ويحبه وقرأ عليه الكتب المصنفة مثل كتاب الجامع لمعمر بن راشد وكتاب التاريخ لأحمد بن سيار، والامالي والانتصار والأحاديث الألف لجده بروايته عنه وأمالي أبي زكريا المزكي وأبو القاسم السراج بروايته عن أبي الحسن المديني وأبي العباس بن عبد الصمد وغير ذلك من الأجزاء والفوائد.

وسمع من ابن عمه الأكبر محمد بن الحسن السمعاني الكثير من شعره، غير أن ابن عمه هذا لم يشتغل بما اشتغل به سلفه حيث كان كثير الجلوس مع الشبان والجري في ميدانهم وموافقتهم فيما هم فيه.

وسمع من عمه الأصغر أستاذه الذي أخذ عنه الفقه وعلق عليه الخلاف وبعض المذهب وهو أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني.

تفقه على والد المؤلف وأخذ عنه العلم وخلفه بعده فيما كان مفوضًا إليه.

انتخب عليه أوراقًا وقرأ عليه عن شيوخه وخرج معه إلى سرخس وانصرفا إلى مرو، وخرجا في شوال سنة تسع وعشرين إلى نيسابور لرغبة المؤلف سماع حديث مسلم بن الحجاج القشيري.

فسمع معه الصحيح.

وسمع من أخته أمة الله حرة، كانت امراة صالحة عفيفة كثيرة الدرس للقرآن.

حصلت على إجازة عن أبي غالب محمد بن الحسن الباقلاني البغدادي، قرأت عليها أحاديث وحكايات بإجازتها عنه.

وسمع من المشاهير منهم: أبي عبد الله الفراوي وزاهر الشحامي وطبقتهما بنيسابور، والحسين بن عبد الملك الخلال وسعيد بن أبي الرجاء وطبقتهما بأصبهان وأبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري وطبقته ببغداد وعمر بن إبراهيم العلوي بالكوفة وأبي الفتح المصيصي بدمشق وببخارى وسمرقند وبلخ وسمع من خلائق يطول سردهم وألف معجم البلدان التي سمع بها.

ذكر من سمع منه وتلقى وروى عنه:

منهم ولده عبد الرحيم مفتي مرو وأبو القاسم بن عساكر وابنه القاسم وعبد الوهاب سكينة وعبد الغفار بن منينا وأبو روح عبد المعز ابن محمد الهروي وأبو الضوء شهاب الشذباني والافتخار عبد المطلب الحلبي وأبو الفتح محمد بن محمد الصائغ وخلق.

رحلاته:

قال السبكي: عني بالحديث والسماع واتسعت رحلته فعمت بلاد خراسان وأصبهان وما وراء النهر والعراق والحجاز والشام واتسعت

رحلته فعمت بلاد خراسان وأصبهان وما وراء النهر والعراق والحجاز والشام وطبرستان وزار بيت المقدس وهو بأيدي النصارى وحج مرتين.

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ أنه ذكر في كتاب التحبير تراجم شيوخه فأفاد وأجاد.

مصنفاته:

نقل أسماءها ابن النجار من خطه، منها:

- " الذيل " على تاريخ الخطيب.
- " تاريخ مرو ".
- أدب الطلب ".
- " الإسفار عن الأسفار ".
- " الإملاء والاستملاء ".
- " معجم البلدان ".
- " معجم الشيوخ ".
- " تحفة المسافر ".
- " الهداية ".
- " عز العزلة ".
- " الأدب واستعمال الحسب ".
- " المناسك ".
- " الدعوات ".
- " الدعوات النبوية ".
- " غسل اليدين ".

- " أفانين البساتين ".
- " دخول الحمام ".
- " صلاة التسبيح ".
- " التحايا ".
- " تحفة العيد ".
- " فضل الديك ".
- " الرسائل والوسائل ".
- " صوم البيض ".
- " سلوة الأحباب ".
- " التحبير في المعجم الكبير ".
- " فرط الغرام إلى ساكني الشام ".
- " مقام العلماء بين يدي الأمراء ".
- " المسارات والمصافحة ".
- " ذكرى حبيب رحل، وبشرى منيب ينزل ".
- " الأمالي الخمسمائة ".
- " فوائد الموائد ".
- " فضل الهر ".
- " ركوب البحر ".
- " الهريسة ".
- " وفيات المتأخرين ".
- " الأنساب ".
- " الأمالي ".

- " بخار بخور البخاري ".
- " تقديم الجفان إلى الضيفان ".
- " صلاة الضحى ".
- " الصدق في الصداقة ".
- " الربح في التجارة ".
- " رفع الارتياب عن كتابة الكتاب ".
- " النزوع إلى الأوطان ".
- " تخفيف الصلاة ".
- " لفتة المشتاق إلى ساكن العراق ".
- " من كنيته أبو سعد ".
- " فضائل الشام ".
- " فضل ياسين ".

عودته إلى مرو ووفاته:

قال السبكي: عاد إلى وطنه بمرو سنة ثمان وثلاثين فتزوج وولد له أبو المظفر عبد الرحيم فرحل به إلى نيسابور ونواحيها وهراة ونواحيها وبلخ وسمرقند وبخارى وخرج له معجمًا ثم عاد به إلى مرو وألقى عصا السفر بعدما شق الأرض شقًّا وأقبل على التصنيف والوعظ والتدريس.

قال ابن النجار: عاد بعدما دوخ الأرض سفرًا إلى بلده مرو وأقام مشتغلا بالجمع والتصنيف والتحديث والتدريس بالمدرسة العميدية ونشر العلم إلى أن توفي إمامًا من أئمة المسلمين في كثير من العلوم لا سيما الحديث على اختلاف فنونه [(١)].

* * *

(١) انظر مقدمة كتاب الأنساب، تأليف: الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، من طبع ونشر وتوزيع دار الجنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، بيروت - لبنان.

المؤرخ ابن سيد الناس

المؤرخ ابن سيد الناس وكتابه " السيرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ المسمى عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير "

ابن سيد الناس

أعلام المؤرخين

المؤرخ ابن سيد الناس وكتابه

" السيرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير "

قال ابن العماد في كتابه [1]: وفيها " أي سنة ٧٣٤ هـ " توفي فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى ابن سيد الناس الشافعي الإمام الحافظ اليعمرى الأندلسي الإشبيلى المصرى المعروف بابن سيد الناس.

قال ابن قاضى شهبة: ولد في ذي القعدة – وقيل: في ذى الحجة ـ سنة إحدى وسبعين وستمائة بالقاهرة، وسمع الكثير من الجم الغفير، وتفقه على مذهب الشافعي، وأخذ علم الحديث عن والده وابن دقيق العيد، ولازمه سنين كثيرة وتخرج عليه وقرأ عليه أصول الفقه، وقرأ النحو على ابن النحاس، وولى دار الحديث بجامع الصالح، وخطب بجامع الخندق.

وصنف كتبًا نفيسة: منها السيرة الكبرى سماها (عيون الأثر) في مجلدين، واختصره في كراريس وسماه نور العيون، وشرح قطعة من كتاب الترمذي إلى كتاب الصلاة في مجلدين، وصنف في منع بيع أمهات الأولاد مجلدًا ضخمًا يدل على علم كثير.

وذكره الذهبي في معجمه المختص وقال: أحد أئمة هذا الشأن كتب بخطه المليح كثيرًا، وخرج وصنف وصحح وعلل وفرع وأصل وقال الشعر البديع، وكان حلو النادرة حسن المحاضرة جالسته وسمعت قراءته وأجاز لى مروياته.. وقال ابن كثير: اشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقة والنحو وعلم

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٦ ص ١٠٨.

السير والتاريخ وغير ذلك، وقد جمع سيرة حسنة في مجلدين.

وقد حرر وحبر وأجاد وأفاد ولم يسلم من بعض الانتقاد، وله الشعر والنثر الفائق وحسن التصنيف والترصيف والتعبير وجودة البديهة وحسن الطوية والعقيدة السلفية والاقتداء بالأحاديث النبوية..، ولم يكن بمصر في مجموعه مثله في حفظ الأسانيد والمتون والعلل والفقه والملح والأشعار والحكايات.. وقال ابن ناصر الدين: كان إمامًا حافظًا عجيبًا مصنفًا بارعًا شاعرًا أديبًا دخل عليه واحد من الإخوان يوم السبت حادى عشر شعبان فقام لدخوله ثم سقط من قامته فلقف ثلاث ومات من ساعته.

ودفن بالقرافة عند ابن أبي جمرة رحمهما الله تعالى.

انتهى ما ذكره صاحب الشذرات باختصار بعضه.

وقال الحسينى " (1): ابن سيد الناس الإمام العلامة المفيد الأديب البارع المتقن فتح الدين أبو الفتح محمد بن الإمام الحجة أبي عمرو محمد ابن حافظ المغرب أبى بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس الأندلسي اليعمرى المصرى الشافعي. ولد سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وأجاز له النجيب عبد اللطيف وجماعة، وسمع من العز الحرانى وغازي الحلاوى وابن الأنماطى وخلق، وقدم دمشق ليالى وفاة ابن البخاري فلم يدركه، وسمع ابن المجاور ومحمد بن مؤمن والتقى الواسطي وخلق، قال الذهبي: هو أحد أئمة هذا الشأن كتب بخطه المليح كثيرًا وخرج وصنف وعلل وفرع وأصل وقال الشعر البديع وكان حلو النادرة كيس المحاضرة جالسته وسمعت بقراءته وأجاز لى مروياته.

---

(1) ذيل تذكرة الحفاظ ص ١٦ ".

مات فجأة في حادى عشر شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ودفن بالقرافة، وكان أثريا في المعتقد يحب الله تعالى ورسوله.

وقال السيوطي " [1]: الإمام العلامة المحدث الحافظ الأديب البارع أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز ابن سيد الناس بن أبي الوليد بن منذر بن عبد الجبار بن سليمان اليعمرى الأندلسي الأصل المصرى.

ولد في ذى القعدة سنة إحدى وسبعين وستمائة، وسمع من غازى والعز وخلائق نحو الألف، ولازم ابن دقيق العيد وتخرج عليه وأعاد عنده وكان يحبه ويثنى عليه، وأخذ العربية عن البهاء بن النحاس وكتب الخط المغربي والمصري فأتقنهما، وكان أحد الأعلام الحفاظ إمامًا في الحديث ناقدًا في الفن خبيرًا بالرجال والعلل والأسانيد عالمًا بالصحيح والسقيم له حظ من العربية.

حسن التصنيف صحيح العقيدة أديبًا شاعرًا بارعًا متفننًا في البلاغة ناظمًا ناثرًا مترسلاً، ولي درس الحديث بالظاهرية وغيرها.

وصنف السيرة الكبرى والصغرى وشرح الترمذي لم يكمله فأتمه الحافظ أبو الفضل العراقى.

مات في شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ولم يخلف في مجموعه مثله.

* * *

(١) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٥٠ ".

خليفة بن خياط

أعــلام المؤرخــين

المؤرخ النسابة خليفة بن خياط

عرفه الحافظ محمد بن طاهر بن القيسراني بقوله: " الحافظ الإمام أبو عمرو العصفري المعروف بشباب.

محدث نسابة إخباري علامة صنف التاريخ والطبقات وسمع ابن عيينة ويزيد زُريع وغندرًا وطبقتهم وروي عنه البخاري وبقي بن مخلد وعبدان وأبو يعلى وطائفة.

قال ابن عدي: مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة.

وقال مطين: مات سنة أربعين ومائتين رحمه الله تعالى يقع لنا حديثه عالياً من مسند أبي يعلى الموصلي ".

ويقول عنه الحافظ السيوطي المتوفى (٩١١هـ): خليفة بن خياط بن خليفة بن خياط العصفري أبو عمرو البصري الحافظ المعروف بشباب كان عالماً بالنسب والسير وأيام الناس روى عن ابن علية وبشر بن المفضل وأبي داود الطيالسي وابن عيينة وابن مهدي ويزيد بن زريع وروى عنه البخاري وأبو يعلى وبقي بن مخلد وحرب بن إسماعيل الكرماني والدارمي وعبد الله بن أحمد بن حنبل ".

وقال عنه الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي المتوفى (٣٥٤هـ): خليفة بن خياط أبو عمر العصفري من أهل البصرة يقال له: شباب يروي عن ابن عيينة والبصريين. حدثنا عنه الحسين بن سفيان وغيره وكان عالماً متقناً بأيام الناس وأنسابهم ".

ويقول عنه الحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ) في (ميزان الاعتدال): " خليفة بن خياط العصفري الحافظ شباب صاحب التاريخ روى عن جعفر بن سليمان ومعتمر بن سليمان ويزيد بن زريع وخلق وروي عنه البخاري وأبو يعلى وعبدان وخلق

".

ولكن ضعفه بعض العلماء رغم ثناء جماهير علماء الأمصار عليه؟!

والحقيقة أنه اختلط على بعض المعاصرين الأمر وسبب ذلك أنهم يتعاملون مع ابن خياط من خلال منظور واحد فخليفة بن خياط محدث ومؤرخ في وقت واحد فمن نظر إلى قول بعض العلماء فيه من الناحية الحديثية ومن حيث الرواية بشروطها وضوابطها الصارمة يضعفونه.. ومن ينظر إليه كمؤرخ علامة نسابة فهو الإمام المقدم في هذا الفن ومن ثم يتساهلون في بعض مروياته التاريخية.. ورغم ذلك فإنه محدث ثقة وليس كما يتوهم البعض أنه ضعيف.

توفي في شهر رمضان سنة ثلاثين ومائتين.

منهج ابن خياط في كتابة التاريخ:

خليفة بن خياط من المؤرخين الكبار في التاريخ الإسلامي ومن أعظم رواد مدرسة البصرة. ألف كتابه الماتع (التاريخ) المشهور باسم (تاريخ خليفة بن خياط)، وله عدة كتب منها (طبقات القراء) (تاريخ الزمنى والعرجان والمرضى والعميان). ولم يبق من هذه الكتب إلا كتابه(التاريخ) وكتاب طبقات القراء.

نستطيع أن نقسم المصادر التي استقى منها معلوماته إلى:

مصادره في تدوين السيرة النبوية:

معظم معلومات خليفة بن خياط أخذها عن محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ) ونلاحظ وجود اسم وهب بن جرير الذي نقل عنه ابن سعد في طبقاته الكبرى، وكذا أبي معشر السندي. وقد بدأ حوليات كتابه بالسنة الأولى من الهجرة النبوية وانتهى إلى وفاة الرسول ﷺ مع ذكر عماله وكتّابه ثم شرع في ذكر الخلفاء الراشدين وبقية دول

الإسلام إلى أحداث ٢٣٢هـ.

أما في الأنساب: فقد أخذ عن هشام بن محمد الكلبي، أبي اليقظان سحيم النسابة، ونجد اسم أبي عبيدة معمر بن المثنى الذي أخذ عنه أخبار الخوارج. وقد أخذ عن يحيى بن محمد الكعبي ويزيد بن زريع وعبد الله بن المغيرة والوليد بن هشام وعبد الله بن قعنب وخلق كثير يبلغون أكثر من ١٠٣ من الإخباريين والرواة والمحدثين.

أما عن طريقته في السرد التاريخي: يهتم ابن خياط بالإسناد بصفته محدثًا ولا سيما فيما يتعلق بالجزء الخاص بالسيرة النبوية والأحداث الخلافية، واتبع طريقة الحوليات في التاريخ، تلكم الطريقة التي سار عليها الطبري وكل ومعظم من كتب في تاريخ الإسلام. ويهتم ابن خياط بواقعات وأحداث تاريخية لا نجدها في كتاب الطبري مثل اهتمامه بذكر أسماء شهداء الصحابة في الغزوات والسرايا. كما أنه أعطانا معلومات هامة عن أسماء العمال والولاة في عهود الخلفاء وقدم لنا قوائم بأسماء القضاة وكبار رجال الدولة وبيت المال والخراج ورجال الشرطة ومن ثم تعتبر دراسة هامة للنظام الإداري والمالي في الإسلام. وقد ابتدأ ابن خياط كتابه (التاريخ) بإعطائنا نبذة عن معنى التاريخ ومتى بدأ الناس يؤرخون حتى وصل إلى التاريخ الهجري ومتى وكيف حدث ذلك ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما ذكره في مقدمة كتابه.. وأهم طبعات تاريخ ابن خياط تلك التي بتحقيق د. أكرم ضيا العمري باسم (تاريخ خليفة بن خياط)..

وصفوة القول أن تاريخ خليفة بن خياط يعد من أهم كتب التاريخ الإسلامي وذلك لأنه أقدم كتاب في تاريخ الإسلام مرتب على الحوليات ليس هذا فحسب بل لأن صاحبه محدث ثقة صدوق بشهادة علماء التعديل والتجريح.

كما أن شيخ المؤرخين الطبري أخذ عن ابن خياط كثيراً من المعلومات واحتذى طريقته في التأليف المرتب على الحوليات.

كما ثبت براءة ابن خياط من الرواية المنسوبة إليه عن طريق الكديمي الذي ضعفه الحافظ ابن عدي بل إن الحافظ ابن عدي هو أول من شكك في رواية الكديمي ودافع بقوة عن خليفة بن خياط ومن ثم سار على نفس الدرب في الدفاع عن ابن خياط علماء كثيرون كأبي الوليد الباجي والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي وغيرهم من علماء الإسلام. يعتبر كتاب (تاريخ خليفة بن خياط) وخاصة فيما يتعلق بقسم السيرة النبوية مصدراً مكملاً لبقية مصادر السيرة النبوية حيث اهتم بأحداث لم يذكرها غيره. لقد ظلم خليفة بن خياط حيًّا وميتاً فقد ابتلي بالمعتزلة الذين أتعبوه كثيراً وناصبوه العداء في عصر الخليفة المأمون وحسده أقرانه لسعة علمه وثقة الناس به. وظلم ميتاً حيث لم يأخذ مكان الصدارة في التاريخ الإسلامي ولم يهتم به الباحثون الاهتمام اللائق كمحدث ومؤرخ من كبار مؤرخي الإسلام [(١)].

* * *

---

(١) من مقال للدكتور هاني السباعي، تاريخ خليفة بن خياط، وانظر عنه مقدمة كتابه " الطبقات "، التاريخ الكبير ٣ / ١٩١، الضعفاء: ١٢٢، الجرح والتعديل ٣ / ٣٧٨، ٣٧٩، الأنساب ٨ / ٦٧، وفيات الأعيان ٢ / ٢٤٣، ٢٤٤، تذكرة الحفاظ ٢ / ٤٣٦، العبر ١ / ٤٣٢، ميزان الاعتدال ١ / ٦٦٥، تذهيب التهذيب ١ / ٢١١، غاية النهاية في طبقات القراء ١ / ٢٧٥، طبقات الحفاظ: ١٩٠، خلاصة تذهيب الكمال: ١٠٦، شذرات الذهب ٢ / ٩٤.

عبد الرحمن الجبرتي

أعــلام المؤرخيـن

عبد الرحمن الجبرتي

كان والده الشيخ (حسن الجبرتي) من كبار علماء الأزهر، لكنه كان مميزًا عنهم، ففي الوقت الذي كان فيه زملاؤه يتجهون إلى دراسة الفقه والنحو والبلاغة والتفسير، أضاف هو إليها دراسة الرياضيات، والمسائل الفلكية، ولقب الجبرتي نسبة إلى (جبرت) إحدى مدن الحبشة الإسلامية التي رحل منها أجداد الجبرتي إلى مصر في القرن العاشر الهجري. أحب الشيخ حسن الجبرتي هذه العلوم وتعلق بها تعلق الأم بوليدها حتى نبغ فيها، فتوافد عليه التلاميذ يستفيدون من علمه، ففتح لهم منزله الفسيح الرحب؛ حيث كان غنيًّا ورث عن آبائه المنازل والمتاجر، وازداد ثراؤه أكثر وأكثر من أرباح التجارة؛ لأنه كان تاجرًا ماهرًا في الوقت الذي كان فيه عالمًا جليلاً.

في هذا البيت الحافل بالعلم والنعيم، ولد (عبد الرحمن الجبرتي) عام ١١٦٧هـ/١٧٥٤م، لكن والده لم يفرح بولادته كسائر الآباء، بل استقبله استقبالا حزينًا؛ فقد ولد له أطفال كثيرون من قبل، وكان الموت يخطفهم من بين يديه بعد أن يبلغوا من العمر عامًا أو عامين، فكان يخشى أن يكون مصيره مثل مصير إخوته لكن عناية الله أحاطت بعبد الرحمن فلم تمتد إليه يد الموت، وقدرت له الحياة.

نشأ عبد الرحمن في بيت أبيه، يحفظ القرآن الكريم، وكغيره من أولاد العلماء ذهب إلى المدارس والكتاتيب لتعلم العلوم الدينية، وعين له والده شيخًا ليحفظه القرآن هو الشيخ (محمد موسى الجناجي) وشب عبد الرحمن فرأى العلماء والأدباء يأتون منزل أبيه؛ يتحدثون في العلوم والآداب، فجلس يستمع إليهم، ويأخذ من علمهم، كما استمع إلى كبار رجال الدولة وأمراء المماليك وأغنياء مصر الذين كانوا لا ينقطعون عن زيارة أبيه، بل إن جماعة من الأوروبيين

كانت تأتي إليه؛ ليتعلموا على يديه علم الهندسة، فعرف الجبرتي الكثير عن أحوال مصر وأسرارها، وكان يدخر كل ذلك في ذاكرته الحافظة الواعية، وازداد عبد الرحمن الجبرتي علمًا عندما ارتاد حلقات الأزهر الشريف.

توفي والد عبد الرحمن عام ١١٨٨هـ فترك له ثروة كبيرة وأراضٍ زراعية في أنحاء عديدة من مصر، فاضطر أن يتفقد أملاكه بنفسه، فرحل عن القاهرة حيث توجد هذه الأراضي في أقاليم مصر المختلفة فتهيأت له فرصة مناسبة ليعرف أحوال مصر، وطبقات الشعب من حكام وفلاحين وعمال ثم عاد إلى القاهرة بعد أن ازدادت معارفه، وواصل الشاب دراسته بالأزهر.

وأعجب (عبد الرحمن الجبرتي) بأحد علماء اليمن الذي وفد إلى مصر إعجابًا شديدًا وهو محمد المرتضي الزبيدي صاحب تاج العروس، ولازم مجلسه، حتى أصبح من تلاميذه المخلصين، وذات يوم أخبر (الزبيدي) تلميذه (الجبرتي) بأنه يريد أن يسجل أحداث الماضي، ويؤرخ لعلماء القرن الثامن عشر وأمرائه ومشاهيره، وطلب من الجبرتي أن يساعده في هذا العمل؛ فيجمع كل ما يستطيعه عن حياة السابقين، ويقرأ النقوش فوق القبور وعلى المساجد والآثار، وأعجب (عبد الرحمن الجبرتي) بالفكرة فأخذ يبحث ويسأل ثم يسجل معلوماته ويكتبها.

وبينما هو على هذه الحال مات أستاذه سنة (١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م) فحزن عليه حزنًا شديدًا، لكنه لم ييأس بل صمم على تكملة سيرته، فأخذ يكتب كل ما يراه ويشاهده، ويسجل كل صغيرة وكبيرة ومضت الأيام، وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، فكتب عنها بحياد تام وسجل يومياته أولاً بأول في كتابه (مظهر التقديس بزوال دولة

الفرنسيس) وكتب عما ارتكبه الفرنسيون من تدمير ونسف وقتل، وما أمطروا به المساجد والأسواق والمنازل من قنابل أدت إلى موت الكثيرين من أبناء الشعب المصري، لكنه يغض الطرف عن بعض مزايا الفرنسيين مثل حبهم للعلم والعمل واحترامهم للقانون.

وكتب (عبد الرحمن الجبرتي) عن المماليك وكيف أن بعضهم كانوا ينهبون ويقتلون ويخطفون الغلمان والنساء، ويسرقون الحلي من صدور النساء، كتب كل ذلك دون أن يجامل أحدًا منهم، بالرغم من أنه كانت تربطه بهم روابط صداقة، فلم يكن كتابه مجاملة لأمير أو طاعة لوزير، ومضى عهد الفرنسيين وتولى (محمد علي) أمور الدولة فكتب (الجبرتي) بكل جرأة عن الغلاء الفاحش في عهد (محمد علي) وعن مصادرة الأموال، وانتهاك الحرمات، والسطو على المتاجر والمصانع، كما ندَّد بالطغاة أمثال: (سليمان أغا السلحدار) و(محمد الدفتردار) من أتباع الوالي، ومع ذلك لم يغفل ما قام به (محمد علي) من أعمال مفيدة كإنشاء المصانع وبناء السفن وتشجيع العلماء وسجل ذلك كله في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار).

وانتشر ما كتبه الجبرتي عن هؤلاء الظلمة، على ألسنة الناس فتربصوا به، وحاولوا النيل منه، فقتلوا ابنه خليلاً في سنة ١٢٣٧هـ، وتوقف بعدها الجبرتي عن الكتابة، وحزن على ابنه حزنًا شديدًا، حتى فقد بصره ومات عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

* * *

خير الدين الزركلي

أعــلام المؤرخين

شيخ المؤرخين المعاصرين
خير الدين الزركلي

هو خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ولد في بيروت في ٢٥ حزيران ١٨٩٣م حيث كان والده تاجراً هناك، والده وأمه دمشقيان.

نشأ الزركلي في دمشق، وتعلم في مدارسها الأهلية، وأخذ عن معلميها الكثير من العلوم خاصة الأدبية منها، كان مولعًا في صغره بكتب الأدب، وقال الشعر في صباه. أتم دراسته (القسم العلمي) في المدرسة الهاشمية بدمشق،ثم عمل فيها مدرساً بعد التخرج، كما أصدر مجلة (الأصمعي) الأسبوعية فصادرتها الحكومة العثمانية. انتقل إلى بيروت لدراسة الآداب الفرنسية في الكلية العلمانية (اللاييك)، بعد التخرج عين في نفس الكلية أستاذاً للتاريخ والأدب العربي.

بعد الحرب العالمية الأولى، أصدر في دمشق جريدة يومية أسماها (لسان العرب) إلاّ أنها أُقفلت، ثم شارك في إصدار جريدة المفيد اليومية وكتب فيها الكثير من المقالات الأدبية والاجتماعية.

على إثر معركة ميسلون ودخول الفرنسيين إلى دمشق حُكم عليه من قبل السلطة الفرنسية بالإعدام غيابيًّا وحجز أملاكه إلاّ أنه كان مغادراً دمشق إلى فلسطين، فمصر فالحجاز.

سنة ١٩٢١م تجنس الزركلي بالجنسية العربية في الحجاز، وانتدبه الملك حسين بن علي لمساعدة ابنه (الأمير عبد الله) بإنشاء الحكومة الأولى في عمّان، حيث كلّف مفتشاً عاماً لوزارة المعارف ثم رئيساً لديوان الحكومة (١٩٢١- ١٩٢٣).

ألغت الحكومة الفرنسية قرار الإعدام على الزركلي فرجع إلى سورية، ومن ثم غادرها إلى مصر، وهناك أنشأ (المطبعة العربية) حيث طبع فيها بعض كتبه وكتباً أخرى.

أصدر في القدس مع رفيقين له جريدة (الحياة) اليومية، إلاّ أن الحكومة الإنجليزية عطّلتها فأنشأ جريدة يومية أخرى في (يافا)، واختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٠ م.

عينه الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٣٤ م مستشاراً للوكالة ثم (المفوضية) العربية السعودية بمصر، كما عُيّن مندوباً عن السعودية في مداولات إنشاء (جامعة الدول العربية)، ثم كان من الموقعين على ميثاقها.

مثل الأمير فيصل آل سعود في عدة مؤتمرات دولية، وشارك في الكثير من المؤتمرات الأدبية والاجتماعية، وفي عام ١٩٤٦م عين وزيراً للخارجية في الحكومة السعودية متناوباً مع الشيخ يوسف ياسين، وكذلك متناوباً معه العمل في جامعة الدول العربية، واختير في نفس العام عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر.

عام ١٩٥١م عين وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى جامعة الدول العربية، فاستقر في مصر، وهناك باشر بطبع مؤلفه (الأعلام).

من عام ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٣، عين سفيراً ومندوباً ممتازاً (حسب التعبير الرسمي) للحكومة السعودية في المغرب كما انتخب في المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٠.

منحته الحكومة السعودية بسبب مرض ألمّ به إجازة للراحة والتداوي غير محدودة، فأقام في بيروت وعكف على إنجاز كتاب في سيرة عاهل الجزيرة الأول (الملك عبد العزيز آل سعود) وأخذ يقوم من

حين لآخر برحلات إلى موطنه الثاني السعودية ودمشق والقاهرة وتركيا وإيطاليا وسويسرا. قام برحلات إلى الخارج يذكر أنها أفادته كثيراً.

- إلى إنجلترا سنة (١٩٤٦م) ومنها إلى فرنسا، ممثلا للحكومة السعودية في اجتماعات المؤتمر الطبي الأول في باريس.

- إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة (١٩٤٧م) بمهمة رسمية غير سياسية، حضر خلالها بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة.

- إلى آثينا العاصمة اليونانية سنة (١٩٥٤م) بصفة (وزير مفوض ومندوب فوق العادة) وجعل طريق عودته منها إلى استانبول لزيارة بعض مكتباتها.

- إلى تونس سنة (١٩٥٥م) مندوباً لحضور مؤتمر أقامه الحزب الدستوري فيها، ومنها إلى إيطاليا لزيارة أهم مكتباتها.

كان شاعراً مجيداً، ومؤرخاً ثقة، ويكفيه أنه صاحب الأعلام.

قام خير الدين الزركلي في مصر بدور مميز في تنفيذ المهمات القومية السياسية والإعلامية، وذلك من خلال اللقاءات والاجتماعات وكتابة المقالات ونشر الأشعار القومية والوطنية. وتناول الزركلي المستعمرين وأذنابهم بنبرة حادة خشيها الفرنسيون في سوريا كثيراً، فحكموا عليه غيابيًّا بالإعدام وبحجز أملاكه، وقد تلقى الزركلي النبأ برباطة جأش وقال:

نذروًا دمي حنقاً علـــي وفـــاهم :: أن الشـــقي بمـــا لقيـــت ســـعيد
الله شـــاء لي الحيـــاة وحـــاولوا :: مـــا لم يشـــأ ولحكمـــه التأييـــد

وعندما انطلقت الثورة السورية عام ١٩٢٥م، انطلقت ثورة الزركلي الشعرية بكل لهيبها وروحيتها العربية، فأخذ ينظم القصائد ويرسلها إلى دمشق إمّا منشورة على صفحات الجرائد المصرية، وإمّا بوسائل النقل الأخرى، فأصبحت أبيات قصائده الوطنية على ألسنة الناس يتغنون بها في شوارع المدن السورية. وكانت ردود الفعل الفرنسية أقوى من ردود فعلها عام ١٩٢٠م فأذاعت حكماً عليه ثانياً غيابيًّا بالإعدام، وطالبت الحكومة المصرية بإسكاته أو طرده من مصر غير أن الزركلي لم يكترث وظل يرسل قصائده الوطنية من القاهرة سرًّا، شاحذاً همم العرب حتى لا يسكتوا على الاستعمار ولا يتوانى أحدهم عن النضال. يقول:

تأهبوا لقراع الطامعين بكم ::: ولا تغركم الآلاء والنعم

كان الزركلي يراقب ويتابع أحداث وطنه من بعيد، لذلك نراه يشارك إخوانه آلامهم حين ضربت دمشق بالقنابل عام ١٩٢٥م، فيقول في قصيدته (بين الدم والنار):

الأهل أهلي والديار دياري ::: وشعار وادي النيربين شعاري

ما كان من ألم بجلق نازل ::: وأرى الزناد فزنده بي واري

ويحس الزركلي أن دم الثوار الذي يراق في دمشق هو دمه، فيقول:

إن الدم المهراق في جنباتها ::: لدمي وأن شفارها أشفاري

دمعي لما منيت به جار هنا ::: ودمي هناك على ثراها جاري

بنى الزركلي علاقات حميمة مع الكتاب والشعراء والمفكرين في مصر، من منطلق أهمية الكلمة التحضيرية في تعزيز الشعور الوطني والقومي في نفوس الجماهير العربية التي تعيش الهم القومي بكل جوانبه من هؤلاء الشاعر أحمد شوقي الذي ألقى قصيدته في حفل أقيم في القاهرة عام ١٩٢٦م، لإعانة منكوبي سوريا حين قامت

بالثورة ضد المستعمر الفرنسي والتي مطلعها:

سلام من صبا بردى أرقّ ::: ودمع لا يكفكف يا دمشق

يشخص الزركلي صورة الدأب العلمي المنتج في كتابه الأعلام الذي جمع فيه فأوعى فكان بحق أيسر وأشمل معجم عربي مختصر في تاريخ الرجال. فكان الزركلي في حياته مثالاً: للثائر والشاعر والباحث.

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٧٦، توفي أبو الغيث خير الدين الزركلي.

له من المؤلفات:

- كتاب (ما رأيت وما سمعت)، سجل فيه أحداث رحلته من دمشق إلى فلسطين فمصر فالحجاز.

- الجزء الأول من ديوان أشعاره، وفيه بعض ما نظم من شعر إلى سنة صدوره (١٩٢٥).

- كتاب (عامان في عمّان)، مذكرات الزركلي أثناء إقامته في عمّان وهو في جزآن.

- ماجدولين والشاعر، قصة شعرية قصيرة.

- كتاب شبه الجزيرة في عهد الملك بن عبد العزيز.

- كتاب (الأعلام)، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين يقع في ثمانية مجلدات.

- الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ.

- صفحة مجهولة من تاريخ سوريا في العهد الفيصلي.

- الجزء الثاني من ديوان أشعاره (١٩٢٥- ١٩٧٠ م).

- قصة تمثيلية نثرية أسماها (وفاء العرب) [(١)].

ويعد كتاب " الأعلام " من أشهر ما ألف في تراجم الأعلام، قديمًا وحديثًا، وأكثرها فائدة، وأوسعها مادة.

وقد بين الزِّركلي شرطه فيمن يترجم له فقال: «أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيفه، أو خلافة أو ملك أو إمارة، أو منصب رفيع كوزارة أو قضاء كان له فيه أثر بارز، أو رياسة مذهب، أو فن تميز به، أو أثر في العمران يذكر له، أو شعر، أو مكانة يتردد بها اسمه، أو رواية كثيرة، أو يكون أصل نسب، أو مضرب مثل. وضابط ذلك كله: أن يكون ممن يتردد ذكرهم، ويسأل عنهم » ا. هـ.

قال الطناحي: «وقد أفسح الزركلى في كتابه، مكاناً لهؤلاء النفر من المستشرقين، الذين قدموا خدمة للعربية، في مجال الدراسات ونشر النصوص. " ا. هـ

- وبين المؤلف أيضًا الباعث لتأليفه فقال: (في الخزانة العربية فراغ، وفي أنفس قرائها حاجة، وللعصر اقتضاء. يعوز الخزانة العربية كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم، مخطوطها ومطبوعها.. وقد حاولت بهذا الكتاب أن أملأ جانبًا صغيرًا من هذا الفراغ، وأمضي بعض تلك الحاجة، وأقوم بشيء مما يقتضيه العصر، وعساي أن أوفق).

وترجم الزركلي الأعلام على الترتيب الهجائي في الاسم الأول

---

(١) انظر مقدمة كتاب الأعلام، لخير الدين الزركلي، من طبع ونشر وتوزيع دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٩٢.

والثاني، ولم يترجم أعلامه على الشهرة، بيد أنه وضع لها إحالة تدلك على صاحبها. فابن جرير الطبري تبحث عنه في الشهرة أولا، ثم تبحث عن اسمه.

مثلا: ابن جرير= محمد بن جرير ٣١٠

الطبري = محمد بن جرير ٣١٠

والرقم الذي يلي الاسم هو تاريخ الوفاة.

والزركلي لم يعتمد في الترتيب الهجائي سوى الاسم الأول والثاني فقط، فكل (أحمد بن محمد) عنده (هجائيا) في نسق واحد، ولكن يرتب بينهم بحسب الوفاة معتمدا التاريخ الهجري. مثلا:

أحمد بن محمد بن يوسف ٣٦٠ قبل أحمد بن محمد بن إبراهيم ٤٥٠.

وطبع كتاب الأعلام عدة طبعات:

* الطبعة الأولى (سنة ١٣٤٥ هـ): بالمطبعة العربية بمصر التي كان يملكها الزركلي في ثلاثة مجلدات مجموع صفحاتها ١١٨٧.

* الطبعة الثانية: بعد ٣٠ عامًا (سنة ١٣٧٧ هـ) في عشرة مجلدات، العاشر منها مستدرك لما فاته في الأجزاء التسعة من خطأ في ترجمة أو تصحيح في أخرى، وأضاف إليها نماذج من خطوط بعض المترجمين، وكذلك صورًا لبعض الأعلام، وتمتاز هذه النماذج والصور بالجودة التي ضعف بهاؤها في الطبعات اللاحقة ووضع فهرسًا للخطوط والصور، وجاءت هذه الطبعة ثلاثة أضعاف الطبعة الأولى.

* الطبعة الثالثة: في بيروت (سنة ١٣٨٩ هـ) في أحد عشر مجلدًا وهي عبارة عن الطبعة الثانية إلا أنه أدخل في صلب التراجم بعض

التصحيحات (أصلح ما استطاع إصلاحه المتن من غير إخلال في أرقام الصفحات. كما ألحق مستدركًا ثانيًا في مجلد سماه: «المستدرك الثاني» جعل فيه بعض التصحيحات، وفي هذه الطبعة استل نماذج الخطوط والصور فجعلها في مجلد مستقل ولم تختلف الصفحات في الطبعة الثانية، حيث أنه لم يكن لنماذج الخطوط والصور أرقام صفحات.

* الطبعة الرابعة: (سنة ١٣٩٩ هـ) بدار العلم للملايين ببيروت في ثمان مجلدات من القطع الكبير وهي بعد وفاة مؤلفه [فتولى الإشراف عليها بعد موته صديقه وابن شيخه (ظافر القاسمي) نجل شيخ الشام جمال الدين القاسمي، وشاركه في الإشراف الشيخ زهير جاويش والأستاذ زهير فتح الله.]، وقد كان الزركلي أضاف إليها كتابه «الإعلام بما ليس في الأعلام » الذي كان ينوي طباعته مستقلا عن كتابه الأول، كما أضيفت إلى هذه الطبعة المستدركات التي كانت مستقلة ووضعت في أماكنها وكذلك نموذج من خط المُترجم وصورته بجوار ترجمته إلا أنه أثناء الطباعة سقطت بعض التراجم فتجد الإحالة ولا تجد الترجمة، بل قد تجد نموذجًا من خط المُترجم ولا تجد ترجمته. مثل: عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني ٤: ٥٩، وعن هذه الطبعة بقية الطبعات اللاحقة إلا أننا نجد في بعض الطبعات زيادة أو نقصانًا..

ويتميز هذا الكتاب بعدة مميزات فيقول الطناحي «: ومحاسن هذا الكتاب كثيرة، وإن فاتنى ذكر هذه المحاسن مجتمعة، فإني أشير إلى أبرزها:

١ - الدقة البالغة في تحرير الترجمة، وإبراز أهم ملامح العلم المترجم.

٢ - ذكر ما قد يكون من خلاف، في الاسم، والمولد والوفاة، ونسبة الكتب مع اتخاذ مواقف الحسم، أو الترجيح.

٣ - تنقية بعض كتب التراجم مما علق بها، من وهم، أو تصحيف، أو تحريف.

٤ - الرجوع في توثيق الترجمة إلى المصادر المخطوطة، إذا عزت المطبوعة، أو كانت الثقة بها نازلة.

٥ - الاستعانة بالمراجع الحية، من أهل العلم، والمنتسبين إلى مذهب المترجم.

٦ - جلاء الغموض الذي يكتنف بعض الأعلام.

٧ - التنبيه على بعض الفوائد العلمية.

٨ - الإنصاف والبعد عن الهوى، وسوق الرأي الخاص ملففاً في بجاد النزاهة والتصون. وأكثر ما ترى ذلك في تراجم المعاصرين، من أهل الفكر والأدب والسياسة.

٩ - الإحالة الذكية بعد الفراغ من الترجمة إلى أصول المصادر والمراجع.

١٠ - ذكر نفائس المخطوطات ونوادرها، التي رآها في رحلاته وأسفاره. وكذلك التي أطلعه عليها أصدقاؤه، وفي مقدمتهم السيد أحمد عبيد، بدمشق، وما أكثر ما أشار إليه في تعليقاته.

١١ - إثبات صور خطوط العلماء قديماً وحديثاً. وهذا يفيد في توثيق المخطوطات التي يقال: إنها بخطوط مؤلفيها. فعن طريق مضاهاة ما بيدك منها بما أثبته من تلك النماذج للخطوط، يظهر لك وجه الصواب، أو الخطأ.

ويتصل بذلك إثباته لتوقيعات الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وصور المحدثين من المعاصرين، ومن قرب منهم، ممن أدركهم فن التصوير الفوتوغرافي.

١٢ - وقد زان ذلك كله حسن البيان، وصفاء العبارة. فالرجل رحمه الله، كان أديباً شاعراً. وقد كان الأدب وما زال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة إيصالها إلى السمع، واستيلائها على النفس. والبليغ يضع لسانه حيث أراد. وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة؛ لجفافها وعسرها.

أما ما وراء ذلك من حلو الشمائل، وكرم الطبع، ونقاء الخلق، فهو مما لهج به الخاصة والعامة، ممن اتصلوا بالرجل، بسبب من الأسباب.

ولست أشك في أن إقامة الزركلى - رحمه الله - في مصر والمغرب، سنين ذوات عدد، قد أعانته على إقامة ذلك الصرح الشامخ. وآية ذلك أن كثيراً من نماذج المخطوطات، التي امتلأ بها كتابه، من محفوظات دار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات بالقاهرة، وخزائن الكتب الخاصة والعامة، بالمغرب الأقصى. " ا. هـ كلام الطناحي رحمه الله.

ومما أُخذ على الكتاب:

قال أحمد العلاونة: بذل المؤلف ما وسعه من - جهد في جمع التراجم وتحريرها، بيد أن عمله - كأي عمل آخر - لا يخلو من مآخذ وهنات، وإذا قيست مآخذه وهناته بعمله الجريء، كانت كأنها لم تكن. وأجملتُ المآخذ بما يلي:

١ - لم يترجم مشاهير قدماء وعصريين مثل أحمد بن هبة الله المدائني صاحب كتاب أحكام الجدل والمناظرة، والقاسم بن محمد بن علي الشاشي صاحب التقريب، والشاعر ابن زريق البغدادي وأبو

بكر محمد ابن داود الداوودي وابن المكوي.

ومن العصريين: الدكتور محمد غنيمي هلال، وإبراهيم حمروش، وممدوح الشريف (الخطاط).

٢ - الإيجاز المخل لبعض المشاهير مثل: الحريري صاحب المقامات.

٣ - لم يترجم للأنبياء الذين ذكر اسمهم في القرآن الكريم، ولم يترجم إلا للأنبياء: محمد، وشعيب، وأيوب، وهود، وإسماعيل، وصالح صلوات الله عليهم.

٤ - لم يترجم لسلاطين الدولة العثمانية، مع أنه ترجم للمماليك والمستشرقين.

٥ - ترجم لمجاهيل، أو ممن هم ليسوا أحقاء بالترجمة، منه وهو كثير: محمد هادي ١٢٧/٧، والحسيني ١٢٩/٧، والحلاق ١٥٦/٧، والكشميري ١٢٣/٧، ومهدي الكاظمي ٣١٢/٧، والنوري ١٣١٤/٧. هـ.

- قالوا عن الكتاب:

يقول محمود الطناحي:

أما « الأعلام » فهو خير كتاب ألف في بابه، بل هو خير ما كتب كاتب في تراجم الرجال والنساء في هذا العصر.

وخلاصة القول: أن هذا الكتاب أبلغ رد على من يزعم أن العرب المعاصرين لم يصنعوا شيئاً ذا بال، في تاريخ رجالهم وأعلامهم. وأنه لا ينبغي أن تخلو مكتبة طالب علم من هذا الكتاب.

يقول الشيخ علي الطنطاوي:

كتاب الأعلام للزركلي أحد الكتبِ العشرةِ التي يفاخر بها هذا القرن القرون السابقاتِ [١].

* * *

(١) انظر: محمود الطناحي، الموجز، أحمد العلاونة، ذيل الأعلام، محمد بن عبد الله، الرشيد الإعلام بتصحيح كتاب الأعلام.

ابن قتيبة الدينوري

أعــلام المؤرخــين

المؤرخ الأديب ابن قتيبة الدينوري

العلامة الكبير، ذو الفنون أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل: المروزي، الكاتب، صاحب التصانيف. نزل بغداد، وصنف وجمع، وبعد صيته.

حدث عن: إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد بن عبيد الله الزيادي، وزياد بن يحيى الحساني، وأبي حاتم السجستاني، وطائفة.

حدث عنه: ابنه القاضي أحمد بن عبد الله، بديار مصر، وعبيد الله السكري، وعبيد الله بن أحمد بن بكر، وعبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي، وغيرهم.

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم، المروزي الدينوري، أصله من أسرة فارسية كانت تقطن مدينة «مرو»، ولد سنة ٢١٣ هـ. في أواخر خلافة المأمون، ونشأ في بغداد، وتتلمذ على يد عدد كبير من العلماء وأعلام عصره، منهم:

١ - أحمد بن سعيد اللحياني.

٢ - أبو عبد الله، محمد بن سلام الجمحي البصري، المتوفى سنة ٢٣١ هـ.

٣ - أبو يعقوب، إسحاق بن إبراهيم، المعروف بابن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ.

٤ - حرملة بن يحيى التجيبي، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ.

٥ - القاضي يحيى بن أكتم المتوفى سنة ٢٤٢ هـ.

٦ - أبو عبد الله، الحسين بن الحسين بن حرب السلمي المروزي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ.

٧ - دعبل بن علي الخزاعي، المتوفى سنة ٢٤٦ هـ.

٨ - أبو عبد الله، محمد بن محمد بن مرزوق بن بكير بن البهلول الباهلي البصري، المتوفى سنة ٢٤٨ هـ.

٩ - أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي، المتوفى سنة ٢٤٩ هـ.

١٠ - أبو حاتم، سهل بن محمد السجستاني، المتوفى سنة ٢٤٨ هـ.

١١ - محمد بن زياد بن عبيد الله الزيادي البصري، الملقب ببؤبؤ، المتوفى سنة ٢٥٢ هـ.

١٢ - أبو يعقوب، إسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف الباهلي البصري، المتوفى سنة ٢٥٣ هـ.

١٣ - أبو عثمان الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب، المتوفى سنة ٢٥٤ هـ.

١٤ - أبو طالب، زيد بن أخزم الطائي البصري، المتوفى سنة ٢٥٧ هـ.

١٥ - أبو الفضل، العباس بن الفرج الرياشي، المتوفى سنة ٢٥٧ هـ.

١٦ - أبو سهل الصفار، عبدة بن عبد الله الخزاعي، المتوفى سنة ٢٥٨ هـ.

وقد تتلمذ على يدي ابن قتيبة عدد كبير من العلماء، منهم:

١ - ابنه أحمد، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري، المتوفى سنة ٣٢٢ هـ.

٢ - أحمد بن مروان المالكي، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ.

٣ - أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان، المتوفى سنة ٣٠٩ هـ.

٤ - أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ، المتوفى سنة ٣١٣ هـ.

٥ - أبو محمد، عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى السكري، المتوفى سنة ٣٢٣ هـ.

٦ - أبو القاسم، عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمي، المتوفى سنة ٣٣٤ هـ.

٧ - الهيثم بن كليب الشامي، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ.

٨ - قاسم بن أصبغ الأندلسي، المتوفى سنة ٣٤٠ هـ.

٩ - عبد الله بن جعفر بن درستويه الفسوي، المتوفى سنة ٣٥٥ هـ.

١٠ - أبو القاسم، عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد الأزدي، المتوفى سنة ٣٤٨ هـ.

١١ - أبو بكر، أحمد بن الحسين بن إبراهيم الدينوري.

١٢ - أبو العباس محمد بن علي بن أحمد الكرجي، المتوفى سنة ٣٤٣ هـ.

١٣ - أبو رجاء، محمد بن حامد بن الحارث البغدادي، المتوفى سنة ٣٤٣ هـ.

منزلته العلميّة وآراء العلماء فيه:

قال ابن النديم في الفهرست [١]: كان صادقاً فيما كان يرويه، عالماً باللغة، والنحو، وغريب القرآن ومعانيه، والشعر، والفقه؛ كثير التصنيف والتأليف.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد [٢]: كان ثقة ديِّناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة.

(١) ص ٨٥.
(٢) ١٠/١٧٠.

وقال أبو البركات الأنباري في نزهة الألباء [(١)]: كان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر؛ متفنّناً في العلوم.

وقال ابن الجوزي في المنتظم [(٢)]: كان عالماً ثقة ديِّناً فاضلاً، وله التصانيف المشهورة.

وقال القفطي في إنباه الرواة [(٣)]: كان ثقة ديِّناً فاضلاً.

وقال ابن خلّكان في وفيات الأعيان[(٤)]: كان فاضلاً ثقة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة في تفسير سورة الإخلاص [(٥)]: يُقال هو لأهل السنّة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنّة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة.

وقال الذهبي في تذكرة الحفّاظ [(٦)]: ابن قتيبة من أوعية العلم، لكنه قليل العمل في الحديث، فلم أذكره.

وقال في الميزان [(٧)]: صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية.

وقال في السير [(٨)]: كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية [(٩)]: صاحب المصنّفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمّة نافعة.

---

(١) ص ٢٠٩.
(٢) ١٠٢/٥.
(٣) ١٤٤/٢.
(٤) ٤٢/٣.
(٥) ص ٢٥٢.
(٦) ٦٣٣/٢.
(٧) ٥٠٣/٢.
(٨) ٢٩٨/١٣.
(٩) ٤٨/١١.

وقال مسلمة بن قاسم - نقله ابن حجر في اللسان [١]: كان لغويًّا كثير التأليف، عالماً بالتصنيف، صدوقاً من أهل السنّة، يُقال: كان يذهب إلى قول إسحاق بن راهويه.

وقال نفطويه - نقله ابن حجر في اللسان [٢]: كان إذا خلا في بيته وعمل شيئاً جوّده، وما أعلمه حكى شيئاً في اللغة إلاّ صدق فيه.

وقال ابن حزم - نقله ابن حجر في اللسان [٣]: كان ثقة في دينه وعلمه.

وقال الحافظ السِّلَفي - نقله ابن حجر في اللسان[٤]: كان ابن قتيبة من الثقات، ومن أهل السنّة.

هذه جمل من آراء العلماء الأفاضل في ابن قتيبة رحمه الله.

أما أبو الطيّب فقال في مراتب النحويّين [٥] - وهو يذكر بعض شيوخ ابن قتيبة -: " أخذ عن أبي حاتم.. وقد أخذ ابن دريد عن هؤلاء كلّهم وعن الأشناندانيّ؛ إلاّ أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيّين لم يكن أخذها عن ثقات؛ وكان يتسرّع في أشياء لا يقوم بها، نحو تعرّضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابه في تعبير الرؤيا، وكتابه في معجزات النبي ﷺ، وعيون الأخبار، والمعارف، والشعراء، ونحو ذلك ممّا أُزرِي به عند العلماء، وإن كان نَفَقَ بها عند العامّة ومن لا بصيرة له.

هذا قول لا يُقبَل، لأن كتبه أصدق دليل على بطلانه حيث أثنى عليها عدد من العلماء - كما مرّ قبل قليل -. هذه الكتب التي ذكرها أبو

---

(١) ٣٥٨/٣.
(٢) ٣٥٨/٣.
(٣) ٣٥٨/٣.
(٤) ٣٥٩/٣.
(٥) ص ١٣٦، ١٣٧.

الطيّب من أنفع كتب ابن قتيبة وأجلّها، وهي نالت حظوة عند العلماء الأفاضل قديماً وحديثاً.

وقال الحاكم: أجمعت الأمّة على أن القتبي كذّاب.

فقال الحافظ الذهبي في الميزان (١): قلتُ: هذه مجازفة قبيحة، وكلام من لم يَخَفِ الله.

وقال في المغني (٢): هذا بغي وتخرّص، بل قال الخطيب: هو ثقة.

وقال في السير (٣): قلتُ: هذه مجازفة وقلّة ورع، فما علمتُ أحداً اتهمه بالكذب قبل هذه القولة، بل قال الخطيب: إنه ثقة.

وما قاله الذهبي هو القول الفصل.

كتب فضيلة الدكتور علي بن نفيع العلياني رسالة ماجستير بعنوان " موقف ابن قتيبة من عقيدة السلف " في سنة ١٤٠١ هـ (٤) تناول فيها ما قاله ابن قتيبة في المسائل العقدية التي استخرجها من كتبه مثل " تأويل مشكل القرآن " و " تأويل مختلف الحديث " و " الاختلاف في اللفظ ".. وقارنه بآراء أهل السنة والجماعة، وتوصّل إلى نتيجة وهي: أن ابن قتيبة من علماء أهل السنة والجماعة.

هذا، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى: وكان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق، وقد بسط الكلام على ذلك في كتابه في المشكل وغيره (٥).

---

(١) ٥٠٣/٢.
(٢) ٣٥٧/١.
(٣) ٢٩٩/١٣.
(٤) وتم طبعها بعنوان " عقيدة الإمام ابن قتيبة " في مكتبة الصديق / الطائف.
(٥) تفسير سورة الإخلاص، ص ٢٥١.

وقال أيضاً: ابن قتيبة هو من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق، والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، وله في ذلك مصنفات متعددة.

أما أبو بكر البيهقي فقال: كان يرى رأي الكرّاميّة [١].

وقال الذهبي: نقل صاحب مرآة الزمان (هو سبط ابن الجوزي المتوقّى ٦٥٤ هـ، وفيه كلام) بلا إسناد عن الدارقطني أنه قال: كان ابن قتيبة يميل إلى التشبيه.

قال الذهبي: هذا لم يصح، وإن صح فسحقاً له، فما في الدين محاباة[٢].

ولقد ألّف ابن قتيبة كتاب " الاختلاف في اللفظ والرد على الجهميّة والمشبّهة "، وهذا الكتاب أقوى دليل على بطلان هذا القول.

هذا، وهو القائل في هذا الكتاب [٣]: ".. قلنا: نحن لا ننتهي في صفاته عزّ وجلّ إلاّ إلى حيث انتهى رسوله ﷺ، ولا ندفع ما صحّ عنه، لأنه لا يقع في أوهامنا ولا يستقيم على نظرنا؛ بل نؤمن به من غير أن نقول فيه بكيفيّة، أو حد، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت ".

وهو القائل في هذا الكتاب أيضاً [٤]: " ولا نقول أصبع كأصابعنا، ولا يد كأيدينا،ولا قبضة كقبضاتنا، لأن كلّ شيء منه جلّ وعزّ لا يشبه شيئاً منّا ".

وله أقوال أخرى غير ما سبق في هذا الكتاب وغيره من كتبه تدل دلالة واضحة على بطلان هذا القول، والله تعالى أعلم.

مؤلفات ابن قتيبة:

---

(١) سير النبلاء، ٢٩٨/١٣؛ لسان الميزان، ٣٥٧/٣.
(٢) سير النبلاء ٢٩٨/١٣.
(٣) ص ٥٧٣.
(٤) ص ٥٧٦.

ذكر أصحاب كتب التراجم لابن قتيبة الكثير من المصنفات، وهي:

١ - آداب العشرة.

٢ - آداب القراءة.

٣ - أدب الكاتب.

٤ - اختلاف الحديث.

٥ - استماع الغناء بالألحان.

٦ - إصلاح غلط أبي عبيدة.

٧ - إعراب القرآن.

٨ - تأويل الرؤيا.

٩ - تأويل مختلف الحديث.

١٠ - تأويل مشكل القرآن.

١١ - تقويم اللسان.

١٢ - تفسير القرآن.

١٣ - جامع الفقه.

١٤ - جامع النحو الكبير.

١٥ - جامع النحو الصغير.

١٦ - الجوابات الحاضرة.

١٧ - حكم الأمثال.

١٨ - خلق الإنسان.

١٩ - دلائل النبوّة.

٢٠ - ديوان الكتاب.

٢١ - طبقات الشعراء.

٢٢ - عيون الأخبار، في الأدب والمحاضرات.

٢٣ - عيون الشعر، يحتوي على عشرة كتب.

٢٤ - غريب الحديث.

٢٥ - غريب القرآن.

٢٦ - فرائد الدرر.

٢٧ - كتاب آلة الكتابة.

٢٨ - كتاب الاختلاف في اللفظ.

٢٩ - كتاب الأشربة.

٣٠ - كتاب الأنواء.

٣١ - كتاب الحكاية والمحكي.

٣٢ - كتاب التسوية بين العرب والعجم.

٣٣ - كتاب التفقيه.

٣٤ - كتاب الجراثيم.

٣٥ - كتاب الخيل.

٣٦ - كتاب الرد على المشبهة.

٣٧ - كتاب الرد على القائل بخلق القرآن.

٣٨ - كتاب صناعة الكتابة.

٣٩ - كتاب الشعر والشعراء.

٤٠ - كتاب الصيام.

٤١ - كتاب العلم.

٤٢ - كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها.

٤٣ - كتاب القراءات.

٤٤ ـ كتاب المراتب والمناقب من عيون الشعر.

٤٥ ـ كتاب المسائل والأجوبة.

٤٦ ـ كتاب المعارف، في التاريخ.

٤٧ ـ كتاب الميسر والقداح.

٤٨ ـ كتاب الوحش.

٤٩ ـ كتاب الوزراء.

٥٠ ـ مختلف الحديث.

٥١ ـ مشكلات القرآن.

٥٢ ـ معاني الشعر، يحتوي اثني عشر كتابًا.

٥٣ ـ معجزات النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم.

توفي ابن قتيبة، فيما يقول تلميذه أبو القاسم إبراهيم الصائغ: أنه أكل هريسة، فأصاب حرارة، ثم صاح صيحة شديدة، ثم أغمي عليه إلى وقت صلاة الظهر، ثم اضطرب ساعة، ثم هدأ، فما زال يتشّهد إلى وقت السحر، ثم مات، وذلك أول ليلة من رجب سنة ٢٧٦ هـ [١].

* * *

(١) انظر، كشف الظنون ٥/ ٤٤١، البداية والنهاية ١١/ ٥٢ ـ ٥٣، الأعلام للزركلي ٤/ ١٣٧، الأنساب للسمعاني، التهذيب للأزهري ص ١٣، مراتب النحويين لأبي الطيب الحلبي ص ١٣٧، ميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٧٧، لسان الميزان ٣/ ٣٥٨، النجوم الزاهرة ٣/ ٧٥، الفهرست لابن النديم، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٩٢ ـ ٤٦٣، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٥/ ١٠٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢٤٦.

الجاحـــظ

أعـــلام المؤرخـــين

الأديب المؤرخ الجاحظ

أبو عثمان (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري) أعظم ناثري العصر العباسي وأكثر بلغائه تصنيفاً وكتابةً وأثراً. جمع بين علوم الأوائل والأواخر، وأتقن رواية أهل النقل ودراية أهل العقل، وانحاز في كتابته إلى العقل الذي رآه حجة الله على خلقه، وسبيلهم إلى صنع حياتهم بإرادتهم الحرة، فمضى في طريق علماء الكلام الذين وُصفوا بأنهم فرسان العقل، وأن ما يحسنونه من علوم الدين في وزن ما يحسنونه من معارف الفلسفة، واختط لنفسه سبيلاً بينهم، مجتهداً لا متّبعاً، فتميز بآراء نُسبت إليه، وجماعة تحلّقت حوله تحت مسمى: (الجاحظيّة). وكانت كتابته الإبداعية الوجه الآخر من كتابته الفكرية، إعلاءً من شأن العقل الذي يبتدع لغاته الكاشفة عن وعوده، واحتفاء بالجذور العربية الأصيلة المنفتحة على كل جديدٍ يضيف إليها بالقدر الذي تضيف إليه، وتأكيدًا للمعنى الإنساني الذي فتح أفق الهوّية على علوم وفنون المعمورة البشرية بأسرها دون تعصب أو تحيز، ومن غير اتباع أو تقليد، طلباً للحكمة التي هي - كالمعرفة والفن - ضالة المؤمن. وكان ذلك تجسيداً لحلم التنوع البشري الخلاّق، وسعياً إلى تتميم ما لم يقل فيه السابقون على مجرى عادة اللسان وسنة الزمان وخصوصية المكان.

ولد الجاحظ بمدينة البصرة، موطن المعتزلة، في فترة الانفتاح الثقافي على العالم. وأفاد من انفتاح علمائها على معارف الدنيا القديمة التي أصبحت ميسورة لأمثاله باللسان العربي. وأكسبه نهمه المعرفي المذهل صفة الموسوعية التي دفعته إلى الكتابة في كل مجال، كما لو كان حريصاً على أن يستحضر في كتبه ورسائله كل ما في الدنيا حوله، وكما لو كان يريد لكتاباته المتنوعة إلى درجة

غير مسبوقة أن تكون مرايا متغايرة الخواص، ينعكس عليها التعدد اللانهائي لحضور الإنسان في الكون، ذلك الحضور الذي يجعل من الإنسان العالم الأصغر الذي ينطوي على العالم الأكبر. هكذا، كتب عن معنى التوحيد والعدل وحجج النبوة ونظم القرآن، كما كتب عن النخل والزرع والمعادن وأنواع الحيوان، وعن تعدد الأجناس الموجود في زمنه (الترك، والسودان، والهند والسند، والفرس) وتعدد اتجاهات الفكر (الشيعة بعامة والزيدية بخاصة، والرافضة، والخوارج، والعباسية، والعثمانية) وعن الحرف والطوائف (المعلمين، والكتاب، والصناع، والزراع، والقيان، والجواري، والخصيان) وعن العوائد والأخلاق والملامح النفسية للنماذج والأنماط البشرية، فكتب عن الحب والعشق، الكره والحسد، الجد والهزل، المعاد والمعاش، فضلا عن محبة الأوطان. ولم تفُته الكتابة عن النبيذ أو رواية المُلَح والنوادر بلهجاتها، واصلاً ما كتبه عن الغلمان بما كتبه عن البخلاء، غير مفلتٍ حتى لصوص الليل ولصوص النهار، بل البرصان والعرجان والعميان، من مرايا رسائله وكتاباته التي انعكس عليها كل شيء في زمنه.

ولذلك تعددت الصفات الفنية لكتابة الجاحظ التي تجاورت فيها المتعارضات، فجمعت ما بين الإيجاز والإطناب، لحن العامة وفصاحة الخاصة، التوفر على الموضوع الواحد والاستطراد، الاستنباط والاستشهاد، القياس المنطقي والانطباع الذاتي، الرصانة الجهمة والسخرية التهكمية، الرواية والمعاينة، السرد والحكاية، التجريد والتصوير الحسي. وكانت هذه الصفات، في اختلافها وتعارض لوازمها، نتيجة طبيعية للآفاق الموسوعية الرحيبة التي انطلقت منها كتابة الجاحظ، سواء في تعدد أدوارها الفكرية

والاجتماعية والسياسية، أو تعدد جوانبها الإبداعية التي اتسعت بحدقتيّ عينيه الجاحظتين اللتين لم تتوقفا عن التحديق في علاقات عصره المتشابكة إلى أن تُوفي في شهر المحرم سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ - ٨٦٩ ميلادية) تاركًا تراثه العظيم الذي نقدم أقل القليل من نماذجه.

ولد الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر في البصرة في حدود عام ١٦٠ هـ وتوفي في عام ٢٥٥ هـ، فناهز بعمره هذا الخامسة والتسعين. وهي بلا شك سنوات طويلة حفلت بنشاط فكري ربما ندر من ماثله في حجمه وتنوعه. وساعد على ذلك أيضاً قابليته الفكرية المتنوعة التي جعلت منه موسوعيًّا، حتى بات من النادر أن تجد موضوعاً لم يلجه أو يخط فيه بقلمه الرشيق المتحذلق ولو برأي أو فكرة عابرة.

.. أشارت الوقائع الكثيرة إلى أن الجاحظ أعد نفسه للعلم والثقافة والأدب منذ نعومة أظفاره. فألقى بها بين العلماء والأدباء، خالطهم وجالسهم وأخذ عنهم، وعرَّض نفسه للضائقات الكثيرة مصرًّا على إتمام ما اختطّه لها من منحًى حياتيٍّ. وترافقت هذه النشأة مع ظرفها الملائم فزادتها خصوبة. وتمثل هذا الظرف باهتمام الخلافة العباسية الكبير والواسع بشؤون الثقافة والأدب والعلم والفكر، اتساقاً مع منهج الدولة الإسلامية في عصرها الجديد بتحويل الاهتمام الأكبر للدولة من النشاط العسكري إلى النشاط المدنيّ والحضاريّ. فلا غرابة إذن أن يجد الجاحظ لنفسه مكاناً بدأ مقبولاً ليصبح مرموقاً إلى حد كبير وعلى مستويات وميادين عديدة.

.. بدأ اتصال الجاحظ بالسلطة في البصرة، متردداً على دار الإمارة

في مناسبات عدة[1]. ثم تعمقت علاقته بالسلطة لتبلغ شأناً كبيراً في خلافة المأمون، الذي أقام أول عهده في مرو - عاصمة إقليم خراسان. فكان الجاحظ بين الذين أنيط بهم إعداد الكتب والرسائل في موضوع الإمامة. فأنجزها وأودعها لدى الخليفة. ثم زاره مرات أخرى لمعرفة رأيه فيها. وفي بغداد أصبح يتردد على بلاط المأمون، ثم استكتب في هذه الأثناء في ديوان الرسائل، الذي لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام فقط[2]، على الرغم من الإشارات التي أفادت أنه تقلد خلافة إبراهيم ابن العباس الصولي على هذا الديوان مرات عديدة.

واستمرت صلة الجاحظ بالسلطة حتى خلافة المتوكل. غير أن هذا الأخير لم يكن شديد الحماس لعلاقاته، لأسباب سنأتي عليها في حينه. ومن ناحية أخرى، وثق الجاحظ صلاته برجالات الدولة الآخرين، ولا سيما الوزراء منهم، فأهداهم كتبه ورسائله ومصنفاته، فأجزلوا له العطاء بدورهم وأفاضوا عليه. غير أن هذه العلاقات انتابها بعض الهزات فكاد أن يناله الأذى الكبير بسبب التصفيات التي جرت في خلافة المتوكل لولا بلاغته المشفوعة بالتوسلات التي أنقذته في المواقف الحرجة. ويظهر على وجه العموم أن صلاته بالسلطة كانت مصيرية؛ فغالباً ما تحدث بصيغة الانتساب إليها مثل قوله: أصحابنا وخلفاؤنا وملوكنا.. وبموجب هذه الصلة وبفضل ما امتلكه من مواهب بلاغية وقدرات معرفية، ظهر بوصفه كاتباً شبه رسمي

(١) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١/ ٦١، الدكتور موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي (دراسة نقدية)، كلية المعلمين - جامعة الموصل، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٢٩٣.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨، ج ٣/ ٤٥، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٠/ ١١٦، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق مرجليوث، القاهرة، ١٩٣٠، ٦/ ٥٨، موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٢٩٤.

واجبه إذاعة ونشر وتفسير الأوامر الحكومية أو الأفكار الدينية التي مالت إليها السلطة، ثم الدفاع عن العباسيين وتبرير وجودهم في السلطة. وربما قاده ذلك أيضاً إلى الإسهام في صنع سياسة الدولة وصياغة مقولاتها والمشاركة في توجيهها. وأحيل إليه مرات عديدة وضع الكتب والرسائل في موضوعات أرادتها السلطة أن تذيع وتنتشر بين جمهور الناس. فكفى لها أن اقترنت باسمه ليلتقطها الناس، وهو أمر أدركته السلطة جيداً فأفادت منه [١]. فكلفه المأمون - كما سبقت الإشارة إليه - بوضع رسائل في موضوع الإمامة، وكلفه المتوكل بوضع رسالة في الرد على النصارى، حتى بات الجاحظ من بين أهم وسائل الدعاية التي استخدمتها السلطة بين عامي ١٩٨ و٢٤٧ هـ. فعمل لأكثر من نصف قرن مروجاً للسلطة العباسية. ترى بعد كل هذا كم استطاع أن يكون منسجماً مع نفسه؟ وهل حافظ على التوازن بين واجبه الدعائي هذا وبين معتقده المعتزلي، بل بوصفه صاحب منحى خاص بالاعتزال؟ هذا ما بذلنا جهدنا المتواضع من أجل تتبعه وكشف خيوطه وتداخلاته[٢].

أولاً: الميول السياسية للجاحظ:

.. قبلاً، لا بد لنا من البحث عن موقع الجاحظ على خارطة التيارات السياسيّة المتجاذبة آنذاك. فمن يقرأ الجاحظ قراءة مجتزأة وغير تاريخية، يرى فيه كاتباً قفز على الحبال ومتقلباً في أفكاره السياسية. فربما اكتشف أنه رافضيٌّ مرة، وربما استنتج في أخرى أنه أمويٌّ، وقد يرسخ لديه الاقتناع أنه عباسي الميل. وهذه الاتجاهات الثلاثة

(١) طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، القاهرة، ١٩٦٢، ص. ٢٧٨.

(٢) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٢٩٧.

ليست متقاربة من بعضها، بما يسمح له أن يخلط بين أفكارها دون أن يكون ذلك مبعث دهشة واستغراب، بل هي اتجاهات تقاطع بعضها مع بعض إلى حد كبير. لجلاء هذه الصورة، ينبغي أن يقرأ الجاحظ قراءة شاملة تغطي كل ما كتبه ليكون بالإمكان تلمس الخيوط التي نسج عليها وبالتالي تتبُّعها، بما يكشف حقيقة ميوله واتجاهاته السياسية. ثم لا بد من أن تكون هذه القراءة تاريخية أيضاً، أعني أنه لا بد من ربط ما كتبه بواقع التحولات السياسية والفكرية التي شهدها وعايشها الجاحظ نفسه. فذلك وحده الذي يقود إلى إصدار أحكام موضوعية دقيقة في هذا الجانب، ولا سيما أن الجاحظ إذا ما نافح عن فريق أو فكرة ما، فإنه يرمي في ذلك بكل ثقله الفكري وبكل أدواته البلاغية والمنطقية والحجاجية، حتى يكاد يوهم قارئه بأنه هو مبتدع هذه العقيدة أو الفكرة وليس غيره، وهو أمر عكس في الوقت نفسه سعة ما امتلكه الجاحظ من أخبار ومرويات ومعلومات وأفكار تصلح لتوظيفها لأية أغراض سياسية وفي كل وقت وحين، مع قدرة كبيرة على المحاجَّة المنطقيّة تسلَّح بها في معظم كتاباته.

.. دافع الجاحظ، في رسالته الموسومة بـ " العباسية " التي نشر السندوبي مقتضباً لها عن حق العلويين في ميراث الرسول ﷺ حتى كاد أن يكون رافضيًّا قحًّا، بحيث انتقد كثيراً سياسة كل من أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) تجاه هذه المسألة[1].

. وبما أن الرسالة جاءت مقتضبة، فقد أدَّى ذلك إلى التركيز على هذا الجزء منها. ولما كان موضوعها الرئيس هو " العباسية "، فإنه بوسعنا الاستنتاج أن الرسالة تعرضت لقضية إرث الخلافة بالأصل،

(١) رسائل الجاحظ، جمعها ونشرها حسن السندوبي، القاهرة، ١٩٣٣، ص. ٣٠٠ - ٣٠٣.

وصولاً إلى حق العباسيين فيها، عن هذا الطريق[1]، مبرراً بذلك وجودهم في السلطة ومسبغاً عليه المشروعية والقداسة لأنه ميراث الرسول ﷺ : فالعباس عليه السلام عم الرسول وصاحب الحق بوراثته؛ فالعم أب والعم وارث، وهو ما استند إليه أبو جعفر المنصور في محاجّته لمحمد النفس الزكية، الثائر عليه، في رسائل جرت بينهما. وأغلب الظن أن الجاحظ وضع رسالته هذه في غضون العشرين السنة الأولى من القرن الثالث للهجرة، عندما اشتدت الخصومة بين السلطة والمحدثين، الأمر الذي احتاج إلى تأكيد مسألة الوراثة هذه، إضفاءً لطابع القداسة على تولي العباسيين للخلافة، وللحد من مناوأة هذا الفريق للدولة التي كانت قد تبنت الاعتزال معتقداً فكريًّا لها [2].

غير أننا نجد في رسالة " العثمانية " التي وضعها بعد " العباسية " وقبل عام ٢٤٠ هـ - وإذا قصدنا الدقة أكثر، كان ذلك في أول عهد المتوكل، عندما تحولت الدولة إلى موقف مناوئ للعلويين ومناهض لهم، نجد في هذه الرسالة خصومة شديدة للرافضة، وتفنيداً لآرائهم في العديد من مسائل الإمامة، ومقدماً في الوقت نفسه كمًّا كبيراً من الحجج والآراء التي أكدت أفضلية أبي بكر وأحقيته في الخلافة، وهو الذي كان قد انتقد الكثير من سياساته في رسالته السابقة - أي " العباسية " - فجاء هذا التحول انسياقاً وراء تقلبات مواقف السلطة الحاكمة ومتطلبات هذه المواقف.

.. أما موقفه من الأمويين، الذين كانوا قطباً آخر للصراع الفكري الدائر في القرن الثالث للهجرة، ممثلين بتيار النابتة والمحدثين أو ما

(١) طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، القاهرة، ١٩٦٢، ص. ٢٧٩.
(٢) طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، القاهرة، ١٩٦٢، ص. ٢٩٧.

أطلق عليه الحشوية، فكان ذا شعبتين متضادتين. فمال إليهم مرة، ونال منهم في أخرى؛ حيث وضع في عصر المأمون رسالته في إمامة معاوية وهي نفسها رسالته في النابتة، وانطلقت هي أيضاً من روح الخصومة بين السلطة والمحدثين، وفي الأجواء التي حاول فيها المأمون لعن معاوية على المنابر. لذا جاءت هذه الرسالة مستعرة بعبارات حادة في حديثها عن الأمويين، منها مثلاً:

فعندما استولى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه "عام الجماعة " وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية، وغلبة والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسرويًّا والخلافة منصباً قيصريّاً[١].

حتى بلغ به الأمر حد إكفاره[٢]. ثم جاءت رسالته الأخرى في فضل هاشم على عبد شمس، التي وضعها في أول خلافة الواثق[٣]، فنال فيها من الأمويين؛ وبما أنها كانت من رسائل المفاخرة التي دأب الجاحظ على اعتمادها في موضوعات عديدة أخرى[٤]، ولأن أسلوب المفاخرة هذا اعتمد فيه الحجج المتقابلة، فإنه عرض في هذه الرسالة حجج الأمويين أيضاً بما أظهرهم بصورة لم يكونوا فيها أقل من الهاشميين شأناً[٥]. لذا جاء عموم موقفه من الأمويين في إطار تسويغ

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، ص ٢٩٤.
(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٥، / ١٢.
(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، ص. ٧٦.
(٤) مع أنه استنكر أسلوب المفاخرة بقوله: وليس أدعى إلى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة (رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، ص. ٣٠٠). ومن رسائله في المفاخرة: مفاخرة الجواري والغلمان مفاخرة السودان على البيضان.
(٥) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، ص ٩٣ - ١٠٢.

استيلاء العباسيين على السلطة، الأمر الذي استوجب أن ينحي باللائمة على الأمويين في هاتين الرسالتين بالذات. غير أننا نجد، من ناحية أخرى، عشرات الإشارات التي تضمنتها كتاباته المختلفة، تطرق فيها إلى ذكر الأمويين في مواضع الإشادة والمدح والثناء، ومنبهاً على مناقبهم ومآثرهم في الإدارة والحكم، وأورد الكثير من العبارات التي جرت على ألسنتهم، على سبيل الحكمة والغاية في البلاغة والجزالة. ففي المثال الآتي، تحدث عن مناقب معاوية الذي كان يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد في العراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة، وله في كل يوم أربعون مائدة يتقاسمها وجوه جند الشام [(١)]. فعلى الرغم من أنه كان عليه مناوأة الأمويين، لكنه في الواقع لم يخف مواقفه المعجبة بسياساتهم ومهاراتهم في الإدارة والحكم وببلاغتهم أيضاً.

.. وفضلاً عما قدمناه من رأي في كيفية فهم كتابات الجاحظ هذه، فإنه وقف وراء هذه الكتابات عامل آخر، هو رغبة الجاحظ في إظهار براعته ومهارته في التعامل مع كل الأفكار والاتجاهات على تباينها، دون أن يعني ذلك تبنيها جميعاً، وإن أوحى قلمه أحياناً بمثل هذه النتيجة. وهو نفسه نبه على ذلك، فأسلوبه هذا أوهم الأولين أيضاً، فقال:.. وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية، وأنت تسمعني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية؛ كما سمعتني أقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية. فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة!! وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية [(٢)].

(١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، ١٩١٤، ص ١٥.
(٢) الجاحظ، الحيوان، ١/ ١١.

فقد دأب الجاحظ على زيادة معارفه ثم عرضها متفنناً ومظهراً مهاراته الفكرية. ومن أجل ذلك، جالس أشخاصاً من مشارب شتى، فيهم الغلاة والخوارج وغيرهم في أغلب الظن. إن ما يمكن أن نخلص منه في هذا الباب هو أن الجاحظ لم يكن سوى عباسي في ميوله السياسية، وانصب في هذا المجرى ما كتبه سياسيًّا، مباشراً كان ذلك أم غير مباشر، ومارس بذلك دوراً دعائيًّا واسعًا لمصلحة العباسيين سنتتبع خطواته في الصفحات التالية [١].

ثانياً: أبواب الدعاية المباشرة للسلطة العباسية:

توزعت الدعاية التي مارسها الجاحظ لمصلحة السلطة العباسية على جانبين: الأول منهما مباشر خص فيه العباسيين بالذكر الصريح مسوغاً وجودهم في السلطة ومروجاً لأفكارهم؛ أما الجانب الآخر، فكان غير مباشر، استخدم فيه التلميح والإشارة المضمرة، وبما قاد إلى نتائج مماثلة لما في الجانب الأول. أما الدعاية المباشرة، فتضمنت الأبواب الآتية:

١ - إبراز أهمية النسب (الوراثة) في تولي الخلافة.

فمن أجل ذلك، وضع رسالته في " العباسية ". وكما نبهنا عليه من قبل، فإن هذه الرسالة عالجت موضوعاً رئيساً، تمثل في سوق الحجج التي جعلت من العباسيين أصحاب حق في توليهم الخلافة، ذلك الحق الذي ضمنه لهم وراثة العباس - عليه السلام - للرسول ﷺ [٢]. ثم أشار إلى ذلك مرة أخرى في إطار حديثه عن المفاخرة بين الهاشميين والأمويين، فذكر من بين مناقب بني هاشم.. أنهم ملكوا

---

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٢٩٧ - ٣٣٠٤.

(٢) طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص. ١٩٧.

بالميراث وبحق العصبة والعمومة، وأن ملكهم في مغرس نبوة وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان.. وصيغة الخطاب في هذه الجمل تنم عن أن الحديث للجاحظ وليس للهاشميين كما اقتضى سياق المفاخرة بين الفريقين، مما يشير إلى أنه روج هو شخصيًّا لمثل هذه الأفكار، ثم عمد إلى استخدام أدوات الحصر والتأكيد والإقرار في تأكيد هذا الأمر بقوله: " إن كانت (الخلافة) إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة " [1]، فحصر الإمامة بذلك في الفرع العباسي من الأسرة الهاشمية. فهو لمح إلى أن العم يرث قبل ابن العم؛ فإذا كانت الإمامة تورث، فالعباس عليه السلام أحرى بها من غيره، وعنى بذلك استبعاده للعلويين عن هذا الأمر أيضاً بعد أن نفى أيّ حق للأمويين فيها. كما نبه في مكان آخر على أهمية النسب في طلب المراتب، والخلافة بلا شك من بينها، فقال: " ألا ترى أن أبعد الناس همة في نفسه وأشدهم تلفتاً إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب المراتب، لأن ذلك يحتاج إلى نسب أو إلى أمر قد وطئ له بسبب ". فهل اتسق موقف الجاحظ هذا مع موقف المعتزلة من الكيفية التي يجري فيها تولي الإمامة والخلافة في الدولة الإسلامية؟

.. كان للمعتزلة، في الواقع، موقف آخر مختلف تماماً في هذه القضية. فلا تنال الإمامة عندهم إلا عن طريق الاختيار فقط، وأن أمر القرابة غير معتبر فيها؛ ولو كان هو المعتبر، لما صحت إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما [2]، وذلك ما أكّد عليه قدماء المعتزلة أيضاً. وإذا كان بعضهم - المعتزلة - قد اشترط القرشية -

---

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، ص ٧٧.

(٢) قاضي القضاة عبد الجبار، المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاهرة، د. ت، ٢٠/ ٢٨٧، ٣١٩، ق ٣، ص. ٢٧. وله أيضاً: شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة، ١٩٦٥، ص ص. ٧٥٨، ٧٦٢.

بوجهها العام - لهذا الغرض، فإن بعضهم رفض ذلك. والموقف الثاني هو الذي أكده قدماء المعتزلة أيضاً. ثم إن من اشترط القرشية منهم لم يشترطوها لخواص عرقية أو قبلية في قريش،بل خضع ذلك لاعتبارات سياسية خاصة[١]. ويتجلى لنا بذلك أن الجاحظ خالف معتقدات المعتزلة السياسية في هذا الجانب، وهو ما كان قد أخذه على الأمويين، كما أشرنا إليه قبلاً، ثم إنه تماشى في موقفه هذا مع مقولات الراوندية[٢] التي آمنت بإرث العباس - عليه السلام - للإمامة، وإرث أولاده لها من بعده[٣].

.. أما الدكتور عمارة، فلم يكن دقيقاً في معالجته هذه المسألة من آراء الجاحظ. فقد نسب إليه ما يفيد إنكاره لدور النسب في تولي الإمامة،[٤] معتمداً في ذلك على بعض ما جاء في رسالة " العثمانية "، والتي حكى فيها الجاحظ آراء البكرية والعلوية في هذا الموضوع، وهي بالتالي ليست أفكاره ولا أقواله، بل أفكار من نقل عنهم حججهم في هذا الأمر. ثم التفت الدكتور عمارة إلى مسألة أخرى، هي تعدد الكتب والرسائل التي وضعها الجاحظ في الإمامة (انظر آنفاً)، وقال: إنه أراد بذلك أن يدحض مقولات هؤلاء جميعاً - العباسية والعلوية والأموية - بطريقة غير مباشرة، بانياً فكرته هذه على أن كل واحدة

---

(١) محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، بيروت، ١٩٨٦، ص. ١٩٨.

(٢) الراوندية: إحدى القوى التي اشتملت عليها الثورة العباسية، وكانت مقولاتها متطرفة، حتى أن أفرادها ألهوا أبا جعفر المنصور. ولما رأى فيهم خطراً كبيراً، حاول تصفيتهم والتخلص منهم، فثاروا عليه في عام ١٤١ هـ (الطبري، مصدر سابق، ج ٧، ص. ٥٠٥) وبقوا على ولائهم للعباسيين حتى أيام الرشيد، فكانوا يجتمعون إلى أحدهم صنف كتاباً أسماه " كتاب الدولة " يقرؤه عليهم ويتدارسونه (ابن النديم، الفهرست، بيروت، د. ت، ص. ٢٨٧).

(٣) قاضي القضاة عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص. ٧٥٤.

(٤) المعتزلة وأصول الحكم، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٩٣.

من هذه الرسائل ضمنها الجاحظ مناظرات فند فيها كل مرة واحدة من هذه الاتجاهات الثلاثة ليصل إلى: " أن كل هذه المذاهب باطلة، بدليل أن نصرتها جميعاً ممكنة، وهدمها جميعاً ممكن. وبما أن الحق واحد، فلا بد من أن يكون الحق غيرها جميعاً، وإنما الحق في هذا الأمر هو الشورى والاختيار والعقد والبيعة " (١). وهو استنتاج منطقيّ جميل جدّاً، ولكن لو كانت مقدماته صحيحة. ذلك بأن الدكتور عمارة تعامل مع هذه الرسائل، أو بعضها في الأقل، من خلال عنوانها دون تحكيم مضمونها أولاً، وتجاهل الجانب الدعائي الآني لهذه الرسائل ثانياً، وهو ما أتينا على بيانه في المبحث السابق. فالجاحظ في رسائله تلك لم يمتدح أو يذم أو ينتصر أو يبطل في الوقت نفسه أيّاً من هذه الاتجاهات؛ فهو روج كثيراً للإمامة العباسية، لكنه لم يروج أبداً لإمامة العلويين، بل نقض مقولاتهم في " العثمانية "؛ كما أنه لم يمتدح إمامة معاوية في الرسالة التي حملت اسمه، كما اعتقد الدكتور عمارة، بل أبطلها وعدها غصباً واستيلاء غير مشروع، أي أنه هدم مقولات خصوم العباسيين وامتدح وروج لهؤلاء. وعنى ذلك قبولاً بطريقة تداولهم الإمامة القائمة على القرابة والوراثة، وفي الوقت نفسه خلت كتاباته من أي ترويج للاختيار والشورى والبيعة. فسمح الجاحظ بذلك لنفسه الخروج عن مقولات المعتزلة بهذا الشأن (٢).

٢ – الامتداح والثناء وذكر المناقب:

تحدث الجاحظ في مناسبات عديدة بالمدح والثناء، سواء عن

(١) المعتزلة والثورة، بيروت، ١٩٧٧، ص ١١٧.
(٢) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٠٤ - ٣٣٣٢.

الهاشميين والعباسيين بصورة عامة أو عن الخلفاء بصورة خاصة، مشيراً إلى مناقبهم ومآثرهم. فعلى الصعيد الأول، وضع رسالته " كتاب فضل هاشم على عبد شمس "، حيث أفاض كثيراً في ذكر مناقب بني هاشم ومفاخرهم الكثيرة. وكما نبهنا، فإن هذه الرسالة وضعت إبان تصاعد خصومة النابتة والمحدثين للسلطة، الأمر الذي احتاج إلى إعلاء شأن الهاشميين على الأمويين، الذين جعل منهم النابتة - أي الأمويين - رمزاً لهم في مواجهتهم للسلطة. ومما أبرزه من مناقب وله صلة بحديثنا هنا قوله: وتفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا. قالوا: لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء لعمال الخراج بالتعليق والرهق والتجريد والتسهير.. قد ارتفع، لكان ذلك خيراً كثيراً. كما نبهت الرسالة إلى مآخذ عديدة أخذت على الأمويين،لم يقع العباسيون فيها، فعد ذلك منقبة وفضلاً لهم. وإذا ما امتدح أمراً أتاه الخلفاء العباسيون، عاب على الأمويين عدم إتيانهم إياه، مثل قوله: إنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية، وتنقص بهذه المناسبة من فروسية الخلفاء الأمويون (كذا). ويفهم من عموم موقفه هذا امتداحه لعصر العباسيين الذي شهد قيام الحق والعدل والرخاء.

هنا تقاطع الجاحظ مرة أخرى مع عدد وافر من رجالات المعتزلة الذين كان لهم رأي آخر في الحكم العباسي. فمنذ وقت مبكر، جابه عمرو بن عبيد المنصور ووصف حكمه بالظلم والجور ورفضه التعاون معه طالباً منه إظهار العدل ونصرة أهله، واشترك عدد كبير من المعتزلة في البصرة في ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن على المنصور، وقتل عدد منهم في هذه الثورة، مثل بشير الرحال.

واستمرت الخصومة بين المعتزلة والسلطات العباسية حتى أيام الرشيد الذي أودع جماعة منهم السجن. ولم يحتفظ أبو هذيل العلاف بما أتاه من مال السلطان رافضاً التمتع به، بينما رفض جعفر بن بشير قبول مثل هذا المال أصلاً للشبهة. ورفض جعفر بن حرب المعتزلي الصلاة وراء الخليفة الواثق. واستهان محمد بن إسماعيل المعتزلي بكتب السلطان وعدها أهون من التراب عنده. فإذا ما عرفنا أن معظم هذه المواقف كانت في غضون صعود نجم المعتزلة السياسي وتوليهم مراكز السلطة والنفوذ المهمة، وذلك في خلافة المأمون والمعتصم والواثق، أدركنا كم كان كبيراً التقاطع الذي نشأ بين قطاع من المعتزلة من جهة والسلطة السياسية الحاكمة من جهة أخرى.

وفي باب الإطراء العام، تكلم الجاحظ على براعة عدد من العباسيين في الخطابة، معرباً عن إعجابه الشديد بقدراتهم هذه[١]. أما في باب الإطراء الشخصي، فقد عمد الجاحظ إلى ذكر مناقب الخلفاء العباسيين، فأفرد لهم مساحة واسعة في كتاب " التاج "، استطرد فيها بالحديث عن مزاياهم مبتدئاً بالمنصور ومنتهياً بالمأمون. فاجتهد في نفي صفة البخل عن المنصور بتعداد المواقف التي أظهر فيها كرم عطائه وجود سخائه، ثم وصفه بأنه كان: داهية أريباً، مصيباً في رأيه سديداً، وكان مقدماً في علم الكلام، ومكثراً من كتب الآثار، ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم. وأكاد أجزم أن أحداً لم يشر إلى أن للمنصور كتاباً في علم الكلام، وإن لم يكن غريباً عليه تعاطي مثل هذا الموضوع، خصوصاً وأن علاقته بالمعتزلة معروفة، ولا سيما بعمرو بن عبيد سواء كان ذلك قبل

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٣٣٤.

توليه الخلافة أو بعدها. ومن الذين امتدحهم أيضاً الخليفة المعتصم، مشيداً بدوره في سد الثغور ورد المظالم، ثم زاد بأن الله تعالى حسم به عرق البغي ونواجم الفتنة، الذي لم يزل الله يزيده في كل طرفة محبة..، مع أن المعتصم أخفق أصلاً في حسم هذه القضية فعلاً (محنة خلق القرآن)، واضطر إلى إطلاق سراح الإمام أحمد بن حنبل، بعد إخفاقه في حمله على القول بخلق القرآن، وخوفاً من العواقب التي بدأت تلوح ملامحها، وأنذرت بما هو خطير؛ كما مدحه بقوله: " وقد جمع الله لأمير المؤمنين مع كرم العروق وصلاح المنشإ، البعد عن إيثار الهوى، وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاق، ولا أخلاقاً أشبه بأعراق، من أفعال بأخلاقه وأخلاق بأعراقه ". ومثل هذه العبارات قد فاحت منها رائحة الجبرية، وهي الفكرة التي حاربها المعتزلة أشد حرب. وسنحيل الحديث في هذه المسألة إلى آخر البحث ليتسنى لنا مناقشتها عند استكمال دواعيها [١].

٣ – الخروج على السلطان:

من المسائل الخطيرة التي عرض لها الجاحظ مسألة الخروج على السلطان، فخصها بمجال رحب في رسالة " العثمانية ". وجاءت معالجته لها معالجة منطقية استدلالية قادته، أو هو ساقها، لتقرير أن الخروج على السلطان أمر غير ممكن عمليّاً ونظريّاً. ومن يقوم بذلك لن يلقى إلا الإخفاق ليصل إلى النتيجة التي مؤداها ضرورة القبول والتسليم بالسلطان القائم فعلاً، وذلك بلا ريب أهم ما قدمه الجاحظ فكريًّا للسلطة العباسية.

---

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٠٤ - ٣٣٣٢.

بدءاً، وصف الجاحظ أشكال المعارضة التي يمكن أن تجابه السلطان بأنها لا تعدو أن تكون واحدة من عشر حالات، نعتها جميعاً بنعوت توحي بالسلبية وعدم المشروعية فقال:

فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زار، ومن متعطل متصفح، ومن معجب برأي ذي خطل في بيانه.. ومن محروم قد اضطغنه الحرمان، ومن لئيم قد أفسده الإحسان، ومن مستبطئ قد أخذه إضعاف حقه.. وصاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة(١).

ويستشف من جميع هذه الحالات أن أصحابها ذوو نوازع ذاتية خاصة محكوم عليهم بالسلبية وعدم إجازته إيلاء أمر المسلمين أكثر من إمام، زيادة في الحزم والتحوط لأمرهم. فإذا تعدد الحكام ثم تقاربت، وتساوت عنايتهم، قويت دواعيهم إلى طلب الاستعلاء، واشتدت منافستهم في الغلبة ". فتعدد الأئمة والخلفاء يدفعهم للتنافس فيما بينهم، وذلك يقود إلى تمزيق وحدة المسلمين. وأكد ذلك بقوله:... وانفراد السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة، وتكون الألفة، ويصلح شأن الجماعة. وإذا كانت الجماعة، انتهى الأعداء، وانقطعت الأهواء (٢). ثم أشار إلى القائم بأمر المسلمين - الإمام - إذا كان مشهوراً، معروفاً بالفضل، لا يطمع أحد في مجاراته ومنافسته، وذلك - بحسب قوله - الصلاح الذي أراده الله تعالى لهذه الأمة - أي أن يحكمها حاكم واحد - ثم وصل إلى النتيجة التي أرادها، وهي أن الله تعالى لم يطبع الأمة على

---

(١) الجاحظ، مجموعة رسائل، القاهرة، ١٣٢٤ هـ، ص ٣، ٤.

(٢) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في " النساء "، تحقيق يحيى الجبوري، مجلة المورد، بغداد، ١٩٧٩، م ٧، عدد ٤، ص. ٢٥٢.

هذا الطبع إلا وهذا الحاكم الواحد موجود إذا أرادوه، لأن الله تعالى لا يلزم الناس إقامة المجهول، وبالتالي فإن على الناس التسليم لما أراده الله تعالى وطبعهم عليه. وهو بهذه الصياغات أراد الوصول إلى النتائج التالية: أن الخليفة القائم فعلاً (السلطة العباسية) هو ما أراده الله تعالى للمسلمين، وأنه لا جدوى من البحث عن خليفة آخر، وذلك بالترتيب المنطقي الآتي:

إن تعدد الحكام يقود إلى الصراع بينهم.

إن الخليفة القائم المعروف بالفضل لا ينافسه أحد.

هذا أمر طبعه الله في عباده وفيه مصلحتهم.

لم يكن الله تعالى ليطبع عباده على هذا الطبع إلا وهذا الخليفة موجود فعلاً.

إن الله تعالى لا يلزم الناس الدعوة لخليفة مجهول وترك المعلوم القائم فعلاً.

إن الناس ليس عليهم إلا التسليم بذلك، لأن هذا هو قصد الله تعالى.

وعليه، فإنه ليس من جدوى في معارضة الإمام القائم والخروج عليه.

ثم ذهب الجاحظ إلى أبعد من ذلك بالتصريح بأن ما هو قائم هو الخير بعينه بادِّعائه، لأن الله تعالى لو أراد خلاف ما هو قائم لبينه بالنص أو التفسير ولدل عليه ولوضع له علامة، فكان في ذلك الخير لأن الله لا يصنع إلا الخير. لذا فإن ترك الأمر على ما نحن عليه خير لنا وأفضل... وهذه فكرة أخرى فيها نزوع جبري واضح سنتعقبه فيما بعد، منبهين فقط على أن الجاحظ كان قد أنحى باللائمة

على معاوية لقوله بالجبر، وعد ذلك من الضلال والفسق.

وعلى طريق تفضيل ما هو قائم، وإن كان دون مرتبة مستحق الإمامة بالأفضلية، أشار إلى أن الإمام الأفضل من امتلك الخصال التالية: قوة العقل والعلم والحزم والعزم. لكنه قد يوجد من هو دون ذلك مرتبة، إلا أنه أحق بالخلافة، لأن من التعظيم لمقام رسول الله ﷺ أن لا يقام فيه إلا أشبه الناس به في كل عصر.. ثم أضاف في مكان آخر.. وأي زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية والدولة العباسية (١).

.. ثم أقبل الجاحظ على معالجة الأمر من زاوية أخرى، بالعمل على إبطال فاعلية كل الأدوات التي يمكن أن تقوم بالخروج على السلطان. فبدأ بالعامة التي هي جمهور الناس الذين شكلوا العدد الأكبر الذي لا بد منه لكل من فكر بإشهار سيفه على السلطان، فأفاد أن العامة لا تعرف عن الإمامة والخلافة شيئاً، وليس في وسعها أن تميز أهمية وجودها الإمامة - من عدمه، ولا كيف السبيل إليها،وهي مع كل ريح تهب، ولعلها أشد اتباعاً للمبطلين منها بالمحققين. لذا فهي ليست سوى أداة للخاصة، تسخرها للمهن والدفاع بوجه العدو. فهي مثل جوارح الإنسان للإنسان، الذي إذا فكر في أمر ما، استخدم جوارحه لتنفيذ ما فكر به، دون أن تدرك هذه الجوارح طبيعة ما تقوم به، فما عليها سوى الطاعة والتنفيذ. ثم أردف أن الناس غير ملزمين فيما لم يعرفوا سبيله. وهذا حال العامة مع الإمامة. لذا بات عليها أن تعرض عن هذا الأمر ولا تلجه.. فالعامة كالسكين الصارم بطاعتها للإمام، لكنها شديدة التهور إذا خرجت عليه. ثم بعد هذا كله،

---

(١) الجاحظ، رسالة الشكر، في: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٨٠/١٤.

فإن البلية العظمى والداهية الكبرى " إذا انقسمت العامة إلى فريقين، أحدهما مع الخاصة التي تريد تغيير السلطان، والثاني مع البغاة والظلمة " الواجب تغييرهم منبّهاً، من طرف خفي، على أن ذلك يعني قيام الحرب الأهلية، التي تكون الحسارة فيها كبيرة إلى حد بعيد. لذا، فإن من رأيه أن صلاح الدنيا وتمام النعمة في طاعة العامة لما يدبره أسيادها ليس غير.. وبعد أن أجهز على دور العامة في الخروج على السلطان، وترك ذلك للخاصة، عمد إلى تناول هذه الأخيرة على النحو الآتي: إنه بقوله: إن على الناس إقامة الإمام، عنى بهؤلاء أنهم الخاصة وهم صفوة المجتمع، وهؤلاء لا يباشرون عملية تغيير السلطة إلا على الإمكان، أي بضمان توافر مقومات النجاح، ومنها أن لا تكون العامة مع جند الباغي المتغلب، بل يجب أن تكون جميعها مع الخاصة في عملية التغيير هذه؛ بل إنه حتى إذا اجتمعت العامة، فلا يعني ذلك هو الإمكان المطلوب، لأن السلطان الباغي إذا كان معه جنده وهم بكامل عدتهم وسلاحهم وأمره مجتمع، فقليل جمع خير من كثير نشر. فهذه القوة التي مع السلطان حسنة التدريب والمعرفة بفنون القتال، وذلك ما لا يتوفر للعامة؛ كما اشترط لنجاح الخروج على السلطان أن يكون الإمام البديل معروف الموضع مكشوف الأمر، وكانت التقية عنه زائلة. ثم عاد إلى إضعاف دور الخاصة في هذه القضية: فنجاحها يتطلب اتفاق كل أطراف الخاصة على موقف واحد، وأن تكون على درجة واحدة من الثقة والعزم والحزم. ولما كان إشهار السيف بوجه السلطان يحتاج في مراحل طويلة منه إلى السرية - ما أسماه الجاحظ بالتقية -، فإنه عد ذلك تواكلاً وتخاذلاً، لا ينفع أن يكون وسيلة للعمل، لأن ما تتفق عليه الخاصة في السر قد لا يعني أن الجميع يضمنون مواقفهم ذاتها

في العلن عندما يتطلب الأمر. وبذلك وضع الجاحظ عصيّاً عديدة في العجلة تحول دون حركتها. عمد بعد ذلك إلى إلقاء آخر سهم له في حسم الأمر لمصلحة عدم جواز الخروج على السلطان، فإنه يحق لأهل كل إقليم أو فرقة أن يدعوا أن الإمام يجب أن يكون منهم؛ فإذا وقع ذلك، فإن على أي من هؤلاء الغرماء أن يكون معه من القوة والعدد بمثل ما مع الجميع مجتمعين لضمان نجاحه في مطالبته بالإمامة. وذلك ضرب من الاستحالة يدفع باتجاه الحيلولة دون التفكير في الخروج على السلطان، فسد بذلك المنافذ جميعها أمام هذه العملية. فإلى أيّ مدى انسجم موقف الجاحظ هذا مع موقف المعتزلة من الموضوع نفسه؟

.. في الواقع، جاء موقف المعتزلة من هذه القضية وسطاً بين الخوارج وأهل الحديث. فقد تطرف الخوارج في موقفهم، فأوجبوا إشهار السيف في وجه أئمة الضلالة والفسق والجور، وتحت كل الظروف. أما أهل الحديث، فلم يوجبوا ذلك، بل اشترطوا له أن يبدر من الإمام كفر واضح بائن لا خلاف عليه، وأوجبوا على المسلمين طاعة الأئمة وإن فسقوا أو جاروا، خوفاً من الوقوع في الفتنة. وقد أنكر المعتزلة هذا الموقف ورفضوه، ولكنهم في الوقت نفسه لم يتطابقوا مع الخوارج في موقفهم. فهم أخضعوا هذه العملية - الخروج على السلطان، إذا ما تمت، لظروف نجاحها واعتبارات هذا النجاح.

.. فقد رأوا أنه ما يحل لمسلم أن يخلي أئمة الضلالة وولاة الجور إذا وجد أعواناً وغلب في ظنه أنه تمكن من منعهم من الجور. وحدد عمرو بن عبيد عددهم بمثل عدة أهل بدر، ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، وأن يكونوا على قدر واحد من الصدق وإخلاص النية. وهذه

الضمانة هي التي دعوها بـ الإمكان والقدرة. ومن رأيهم أيضاً أن يجري ذلك تحت قيادة إمام عادل، وإلا فلا. وعليه، يمكن إيجاز موقف المعتزلة هذا على النحو الآتي: أنهم أوجبوا على المسلمين الخروج على أئمة الجور والضلالة والفسق - دون اشتراط كفرهم - على أن يقترن ذلك بشروط النجاح من ظهور الأعوان ووجود الإمام العادل، الذي يقود هذه العملية ويتولى تنفيذها.

.. أما عن دور الأمة - العامة أو الخاصة أو كليهما معاً، فقد عمل الجاحظ على إبطال هذا الدور، مستنداً إلى معطيات استنتاجية منطقية، ومتجاهلاً الواقع التاريخي. فالدولة العباسية، وهو أحد أهم المروجين لها، لم تقم إلا بثورة اشتركت العامة فيها بالثقل الأكبر؛ وحتى قيادتها الميدانية لم تكن من الفئات الاجتماعية المصنفة ضمن الخاصة، عدا قيادتها الرئيسة (البيت العباسي). هذا، إلى جانب أن عدداً من مفكري المعتزلة كان لهم رأي آخر في دور العامة في نصب الإمام وإقامته. فأبو بكر الأصمّ رأى ضرورة إشراك العامة جميعاً في هذه المسألة. وكان لقاضي القضاة عبد الجبار رأي قريب من ذلك: فكلما زاد عدد الأفراد المشتركين في أمر ما، كان رأيهم أقرب إلى الصواب. ووصل بذلك إلى النتيجة التي مفادها أن إجماع الأمة حجة؛ لكنه رأى من ناحية أخرى أنه إذا تعذر إشراك جميع الأمة في نصب الإمام، فلا بأس في قصر ذلك على أهل المدينة التي مات فيها الإمام، وذلك ما يمكن القياس عليه بأنه إذا كان بوسع أهل المدينة الخروج على أئمة الجور وإبدالهم بأئمة العدل، فلا بأس أن يقوموا بدورهم هذا. إن آراء المعتزلة في هذا الجانب كشفت أن الجاحظ قد ابتعد عنها كثيراً، متخذاً تبرير وتسويغ ما هو قائم فعلاً

بديلاً عن الخروج عليه [1].

٤ – إظهار القبول بسياسة المتوكل الدينية:

.. لما تولى المتوكل الخلافة، عمد إلى إحداث انقلاب شامل في النواحي السياسية وما اتصل بها من جوانب أخرى فكرية أو اقتصادية أو غيرها. من ذلك إظهار الخصومة للعلويين، والتشدد إزاء أهل الذمة. وقد أسهم الجاحظ في هذه السياسة بالترويج لها وتدعيمها في رسالتيه: " العثمانية " و " الرد على النصارى "، وهو ما سبق التنبيه عليه. غير أن الأهم من هذا كله، إجراءات المتوكل الخاصة بإقصاء المعتزلة عن مواقع السلطة والنفوذ في الدولة، ثم إبطال القول بخلق القرآن ورفع المحنة. وكادت أن تشمل هذه الإجراءات الجاحظ شخصيًّا، لولا إجادته في تخليص نفسه. ثم نجد المتوكل بعد ذلك لا يطيق أن يجد الجاحظ في مجلسه، لما عرفه عنه من اعتداد كبير بنفسه. فكيف اختط الجاحظ موقفه إزاء هذه التحولات المهمة والخطيرة؟

.. جاء في رسالة له وسمها بـ " الشكر " ما يأتي:

.. وأي زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله والناصر لدين الله، والإمام الذي جُلُّ فكره وأكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه وتنقيحه وإعزازه وتأييده واجتماع كلمته، ورجوع الفتنة [2].

---

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٣٢ - ٣٣٥٢.

(٢) الجاحظ، رسالة الشكر، في: القلقشندي، صبح الأعشي، ١٤/ ١٨٠.

وهكذا عد الجاحظ سياسة المتوكل هذه والخاصة بالتحديد بإبطال القول بخلق القرآن ورفع الفتنة، بأنها نقت الدين من شوائبه، وأنها المثلى في هذا الباب؛ فأثنى عليها الثناء المبالغ فيه، مع أن واحدة من أهم مقولات المعتزلة في أصل التوحيد هي القول بخلق القرآن ونفي قدمه، وأن للجاحظ نفسه رسالة في خلق القرآن، أشار فيها إلى أن القرآن مخلوق، وأن خلقه على الحقيقة لا على المجاز. فامتدح سياسة المتوكل في هذا الجانب، يعني وقوع الجاحظ في تعارض شديد مع آرائه، ولم يكن موقفه هذا من قبيل التراجع الفكري، لأنه لم يعارض أفكاره السابقة بمقولات جديدة، تؤشر قبوله بفكرة قدم القرآن ونفي خلقه، بل كان موقفه هذا من قبيل المحاباة للسلطة [1].

ثالثاً: أبواب الدعاية غير المباشرة:

.. ولج الجاحظ هذه الناحية من بابين، تحدث في الأول عن مناقب قريش وبني هاشم، وفي الثاني كان حديثه عن السلطان بوجه عام.

١ - الإطراء العام لقريش وبني هاشم:

.. جاء حديثه في هذا الجانب بما يقود إلى سحبه بنتائجه على العباسيين، وهم القائمون على السلطة فعلاً. فقد خص قريشاً بحديث واسع في رسالة البلدان، بل يظهر أن تأليفها كان من أجل امتداح قريش وهاشم فيها. ففيما يخص قريش، أشار إلى امتيازها من غيرها بالسمو والرفعة والجود والسخاء حتى إنه لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير وأن قريشاً التزمت على الدوام بقواعد الدين، في جاهليتها وإسلامها، إلى غير ذلك مما هو كثير؛ كما امتدح قريشاً في

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٥٤.

أماكن أخرى من كتاباته، فهم أفصح العرب لساناً، وأفضلها بياناً، وأحضرها جواباً، وأجمعها عند الكلام قلباً [1].

.. وقال أيضاً: قريش قوم لم يزل الله تعالى يقلبهم في الأرحام البريئة من الآفات، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات، ويبقيهم لكل جسيم ويرسيهم لكل عظيم [2]. ولا يستقيم مثل هذا الكلام مع منطق العقل، والمعتزلة - والجاحظ منهم - بنوا معتقدهم الفكري على المنطق والعقل، ذلك بأنه ليس بالوسع الادعائيّ على الله تعالى اختصاصه قريشاً برعاية استثنائية. ولو كان الأمر كذلك، لما ظهر فيهم وثنية ولا شك، ولما احتاجوا أن يبعث فيهم نبيًّا (ومثل هذا الادعاء أوقع صاحبه في نوع من الجبرية وأن النبي ﷺ هو وحده الذي اختصه الله تعالى بالرعاية، وهو مع ذلك ولد من رحم ليست مؤمنة. ثم امتدح قريشاً بالفضل الوافر وسعة الصدر التي لم تكن لغيرهم. تناول بعد ذلك بني هاشم، فأثنى عليهم الثناء الواسع في عدة رسائل. ونقل عنه الثعالبي بإيجاز شديد قوله: العرب كالبدن، وقريش روحها، وهاشم سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وبنو هاشم ملح الأرض وزينة الدنيا.. وتحدث عنهم في رسالة البلدان، مشيراً إلى الخصال التي بانوا بها على قريش، ومنها: النبوة التي هي خلاصة خصال الخير كلها، وأن الملك فيهم ميراث عن الرسول ﷺ ورثه العباس عليه السلام ثم ورثه أبناؤه وأحفاده عنه[3]، وامتازوا

(١) الجاحظ، البلدان، تحقيق صالح أحمد العلي، مستل من مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٧٠، ص. ٤٦٦، الجاحظ، فصل من صدر كتابه في " تفضيل النطق على الصمت "، تحقيق حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، بغداد، ١٩٧٩، م ٧، عدد ٤، ص. ١٧٤.

(٢) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في " المعلمين "، تحقيق حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، بغداد، ١٩٧٩، م ٧، عدد ٤، ص. ١٥٦.

(٣) ثمار القلوب، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٥، ص. ١٣.

أيضاً بالبركة: وكان أول بركتهم أن الله تعالى رفع الطواعين والموتان الجارف. ثم أشار إلى أن لبني هاشم طابعاً في وجوههم دل على كرم العتق وكرم التجار، ولم يكن ذلك في غيرهم، حتى أن الأحواز التي تفسد فيها الطبائع كادت أن تفسد ذلك على من سكنها من بني هاشم، لولا أن الله غالب على أمره. ثم جاءت رسالته في المفاخرة بين بني هاشم وبني عبد شمس، لتشير إلى خصال الفريق الأول ومناقبهم بشكل تفصيلي لا مجال هنا للإفاضة فيه(١).

٢ - الحديث عن السلطان:

تحدث الجاحظ في هذا الجانب عن السلطان حديثاً فيه إشادة بالخصال والصفات التي ميزت السلطان من غيره، بما أظهر سلوكه مبرراً على الدوام. وشكل ذلك - بصورة غير مباشرة - دعاية فعلية للسلطان (الخليفة) القائم فعلاً. من ذلك الوصف الآتي الذي جاء في إطار عام من الحديث بشأن المأمون، فقال:

.. فلسنا نشك أن الإمام الأكبر والرئيس الأعظم مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة والتمام في الحلم والعلم، والكمال في الحزم والعزم، مع التمكين والقدرة والفضيلة والرياسة والسيادة والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة والتأييد وحسن المعونة. لم يكن الله جل اسمه ليجلله بالخلافة ويحبوه بتاج الإمامة وبأعظم نعمة وأسبغها وأفضل كرامة وأسناها، ثم وصل طاعته بطاعته ومعصيته بمعصيته إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم والعفو والتغافل ما لا يبلغه فضل ذي فضل ولا ذي حلم... (٢).

---

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٥٨.

(٢) الجاحظ، رسالة إلى الفتح بن خاقان، مجموعة رسائل، ص. ٢٤.

فأضفى على الخليفة بهذه الأوصاف من القداسة والجبرية الشيء الكثير بعبارة جزلة موجزة. ومن بين الأوصاف الكثيرة التي أضفاها الجاحظ على الخليفة هنا، نتوقف عند واحدة منها، وشكلت واحدة من المسائل التي توقف المعتزلة عندها ولا سيما الجاحظ منهم، وهي مسألة العصمة. فإذا كانت المعتزلة قد قالت بالمعونة واللطف والمصلحة والتوفيق وبما يدفع هذه المفاهيم عن الجبرية، فإن موقفهم من العصمة كان له شأن آخر. فهي عندهم في الأصل المنع.. حتى يكون المرء معه كالمدفوع إلى ألا يرتكب الكبائر، ولهذا لا تطلق إلا على الأنبياء أو من يجري مجراهم، بل إنهم كادوا أن ينكروا عصمة الأنبياء أيضاً، فانقسموا بهذا الشأن إلى فريقين:

قال الأول: يجوز ارتكاب الأنبياء للمعاصي دون علمهم أنها معاصي، ولم يتعمدوا ارتكابها. في حين قال الفريق الآخر: إنهم علموا أنها معاصي، لكنها كانت من جنس الصغار دون الكبار. في حين قالت فئة أخرى منهم بعصمة الأنبياء، ولكنهم قصروها على الجوانب الدينية فقط. أما الجاحظ، فلم يرد عنه نص مباشر في هذا الشأن، ولكن اتهمه ابن الراوندي بالآتي: وزعم الجاحظ أن الأنبياء عليهم السلام اعتمدت المعاصي وواقعتها على غير تأويل وارتكبتها مع العلم بأن الله نهاها عنها؛ وعلى الرغم من أن الخياط المعتزلي حاول الدفاع عنه أمام هذا الاتهام، فإن كل ما أمكن الخروج به من الدفاع أن رأي الجاحظ هو أن الأنبياء وقعوا في المعاصي مع علمهم أنها معاصي. وأن الله تعالى قد نهى عنها. فإذا كان قد أنكر على الأنبياء عصمتهم، فكيف سوغ لنفسه الحديث عن عصمة الإمام الخليفة. لا جرم أن ذلك الباطل بعينه، مؤكداً التعارض الشديد الذي وقع فيه وهو يروج للسلطة العباسية. هذا، إذا علمنا أن عموم موقف

المعتزلة قام على أساس إنكار عصمة الأئمة (الخلفاء) انطلاقاً من طبيعة فهمهم لمهام هؤلاء بأنها دنيوية وليست دينية.

.. وفي إطار حديثه عن السلطان، أكد ضرورة الإمام ووجوب قيامه، ثم أشار إلى أن هؤلاء - الأئمة - أفضل من الرعية، لأنهم أفقه في الدين وأقوم بالحقوق. وهم بهذه الصفات أفضل من العباد بعبادتهم، فهؤلاء لا ينفعون سوى أنفسهم، في حين أن لأولئك نفعاً عامًّا وواسعاً. ثم أشار إلى أن ثمة شيئين متباينين، إن صلح أحدهما صلح الآخر والعكس صحيح، وهما السلطان والرعية. ثم أردف بقوله: إنه قد صلح السلطان وعلى الله تمام النعم في صلاح الرعية، ثم حض بعدها على ضرورة التسليم ببعض خصال السلطان، وإن كانت توحي بالسلبية، لكنها ضرورة لا بد منها مثل الخيلاء والزهو، فذلك ممكن ومقبول من السلطان، ولا يعذر به غيره.

لكنه وقع فيما هو أفدح من ذلك بقوله: إن الإمام إذا كان جائراً مستأثراً بالفيء ومعطلاً لبعض الأحكام، فإنه لا بأس في ذلك، لأن بقية منافعه تغمر مضاره هذه، أي أن فائدته أشمل من مضاره حتى وإن جار وظلم، وأنه لا بد من التسليم بذلك(١). وهذا الأمر، بلا شك، من الأمور الخطيرة التي تقاطع فيها الجاحظ مع قول المعتزلة بالخروج على أئمة الظلم والجور، متى ما أمكن ذلك لا التسليم به وقبوله تحت ذرائع ومسوغات معينة. كما دافع عن اتخاذ الخلفاء العباسيين القناع، لأن في طرحه ملابسة وابتذالاً ومؤانسة ومقاربة، في وقت احتاج فيه الناس إلى أن يهابوا الخلفاء، ففي ذلك صلاح شأنهم، وأن تعظيم شأن السلطان يرعب قلوب المخالفين، وفي

---

(١) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في " الوكلاء "، تحقيق يحيى الجبوري، مجلة المورد، بغداد، ١٩٧٩، م ٧، عدد ٤، ص. ٢١٤.

التهويل فيه صلاح للرعية، وإظهار السلطان قدراته على إخافة الرعية يدفعهم إلى حسن الطاعة والقبول. وعلى وجه العموم، فإن الاتجاه العقلاني للمعتزلة لا يوحي بقبول مثل هذه السياسة التي لا مكان فيها إلا للرهبة والخوف فقط، وإن كان هؤلاء في واقع الأمر قد مالوا إلى هذا النوع من السياسة إبان توليهم شؤون السلطة في الدولة في حقبة الخلفاء الثلاثة: المأمون والمعتصم والواثق؛ فكان في سياستهم هذه مصرع عقيدتهم بين الناس بما قاد إلى أفول نجمهم السياسي فيما بعد [(١)].

.. وفي آخر المطاف، لا بد من التوقف عند مسألة مهمة في فكر الجاحظ والمعتزلة. تلك هي قضية الجبر والاختيار. وقد شكلت هذه القضية أحد أعمدة فكر المعتزلة، وأخضعوا مقالاتهم في هذا الجانب لأصل العدل من بين أصولهم الخمسة، فمالوا إلى الاختيار ونفوا الجبر ونقضوه، وعدوا القول به تجويراً لله تعالى. والجاحظ نفسه أنكر قول القائلين بالجبر، واستنكر على الأمويين قولهم به، واستخدامهم له غطاء سياسيًّا، ليبرروا من خلاله وجودهم في السلطة، ويضفوا عليهم الشرعية والقبول. فهل توفق الجاحظ في اتخاذ موقف مماثل عند حديثه عن سلطة العباسيين؟

.. رأى المعتزلة أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، ولا تجوز نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى، ولا سيما تلك التي يترتب عليها ثواب أو عقاب[(٢)]؛ وربما تطرف بعضهم ليذهب إلى أبعد من ذلك. أما الجاحظ، فقد كان أكثر ميلاً للفلاسفة الطبيعيين، مظهراً تأثره بهم.

---

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٦٥.

(٢) انظر: محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص. ٨٥.

فكان من رأيه أن للإنسان إرادة الاختيار فقط: فهو يختار بإرادته هذا الفعل أو ذاك من الأفعال. أما كنه هذا الفعل، فهو طبع من الله تعالى طبعه به. يعني ذلك أن الإنسان إذا قرر فعل العدل، فإن قراره هذا هو إرادته واختياره؛ أما كنه العدل وميل الإنسان إليه، فهو طبع من الله تعالى. ومن الناحية المنطقية، وبموجب مقتضيات فكر المعتزلة، فمثل هذا الادعاء ليس بعيداً عن الجبر؛ فإن الله إذا طبع في الإنسان طبعاً إيجابيًّا، فلابد من أن يكون هناك ما يقابله سلبيًّا حتى يكون للإنسان إرادة الاختيار بينهما، الأمر الذي يعزز مبدأ العقاب والثواب ويجعل لهما معنى حقيقيًّا. وذلك ما نبه عليه الجاحظ بقوله:

.. لأن الغضب والحسد والبخل والجبن والغيرة وحب الشهوات والنساء والمكاثرة والعجب والخيلاء، وأنواع هذه إذا قويت دواعيها لأهلها واشتدت جواذبها لصاحبها، ثم لم يعلم أن فوقه ناقماً عليه، وأن له منقماً لنفسه من نفسه، أو مقتضياً منه لغيره، كان ميله وذهابه مع جواذب الطبيعة، وداعي الشهوة طبعاً لا يمتنع معه، وواجباً لا يستطيع غيره.

وقوله: إنا لما رأينا طبائع الناس وشهواتهم من شأنها التقلب إلى هلكتهم أو فساد دينهم وذهاب دنياهم.. (١). والجاحظ بهذا الافتراض يكون قد تقاطع مع عموم المعتزلة الذين قالوا: إن الله تعالى لا يفعل القبيح، بل يفعل ويختار الحسن فقط. فإذا طبع الله تعالى العباد بطباع معينة، فذلك فعل الله فيهم؛ وإذا كان الله تعالى قد طبعهم على الطباع المتضادة، بحسب ما ورد في قول الجاحظ الآنف، عنى ذلك أن الله تعالى قد طبعهم على الحسن والقبيح، أي أنه فعل الحسن والقبيح.

---

(١) فصل من صدر كتابه في " الجوابات في الإمامة "، ص. ٢٢٨.

لكن هذا وحده ما جعل مقولة الجاحظ في الطباع تنسجم مع أصل العدل عند المعتزلة، لأن الله تعالى إذا كان قد طبع الإنسان على طبع واحد سلبي أو إيجابي، عند ذلك لا يكون أي معنى لمعاقبته أو إثابته عليه. لذا فإن طبع الله للإنسان على طباع يجب أن يكون على الوجهين السلبي والإيجابي أولاً. ثم يجب ألا يقتصر هذا الطبع على فئة من الناس دون أخرى، بل لا بد من أن يكون عامًّا وشاملاً فيهم، وذلك بمقتضى العدل. وبغير هذين الشرطين، فإن القول بالطبع يقود إلى الجبر ونفي الاختيار. فهل كان الجاحظ موفقاً في هذا الجانب؟ للإجابة عن ذلك، نعود إلى بعض ما سبق عرضه في الصفحات السابقة مما له صلة بهذا الحديث. ففي ثنائه على المعتصم قال: وقد جمع الله لأمير المؤمنين... البعد عن إيثار الهوى. وهذا التمييز وتأكيد هذه الصفة يعني أن الله تعالى اختارها له دون ضدها. وهذا نزوع جبري بلا شك، إذ من المفترض أن يكون الله تعالى قد طبعه على البعد عن إيثار الهوى وعلى اتباع الهوى أيضاً، ثم اختار المعتصم بإرادته البعد عن إيثار الهوى. بيد أن عبارة الجاحظ تشير إلى غير ذلك. وفي حديثه عن إقامة الإمام الواحد قال: ولم يكن الله ليطبع الدنيا وأهلها على هذه الطبيعة، ويركب أهلها هذا التركيب. وساق هذا النص بطريقة جبرية تقود إلى التسليم للإمام القائم، لأن الله طبع الناس على القبول بإمام واحد للأمة، في حين كان المفترض أن يكون الطبع على النقيضين في هذه المسألة. ثم تبدأ عملية الاختيار من قبل الأمة، وبعكسه يعد الأمر جبراً. هذا بخصوص فكرة الطبع التي قال بها الجاحظ، حيث أنه كرسها جبريًّا لمصلحة الدعاية السياسية للعباسيين.

.. ثم جاء نزوعه الجبري أكثر وضوحاً في نواحي أخرى. فقد قال

في محاجَّته للنص والوصية في شأن الإمامة:.. قلنا: الخيرة فيما يصنع الله. فلو كان الله بيَّن ذلك بالنص والتفسير دون الدلالة ووضع العلامة، كان ذلك خيرة، لأنا نعلم أن الله لا يصنع إلا ما هو خير. فلما لم يفعل ذلك ولم ينص عليه، فتركه الأمر على ما نحن عليه خير لنا وأفضل.. فهو إذن تحدث عن آلية نظام الإمامة، بإقرار الحالة القائمة كما هي، ووصف ذلك بأنه خيرة من الله، أي أن الله تعالى هو الذي اختار ذلك وأراده، وهذا نزوع جبري واضح أيضاً. ثم أصبح هذا النزوع أكثر وضوحاً بقوله في حديثه عن الخليفة المأمون: لم يكن الله جل اسمه ليجلله بالخلافة ويحبوه بتاج الإمامة.. فمعنى ذلك أن وجود المأمون في الخلافة فعل أراده وفعله الله تعالى. وذاك إيغال في الجبرية التي تكرس نظرية الحق الإلهي للخلفاء في السلطة، الأمر الذي يضفي القداسة عليهم، ولا يجعلهم حكاماً دنيويِّين فقط، بل دينيون أيضاً. الأمر الذي نفاه المعتزلة عن الخلافة والإمامة، وسبق التنبيه عليه.

.. إن عموم ما يمكن الخروج به من هذه الدراسة أن الجاحظ تشتت بين معتقداته الاعتزالية ومتطلبات الدعاية السياسية للسلطة العباسية، فمال مرات عديدة لمصلحة مقتضيات الدعاية على حساب مقولات عقيدته الاعتزالية. وعكس ذلك بلا شك أزمة المثقف التاريخية حينما يتجاذبه قطب العقيدة من جهة والدعاية السياسية من جهة أخرى[١].

(١) موفق سالم نوري، الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي، مجلة التاريخ العربي، ص ٣٣٥٨ - ٣٣٧٨.

مواقف من حياته:

فلا عليك أن يكون عانيًا:

قال المبرد: رأيت الجاحظ يكتب شيئًا فتبسم فقلت: ما يضحكك؟ فقال: إذا لم يكن القرطاس صافيًا، والحبر ناميًا، والقلم مواتيًا، والقلب خاليًا، فلا عليك أن يكون عانيًا [1].

بين الجاحظ وأحمد بن أبي دؤاد:

وجدت في بعض الكتب: أتي بالجاحظ، إلى أحمد بن أبي دؤاد، بعد نكبة محمد بن عبد الملك الزيات مقيداً في جبة صوف.

فقال له ابن أبي دؤاد: والله يا عمرو ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، جاحداً للصنيعة، معدداً للمثالب، مخفياً للمناقب، وإن الأيام لا تصلح مثلك، لفساد طويتك، وسوء اختبارك.

فقال له الجاحظ: خفض عليك، فوالله، لأن تكون المنة لك علي، خير من أن تكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن، أحسن في الأحدوثة من أن أسيء وتسيء، ولأن تعفو في حال قدرتك، أجمل بك من أن تنتقم.

فقال له ابن أبي دؤاد: ما علمتك إلا كثير تزويق اللسان، قد جعلت لسانك أمام قلبك، ثم اضطغنت فيه النفاق، اغرب قبحك الله.

فأنهض في قيوده، ثم قال: يا غلام، الحقه، فخذ قيوده، وصر به إلى الحمام، واحمل إليه خلعة يلبسها، واحمله إلى منزل فيه فرش وآلة

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ٢ /٩٩، والعاني: الأسير أو صاحب الدين أو المريض.

وقماش تزاح فيه علله، وادفع إليه عشرة آلاف درهم لنفقته، إلى أن أصلح من خلته، ففعل ذلك كله.

فلما كان من الغد، رؤي الجاحظ متصدراً في مجلس ابن أبي دؤاد، وعليه خلعة من ثيابه، وطويلة من قلانسه، وهو مقبل عليه بوجهه، يقول: هات يا أبا عثمان.

أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا يخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عُذر يوجب حُجَّة، ويُزيل لائمة: إمَّا تَقصيرٌ في عمل دعاك للإخلال بالحَزْم والتَّفريط في الواجب، وإمَا مُظاهرة لأهل الفساد ومُداهنة لأهلِ الرِّيب. وأيّة هاتين كانت منك لمُحِلّة النُّكْر بك، ومُوجبة العُقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أميرُ المؤمنين من الأناة والنَّظِرة، والأخْذ بالحُجة، والتقدّم في الإعذار والإنذار. وعلى حَسب ما أَقِلتَ من عَظيم العَثْرة يجب اجتهادُك في تلافي التَّقصير والإضاعة، والسلام.

حديث الجاحظ عن قتلى الحب:

قال الجاحظ: ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب ولده، فلما نظر إليّ استبشع منظري، وأمر لي بعشرة آلاف درهم، وصرفني فخرجت، فلقيت محمد بن إبراهيم، وهو يريد الانحدار إلى مدينة السلام، فعرض علي الانحدار معه، وقربت حراقته، ودعا بطعامه وشرابه، ونصب ستارته، وأمر بالغناء فاندفعت عوادة له تتغنى:

كل يوم قطيعة وعتاب :: ينقضي دهرنا، ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا :: دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت، وأمر طنبورية، فغنت:

وارحمتي للعاشقينا ::: ما إن أرى لهم معينا

كم يهجرون، ويظلمو ::: ن، ويقطعون فيصبرونا

وتراهم مما بهم ::: بين البرية خاشعينا

يتجلدون، ويظهرو ::: ن تجلداً للشامتينا

قالت لها العوادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: يصنعون هكذا، وضربت بيدها على الستارة فهتكتها، وبرزت كأنها فلقة قمر،فزجت بنفسها إلى الماء. قال: وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وبيده مدية، فلما رآها وما صنعت ألقاها من يده، وأتى إلى حيث رمت بنفسها، فنظر إليها وهي تمور بين الماء فأنشأ يقول:

أنت التي غرقتني ::: بعد القضا، لو تعلمينا

وزج بنفسه في أثرها، فأدار الملاح الحراقة، فإذا بهما معتنقين، ثم غاصا، ولم يريا. فهال ذلك محمداً، واستفظعه، وقال للجاحظ: يا عمرو لتحدثني بحديث يسكن عني فعل هذين، وإلا ألحقتك بهما. قال الجاحظ: فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم، وعرضت عليه القصص، فمرّت به قصة فيها: إن رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، أن يخرج إلى فلانة، يعني جارية من جواريه، حتى تغنيني ثلاث أصوات، فعل. فاغتاظ من ذلك سليمان، وأمر من يخرج إليه فيأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول برسول آخر، فأمر أن يدخل الرجل إليه، فأدخل؛ فلما مثل الرجل بين يديه قال له: ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: الثقة بحلمك والاتكال على عفوك، فأمره بالقعود، حتى لم يبق أحد من بني أمية، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها، ثم قال له: اختر! قال له: قل لها

تغني بقول قيس بن الملوح:

تعلق روحي روحها قبـــل خلقهـــا ::: ومن بعد ما كنا نطاقاً، وفي المهـــد
فعاش كما عشنا، فأصبح ناميـــاً، ::: وليس، وإن متنا، بمنقضب العهـــد
ولكنه باق علـــى كـــل حالـــة، ::: وسائرنا في ظلمة القـــبر واللحـــد
يكاد فضيض الماء يخدش جلـــدها ::: إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلـــد
وإني لمشـــتاق إلى ريـــح جيبـــها، ::: كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلـــد

فغنته، فقال سليمان: قل! قال: تأمر لي برطل، فشربه، ثم قال: تغني بقول جميل:

علقت الهوى منها وليداً، فلم تزل ::: إلى اليوم ينمـــي حبـــها ويزيـــد
وأفنيت عمري بانتظاري نوالهـــا، ::: وأبلت بذاك الدهر، وهو جديـــد
فلا أنا مردود بما جئـــت طالبـــاً، ::: ولا جبـــها فيمـــا يبيـــد يبيـــد
إذا قلت: ما بي، يا بثينـــة، قـــاتلي ::: من الحب، قالت: ثابـــت ويزيـــد

فقال سليمان: قل! قال: تأمر لي برطل، فأتي برطل، فشربه، ثم قال: تغني بقول قيس بن ذريح:

لقد كنت حسب النفس لو دام ودها ::: ولكنمـــا الـــدنيا متـــاع غـــرور
وكنا جميعاً قبل أن يظهر النـــوى، ::: بأحسن حـــالي غبطـــة وســـرور
فما برح الواشون حتى بدت لنـــا ::: بطون الهـــوى مقلوبـــة لظهـــور

فتغنت، فقال له: قل! قال: تأمر لي برطل، فما استتمه حتى وثب إلى أعلى قبة سليمان، ثم زج بنفسه على دماغه، فمات، فقال سليمان: إنا لله وإنا إليه راجعون، أتراه الجاهل ظن أنني أخرج إليه جاريتي، فأردها إلى ملكي! خذوا بيدها فانطلقوا بها إلى أهله، إن كان له أهل، وإلا فبيعوها، وتصدقوا بها عنه، فلما انطلقوا بها نظرت إلى حُفرة في دار قد أُعيدت للمَطر، فجذّبت نفسها، وأنشأت تقول:

من مات عِشقاً فَلْتَمُـــتْ هكـــذا، ::: لا خيرَ في العِشـــقِ بـــلا مَـــوتِ

وزجّت بنفسها في الحُفرة على دماغها، فماتت. فسُرّيُ عن محمد، وأحسنَ صِلةَ الجاحظ.

في مرض الجاحظ:

قال بعض البرامكة: كنت بالسند، فاتصل بي أني صرفت عنها، وكنت كسبت ثلاثين ألف دينار؛ فخفت أن يجفوني الصارف ويسعى إليه بالمال، فصغته عشرة آلاف إهليلجة، كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل، وجعلتها في حمل إهليلج، ولم أبعد أن جاء الصارف، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة؛ فأخبرت أن بها الجاحظ وأنه عليل؛ فأحببت أن أراه قبل وفاته؛ فصرت إليه، فأفضيت إلى باب دار لطيف؛ فقرعته، فخرجت إلي جارية صفراء، فقالت: من أنت؟ قلت: شيخ غريب؛ أحب أن أدخل إلى الشيخ فأسر بالنظر إليه؛ فأدت الجارية ما قلت، وكانت المسافة قريبةً لقصر الدهليز والحجرة؛ فسمعته يقول: ما يصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل؟ فأخبرتني، فقلت: لا بد من الوصول إليه. فقال: هذا رجل اجتاز بالبصرة، فسمع بي وبعلتي، فقال: أراه قبل موته لأقول قد رأيت الجاحظ.

فدخلت فسلمت، فرد ردًّا جميلاً، واستدناني وقال: من تكون أعزك الله؟ فانتسبت إليه، فقال: رحم الله آباءك وقومك السمحاء الأجواد، الفصحاء الأمجاد، فلقد كانت أيامهم روض الأزمنة، ولقد انجبر بهم قوم كثير، فسقياً لهم ورعياً. فدعوت له وقلت: أنا أسأل الشيخ أن ينشدني شيئاً من ألذ الشعر أذكره به، فأنشدني:

لئن قدّمت قبلي رجالٌ لطالما ::: مشيت على رسلي فكنت المقدّما
ولكن رأيت الدهر تأتي صروفه ::: فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

ثم نهضت، فلما قاربت الدهليز صاح بي: يا فتى، أرأيت مفلوجاً

ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا! قال: أنا ينفعني الإهليلج الذي معك فأهد لنا منه. فقلت: السمع والطاعة. وخرجت مفرط التعجب من وقوفه على خبري حتى كأن بعض أحبابي كاتبه بحالي وقت أن صغته، فأنفذت إليه مائة إهليلجة [1].

وهذا يدل على كثرة بحثه وتنقيره؛ إذ كان وهو في هذه السن العالية والفالج [2] الشديد تنشر عنده الأخبار، ولا تطوى عنه الأسرار، فكيف كان قبل هذا؟ ومن إحدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال.

أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟

وقيل لأبي العيناء: ليت شعري؛ أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟ وفيه يقول الشاعر:

ولقد رأيت العلم يو ::: ماً ما حواه اللاّفظ

حتى أقام طريقه ::: عمرو بن بحر الجاحظ

إنها أمارة بيني وبينه:

وأتى أبو العيناء الجاحظ يسأله في رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة. فقال: نعم! لا تنصرف إلا به، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه ودفعه إليه، فأتى إلى أبي العيناء بالكتاب؛ فقال: افضضه واقرأه علي؛ لأرى ما كتب وأعيده إليه ليختمه، ففتحه فإذا فيه: كتابي إليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفهن فافعل في أمره

(١) الإهليج: دواء معروف، وهو ثمر شجر ببلاد الهند وهو معرب من الفارسية.

(٢) الفالِجُ مرض يحدث في أحد شقي البدن طولا فيبطل إحساسه وحركته وربما كان في الشقين ويحدث بغتة.

ما تراه، والسلام. فغضب ونهض إلى الجاحظ، فقال: أعرفك باعتنائي بهذا الرجل فكتبت له مثل هذا! فقال: لا تنكر ذلك فإنها أمارة بيني وبينه إذا عنيت برجل. فقال: بل أنت ولد زنا لم تك قط لرشدة. قال: أتشتمني؟ قال: لا، إنها أمارة لي عند الثناء على إنسان.

مذهب الجاحظ في الصلاة تركها:

قال: ابن أبي الذيال المحدث بسر من رأى: حضرت وليمة حضرها الجاحظ، وحضرت صلاة الظهر، فصلينا، وما صلى الجاحظ، وحضرت صلاة العصر، فصلينا، وما صلى الجاحظ.

فلما عزمنا الانصراف، قال الجاحظ لصاحب المنزل: إني ما صليت لمذهب، أو لسبب، أخبرك به.

فقال له، أو فقيل له: ما أظن أن لك مذهباً في الصلاة إلا تركها[١].

من كلامه:

- المعلمون على ضربين، منهم من ارتفعوا عن أولاد العامة إلى تعليم أولاد الملوك والمرشحين للخلافة كالسائي وقطرب وحماد وعبد الصمد، فهؤلاء لا تجوز عليهم الحماقة، وإن لكل قوم حاشية وجهالاً وسفهاء.

- المُكافأة بالإحسان فَريضة، والتفضّلَ على غير ذوي الإحسان نافلة.

- فليكن السكوتُ على لسانك، إن كانت العافيةٌ من شأنك.

- لا تَزهد فيمن رَغب إليك فتكون لحظّك مُعاندًا، وللنعمة جاحدًا.

- العقل والهوى ضدان، فقرينُ العقل التوفيق، وقرينُ الهوى

(١) ابن شُهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٤.

الخِذْلان، والنفسُ طالبة، فبأيهما ظَفِرتْ كانت في حِزْبه.

- الأشخاصَ كالأشجار، والحركاتِ كالأغصان، والألفاظ كالثمار.

- إن القلوب أوعية، والعقولَ معادن، فما في الوعاء يَنفد إذا لم يُمدّه المعدن.

- كَفى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عِظة، وبأخلاق مَن عاشرت مَعرفة، وبذِكرك الموت زاجرًا.

- إن احتمال الصبر على لذع الغَضب أهونُ من إطفائه بالشَّتم والقذع.

- إن أهل النَظر في العواقب أولو الاستعداد للنوائب، وما عَظمت نِعْمة امرئ إلا استغرقت الدنيا همتُه، ومَن فَرغ لطلب الآخرة شُغله جعلَ الأيام مطايا عمله، والآخرة مَقيل مُرتحله.

- إن الاهتمام بالدنيا غيرُ زائد في الرزق والأجل، والاستغناءَ غير ناقص للمقادير.

- إنه ليس كل مَن حَلُم أمسك، وقد يُستجهل الحليم حين يستخفه الهُجر.

- إن أحببتَ أن تَتم لك المِقةُ في قلوب إخوانك، فاستقلّ كثيراً مما توليهم.

- إن أنظر الناس في العاقبة مَن لَطُف حتى كف حربَ عدوه بالصَّفح والتجاوز، واستلّ حقدَه بالرفق والتحبب.

- وكتب إلى أبي حاتم السِّجِسْتاني، وبلغه عنه أنه نال منه: أما بعد، فلو كففتَ عنّا من غَرْبك لكنا أهلاً لذلك منك، والسلام. فلم يَعُد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح: وله فصول في وصاة: أما بعد، فإن أحق في

أسعفتَه في حاجته، وأجبته إلى طَلِبته، مَن توسّل إليك بالأمل، ونَزع نحوك بالرجاء.

- ما أقبحَ الأحدوثة من مُستمنح حَرمْتَه، وطالبِ حاجة رددتَه، ومثابر حَجبتَ، ومُنبسط إليك قبضتَه، ومُقبل إليك بعنانه لويتَ عنه. فتثبَّت في ذلك، ولا تُطِع كل حلاَّف مهين، هماز مشاء بنميم [1].

- إن فلاناً أسبابه متَصلة بنا، يُلزمنا ذِمامُه عندنا بُلوغَ موافقته من أياديك، وأنت لنا مَوضع الثقة من مكافأته. فأولنا فيه ما نَعرف به موقعَنا من حُسن رأيك، ويكون مُكافأةً لحقّه علينا.

- قد أتانا كتابُك في فلان، وله لدينا من الذمام ما يُلزمنا مكافأته ورعاية حقه، ونحن من العناية بأمره على ما يُكافى حُرمته، ويؤدي شكره.

وله في استنجاز وعد:

- أما بعد، فقد رَسفنا في قُيود مواعيدك، وطال مقامنا في سُجون مَطْلك، فأطلِقنا - أبقاك الله - من ضِيقها وشديد غمَها، بنعَمْ منك مُثمرة أو لا مُريحة.

- إن شجرة مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرُها سالماً من جَوائِح المَطْل.

أما بعد، فإنَ سحابَ وَعْدك قد بَرقت، فليكن وَبْلها سالماً من صواعق المَطل والاعتلال.

وله فصِول في الاعتذار:

- نِعْمَ البديلُ من الزلة الاعتذار، وبئس العِوَضُ من التَوبة

(١) العقد الفريد، ٢ /٦٧.

الإصرار.

- إنّ أحقَّ منِ عَطفت عليه بحِلمك مَن لم يَتشفَّع إليك بغيرك.

- إنه لا عوض من إخائك، ولا خَلف من حُسن رأيك، وقد انتقمتَ مني في زلَّتي بجفائك، فأطلق أسيرَ تشوّقي إلى لقائك.

- إنني بمَعرفتي بمبلغ حِلمك، وغاية عَفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك.

- إنَّ مَن جَحد إحسانَك بسوء مَقالته فيك مكذِّب نفسه بما يبدو للناس أما بعد، فقد مَسَّني من الألم بقطيعتك ما لا يشفيه غيرُ مُواصلتك، مع حَبْسك الاعتذار من هَفوتك؛ لكن ذنبك تغتفره مودّتك، فإن علينا بصلتك تكن بدلاً مِن مَساءتك، وعِوَضاً من هَفْوتك.

- لا خيرَ فيمن استغرقت موجدتُه عليك قَدْرَ لي عنده، ولم يتّسع لِهنات الإخْوان صدرُه.

- إن أوْلى الناس عندي بالصَفح مَن أسلمه إلى مِلكك التماس رضاك من غير مَقدرة منك عليه.

- إن كنت ذمَمتَني على الإساءة فلمَ رَضيت لنفسك المكافأة.

وله في التعازي:

- إنَّ الماضيَ قبْلك الباقيَ لك، والباقيَ بعدك المأجورُ فيك، وإنما يُوفىَّ الصابرون أجرَهم بغير حِساب.

- إنَّ في الله العَزاء من كل هالك، والخَلف من كل مصاب، وإن من لم يتعزّ بعزَاء الله تَنقطع نفسه على الدنيا حَسْرة.

- إنَّ الصبر يعقبه الأجر، والجَزع يَعقبه الهلع فتمسَّك بحظّك من الصبر تَنل به الذي تطلب؛ وتُدرك به الذي تَأمل.

- قد كفى بكتاب الله واعظاً، ولذوي الألباب زاجراً، فعليك بالتلاوة تَنْج مما أوعد الله به أهلَ المعصية.

ومما كتب به إلى خليفة:

وَفق الله أميرَ المؤمنين بالظفر فيما قلّد وأيّده، وأصلح به وعلى يديه - أكرم اللهّ أميرَ المؤمنين بالظَّفر، وأيده بالنَّصر في دوام نعْمته، وحاط الرعية بطول مدته.

صدور إلى ولي عهد: مَتَّع اللهّ أميرَ المؤمنين بطُول مدَّة الأمير، وأجرى على يديه فِعْل الجميل، وأنسَ بولايته المؤمنين - مدَّ الله للأمير النِّعمة، وأسعد بطُول عمره الأمة، وجعله غياثاً ورَحمة - أكمل اللهّ له الكرامة، وحاطه بالنِّعمة والسلامة، ومتَع به الخاصّة والعامَّة - متَّع الله بسَلامتِك أهلَ الحرْمة، وجَمع لك شَمْل الأمة. واستَعْمَلك بالرَأفةِ والرحمة.

صدور إلى ولي شرطة: أنصف اللهّ بك المظلوم، وأغاث بك الملهوف، وأيَّدك بالتثبّت، ووفّقك للصواب - أرشدك الله بالتوفيق، وأنطقك بالصواب، وجعلك عِصمة للدِّين، وحصناً للمسلمين - أعانك اللهّ على ما قلّدك، وحَفظ لك ما استعملك بما يرضي من فعلك - سدَّدك الله وأرشدك، وأدام لك فضل ما عَوّدك - زادك اللهّ شرفاً في المنزلة، قدراً في قلوب الأمة، وزُلفة عِند الخليفة - نصر اللهّ بعدلك المظلوم، وكشف بك كربة الملهوف، وأعانك على أداء الحقوق.

ومما كتب به إلى قاضي:

ألهمك الله الحُجة، وأيدك بالتثبّت، وردّ بك الحقوق. - ألهمك الله الاعتصام بحَبله بالعلم، والتثبّت في الحُكم - ألهمك اللهّ الحِكْمة وفَصل الخطاب، وجلك إماماً لذوي الألباب - زيَّن الله بفَضلك الزِّمان،

وأنطق بشكْرك اللسان، وبَسط يدك في اصطناع المعروف، وأدام الله لك الإفضال، وحقق فيك الآمال [1].

ومما كتب به إلى عالم:

جَعل اللهّ لك العِلم نوراً في الطاعة، وسبباً إلى النجاة، وزُلفة عند اللهّ - نفع اللهّ بعلمك المستفيدين، وقضى بك حوائج المُتحرّمين، وأوضح بك سُنن الدّين، وشرائع المُسلمين - أدام الله لك التطوّل بإسعاف الراغب، وأنجح بك حاجة الطالب، وأمَّنك مكروه العواقب.

صدور إلى إخوان: مَتَّع الله أبصارنا برُؤيتك، وقلوبنا بدوام الفتك، ولا أخْلانا من جَميل عِشْرتك، ووَهب لك من كريم نَفسك بحسب ما تنطوي عليه مودّتك، وأبهج الله إخوانك بقُربك، وجمع ألفتهم بالأنس بك، وصَرف الله عن ألفتنا عواقبَ القدَر، وأعاذ صَفْو إخائنا من الكَدر، وجعلنا ممن أنعم اللهّ عليه فشَكر - مَنَّ الله علينا بطول مُدتك، وآنس أيامنا بمواصلتك، وهنأنا النِّعمة بسلامتك - قرّب الله منّا ما كُنا نأمل منك، وجَمع شمل السُّرور بك - نَزَّه اللهّ بقُربك القلوب، وبرُؤيتك الأبصار، وبحديثك الأسماع - أقبل الله بك على أودَّائك، ولا ابتلاهم بطُول جفائك - أدال اللهّ حِرْصَنا من فُتورك عنّا، ورَغبتنا فيك من تَقصيرك في أمورنا - حَفظ الله لنا منك ما أوْحشنا فقدُه، وردّ إلينا ما كُنا نَألفه ونَعهده - رحم الله فاقة الحَنين إليك، وما بي من تَباريح الحُزن عليك، وجَعل حُرمتنا منك، الشفيعَ لديك - يَسَر الله لنا من صَفحك ما يَسع تقصيرنا، ومن حلمك ما يرد سخطك عنّا زَين الله ألفتنا بمُعاودة صِلتك، واجتماعنا بزيارتك - أعادَ اللهّ علينا من إخائك وجميل رأيك ما يكون معهوداً منك، ومألوفاً لك.

(١) العقد الفريد، ٢ /٦٨.

صدور في عتاب: أنصف الله شوقنا إليك من جَفائك لنا، وأخذ لبرنا بك من تَقصيرك عنّا [1].

* * *

(١) العقد الفريد، ٢ /٦٩.

البــلاذري

أعــلام المؤرخــين

المؤرخ الكبير البلاذري

هو أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م)، نشأ في بغداد من عائلة مارس بعض رجالها صنعة الكتابة، وورث " البلاذري عنهم هذه الصناعة، ورحل في الأمصار الإسلامية لطلب العلم، وصار أحد النقلة عن اللسان الفارسي، وقد ترجم كتاب (عهد أردشير، ونظمه شعراً).

ويعد البلاذري أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري من حيث سعة المعلومات التي دونها والفترات التاريخية التي غطاها، لكن كتابه أنساب

الأشراف أحسن انتقاء للروايات وأنقى أسانيد وأكثر اتفاقًا مع روايات أهل الثقة والصدق من تأريخ الطبري.

نشأ أحمد بن يحيى إذن مع القرن الثالث من الهجرة.

وكان هذا الزمن من أخصب عصور الخلافة العباسية في الثقافة والحضارة والسياسة.

كان عصر الترجمة من الفرس واليونان، التي أغنت التراث الإسلامي، وعصر الفن الذي تجلى في قصور المعتصم والمتوكل، وعصر الترف الذي رف بما تدفق على بغداد من أموال وخراج، وعصر الرواية والعلم الذي تجلى في كتب الواقدي والمدائني وابن سعد والقاسم ابن سلام وابن الكلبى.

كل ذلك أثر في صاحبنا وأثر في تكوينه وثقافته وحياته.

ويختفى اسم صاحبنا بعد وفاة المأمون، فلا نكاد نجد له ذكرًا أيام المعتصم (٢٢٧ هـ) وأيام الواثق (٢٣٢ هـ)، حتى إذا كان أواخر أيام المتوكل وجدناه يجالس الخليفة ويحضر مجالسه فينادمه

ويحادثه.

ونراه في الأعذار العظيم الذي أقامه المتوكل لابنه المعتز متصدرًا في بركوارا قصر الهناء، وهو من أعظم قصور المتوكل مع البحترى، وعلي ابن الجهم، والحسين بن الضحاك، وعلي بن ربن الكاتب، ويعقوب بن السكيت، وأبناء حمدون النديم.

وهذا يدل على مكانته عند المتوكل وشأنه.

وقد وصل إلينا طرف من مجالسه مع المتوكل، فيما كان يجادل فيه ويناقش، أو فيما كان يرويه عن المتوكل في كتابه فتوح البلدان.

لكن أيام المتوكل لم تطل، فقد قتل سنة ٢٤٨ هـ.

ولعله بقي معه في العشر السنوات الأخيرة من خلافته.

وخلف المتوكل ابنه المنتصر، فلم يلبث طويلا حتى قتل أيضًا، سنة ٢٤٨ هـ، وكانت خلافته ستة شهور.

فخلفه المستعين، وإذا بصاحبنا يتصل به فيكون أثيرًا عنده، وإذا بأموال الخلافة تغمره فيدخر منها.

وقصته مع المستعين ذات شأن لأنها تنير طرفًا من حياته. وقد حفظها لنا ابن النديم فيما نقله عن التنوخى.

فقد مدحه مدحًا جميلا، فبعث إليه سبعة آلاف دينار وكتب إليه بخطه رقعة فيها: " قد أنفذت إليك سبعة آلاف دينار.

وأنا أعلم أنك ستجفى بعدى وتطرح، وتجتدى فلا يجدى عليك.

فاحفظ هذه الدنانير عندك، فإذا بلغت بك الحال إلى هذا فأنفق منها ولا تتعرف لأحد ليبقى ماء وجهك عليك.

ولك عليَّ ألا تحتاج ما عشت إلى شيء في أمر دنياك كبير أو صغير على حسب حكمك وشهوتك ".

وتابع المستعين جراياته وأرزاقه عليه فكان ينفق ولا يحتاج أحدًا.

وبلغ صاحبنا غاية ما يريد في كنف المستعين وعطفه وحدبه.

وانقضت خلافة المستعين بعد أربع سنوات، فقد أمر المعتز بقتله سنة ٢٥٢ هـ وهو شاب قد تخطى الثلاثين.

وقد كان من المتوقع، وقد تولى المعتز الخلافة، أن يجفى صاحبنا ويطرح لصلته بالمستعين. لكننا نجده قريبًا منه يعهد إليه بتأديب ابنه عبد الله، وعمر عبد الله خمس سنوات. ولعل ذلك لصلته القديمة بأبيه المتوكل.

ولقد رأينا أن صاحبنا كان في إعذار المعتز يوم أعذره أبوه.

ثم صار أمر المعتز إلى ما صار إليه المستعين من قبل.

فأمر صالح بن وصيف التركي، بعد أربع سنوات من توليه، أن يدخل في حمام ويسد عليه بابه. فمات وهو في ريعان صباه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

وخلف ابنه عبد الله وهو يحدر نحو التاسعة.

ولا ندرى إذا كان صاحبنا تابع تأديب ابن المعتز في خلافة المهتدى (قتل سنة ٥٢٦) والمعتمد (مات سنة ٢٧٩ هـ).

فنحن لا نجد شيئًا في المصادر يدلنا على ذلك والغريب أن ابن المعتز لا يذكر أستاذه بشيء في تواليفه، حتى في طبقات الشعراء، في حين أنه ذكر فيها شعراء أقل منه شأنًا.

وبدأ مجد أحمد بن يحيى بالزوال، ونجمه بالأفول منذ توفي المعتز

فانعزل وجفا القصور.

وكان عهد المعتمد أشد عهود حياته سوءًا وحاجة وفقرًا.

قضاه في صراع عنيف وضيق، فقد نفد مال المستعين وأدركته الحاجة وركبته الديون، فلجأ أول ما لجأ، إلى عبيد الله بن يحيى.

وكان عبيد الله وزيرًا للمعتمد سنة ٢٥٦ هـ، فسأله العطاء.

ويحدثنا عن ذلك فيقول: " كانت بينى وبين عبيد الله بن يحيى بن خاقان حرمة منذ أيام المتوكل وما كنت أكلفه حاجة لاستغنائى عنه.

فنالتني في أيام المعتمد على الله إضافة، فدخلت إليه وهو جالس للمظالم.

فشكوت إليه تأخر رزقي وثقل دينى وقلت: إن عيبًا على الوزير أعزه الله حاجة مثلى في أيامه وغض طرفه عنى.. " فوقع لى ببعض ما أردت. ولكن عبيد الله حجبه إذ جاء إلى بابه في مرة ثانية. ثم لجأ صاحبنا إلى إسماعيل بن بلبل، أبى الصقر. وكان تولى الوزارة للمعتمد بعد عبيد الله سنة ٢٦٥ هـ، وبقى إلى سنة ٢٧٧ هـ. فمدحه رغبة أن يطلق له بعض المال وكتب إليه كتابًا حسنًا، فوعده ولم يفعل فهجاه ونعته باللئيم، وسمى من يلجأ إليه بالذليل.

حتى إذا ما مضى أبو الصقر عن الوزارة، وتولاها أحمد بن صالح شيرزاد سنة ٢٧٧هـ، عاد فلجأ إليه فتشاغل عنه فهم أن يهجوه، فخاف وقضى حاجته [(١)].

وهكذا كانت تقترب حياة أحمد نهايتها، وهو مبعد عن الخلفاء صفر اليدين، يطلب الرزق من أبواب الوزراء فيعطى مرة ويجفى مرات،

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٥/ ٩٥.

فلا يجد ما ينفس به ألمه وعجزه ونقمته وأنفته إلا الهجاء.

وقد حفظ لنا ياقوت بعض أهاجي صاحبنا في هؤلاء الوزراء وغيرهم من الكتاب.

ولعل هذه الأهاجى هي التي جعلت المصادر تذكر أنه كان هجاء آخذًا في الأعراض.

وقد تناول وهب بن سليمان، بن وهب، لما ضرط فمزقه، فمن قوله فيه، وكانت الضرطة بحضرة عبد الله بن يحيى، بن خاقان:

أيا ضرطة حسبت رعده ::: تنوق في سلها جهده
تقدم وهب بها سابقاً ::: وصلى أخو صاعد بعده
لقد هتك الله ستريهما ::: كذا كل من يطعم الفهده

وقال أحمد بن يحيى بن جابر، يهجو عافية بن شيب:

من رآه فقد رأى ::: عربيًّا مدلسا
ليس يدري جليسه ::: أفسا أم تنفسا؟

وقال أحمد بن يحيى البلاذري في عبيد الله بن يحيى وقد صار إلى بابه فحجبه:

قالوا اصطبارك للحجاب مذلة ::: عار عليك به الزمان وعاب
فأجبتهم ولكل قول صادق ::: أو كاذب عند المقال جواب
إنى لأغتفر الحجاب لماجد ::: أمست له منن على رغاب
قد يرفع المرء اللئيم حجابه ::: صنعة ودون العرف منه حجاب

وحدث الجهشياري قال: قال البلاذري:دخلت إلى أحمد بن صالح ابن شيرزاد، فعرضت عليه رقعة لي فيها حاجة، فتشاغل عنى فقلت:

تقدم وهب سابقاً بضراطه ::: وصلى الفتى عبدون والناس حضر
وإني أرى من بعد ذاك وقبله ::: بطوناً لناس آخرين تقرقر

فقال: يا أبا الحسن بطن من؟ فقلت: بطن من لم يقض حاجتى، فأخذ الرقعة، ووقع فيها بما أردت.

وقال أحمد بن يحيى: يهجو صاعداً وزير المعتمد:

أصاعد قد مـلأت الأرض جـوراً ::: وقد سست الأمـور بغـير لـب
وساميت الرجال وأنـت وغـد ::: لئـيم الجـد ذو عـي وعيـب
أضل عـن المكـارم مـن دليـل ::: وأكذب من سليمان بـن وهـب
وقـد خـبرت أنـك حـارثي ::: فـرد مقـالتي أولاد كعـب

ودليل: فهو دليل بن يعقوب النصراني، أحد وجوه الكتاب، كان يكتب لبغا التركي، ثم توكل للمتوكل على خاصته.

وقال أحمد بن جابر البلاذري: قال لي محمود الوراق: قل من الشعر ما يبقى ذكره، ويزول عنك إثمه، فقلت:

استعدي يا نفس للموت واسـعي ::: لنجـاة فالحـازم المسـتعد
قـد تثبـت أنـه لـيس للحـي ::: خلـود ولا مـن المـوت بـد
إنما أنت مسـتعيرة مـا سـوف ::: تـردين والعـواري تـرد
أنت تسهين والحوادث لا تسـهو، ::: وتلـهين والمنايـا تجـد
لا ترجى البقاء في معـدن المـوت ::: ودار حقوقهـا لـك وردُ
أي ملـك في الأرض أم أي حـظ ::: لأمرى حظـه مـن الأرض لحـدُ
كيف يهوى امرؤ لـذاذة أيامـاً ::: عليـهً الأنفـاس فيهـا تعـد

ومن شعر البلاذري، الذي رواه المرزباني في معجم الشعراء:

يا من روى أدبـاً ولم يعمـل بـه ::: فيكف عاديـة الهـوى بأديـب
ولقلما تجـدي إصـابة صـائب ::: أعمالـه أعمـال غـير مصـيب
حتى يكـون بمـا تعلـم عـاملاً ::: من صالح فيكـون غـير معيـب

وحدث الصولي قال: قال لي أحمد بن يحيى البلاذري: كان بيني وبين عبيد الله بن يحيى بن خاقان حرمة، منذ أيام المتوكل، وما كنت

أكلفه حاجة لاستغناء عنه، فنالتني في أيام المعتمد على الله إضافة، فدخلت إليه وهو جالس للمظالم، فشكوت تأخر رزقي وثقل ديني، وقلت: إن عيبًا على الوزير - أعزه الله - حاجة مثلي في أيامه، وغض طرفه عني، فوقع لي ببعض ما أردت، وقال: أين حياؤك المانع لك من الشكوى على الاستبطاء؟ فقلت: غرس البلوى، يثمر ثمر الشكوى، وانصرفت، وكتبت إليه:

لحاني الوزير المرتضى في شكايتي ::: زماناً أحلت للجذوب محارمه
وقال: لقد جاهرتني بملامة ::: ومن لي بدهر كنت فيه أكاتم
فقلت: حياء المرء ذو الدين والتقى ::: يقل إذا قلت لديه دراهم

وحدث الصولى عن محمد بن علي: أن البلاذري امتدح أبا الصقر، إسماعيل بن بلبل، وكتب إليه كتاباً حسناً، وسأله أن يطلق له شيئاً من أرزاقه ووعده فلم يفعل، فقال:

تجانف إسماعيل عني بوده ::: ومل إخائي واللئيم ملول
وأن امرؤ يغشى أبا الصقر راغباً ::: إليه ومغتروا به لذليل
وقد علمت شيبان أن لست منهم ::: فماذا الذي إن أنكروك تقول؟
ولو كانت الدعوى تثبت بالرشى ::: لثبت دعواك الذين تنيل
ولكنهم قالوا مقالاً فكذبوا ::: وجاؤوا بأمر ما عليه دليل

وله فيما أورده عبيد الله بن أبى طاهر:

لما رأيتك زاهياً ::: ورأيتني أجفى ببابك
عديت رأس مطيتي ::: وحجبت نفسي عن حجابك [1]

ومات أحمد بن يحيى في آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ على الأرجح.

(١) الحموي، معجم الأدباء، ١ / ٢٠٤.

وقد تجاوز الثمانين من عمره، إذا افترضنا أنه ولد في أواخر القرن الثاني وأتيح له أن يمدح المأمون الذي توفي سنة ٢١٨ هـ، وهو في العشرين.

وقد كان لموته قصة ذكرها ابن النديم [١] وتابعته المصادر عليها.

ذكر أنه شرب في آخر عمره حب البلاذر [٢] فوسوس، وشد في المارستان ومات فيه.

وسمى بعد موته بالبلاذرى. وهذه القصة تثير الشك. وقد شك بها ياقوت منذ القرن السابع. ذلك أن الجهشيارى ينعت جد أحمد بن يحيى، الذي كان كاتبًا للخصيب، بالبلاذرى. قال ياقوت: " قال الجهشيارى في كتاب الوزراء: جابر بن داود البلاذرى. كان يكتب للخصيب بمصر. هكذا ذكر.

" ثم يعقب ياقوت فيقول: ولا أدرى أيهما شرب البلاذر: أحمد بن يحيى أو جابر بن داود.

إلا أن ما ذكره الجهشيارى يدل على أن الذي شرب البلاذر هو جده.

لأنه قال: جابر بن داود، ولعل ابن ابنه لم يكن حينئذ موجودًا " [٣].

ومن المؤسف أن طبعة كتاب الجهشيارى التي بين أيدينا ناقصة فقد رجعنا إليها لنرى نص الجهشارى الذي ذكره ياقوت فوجدنا خلطًا عجيبًا.

قال: " وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود البلاذرى

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٣.

(٢) البَلاذُر، هو ثمَرُ يتناوله الناس ليساعدهم على الفهْم وقوة الذاكرة.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٥: ٩٢.

المؤلف لكتاب البلدان. وغيره من الكتب " [١].

وهذه العبارة تخالف في تركيبها ما ذكره ياقوت، وتخالف الواقع أيضًا.

فمؤلف كتاب البلدان ليس " أبا عبد الحميد بن داود البلاذرى ".

ويذكر الذهبي في سير النبلاء [٢] أن شربه البلاذر كان للحفظ.

وهذا ما يؤكد الشك في الرواية.

فماذا يريد أن يحفظ من بلغ الثمانين أو تجاوزها، وألحت عليه الحاجة، ولجأ إلى الناس؟ وإنما يبغى الحفظ من كان ناشئًا في بداءة الشباب، يطلب العلم ويجمعه.

ويذكر صاحب الفهرست أنه " شد " في المارستان، وعبارة الذهبي " ربط ".

والعادة أن يربط أو يشد من يخشى قوته وبطشه من المجانين.

فهل عند من جاوز الثمانين مثل ذلك؟ وكيف كان سبب موته، ورغم شكوكنا هذه، فإننا ما نزال نحتاج إلى نصوص جديدة صحيحة لكتاب الجهشيارى وغيره، لتبين لنا كيف مات، وتبين لنا هل كان " البلاذرى " لقبًا له أم لجده.

تلك هي حياة أحمد بن يحيى العامة.

أما حياته العلمية فقد كانت أخصب وأكثر ثمارًا.

فقد نشأ في بغداد وأخذ عن علمائها في النصف الأول من القرن الثالث.

---

(١) الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٥٦.
(٢) الذهبي، سير النبلاء، ٩/ ٧١.

وحضر حلقاتهم في الحديث والأدب والسير.

وكان أكثر من أخذ عنهم الحسين بن على الأسود (٢٥٤ هـ) والقاسم ابن سلام (٢٢٤ هـ) وعلى بن محمد المدائني (٢٢٥ هـ) ومحمد بن سعد كاتب الواقدي (٢٣٠ هـ) وقد ذكرت المصادر معرفته الفارسية(١).

ولعلمه تعلمها، وكانت لغة أجداده إذا ذهبنا إلى أن أصله من الفرس وكذلك يبدو أنه أحاط بطرف من ثقافة الروم.

فنحن نراه يجادل أمام المتوكل في كيفية التاريخ عندهم (٢).

وبعد أن أخذ طرقًا كبيرًا من علم أهل العراق توجه إلى الشام.

فسمع في دمشق عالمها هشام بن عمار (٢٤٦ هـ) وأبا حفص الدمشقي (٢٢٥ هـ).

وطاف في بلاد الشام فزار حمص وسمع فيها من محمد بن مصفى (٢٤٦ هـ) ثم حلب ومنبج، وأنطاكية، وثغور الروم، والجزيرة، والرقة وتكريت.

لا ندري على الدقة متى كانت رحلته إلى الشام، فهو لم يذكر متى طاف بهذه البلاد، ولكننا نرجح أن ذلك كان بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ، أي في زمن المعتصم، فنحن لا نسمع شيئًا عنه في هذه الفترة، يضاف إلى ذلك أن أبا حفص الدمشقي الذي سمع منه بدمشق توفى سنة ٢٢٥ هـ.

فلا بد أنه سمع منه قبل ذلك.

وهكذا جمع صاحبنا إلى علم أهل العراق علم أهل الشام.

---

(١) ابن النديم، الفهرس، ص ١١٣.
(٢) ياقوت، معجم الأدباء ٥: ٩٣ وما بعدها.

وقد كانت رحلته هذه وسيلة لاكتسابه ثقافة جديدة أفادته في كتابه فتوح البلدان. فقد أخذ كثيرًا عن أهل دمشق وحمص ومنبج والرقة والثغور وأنطاكية أخبار فتوحهم وأثبتها في كتابه إلى جانب أخبار أخرى.

وقد كان لأساتذته وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر في إنتاجه وفى نوع هذا الإنتاج.

فقد استفاد بطريق ابن سعد جميع روايات الواقدي في الفتوح.

واستفاد من المدائني نفسه رواياته في كتبه الكثيرة في الفتوح والبلدان.

وأخذ بطريق حفيد ابن الكلى ما رواه جده في الأنساب.

وأخذ عن القاسم بن سلام أمور العشر والخراج.

فكان بعد ذلك مؤرخًا للبلدان، وكان نسابة، وراوية شاعرًا.

وهذه الاتجاهات هي التي ظهرت بعد في كتبه.

وثمة تأثير آخر لمعرفته الفارسية هو نقله آثار الفرس إلى العربية، حتى نعته ابن النديم بأنه كان أحد النقلة إلى اللسان العربي.

هذه الثقافة الحضارية المطمة أهلته أن يكون عالمًا مؤلفًا وأن يكون نديمًا للخلفاء، وأن يأخذ عنه كثيرون.

وقبل أن نتكلم على إنتاجه بالتفصيل يجدر أن نذكر أن تلاميذ أحمد ابن يحيى كانوا كثرًا.

يكفى أن نذكر أنه أستاذ وكيع القاضى، وجعفر بن قدامة صاحب الخراج.

وقد ذهب دخويه إلى أن صاحب الفهرست محمد بن إسحاق النديم

كان تلميذه.

وهذا خطأ. ومصدره الترجمة التي كتبت بخط المقريزى في أول فتوح البلدان.

والصحيح أن الذي أخذ عنه هو يحيى بن النديم. فقد تصحفت يحيى إلى محمد.

والمعروف أن صاحب الفهرست لم يدرك البلاذرى ومات بعده بما يقرب من مئة سنة، فقد مات يقينًا بعد سنة ٣٧٥ هـ.

ويحيى بن النديم هذا هو يحيى بن المنجم، وكان من أسرة كانت ندامى للخلفاء.

فأما ما نقله عن الفارسية فقد عرفنا منه " عهد أردشير " الذي نقله شعرًا.

ولم يصل هذا الكتاب إلينا.

كانت ثمار ثقافة أحمد بن يحيى " كتبًا جيادًا " أو " حسنة " كما نعتتها المصادر.

وأشهر هذه الكتب كتاب أنساب الأشراف.

وقد نقل ياقوت والصفدى أن اسم الكتاب " جمل نسب الأشراف " وقال: هو كتابه المعروف المشهور.

لكن المطبوع من ابن النديم لا يذكر له هذا الكتاب، بل يذكر كتابًا باسم " كتاب الأخبار والأنساب " لم يذكره أحد ممن نقل عن ابن النديم.

والمطبوع من الفهرست ناقص لا شك.

أما حاجى خليفة فيذكر للبلاذرى كتابين متقاربين الأول: أنساب

الأشراف، ويذكر أنه في عشرين مجلدًا ولم يكمله.

والثانى: الاستقصاء في الأنساب والأخبار في أربعين مجلدًا ولم يكمله.

وهو لا يثبت مبتدأ الكتاب كعادته مما يدل على أنه لم يره.

ولم يذكر أحد من المتقدمين كتاب الاستقصاء بهذا الاسم.

ويذكر الخاوى [١] أن له كتاب التاريخ وكتاب أنساب الأشراف.

وقد ظن دخويه أن الأنساب والأخبار هو التاريخ الذي ذكره السخاوى.

وينعته الذهبي بأنه صاحب التاريخ الكبير.

والمرجح أن كتاب الأنساب والأخبار هو كتاب أنساب الأشراف، بدل اسمه، وأن الأنساب هو التاريخ نفسه. وقد بدأ البلاذرى كتابه بسيرة النبي، وسير الصحابة. ثم أورد العباسيين بعد العلويين، وبنى عبد شمس بعد بنى هاشم.

وذكر الأمويين في بنى عبد شمس، لكنه لم يفرد لهم مكانًا خاصًّا. ثم تحدث عن بقية قريش وبطون أخرى من مضر. وشغل الجزء الأخير من كتابه عن قيس، وخص بالذكر منهم ثقيف، واستفاض في سيرة الحجاج.

وقد نشر الأستاذ الدكتور حميد الله قائمة بمواد الكتاب كلها عن النسخة الوحيدة منه الموجودة في استامبول. وألف أحمد بن يحيى كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير. أما الكبير فلم يتم. ويظن بعض العلماء أن كتاب فتوح البلدان الذي بين أيدينا هو كتاب البلدان الصغير. ولا يذكر حاجى خليفة كتاب فتوح البلدان. على أن ابن

---

(١) الإعلان بالتوبيخ ص ١٥٤.

النديم يذكر أن كتاب الفتوح إلى جانب كتابيه في البلدان. وقد نقل هذا عنه ياقوت والصفدى.

ولا يوجد اسم كتاب الفتوح في المطبوع من ابن النديم.

ونرجح أن يكون كتاب الفتوح هذا هو فتوح البلدان.

ونعتقد أن كتابيه في البلدان هما على نمط كتب البلدان التي ظهرت في القرن الثالث فكان منها كتاب البلدان لليعقوبي وكتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني [(١)].

* * *

(١) انظر مقدمة كتاب فتوح البلدان، للبلاذري، طبعة القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١/ ٢٤٣، ومحمد صامل السلمي، منهج كتابة التأريخ الإسلامي ٣٨٨ - ٣٨٩.

[illegible]

أبو بكر بن العربي

أعـــلام المؤرخـــين

المؤرخ القاضي
أبو بكر بن العربي

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري الإشبيلي المالكي.

ولد في سنة ٢٢ شعبان سنة ٤٦٨هـ، ٣١ مارس ١٠٧٦م، بمدينة إشبيلية، في أحضان أسرة كانت لها حظوة لدى المعتمد بن عباد في عصر دول الطوائف.

مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه:

- قال الشيخ صديق حسن خان [1]: " إمام في الأصول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر على ذلك كله ". اهـ.

وقال الشيخ العلامة أحمد بن محمد الشهير بالمقري من كتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " : " علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الأبواب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في الإسلام أمضى من النصل " اهـ، من التاج المكلل.

فوائد منقولة عنه:

١ – قوله: قال علماء الحديث:

ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة؛ لقول النبي ﷺ : **﴿نضر الله ﷻ امرءًا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما**

---

(١) " التاج المكلل " : ٣٠٨/٢٨٠.

سمعها..﴾[1].

قال: وهذا دعاء منه لحملة علمه، ولا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته ".

٢ – ومنها أيضًا:

قوله: " تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري حديث أبي ثعلبة المرفوع: **﴿إن من ورائكم أيامًا للعامل فيها أجر خمسين منكم﴾**، فقالوا: منهم؟ فقال: **﴿بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم لا يجدون عليه أعوانًا﴾** [2]، وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام وعضدوا الدين، وأقموا المنار، واقتحموا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملة.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح في البخاري: **﴿لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبًا ما بلغ أحدهم ولا نصيفه﴾**،[3] فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح، وخلاصته أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥٩، وابن ماجة ٨٤/١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: حسن صحيح، وفي الباب عن زيد بن ثابت، عند الترمذي وابن ماجة، وصححه ابن حبان، وعن جبير بن مطعم عند أحمد وابن ماجة. قال الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٧٦٣ في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/١٥، ومسلم (٢٦٧٢)، والترمذي (٢٢٠٠)، وابن ماجه (٤٠٥١)، وأبو عوانة - كما في " إتحاف المهرة " ٣٠/١٠ - من طريق أبي معاوية، بهذا الإسناد. قال الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٢٣٣ في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه الطيالسى، وأحمد، وابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، والبخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن حبان عن أبى سعيد. مسلم، وابن ماجه عن أبى هريرة) قال الألباني: صحيح الترمذي (٤١٣٤).

عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين، والإسلام، وهو أيضًا انتهاؤه؛ وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام صعب المرام؛ لغلبة الكفار على الحق؟ وفي آخر الزمان أيضًا يعود كذلك؛ لوعد الصادق ﷺ بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق وركوب من يأتي من سنن من مضى من أهل الكتاب، كما قال ﷺ :﴿لتركبن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه﴾.

وقال ﷺ :﴿بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء﴾ رواه مسلم.

فلابد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الإسلام إلى واحد كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف، وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنًا منه، معانًا عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى، وذلك قوله:﴿لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم لا يجدون عليه أعوانًا﴾ حتى ينقطع ذلك انقطاعًا تامًّا؛ لضعف الدين، وقلة اليقين.

كما قال ﷺ :﴿لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله ، الله﴾ رواه مسلم، ويروى برفع الهاء ونصبها؛ فالرفع على معنى: لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل؛ والنصب على معنى: لا يبقى آمر بمعروف، وناهٍ عن منكر.

٣ – ومن فوائده أيضًا:

أنه قال: كنت بمجلس الوزير العادل أبي منصور بن جهير؛ فقرأ القارئ:{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ} [الأحزاب: ٤٤]، وكنت بظهر أبي الوفاء

بن عقيل إمام الحنبلية بمدينة السلام، وكان معتزلي الأصول، فلما سمعت الآية، قلت لصاحب لي كان يجلس على يساري: هذه الآية دليل على رؤية الله تعالى في الآخرة، فإن العرب لا تقول: لقيت فلانًا إلا إذا رأته، فصرف أبو الوفاء وجهه مصرعًا إلينا؟ وقال: ينتصر لمذهب الاعتزال في أن الله لا يرى في الآخرة، فقد قال تعالى: { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } [التوبة: ٧٧]، وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى في الآخرة، وقد شرحنا وجه الآية في المشكلين وتقدير الآية: فأعقبهم هو نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه؛ فيحتمل ضمير{يَلْقَوْنَهُ } أن يعود إلى ضمير الفاعل في{ فَأَعْقَبَهُمْ } المقدر بقولنا: " هو "، ويحتمل أن يعود إلى النفاق مجازًا على تقدير الجزاء ". اهـ.

مؤلفاته:

للإمام القاضي أبي بكر بن العربي مؤلفات كثيرة لم يصلنا أغلبها، وقد قضى أربعين سنة في الإملاء والتدريس، وفي بث ما حصله من العلوم، ونستطيع أن نصنف أسماء مصنفاته حسب موضوعاتها.

أما التصنيف حسب تاريخ تأليفها فمن الصعب القيام به؛ لأنه يحيل إلى كتبه في أماكن كثيرة من مصنفاته، مما يدل على أنه يملي في وقت واحد عدة كتب، وأنه لا يقتصر على كتاب واحد حتى يفرغ منه، ثم يبدأ في غيره(١).

أ - علوم القرآن:

١ - أحكام القرآن:

---

(١) د. عمار طالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ١/٥.

لا شك في نسبة هذا الكتاب إلى أبي بكر بن العربي؛ لأنه قد ذكره في كتابه: " شرح صحيح الترمذي " المسمى بـ " عارضة الأحوذي " [١]. وذكره في " سراج المريدين " [٢].

ونسبه إليه تلميذه أبي بكر بن خير الإشبيلي في فهرست ما رواه عن شيوخه.

ونسبه إليه ابن فرحون في " الديباج "،

٢ ـ أنوار الفجر:

هو أعظم كتاب له، كان كثيرًا ما يفتخر به، ويشيد بأهميته في مختلف كتبه، ذكر أنه ألفه في مدة عشرين عامًا، وأن به ثمانين ألف ورقة، ولم يصل إلينا شيء منه فيما نعلم.

٣ ـ قانون التأويل:

ذكر أبو بكر بن العربي أنه ألفه في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وصرح بذلك في مقدمة كتابه " عارضة الأحوذي وذكره المقري في " نفح الطيب.

٤ ـ الناسخ والمنسوخ:

ذكره في كتابه " سراج المريدين " وتحدث عنه في عدة مواضع من " أحكام القرآن "، وذكره ابن خير والمقري، وابن فرحون في " الديباج ".

---

(١) ١/ ٢٠٤، ١٢٤، ١١٦، ٥٩، ٥١.
(٢) ص ٢٣٧.

٥ ـ المقتبس في القراءات:

نسبه إليه حاجي خليفة في " كشف الظنون " [١].

ب ـ الحديث:

١ ـ عارضة الأحوذي في شرح الترمذي:

ذكره بهذا العنوان ابن خلكان في " وفيات الأعيان وسماه في كتابه " سراج المريدين "، بشرح الترمذي.

وذكره المقري في " نفح الطيب ". وطبع الكتاب في ثلاثة عشر مجلدًا.

٢ ـ شرح الحديث:

ذكر المؤلف هذا الكتاب في أحكام القرآن في ثلاثة مواضع، ويحتمل أن يكون هو نفس كتاب شرح صحيح الترمذي.

٣ ـ كتاب النيرين في الصحيحين:

وسماه أحيانًا شرح الصحيحين كما فعل في كتابه " أحكام القرآن "، وذكره في كتابه " العواصم من القواصم ".

واقتصر أحيانًا على تسميته " بالنيرين " كما فعل في كتابه " عارضة الأحوذي ".

٤ ـ الأحاديث المسلسلات:

نسبه إليه أبو بكر بن خير الإشبيلي في فهرست ما رواه عن شيوخه.

٥ ـ الأحاديث السباعيات:

نسبه إليه أبو بكر بن خير الإشبيلي، ودرسه عليه.

---

(١) آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ١/ ٦٧.

٦ - شرح حديث أم زرع: نسبه إليه المقري " نفح الطيب ".

٧ - شرح حديث الإفك: نسبه إليه المقري " نفح الطيب ".

٨ - شرح حديث جابر في الشفاعة: نسبه إليه المقري " نفح الطيب ".

٩ - الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب: ذكره المقري " نفح الطيب ".

١٠ - كتاب مصافحة البخاري ومسلم:أخذه عنه أبو بكر الإشبيلي:.

ج - مشكل القرآن والحديث:

يدخل تحت هذا القسم كتاب واحد وهو كتاب " المشكلين "، ذكره في " أحكام القرآن "، ونص عليه في " عارضة الأحوذي.

د - أصول الدين أو علم الكلام:

١ - العواصم من القواصم:

وقد أشار المؤلف نفسه إلى كتابه في عدة كتب من تأليفه كسراج المريدين، وعارضة الأحوذي ونسبه إليه المقري في " نفح الطيب. وابن فرحون في " الديباج ". والشاطبي في " الاعتصام، والذهبي في " تذكرة الحفاظ "

١ - الدواهي والنواهي:

ذكره في كتبه كأحكام القرآن والعواصم من القواصم. ونسبه إليه المقري " نفح الطيب " وذكره حاجي خليفة " كشف الظنون.

٢ - رسالة الغرة:

ذكرها المؤلف في العواصم من القواصم وبين أنه كتبها ردًّا على

رسالة لابن حزم تسمى " برسالة الدرة في الاعتقاد ".

٣ - الأمد الأقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا: نوه بكتابه هذا في عدة مواضع من مصنفاته كشرح الترمذي وأحكام القرآن. ونسبه المقري في " نفح الطيب ".

قال الدكتور عمار طالبي، حفظه الله: " وقد عثرنا على الكتاب مخطوطًا في خزانة الوثائق بالرباط سنة ١٩٦٧، ووقفنا عليه، وهو يقع تحت رقم ق٤ ".

٤ - كتاب المتوسط في معرفة صحة الاعتقاد، والردُّ على من خالف السنة، وذوي البدع والإلحاد: ذكره في كتابه " عارضة الأحوذي ". ذكره أبو بكر بن خير الإشبيلي في فهرست ما رواه عن شيوخه، ونسبه إليه المقري في " نفح الطيب ".

٥ - كتاب المقسط في شرح المتوسط:

ذكره في كتابه " أحكام القرآن "، ونص عليه في غير ما كتاب من مؤلفاته.

ونسبه إليه أبو بكر بن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه.

٦ - نزهة الناظر وتحفة الخواطر:وسماه أحيانًا " نزهة المناظر وتحف الخواطر "، ذكره في " العواصم من القواصم من طبعة د. عمار طالبي ولم يذكره المقري ولا ابن خير.

هـ - كتب الزهد:

١ - سراج المريدين في سبيل المهتدين، كاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية، بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية:

هو الكتاب الذي سماه " القسم الرابع من علوم القرآن في التذكير "، ذكره مؤلفه في كتابه: " شرح صحيح الترمذي عارضة الأحوذي، وحاجي خليفة " كشف الظنون " نقلا عن تذكرة القرطبي.

ونسبه إليه ابن فرحون " الديباج المذهب.

ويوجد هذا الكتب كاملاً مصورًا في دار الكتب المصرية تحت رقم " ٢٠٣٤٨ب "، وهو مأخوذ عن نسخة الشيخ أحمد بن الصديق الغماري المغربي.

وتوجد نسخة أخرى منه في مكتبة الكتاني بخط أندلسي واضح.

٢ - سراج المهتدين:

نسبه إليه ابن فرحون " الديباج والمقري في " نفح الطيب

٣ - مراقي الزلفي.

٤ - كتاب العقد الأكبر للقلب الأصغر.

٥ - تفصيل التفصيل بين التحميد والتهليل.

و - أصول الفقه.

١ - كتاب المحصول في أصول الفقه.

٢ - كتاب التمحيص.

ز - كتب الفقه " الفروع ".

١ - المسالك في شرح موطأ الإمام مالك:

بنى هذا الكتاب على أساس المسائل الفقهية فهو كتاب حديث وفقه في آن واحد، ولكن اخترنا أن نعتبره من كتب الفقه؛ لاهتمام أبي بكر ابن العربي في شرحه بمسائل الفقه، ولمعارضته فيه للظاهرية،

ونقده لها أعنف النقد فيما يتعلق بالرأي عند الإمام مالك.

٢ - القبس على موطأ مالك بن أنس [١].

ويوجد للكتاب سبعة نسخ متفرقة في مكتبات الجزائر والمغرب وتركيا.

٣ - شرح غريب الرسالة:

وهو شرح للألفاظ اللغوية والفقهية الغريبة من رسالة ابن أبي زيد القيرواني المالكي ٣٨٩ هـ.

٤ - تبيين الصحيح في تعيين الذبيح.

٥ - كتاب ستر العورة.

٦ - كتاب التقصي.

ويبدو أنه في الفقه لإشارة المؤلف إليه في أحكام القرآن بصدد مسألة في الوضوء.

٧ - تخليص التخليص.

٨ - خليص الطريقتين.

ذكره في كتابه " أحكام القرآن "، ويبدو أنه كتاب في الفقه؛ لأنه لأحال إليه في مسألة فقهية تتعلق بالتسمية في الذبح.

ح - الجدل والخلافات:

١ - الكافي في ألا دليل على النافي.

٢ - الإنصاف في مسائل الخلاف.

---

(١) د. عمار طالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية: ١/ ٧٨.

يقع هذا الكتاب في عشرين مجلدًا، أشار إليه مؤلفه في بعض مصنفاته، وسماه " كتاب المسائل ".

ط - اللغة والنحو:

١ - رسالة له في النحو واللغة أطلق عليها " ملجئة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين، واللغويين ".

٢ - رده على ابن السيد البطليوسي.

رد أبو بكر بن العربي على أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي " ٥٢١ هـ " في شرحه على ديوان أبي العلاء المعري المسمى بلزوم ما لا يلزم، ورد ابن السيد على رد أبي بكر بن العربي بكتاب سماه " الانتصار عمن عدل عن الاستبصار ".

وقد نسب هذا الرد إلى أبي بكر بن العربي تلميذه أبو بكر بن خير الإشبيلي، فهرست ما رواه عن شيوخه.

ى - التاريخ:

١ - ترتيب الرحلة للترغيب في الملة.

٢ - أعيان الأعيان.

٣ - فهرست شيوخه.

ألف أبو بكر بن العربي كتابًا ترجم فيه لشيوخه، سماه تلميذه أبو بكر بن خير الإشبيلي " بكتاب فيه جملة من شيوخ الحافظ أبي بكر بن العربي "، وذكر أنهم واحد وأربعون رجلاً، خرَّج عن كل واحد منهم حديثًا، وأنه قرأه عليه " فهرست ما رواه عن شيوخه ".

وأخيرًا فإن أبا بكر ذكر أن له كتابًا يسمى " بالأمالي " ذكر ذلك في

كتاب " سراج المريدين ".

وذكر أبو بكر بن العربي أن له كتابًا سماه " بالعوض المحمود "، غير أن هذا الكتاب محير لا نعرف أين نضعه غير أنه أشار إلى أنه تحدث فيه عن مسألة الرؤيا، وبين اسم جزء من أجزاء هذا الكتاب وسماه " محاسن الإنسان ".

وفاته:

أتاه أجله " بمغيلة " قرب مدينة " فاس " في ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ، ودفن في " فاس " خارج باب المحروق، على مسيرة يوم من " فاس " غربًا منها.

وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج، ودفن يوم الأحد ٧ ربيع الأول سنة ٤٥٣ هـ.

وبموته انطفأت شعلة من الذكاء متقدة، وأفل نجم طلعة متوثبة، وسكنت روح ذات طموح غالب، وخمد ذهن نافذ كان ينير للناس ظلمات حالكة، ويذهب بإشكالات معضلة.

وفاضت نفس تواقة إلى تحقيق العدل، وإشاعة مبادئ الأخلاق والدين في الواقع الاجتماعي، وإلى بث الروح العلمية النافذة الفاحصة، وإلى تكوين جيل جديد على أسس تربوية جديدة.

أقبل صاحب هذه الروح من المشرق ليغرسها في المغرب، وكفاه أنه ما فارق الوجود حتى بذل جهده، وحقق بعض الذي كان يتوق إليه.

رحمه الله رحمة واسعة (١).

---

(١) د. عمار طالبي: آراء أبو بكر بن العربي الكلامية: ١/٨٨، مقدمة كتاب العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر

* * *

بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، للمحقق: محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الإستانبولي، من نشر دار الجيل بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

الخاتمــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته،وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئُ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدُّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا: ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب "(١).

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٧٨.

الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعــةِ كــامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُــهم لا يُجْحَــدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاته أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباته، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ.. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الفهـــرس

أعــلام المؤرخين

الفهـرس

* * *

المؤلف في سطور

الدكتور. رجب محمود إبراهيم بخيت

- ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).

- حصل على ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام ١٩٩٦ م.

- حصل على دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام ١٩٩٧م.

- نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام ٢٠٠١ م.

- نال درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام ٢٠٠٦ م.

* * *